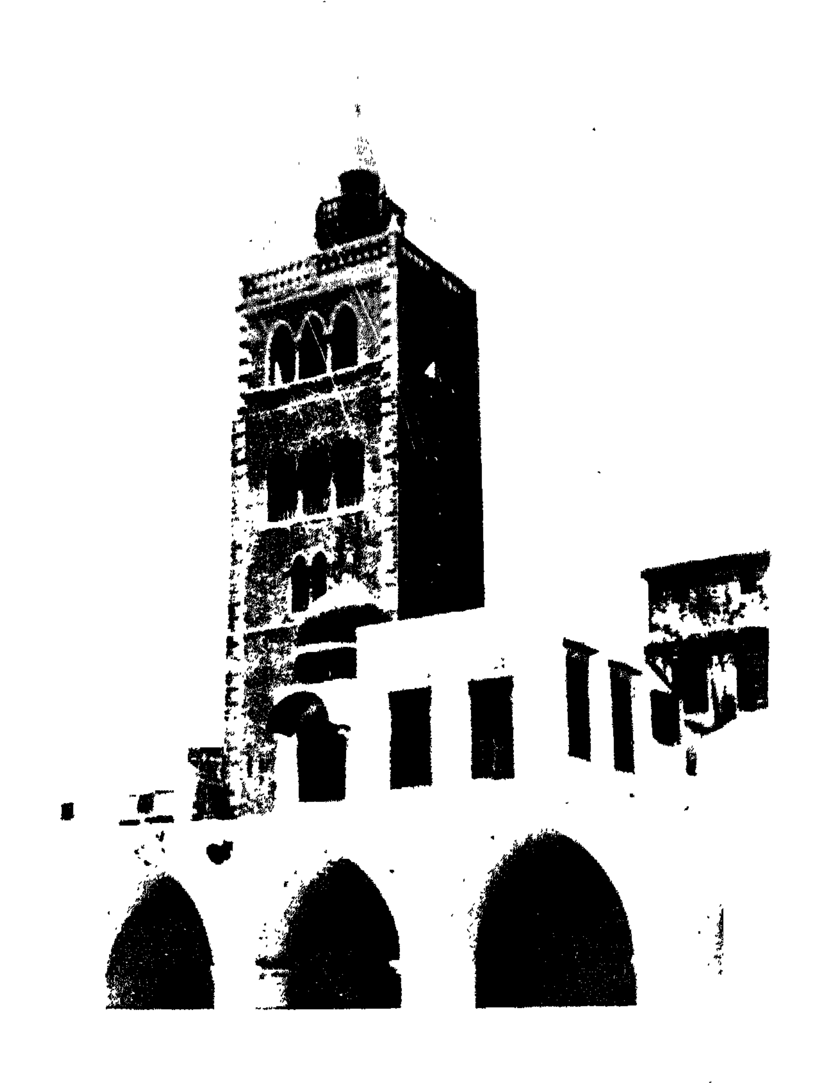
طرابلس الشام
في
التاريخ الإسلامي



[redacted] العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت ٣٩٤٧٢ - الاسكندرية

طرابلس الشام
في
التاريخ الإسلامي

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت: ٣٩٤٧٢٠ - الإسكندرية

مقدمة

تعتبر مدينة طرابلس اللبنانيـــة ، أو طرابلس الشام على حد تسمية مؤرخى العرب ــ تمييزا لها عن طرابلس الغرب بالمملكة الليبية ــ من بين المدن العربيـــة الهامة المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، التى لعبت دورا خطيرا فى تاريخ الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، وقد ساعد موقع هذه المدينة فى منتصف الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط تقريبا ، بالاضافة الى امكاناتها الاقتصادية الوفيرة ، على الازدهار الحضارى الذى أصابته فى العصر الاسلامى ، وعلى المكانة الرفيعة التى تبوأتها هذه المدينة العظيمة بوجه خاص فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة .

ولقد شهدت مدينة طرابلس منذ الفتح العربى الأول فى خلافة عثمان ابن عفان ، حتى الفتح العثمانى فى سنة ٩٢٢ هـ أحداثا تاريخية عديدة ، فكانت من بين مدن الشام التى ارتبطت بمصر الاسلامية فى عصر الدولتين الطولونية والأخشيدية ، وفى القسم الأول من عصر الدولة الفاطمية ، وأخيرا فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة ، كما تمتعت بالاستقلال فى امارة بنى عمار ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، وأصبحت أيام الحركة الصليبية مركزا لكونتية طرابلس ما يزيد على مائة وثمانين عاما (٥٠٢ ــ ٦٨٨ هـ) . وقد سجلت معظم هذه الأحداث آثارها فى البناء العمرانى للمدينة فى العصر الحاضر ، وفى كثير من منشآتها الاسلامية الباقية التى تكتظ بها المدينة ، فبينما نستطيع أن نميز الطابع المملوكى واضحا فى الآثار الدينيـــة وبعض الآثار الحربية ، نطالع الطابع الصليبى فى القلعة الموسومة باسم قلعة صنجيل نسبة الى مؤسسها ريموند دى سان جيل ، كونت دى تولوز ، كما نطالعه

فى مئذنة الجامع المنصورى الـكبير ، وفى بوابتى هذا الجامع وفى بعض الآثار الأخرى مثل واجهة حمام عز الدين .

وعلى الرغم من تلك الخصائص التى تميز بها مدينة طرابلس فى العصر الاسلامى . والتى تستهوى الباحث لأصالتها وتنوعها مع طرافتها . فان تاريخ هذه المدينة لم يحظ — فى العصر الاسلامى — بعد بما يستحقه من دراسات علمية منظمة . فقد انصرف اهتمام الباحثين بوجه خاص الى العصر الذى أصبحت فيه طرابلس مركزا لامارة صليبية فى ظل الأسرة التولوزية أولا ثم الأسرة البوهمندية الأنطاكية .

ذلك الهزال الشديد الذى تعانيه الأبحاث المفردة عن طرابلس كان عاملا رئيسيا وحافزا لاهتمامى بدراسه هذه المدينة فى العصر الاسلامى . فقد اجتذبتنى آثارها الاسلامية الرائعة . واستهوانى تاريخها الوسيط الحافل بالأحداث السياسيه الهامة . مما دفعنى الى المساهمة فى الكتابة عنها . وكان لزياراتى المتكررة الى عاصمة شمال لبنان أثر كبير فى البحث المتواضع الذى نشرته فى مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٣ . وفى المحاضرة التى ألقيتها — بدعوة من جمعية مكارم الأخلاق الطرابلسية — فى هذه المدينة العريقة فى مايو سنة ١٩٦٤ ، وأخيرا فى هذا البحث موضوع الدراسة .

ولقد قسمت البحث الى قسمين : القسم الأول — وهو القسم الرئيسى — خصصته لدراسة تاريخ المدينة فى العصور الاسلامية ، والقسم الثانى أفردته لدراسة بعض مظاهر الحضارة فى طرابلس وصور من آثارها فى العصر الاسلامى .

أما القسم الأول فيضم ست فصول ورعتها على النحو التالى ، وذلك بعد التمهيد

أولا — طرابلس منذ الفتح العربى حتى استقلالهـا عن الدولة الفاطمية.

ثانيا — طرابلس امارة عربية مستقلة فى ظل بنى عمار .

ثالثا — سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين .

رابعا — امارة طرابلس الصليبية .

خامسا — استرداد المسلمين لطرابلس

سادسا — طرابلس فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة .

أما القسم الثانى الخاص بحضـارتها و بآثارها الاسلامية فيتضمن ثلاثة فصول .

أولا — بعض مظاهر الحضارة فى طرابلس الاسلامية .

ثانيا — المساجد والمدارس .

ثالثا — الآثار الحربية والمدنية .

والله هو الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

الاسكندرية فى ٢ مايو سنة ١٩٦٦ .

تمهيد

(١)

اسم طرابلس وتفسيره

ورد اسم طرابلس فى بعض المصادر العربية باضافة ألف مهموزة « أطرابلس » ، ويشير السمعانى الى أنه قد تسقط الألف منها لتميين اسم طرابلس عن بلدة أخرى معروفة باسم أطرابلس «١» فى المغرب «٢» ، غير أن ياقوت ينكر سقوط الألف من طرابلس الشام ، ويعيب على المتنبى حذفها منها فى قوله :

---

(١) هى مدينة قديمة بأرض المغرب فينيقية أو قرطاجنية البناء ، أسست فى عصر غير معروف ، بعد تأسيس كل من صبراتة ولبدة ، وكانت تسمى «أويا» أو «أوايات» ، وهى لفظة بربرية على الأرجح ، ثم حرف الرومان هذا الاسم الى أوا ، ومعناها بالاغريقية ثلاث مدن . غير أن هذا الاسم ما لبث أن تحول الى تريبوليتانوس نسبة الى الخط الدفاعى الذى أقامه الرومان فى القرن الثالث الميلادى لحماية المنطقة الواقعة بين خليجى سرت الصغير والكبير (قابس) من هجوم القبائل البربرية ، وعرف هذا الخط الدفاعى باسم ليمس تريبوليتانوس . هذه اللفظة تعنى اقليم المدن الثلاث : لبدة وأويا وصبراتة ، ثم اختصر الاسم بالتدريج الى تريبوليس ، ثم عربت اللفظة عند الفتح العربى الى اطرابلس . وقد ذكر البكرى أنها بزيادة ألف قبل الطاء (أنظر : البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دى سلان ، الجزائر ١٩١١ — أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسى تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من من الأخبار ، نشره الاستاذ الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ١٣٤٩ هـ — الطاهر أحمد الزاوى تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة ١٩٦٣ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج ٤ ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٥ ، ص ١٤٢ — جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ ص ٣٧١ .

أكارم حسد الأرض السماء بهم ∴ وقصرت عن كل مصر طرابلس(٣)

ومنعا للبس والخلط بين المدينتين اتفق على تسمية طرابلس الشامية بطرابلس الشام ، بينما عرفت طرابلس الليبية بطرابلس الغرب ، لوقوعها فى غرب العالم الاسلامى •

ولا شك أن لفظة طرابلس اغريقية ومعناها « ثلاث مدن » ، وهـو تفسير شاع بين المؤرخين الذين يرجعون أصل هـذا الاسم الى الاغريق ؛ استنادا على أن مدينة طرابلس لم تكن فى بداية أمرها سوى ثلاثة أحياء مسـورة متحاجزة هى : حى الصـوريين ، وحى الصيـداويين ، وحى الأرواديين ، فقـد ذكر القلقشندى نقلا عن الحميرى فى الروض المعطار « ومعنى أطرابلس فيما يقال ثلاث مدن ، وقيل مدينة الناس » (٤) ، وكذلك أشار ابن تغرى بردى نقلا عن شرف الدين محمـد بن موسى المقدسى فى السيرة المنصورية الى أن طرابلس « كانت عبارة عن ثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومى » (٥) •

ولكن مدينة طرابلس الشام مدينـة فينيقية ، أسست فى تاريخ غير

---

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة بيروت ١٩٥٥ ، ج ١ ، مادة أطرابلس وكتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا ، نشره وستنفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٦ •

(٤) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٢ •

(٥) أبو المحاسن ، النجـوم الزاهرة ، طبعـة دار الكتب المصرية ، ج ٧ ص ٣٢٢ •

معروف على وجه الدقة ، وأغلب الظن أنها أسست فى القرن السابع قبل الميلاد ، وهو موضوع سأقوم بدراسته فيما بعد . ولما كانت طرابلس من انشاء الفينيقيين ، فلا بد أنه كان لها اسم فينيقى ، أقدم من اسمها الذى عرفت به فى العصر الفارسى وهو « أثر » فمن المعروف أنه أطلق عليهـا هـذا الاسم السامى « أثر » بعد أن أصبحت تمثل اتحاد المدن الفينيقية بأحيائها الثلاثة فى السنة الأولى من عصر الملك أرتخشستا الثالث أوكوس Artaxerxes III Ochus (٣٥٩ ق.م — ٣٣٨ ق.م) ، ونطالع هذا الاسم على بعض العملات التى يرجع تاريخها الى ١٨٩ — ١٨٨ ق.م ، والى جانب هذا الاسم الفينيقى السامى «أثر» أطلق عليها الاغريق اسم تريبوليس «(٦)» .

ومع ذلك فان الاسم الفينيقى القديم ما زال غير معروف لدينا «(٧)»، وان كان الأستاذ الدكتور أنيس فريحه يرجح أن يكون اسم « تربيل » Tûr Bil أى جبـل الاله بيل هو هذا الاسم الفينيقى القديم الذى عرفت به منذ تأسيسها ، ثم أضيفت اليه اللاحقة الاغريقية S . ويستنـد الاستاذ فريحة فى هـذا الرأى الى حقيقة جغرافيـة هامة ، فبالقرب من

---

(٦) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريحة والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩ ص ١٨٨ .

(٧) Dussaud (René) : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Publications du Haut Commissariat de la République Française en Syrie et au Liban, Bibliothèque archéologique et historique, t. IV, Paris, 1927, p. 75.

طرابلس جبل يسمى « تربل » أى جبل الله «[٨]» . وليس من المستبعد أن يكون « تربيل » هو الاسم الفينيقى القديم لطرابلس ، بل اننىأميل الى الأخذ بهـذا التفسير ، لأن لفظة « تر » لفظة فينيقية معناها الجبل ، وتقابلها لفظة « طور » بالعربية بمعنى الجبل الذى يكسـوه الشجر «[٩]» كما هو الشأن فى طور سيناء «[١٠]» ، وجبل تربل الذى أشار اليه الأستاذ فريحة يقع شرقى مدينة طرابلس ، ولعل اسم طور بيل أو تربيل حرف فيما بعـد فى العصر الاغريقى بعـد أن أضيفت اليه اللاحقـة الاغريقيـة الى تريبوليس تأكيدا لوجـود ثلاثة أحياء فى المدينة تمثل المدن الفينيقية الثـلاثة صـور وصيـدا وأرواد ، فأصبحت لفظـة تريبوليس **Tripolis** اليونانية التى تتشابه فى نطقها مع تربيل تعنى المدينة ذات الأحياء الثلاثة ؛ ثم عربت اللفظة الاغريقيـة الى طرابلس على نحـو ماحدث فى تسميـة طرابلس الغرب .

= أنظر أيضا :
لوريس لورتة ، مشاهدات فى لبنان ، من كتاب سورية اليوم ، ترجمة الأستاذ كرم البستانى ، بيروت ١٩٥١ ص٦ ، جورجى‌ينى ، تاريخ سوريا ؛ ص ٣٧١ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طرابلس (En. Islam)

(٨) أنيس فريحة ، أسماء المدن والقرى اللبنانية ، وتفسير معانيها ؛ منشورات الجامعة الأميركية فى بيروت ، بيروت ١٩٥٦ ص ٢٠٧

(٩) ياقوت ، معجم البلدان، مادة طور ، مجلد ٤ ، طبعة بيروت ص٤٧

(١٠) السيد عبد العزيز سالم ، الآثار الاسلامية فى دير سانت‌كاترين بطور سينا ، مجلة العلوم ، العددالأول ، السنة العاشرة ، يناير ١٩٦٥ ص١

وهناك من أمثلة هذا التحريف اسم الفسطاط الذى أطلقه العرب على حاضرة مصر الاسلامية ، فبتلر Butler يعتقد أنها مشتقة من اللفظة اللاتينية Fossatum ومعناها الحصن ، بدليل وجود حصن بابليون قريبا من الموضع الذى أقيمت فيه الفسطاط ، بينما تعنى كلمة فسطاط بالعربية الخيمة أو المعسكر ، وابتكر الرواة لتبرير هذه التسمية العربية قصة أسطورية : قصة اليمام الذى أفرخ فى فسطاط عمرو «[11]» ؛ ولفظة فاس لفظة بربرية ، ولكن الرواة ابتكروا لتبرير معناها العربى قصصا كثيرة «[12]» .

---

(١١) ذكر ابن عبد الحكم أن الفسطاط انما سميت كذلك لأن « عمرو ابن العاص لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال من بها من الروم ، أمر بنزع فسطاطه ، فاذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرم منا بمتحرم ، فأمر به ، فأقر كما هو ، وأوصى به صاحب القصر ، فلما قفل المسلمون عن الاسكندرية ، فقالوا : أين ننزل ؟ ، قالوا : الفسطاط ؛ لفسطاط عمرو الذى كان خلفه » (ارجع الى ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص١٣٣) . وقد شاعت هذه الرواية فى المصادر العربية تفسيرا لاسم الفسطاط (راجع محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلامية ، وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ١٣ وما يليها ـــ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ٤٠ ـــ السيد عبد العزيز سالم ، تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٢) .

(١٢) ابن أبى زرع ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس ، نشره تورنبرج ، أبساله ، ١٨٤٣ ـــ الجزناءى ، كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشرة الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢ .

والبصرة من بصراثا عـربت الى البصرة «١٣» وفسرت اللفظـة المعـربة تفسيرات كثيرة ، وكذلك بغداد الفارسية «١٤» ، وسامرا «١٥» ، وغيرها من المدن الاسلامية .

---

(١٣) يعقوب سركيس ، مقال عن « البصرة » مجلة سـومر ، ج ١ مجلد ٤ ، بغداد ١٩٤٨ .

(١٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، مادة بغداد .

(١٥) ذكر المؤرخون أنها لما عمرت وازدهرت سميت بسرور من رأى ، واختصر الى سر من رأى ، ولما خربت واستوحشت ، سميت ساء من رأى ، واختصرت الى سامرا ، وأعتقد أنها اشتقت من اسم Castellum Sumere أو حصن سـومر (أنظر : السيد عبـد العزيز سالم ، بيوت الله مساجد ومعاهد ، ج ٢ ، ١٩٥٩ ص ٢٢٢) .

(٢)

موقع طرابلس واثره فى كيانها الاقتصادى

تقع مدينة طرابلس الحالية « على سفح ذيل من أذيال لبنان » «[١٦]» ، بحيث لا تبعد عن البحر بأكثر من كيلو مترين ، ويخترقها نهر قاديشا (المقدس) الذى يعرف فى الوقت الحاضر باسم نهر أبى على «[١٧]» ، ويجرى هذا النهر فى واد عميق ، يعتبر من أشد أودية لبنان وعورة وعمقا ، ومن أكثرها روعة وجمالا ، ويبدأ هذا الوادى عند سفح غابة الأرز ، وينحدر انحدارا سريعا فى انحناءات وتعرجات متواصلة الى أن ينتهى بسهل طرابلس عند الساحل ، ويصل عمق وادى قاديشا فى بعض أجزائه الى ١٧٠٠ قدم «[١٨]» . ويشق هذا الوادى نهر قاديشا المذكور ، الذى ينبع من مغارة بأدنى غابة الأرز تعرف بمغارة قادشا ، وتزيد مياه هـذا النهر برافدين

---

(١٦) شمس الدين أبى عبـد الله محمـد بن أبى طالب الانصـارى الدمشقى ، كتاب نخبـة الدهر فى عجـائب البر والبحر ، نشره مهـرن ، ليبتزج ، ١٩٢٣ ، ص ٢٠٧ .

(١٧) أعتقد أنه سمى كذلك نسبة الى الأمير فخر الملك أبى على عمار آخر أمراء بنى عمار الذين استقلوا بحكم طرابلس فيما بين عامى ٤٥٩ هـ : ٥٠١ هـ . ولقد احتفظ هـذا النهر باسمه السريانى « قاديشا » حتى وقتنا هذا ، وشاعت تسميته بذلك الاسم فى العصر الوسيط بسبب التجاء رهبان الموارنة فى كهوفه ومغاوره .

(١٨) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ١٦ .

صغيرين أحدهما يسمى رشعين والثانى يقال له المخاضة «١٩» • وعندما يصل النهر الى طرابلس يشق المدينة من الجنوب الى الشمال بحيث يقسمها الى مركزين عمرانيين متميزين يتدرجان فى الارتفاع : أحدهما على الضفة اليسرى من النهر ، ويعرف اليوم بتلة أبى سمرة التى كانت تسمى فى زمن الصليبيين بتـلة الحجاج **Mons Peregrinus** ، وقـد أقيم على هذه التلة قلعة صليبيــة ما زالت تعرف حتى اليوم باسم قلعة صنجيل نسبـة الى مؤسسها ريموند دى سانجيل كونت دى تولوز • والمركز العمرانى الثانى يقع على الضفة اليمنى من نهر أبى على ، ويطلق عليه اسم تلة القبة «٢٠» • ومياه نهر أبى على تصـل الطبقات العليا من دور طرابلس المرتفعة ، التى يرقى اليها بالدرج «٢١» •

وبعد أن يجتاز نهر أبى على طرابلس يتجه شمالا بين بساتين ومروج خضراء الى أن يصب فى البحر شرقى الميناء ، وكان من آثار اختراق هذا النهر لمدينــة طرابلس أن كثرت بساتينها ومزارعها فى العصور التاريخية

---

(١٩) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٧٢

(٢٠) Robert Boulanger, Liban, " les Guiders bleus " Paris 1955, p.117

وقد ورد اسم القبة فى نص لابن الشحنة الحلبى عن بدر الدين بن حبيب (ارجع الى : محمـد بن الشحنـة الحلبى ، كتاب الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب نشره يوسف سركيس ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ٢٦٤) •

(٢١) ابن الشحنة ، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ٢٦٣

المختلفة ، وازدادت بذلك ثروتها الزراعية والتجارية خاصة فى العصر الاسلامى اذ اشتهرت طرابلس بزراعة البرتقال والحمضيات بوجه عام وقصب السكر والفواكه «[٢٢]» وتعتبر زراعة الحمضيات فى الوقت الحاضر من أهم الموارد الاقتصادية فى طرابلس «[٢٣]» . أما اقليم الكورة التابع لطرابلس قديما وحاليا ، فقد اشتهر بزراعة الزيتون «[٢٤]» ، ويمتد السهل المغروس بأشجار الزيتون اليوم من الكورة الى عكار ، وهو لذلك يعتبر من أوسع سهول الزيتون فى العالم «[٢٥]» .

ومدينة طرابلس الحالية محدثة الانشاء ، أسسها المماليك فى سلطنة الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذى افتتح طرابلس فى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) فى الموضع الذى كان يقوم فيه الربض الصليبى بأدنى قلعة

---

(٢٢) الادريسى ، وصف فلسطين والشام من كتاب نزهة المشتاق ؛ نشره جوانيس جيلد ميستر Joannes Gildemeister بعنوان Idrisi, Palaestina et Syria, Bonnensis, 1885 ص ١٧ — ابن شداد ، (عز الدين أبى عبد الله محمد بن على الحلبى) ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، نشره الدكتور سامى الدهان ، المعهد الفرنسى بدمشق ، ١٩٦٢ ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٤ — نخبة الدهر ، ص ٢٠٧ .

(٢٣) حليم أبو عز الدين ، محاضرة بعنوان محافظة الشمال ، من سلسلة محاضرات فى : لبنان فى محافظاته ، بدار الندوة ، السنة ١٥ ، النشرة ١-٢ ، بيروت ١٩٦١ ص ٥٩ .

(٢٤) الادريسى ، المرجع السابق ص ١٧ — حليم أبو عز الدين ، محافظة الشمال ، ص ٦١

(٢٥) جورجى ينى ، ص ٣٧٣ — حليم أبو عز الدين ، ص ٦٣

صنجيل «٢٦» . أما مدينة طرابلس القديمة التى ظلت قائمة فى عصر الصليبيين ، فقد خربتها جيوش السلطان قلاوون ، فدثر عمرانها وتلاشى ؛ فى الوقت الذى عمرت فيه المدينة المماليكية الجديدة .

وطرابلس القديمة ، التى كانت تعرف بالمينا ، شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاث جهات ، وتبعد عن مدينة طرابلس المحدثة بنحو ثلاث كيلومترات ، ومازالت تؤلف حتى اليوم مركزا عمرانيا قائما بذاته ، ولكنه يعد حيا ثالثا من أحياء طرابلس بعد أن امتد العمران من طرابلس اليها . وعلى هذا النحو يمكننا القول بأن طرابلس تنقسم الى مركزين عمرانيين منفصلين : المدينة والمينا (أو المينة) وان كان عمرانهما يتجه حاليا الى الاتصال بسبب النمو العمرانى السريع الذى تشهده طرابلس فى سائر الاتجاهات ولا سيما بامتداد الطرق الثلاثة المؤدية الى المينا ، عبر بساتين البرتقال التى اشتهرت طرابلس بزراعتها فى كل العصور «٢٧» .

ويمتد بازاء المينا فى البحر صف من أربعة جزر صغيرة تبعد عنه بنحو عشرة أميال كانت تسمى فى أيام الادريسى على الترتيب مما يلى البر : « جزيرة النرجس ، وهى صغيرة خالية ، واليها جزيرة العمد ، ثم

---

(٢٦) Van Berchem & Fatio: Voyage en Syrie, dans Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. 37, le Caire, 1914, p. 116.

(٢٧) Le Liban, face à son developpement, Publication de l'Institut de formation en vue du developpement, Beyrouth, 1963 p. 67

اليها جزيرة الراهب ، ثم اليها جزيرة أرذقون » «[٢٨]» • وأكبر هذه الجزر الأربعة جزيرة سماها ابن الفرات وغيره باسم جزيرة النخلة «[٢٩]» ، تتصل بها ثلاثة جزر صغار فيما بينها وبين الساحل ، وما زالت هـذه الجزيرة الكبرى تحتفظ باسمها القديم ، وفيها منارة لهداية السفن وحمايتها من الاصطدام برأس طرابلس «[٣٠]» ، ولعلها هى نفس الجزيرة التى ذكرت فى بعض المصادر باسم جزيرة سـان نيقولا «[٣١]» ، وكانت تقوم بها كنيسة ذكرها أبو الفداء باسم سنطماس «[٣٢]» • وهناك قريبا من هـذه الجزيرة جزيرة أخرى تعرف اليوم بجزيرة الأرانب يقصدها الناس للنزهة والفرجة•

كانت طرابلس فى العصر الاسلامى مدينة عظيمة لها رساتيق وضياع وكور جليلة الشأن ، وكانت تضم فى زمن الادريسى (فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى) عدة حصون وقلاع داخلة فى أعمالها ، منها أنف الحجر (أنفة) ، وحصن القالمون (القلمون حاليا) ، وحصن أبى

---

(٢٨) الادريسى ، ص ١٨

(٢٩) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) : تاريخ ابن الفرات ، تحقيـق الدكتور قسطنطين زريق ، ونجـلا عز الدين ، بيروت ١٩٣٩ ، مجلد ٨ ، ص ٨٠ ــ كتاب نخبة الدهر ، ص ١٤٢ •

(٣٠) لويس لورتة ، مشاهدات فى لبنان ، ص ٢٠ ملحوظة ٢

(٣١) جورجى ينى ، ص ٣٩٣ ــ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٧٥ •

(٣٢) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩ ج٤ص٢٤

العدس ، وأرطوسية ، ومن ضياعها الكبرى أربعة منها قرية الشفيقة ؛ والراعبية والزيتونة والحدث «٣٣» . وفى عصر بنى عمار ؛ عندما لم تكن طرابلس سوى امارة صغيرة ، كانت تضاف اليها مدن جبلة وعرقا وجبيل ، بخلاف الكور والرسانيق المتصلة بها فى الجنوب الشرقى مثل بشرى والحدث ، وفى الجنوب مثل البترون . ومن أعمالها فى عصر المماليك . حصن البترون وأنفة وأنطرطوس وحصن عرقا وحصن حلبا ؛ وكان لكل من هذين الحصنين مراكز كثيرة منها جون ورجلية ومرقية وجومة عكار وجومة بشرية والكورة والحدث بأذيال جبل لبنان ، وحصن عكار وحصن الاكراد . ثم أضيفت الى طرابلس أعمال مستجدة هى قلاع الدعوة ، منها الخوابى والكهف والقدموس والعليقة والمنيقة ومصياف وبلاطنس وصهيون والبقيعة «٣٤» . وسنعود الى دراسة هذه الاعمال عند حديثنا عن طرابلس فى عصر المماليك .

ومن الناحية الجغرافية نلاحظ أن اقليم طرابلس يتميز بوجود منخفض يقع بين جبال لبنان المرتفعة وجبال النصيرية التى ترتفع على مسافة ضئيلة من الساحل الشرقى للبحر المتوسط . هذا المنخفض هو المعروف بممر حمص ، ويتجه اتجاها غربيا شرقيا ، وقد لعب هذا الممر فى العصور القديمة دورا هاما ، فقد اجتازته الجيوش المصرية

---

(٣٣) الادريسى ، ص ١٨ Dussaud, topographie historique, p. 77

(٣٤) نخبة الدهر ص ٢٠٨

القديمة للاستيلاء على قادش ، وهى مدينة هامة كانت تتصل بفينيقيا عن طريق هذا الممر «٣٥» ، وكانت تقوم على حماية الممر المؤدى الى البحر المتوسط عن طريق وادى النهر الكبير (الأليوثيروس) «٣٦» • كذلك يربط هذا الممر بلاد الشام الواقعة فيما وراء نهر الأورنت (العاصى) بالاقليم الساحلى • ويتكون هذا الاقليم من سهول ساحلية ضيقة منها سهل مرقية فى الشمال وسهل جبيل فى الجنوب •

وأعظم السهول الساحلية فى اقليم طرابلس السهل الواقع على مصب النهر الكبير وروافده ، وعليه تقع مدينة عرقا وثغر أنطرسوس ، وليست لمرافىء هذه الثغور الساحلية مثل جبيل والبترون وأنفة اليوم أهمية من الناحية الملاحية ، لأنها اذا كانت تصلح فى الماضى كمراسى للسفن الصغيرة، فانها لم تعدكذلك فى العصر الحاضر«٣٧» ، أما مرفأ طرابلس فأفضل بكثير من هذه المرافىء جميعا «٣٨» ، ولذلك حرص المسلمون منذ الفتح العربى

---

(٣٥) لما كان هذا الممر معبرا سهلا للغزاة ، فقد اهتم الصليبيون بتحصينه فى القرن الثانى عشر الميلادى بقلاع وحصون منيعة لا ترام ، منها حصن الأكراد وحصن عكار وغيرهما (راجع Dussaud, p. 80)

(٣٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث : سورية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١١

(٣٧) Donald Harden, The Phoenicians, London, 1963, p.27

(٣٨) Jean Richard, le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine, Paris, 1945, p. 1

على تحصينه بالأبراج الساحليــة ، كما حرص الصليبيون على حمايته من الناحية البرية ، فأقاموا له قلعة صنجيل القائمة على تلة الحجاج •

وعلى الرغم من خصوبة الأراضى الواقعة على ضفاف الأنهار ، وفى السهول الساحلية ، الا أن الأراضى المزروعة باقليم طرابلس ، لم تكن تفى بحاجته مما جعل طرابلس تعتمد لتدعيم اقتصادها على التجارة البحرية ، فأصبحت تعمل على تصريف منتجاتها الزراعيــة كالحمضيات والزيتون ، ومنتجاتها الصناعية كالحرير والزيت والصابون الى الأسواق الخارجية •

(٣)

تاريخ طرابلس القديم

أشرنا فيما سبق الى أن مدينة طرابلس مدينة فينيقية الانشاء ، أسسها الفينيقيون فى تاريخ لا يمكننا تحديده على وجه الدقة ، على امتداد الساحل الشمالى لشبه جزيرة الميناء ، وأشرنا أيضا الى عدم توصلنا الى معرفة اسمها الفينيقى القديم ، وان كنا نرجح رأى الدكتور أنيس فريحة فى احتمال تسميتها بتربيل • وعلى هذا الأساس فاننى أميل الى تسميتها بتربيل أو طوربيل ، فى الفترة الواقعة ما بين انشائها الى أن تأسست فيها الأحياء الثلاثة الممثلة لمدن فينيقيا الكبرى : صور وصيدا وأرواد•ولم تكن طوربيل فى هذا العصر القديم سوى قرية صغيرة لا حظ لها من الأهمية ، ولم تبدأ طوربيل تأخذ طريقها فى الظهور الا بعد أن أصبحت مركزا للاتحاد الفينيقى الذى يضم المدن الثلاثة المذكورة التى رأت ضرورة اقامة مركز لهذا الاتحاد يرعى مصالحها كمدن فينيقية مستقلة «٣٩» • وقد وقع اختيار ممثلو هذا الاتحاد على قرية طوربيل لهذا الغرض باعتبارها موضع غير معروف ، تجنبا لعوامل النزاع والخلاف التى يمكن أن تنشب لو أن هذا الاتحاد أقيم فى احدى هذه المدن • وأطلق

---

(٣٩) جورجى ينى ، ص ٣٧٤ — فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ١٨٨

على مدينة طوربيل اسم سامى هو أثر ، وقد بدل هذا الاسم فيما بعدالى تريبوليس وهى لفظة اغريقية تعنى المدينة الثلاثية أو الثلاث مدن ، تعبيرا عن الأحياء الثلاثة التى أصبحت تتألف منها المدينة ، وكان يحيط بكل من هذهْ الأحياء سور قائم بذاته «٤٠» • ووردت أسماء هذه الأحياء فىحوليات آشور نصربال على هذه الصورة : مخلات ومايز وكايير «٤١» • وهكذا أقيمت مدينـــة أثر أو طرابلس وأصبحت مركزا للاتحاد الفينيقى ، ومقرا لاجتماع المؤتمر الفينيقى العام ، وهو مؤتمر كان يعقد فى أوقات الخطر ، ويحضره نحو ثلاثمائة عضو يمثلون المدن الفينيقية الثلاثة المـــذكورة ، للبحث فى المشاكل التى تتعلق بمصالح البلاد «٤٢» • وكانت المدنالفينيقية فى العصر الفارسى تتمتع بحرية كبيرة فى التجارة واستقلال جزئى ، ويبدو أن التدخل المتواصل الذى كان يقوم به الملك أرتحشستا الثالث فىشؤون هذا المؤتمر ، وأعمـــال العنف التى يمارسها الفرس وتسلطهم فى البلاد ؛ يبـــدو أن كل ذلك أثار عوامل الثورة فى النفوس • فعندما انعقد المؤتمر فى سنـــة ٣٥٢ ـــ ٣٥١ ق•م فى طرابلس ، تبـــاحث المؤتمرون فى ضرورة المحافظة على استقلال مدنهم ، ورفع راية الثورة بطبيعة الحال ضد السيادة الفارسية ، ولم تلبث نيران الثورة ضد الفرس أن اشتعلت بادىء ذىبدء

---

(٤٠) Bruce Condé, Tripoli of Lebanon, Beirouth, 1961, p.9

(٤١) Dussaud, Topographie historique, p. 75

(٤٢) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشـــام ، تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، ص ٤٥

فى الحى الصيداوى بطرابلس ، ومن هناك امتدت امتـدادا سريعا حتى وصلت الى مدينـة صيـدا (صيدون) ، أولى مدن فينيقيـا فى العصر الفارسى . وكان لملك صيدا المقام الأول بين ملوك المدن الفينيقية «٤٣» ؛ ولذلك ما كاد تنس ملك صيدا يتزعم الثورة ضـد الفرس حتى انتشرت سريعا فى البـلاد واجتاحت الساحل الفينيقى كله ، وقد أيده ملك مصر نكتانيبو الأول ، وأمده بجيش مؤلف من ٤٠٠٠ من مرتزقة الاغريق «٤٤» ؛ وتمكنت تسع مدن فينيقية من طرد ممثلى الفرس فيهـا ، وأعلنت بذلك استقلالها . فاضطر ارتحشستا — أمام هذه الحركة الاستقلالية — الى الخروج من بابل على رأس جيش كثيف قوامه ٣٠٠ ألف من المشـاة ، و٣٠ ألف من الفرسان ، قاصدا مدينة صيـدا عاصمة الايالة السـورية والمركز الرئيسى للثـورة الوطنية ، وقـد تمكنت الجيوش الفارسية من استرجاع صيدا بعد أن أبدى أهلها مقاومة عنيفة واستبسلوا فى الدفاع عنها ، فأحرقوا الأسطول الراسى فى المرفأ . ولمـا قنطوا من الدفاع عن مدينتهم بعد آن خدلهم ملكهم تنس ، أغلقوا دورهم على أنفسهم وأشعلوا فيها النيران ، واستسلموا للموت حرقا اذ أنفوا أن يتعرضـوا لانتقـام المحتلين ، ولذلك فان صيـدا لم تستسلم للفرس بل أقدمت على الانتحار

---

(٤٣) غالب الترك ، محافظة الشمال ، من سلسلة محاضرات : لبنان فى محافظاته ، ص ٨٦

(٤٤) Bovier — Lapierre & Gauthier & Jouget : L'Egypte, dans Précis de l'histoire d'Egypte, t. I, le Caire, 1932, p. 224.

على حد تعبير الأستاذ غالب غالب الترك «٤٥» • وما ان دخل الفرس المدينة حتى قتلوا من سكانها الذين أفلتوا من الحرق نحو أربعين ألفا ، ونصبوا على المدينة ملوكا اختيروا وفقا لرغباتهم ، نذكر منهم ايفاجوراس الثانى القبرصى الأصل «٤٦» • وخافت المدن الفينيقية الأخرى أن تنتهى الى هذا المصير «٤٧» ، فاستسلمت للفرس طائعة بعد سقوط صيدا العاصمة مباشرة •

وما أن تمكن الاسكندر من سحق الفرس فى موقعة ابسوس حتى زحف على فينيقيا ، واستقبله أهل البلاد فى لهفة وفرحة ، ورحبوا به ترحيبا بالغا ، ووجدوا فيه مخلصا لهم ومحررا من نير الفرس واستبدادهم: وما لبثت طرابلس أن استسلمت لعساكره المظفرة فى سنة ٣٣٣ ق•م شأنها فى ذلك شأن غيرها من مدن الساحل الفينيقى ، مثل ماراثوس وأرواد وبيبلوس وصيدون • أما صور ، التى كانت قد استعادت مكانتها بعد أن خربتها جيوش نبوخذ نصر ، فقد ظلت وحدها تقاوم جيوش الاسكندر ، اذ كانت تنافس أثينا فى السيادة البحرية ، وكانت فى اعتبار الاسكندر مفتاح الطريق الى الهند «٤٨» • وحاصرها الاسكندر حصارا

---

(٤٥) غالب الترك ، ص ٨٦

(٤٦) Jacques Nantet, Histotre du Liban, Paris, 1963, p. 27

(٤٧) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ج ١ ص ٢٤١ ـ ٢٤٨

(٤٨) Jacques Nantet, op. cit. pp. 27 , 28

بحريا وبريا محكما دام سبعة شهور انتهت بسقوطها فى سنة ٣٣٢ ق٠م ، وقد انتقم منها بأن تركها وراءه خرابا ، وذبح رجالها ونساءها وأطفالها٠

وبينما أخذت مدينة صور تنهض من عثرتها وتسير بخطى حثيثة نحو الازدهار ، بفضل تفوقها البحرى ، وبفضل ما كانت تنتجه من الأصباغ الأرجوانية ، كانت فينيقية تمر بأحداث خطيرة ، استمرت حتى قدوم الرومان فى سنة ٦٤ ق٠م ، فمنذ الاستيلاء على صور حتى وفاة الاسكندر فى سنة ٣٢٣ ق٠م كانت الادارة اليونانية تثبت أقدامها فى البلاد وتتحكم فى كل شيء على الرغم من الاستقلال الذاتى الذى تستعت به صيدا فى هذه الفترة ، واحتفاظ جبيل بعض الوقت بأسرتها التقليدية «٤٩» ٠ وكانت المدن الفينيقية قد آلت بعد وفاة الاسكندر الى أخيه لاوميدون حتى سنة ٣١٨ ق٠م ، غير أن بطليموس الذى فاز بمصر عند توزيع أمبراطورية الاسكندر بين ورثته ، وأنتجوناس الذى كان سلطانه سائدا فى آسيا الصغرى ، تمكنا من ابعاد كل من سلوقس ولاوميدون ، واشتبكا بعد ذلك فى معركة عنيفة فى سهل البقاع ٠

وقد قام أنتيجوناس باعداد أسطول مسلح ، فأقام لذلك دورا لصناعة السفن فى طرابلس وجبيل وصيدا ، وجمع ملوك فينيقيا وزحف من صيدا على صور ، وحاصرها ١٤ شهرا الى أن سقطت فى سنة ٣١٢ ق٠م ، ولكن

---

(٤٩) Jacquas Nantet, p. 28

صوْر لم تلق السلاح بعد سقوطها ، وأصبحت فينيقيا ممزقة بين الخصمين الكبيرين • وبعــد مصرع أنتيجوناس فى معركة ابسوس سنة ٣٠١ ق•م استولى البطالمة على البقاع الذى استمر فى حوزتهم حتى سنة ١٩٨ ق•م ، بينما أخذت المدن الفينيقيــة تتصارع فيما بينها ، ثم عاد السلوقيون الى الظهور من ٢٨٠ ق•م الى ١٩٨ ق•م وتمكنوا من الاستيلاء على صوْر ؛ وبسط سلطانهم بعد ذلك على كل فينيقيا ما عدا البقاع الذى ظل فى أيدى البطــالمة ، الى أن انتصر أنطيوخوس الثالث الســلوقى على بطليموس الخامس فى موقعة بانياس سنة ١٩٨ ق•م ، وهى الموقعة التى حددت مصير فينيقيا • وشهدت البلاد فى عصر السلوقيين عهدا من الهدوء واسترجعت فيه وحدتها ونظامها ، وعمــل السلوقيون على تمكين سلطانهم عليها عن طريق تقسيمها الى ولايات متعددة ، وتمتعت طرابلس بدورها بنوع من السيادة والتفوق أخذت تمارسهما على غيرها من المدن ، خاصة عنــدما استقر ديمتريوس الأول بن سولوقس «٥٠» وجملها بالأبنية الفخمة • وفى هذا العصر السلوقى دمرت بيروت سنة ١٤٠ ق•م نتيجة للخلافات التى أضعفت امبراطورية السلوقيين ، وتعرضت البلاد للغارات الأرمنية • وعلى الرغم من الطابع الهلينى الذى أخــذ يشمــل كل مناحى الحيــاة مادية وأدبية «٥١» ، فان الجوهر الفينيقى القديم ظل سليما ، واحتفظ الساميون

---

(٥٠) Ibid. p. 29 ــ جورجى ينى ، ص ٣٧٦

(٥١) تحول الاله ملقارت الى هرقلس ، وبعل الى زيوس ، وعشتروت

بعاداتهم الموروثة • وكانت حركة التأغرق حركة ظاهرية أكثر منها واقعية ؛ فقد أخذت المدن السورية القديمة التى تأغرقت تسترد شخصيتها السامية من جديد ، باستثناء مدينة تريبوليس التى ظلت تحتفظ باسمها الاغريقى وهو الاسم الذى عربه الفاتحون العرب الى طرابلس «٥٢» •

ثم دخلت تريبوليس سنة ٦٤ ق•م فى فلك الامبراطورية الرومانية ؛ فقد ذكر يوسيفوس اسم طرابلس عند الفتح الرومانى ، وأشار الى أن بومبى عند مروره على طرابلس قتل حاكمها ديويوس ، ولعل هذا القتيل كان من بين الذين رفعوا راية العصيان على الرومان ، فلاذ بالجبال المحيطة بطرابلس عند اقتراب جيوش بومبى «٥٣» •

وعلى الرغم من أن مدينة طرابلس لم تلعب فى العصر الرومانى دورا تاريخيا هاما ، ولم تظفر بالمكانة السامية التى ظفرت بها بعض مدن لبنان

الى أفروديت ، وأخـذت الألعاب الاوليمبية تمارس فى صـور ، وأخذ الفلاسفة الرواقيون أتباع زينون يقومون ببث تعاليمهم الفلسفية فى هذه المدينة وفى صيدا ، وتحولت الأسماء السامية لبعض المدن الى أسماء هلينية مثل حماة التى سميت بأبيفانية ، وأثر (طرابلس) التى سميت بتريبوليس•

(٥٢) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص٢٧٨•

(٥٣) جورجى ينى ، ص ٣٧٦

الأخرى مثل بيروت التي كان قد خربها الاغريق «٥٤»، وأصبحت تؤلف مركزا ثقافيا بارزا فى ســورية ، وصيدا التى أوجد فيها الرومان نوعا من الحــكم الجمهــورى الديموقراطى ، وأقيمت بهــا مدرســة فلسفيــة أرسطوطاليسية ، وبعلبك التى أصبحت مركزا دينيا هاما . ومع ذلك فقد اهتم الرومان بطرابلس ، فجملوها بأبنيــة رائعة ، وزودوها بمعابد كثــيرة خصصت لعشتروت ويوسكوريس وزيوس ، ضاعت معــالمها فى الوقت الحاضر ، وان كانت ما تزال فى نواحيها بعض آثار رومانية كمعبد بزيزا من أواخر القرن الاول ، ومعبــدى عين عكرين من القــرن الثانى والثالث ، ومعبد السفيرة فى قضاء الضنية «٥٥» .

وأصيبت طرابلس فى عهد الامبراطور الرومانى موريقان (٤٥٠ ـ ٤٥٤م) بزلزال عنيف ، دمر كثيرا من منشآتها ، ودك مبانيها «٥٦» . الا أن

---

(٥٤) أعيد بناء بيروت على أيدى قوات ماركوس أجريبا غرب المدينة القديمة فى عهد الامبراطور أغسطس قيصر ، وعرفت باسم « جوليا أوجستا فيلكس » ، وارتفعت بذلك الى مصاف المستعمرات الرومانية ، وأصبحت بيروت مركزا علميا متألقا ، فقد أسس فيها سفيروس الكسندر سنة ٢٢٢ مدرســة للحقوق ، وأصبحت بذلك احــدى مدن ثلاث فى الامبراطورية الرومانية يدرس فيها التشريع الرومانى (ارجع الى
(Emile Yanni, Beyrouth, dans Physionomies du Liban, p. 10)

(٥٥) حليم أبو عز الدين ، محافظة الشمال ، ص ٤٦

(٥٦) لويس لورتة ، مشاهدات فى لبنان ، ص ٩

المقاومة العنيفة التي قابلت بها طرابلس الجيوش العربية الاسلامية الفاتحة؛ تدل دلالة واضحة على أنه أعيد بناؤها من جديد قبل الفتح العربي «[٥٧]» .

---

(٥٧) Sobernheim, Corpus Inscriptionum Arabicarum, t. II, 1909, p. 38

تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ص ١٠ Bruce Condé, op. cit. p. 10.

الباب الأول

تاريخ طرابلس فى العصر الاسلامى

الفصل الأول

طرابلس منـــذ الفتح العربى حتى استقلالها عن الدولة الفاطميـــة

(١) فتح العرب لطرابلس

(٢) طرابلس منذ خلافة معاوية الى قيام الدولة الفاطمية فى مصر

(٣) طرابلس فى النصف الأول من العصر الفاطمى

الفصل الأول

طرابلس منذ الفتح العربي حتى استقلالها عن الدولة الفاطمية

(١)

فتح العرب لطرابلس

ما أن انتهى المسلمون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبي سفيان همه الى فتح مدن الساحل الشامي ، ولم يأت عام ١٧ هـ حتى كان قد افتتح صيدا وعرقا وجبيل وبيروت — وهي سواحل — « فتحا يسيرا » ؛ ولم يلق خلال هذه الفتوحات مقاومة ذات شأن من جانب سكان هذه المدن التي جلا معظمهم عنها ، وكان يزيد يقيم على الحصن « اليومين والأيام اليسيرة ، فربما قوتل قتالا غير شديد وربما رمى » ، وقد ساعده على فتح هذه السواحل أخوه معاوية ، بل ان معاوية نفسه هو الذي تولى فتح عرقا (أو عرقة) في ولاية أخيه يزيد «[١]» • ويبدو أن طرابلس استعصت على المسلمين في ولاية يزيد لمناعتها ووثاقة تحصيناتها ، فقد ذكر

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم الأول ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٥٠ • وقد لعبت عرقة دورا هاما منذ أقدم العصور حتى نهاية عصر الحركة الصليبية ، فقد ورد ذكر عرقة في رسائل تل العمارنة باسم أركاتا ، وفي النصوص الأشورية جاء اسمها أركة؛ وفي العصر الروماني كانت هذه المدينة مركزا دينيا هاما
(Dussaud, op. cit. p, 80)

البلاذرى نقلا عن أبى حفص الشامى عن سعيد عن الوضين أن « يزيد بن أبى سفيان وجه معاوية الى سواحل دمشق سوى أطرابلس ، فانه لم يكن يطمع فيها » «٢» ، وكان فتح طرابلس يستلزم حصارا من البر والبحر فى آن واحد ، قد يطول أمده ، كما حدث فى حصار المسلمين لقيسارية الذى دام نحوا من سبع سنوات ، ولذلك رأى يزيد أن يرجىء فتح طرابلس الى أن تتوفر له الامكانيات ، فلم يكن للعرب بعد خبرة بالحصار البحرى ، ثم أن طرابلس بالذات كانت تتطلب لفتحها حصارا بحريا خاصا ، لأنها كانت تمتد على شبه جزيرة المينا ، وكانت تصلها الامدادات البيزنطية بانتظام عن طريق البحر . غير أن يزيد لم يفطن الى أن المدينة على الرغم من حصانتها ، واتصالها البحرى بالروم مهددة بقطع اتصالها بريا مع غيرها من المدن ، وأن فى امكان المسلمين أن يعزلوها عن المناطق والنواحى المجاورة ، ويقطعوا عنها المياه التى يزودها بها نهر قاديشا ، فيضايقوا سكانها ، وقد يدفعهم ذلك الى التسليم .

ولم يطل العهد بيزيد ، اذ توفى فى آخر عام ١٨هـ بدمشق فى طاعون عمواس ، وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق والساحل . ورأى معاوية الذى شارك فى فتح مدن الساحل الحالة السيئة التى آلت اليها تحصينات هذه المدن الساحلية ، فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب ، بعد موت يزيد :

---

(٢) البلاذرى ، ص ١٥٢.

يصف له حال هذه السواحل ، ويقترح عليه انشاء أسطول بحرى للغزو فى البحر ، فرد عليه عمر يأمره « بمرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، واقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها ، ولم يأذن له فى غزو البحر » «(٣)» • وعمل معاوية برأى عمر ، فحصن الثغور الاسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها طوال فصل الصيف ، ويقومون بحراستها فى المناظر والأبراج •

ولكن البيزنطيين كانوا يعتمدون على قوتهم البحرية ، فلم تمض أعوام على فتح المسلمين للسواحل حتى تمكن الروم من التغلب على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر بن الخطاب ، أو أول خلافة عثمان ابن عفان ، ذلك أن قنسطانز الثانى منذ أن ظفر بعرش الامبراطورية البيزنطية وهو يسعى سعيا متواصلا لاسترداد مصر والشام ، معتمدا فى ذلك على تفوق البيزنطيين البحرى على المسلمين : ففى سنة ٢٥ هـ أرسل قنسطانز حملة بحرية مزدوجة الهدف ، فقد قسمها الى حملتين : حملة لمهاجمة الاسكندرية ، وقد نجحت هذه الحملة فى الاستيلاء عليها ، ولكنها أخفقت بعد ذلك عندما تمكن عمرو بن العاص من ايقاع الهزيمة بالبيزنطيين عند نيقيوس ، واستطاع بذلك أن يسترجع الاسكندرية «(٤)» ، والحملة

---

(٣) البلاذرى ، ص ١٥٢

(٤) ابراهيم أحمد العدوى ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٦١ — نفس المؤلف ، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٩٢ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، ص ٤٢

الثانية وجهها الى سواحل الشام ، وقد نجحت هذه الحملة فى استرداد بعض مواضع من الساحل الشامى ، ولكن معاوية يتصدى للروم ويسترجع هذه المواضع بدوره ، ثم يرمها ويشحنها بالمقاتلة ويوزع عليهم القطائع •

وعندئذ رأى ضرورة اصطناع سياسة بحرية مجاراة للروم حتى يتهيأ له افتتاح طرابلس المنيعة ، ويضمن بفضل هذه السياسة الدفاع عن السواحل • وكان الخليفة عثمان بن عفان قد أطلق له العنان فى ادارة بلاد الشام وفقا لما يشتهيه ، فعمد الى انشاء أسطول بحرى فى دار الصناعة بعكا ، واستعان فى صناعة هذا الأسطول ببعض الملاحين من بلاد الشام ومصر ، واستخدم فى صناعته أشجار الأرز بجبل لبنان •

أخذ معاوية يفكر تفكيرا جديا فى محاصرة طرابلس بعد أن تهيأت له السفن ، ويذكر البلاذرى أنه وجه لذلك الغرض « سفيان بن مجيب الأزدى الى طرابلس ، وهى ثلاث مدن مجتمعة ، فبنى فى مرج على أميال منها حصنا سمى حصن سفيان (٥) ، وقطع المادة عن أهلها من البحر (٦) :

---

(٥) يقصد السهل الخصب الممتد على ضفاف نهر قاديشا قبل أن يصب فى البحر ، وأغلب الظن أن هذا الحصن أقيم فى نفس الموضع الذى أقيم فيه حصن صنجيل ، فيمابعد ، عندما قام ريموند دى سان جيل الصليبى بمحاصرة طرابلس ، ولابد أن يكون ريموند الصنجيلى قد تنبه الى أهمية انشاء مثل هذا الحصن فى ذلك الموضع ، بعد أن استعصت عليه طرابلس عدة مرات ، فمن هذا الموضع يستطيع أن يشرف على المدينة الواقعة فى الميناء ، ومنه أيضا يستطيع أن يقطع عنها الميرة والمياه اذا شاء •

(٦) نفهم من ذلك أنه حاصر طرابلس من البحر أيضا ، ومعنى ذلك

وغيره ، وحاصرهم » «(٧)» • ولم يكن المسلمون حتى ذلك الحين قد تمرسوا فى شؤون البحر ، فهم على كل حال مبتدءون فى ثقافته ، ويبدو أن البداوة ستظل غالبة عليهم حتى بعد انتصارهم فى موقعة ذات الصوارى ، ونلاحظ أن الفضل فى هذا الانتصار يرجع قبل كل شىء الى تحويلهم للموقعة البحرية الى موقعة برية ، فقد ربطوا سفنهم فيما بينها وتحولت المعركة على هذا النحو الى ما يشبه المعارك البرية • ولا بد أن يكون عدد السفن العربية المحاصرة لطرابلس صغيرا أو أنها كانت ملازمة للشاطىء حتى نفسر ما حدث بعد ذلك ، فان البلاذرى يذكر أن أهل طرابلس « لما اشتد عليهم الحصار ، اجتمعوا فى أحد الحصون الثلاثة وكتبوا الى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها الى ما قبله ، فوجه اليهم بمراكب كثيرة ، فركبوها ليلا وهربوا ، فلما أصبح سفيان — وكان يبيت كل ليلة فى حصنه ويحصن المسلمين فيه ، ثم يغدو على العدو — وجد الحصن الذى كانوا فيه خاليا ، فدخله » «(٨)» •

فليس هناك تفسيرا آخر لوصول سفن بيزنطية الى الميناء فى غفلة من المسلمين الا بقلة السفن العربية القائمة بالحصار ، ومهارة السفن البيزنطية

= أن عددا من سفن المسلمين رابطت على الساحل أمام الميناء حتى تمنع وصول السفن البيزنطية اليه •

(٧) البلاذرى ، ص ١٥٠

(٨) نفس المرجع ، ص ١٥١

فى التسلل الى الميناء وحمل من شاء من أهل طرابلس الى القسطنطينية .
ونستنتج من هذا النص أن هذه السفن البيزنطية رغم كثرتها ــ حسب ما ورد فى النص ــ كانت عاجزة عن حماية سكان طرابلس لأمد طويل ، ذلك أن حصار المسلمين البرى كان قد أرهقهم ارهاقا شديدا ، ودفعهم على الرغم من وصول النجدة البيزنطية الى الخروج عنها .

وأيا ما كان الأمر ، فقد كتب سفيان بن مجيب الى معاوية عامل الشام بدمشق يبشره بفتح طرابلس وحصنها ، « فأسكنه معاوية جماعة كبيرة من اليهود ، وهو الذى فيه الميناء اليوم ، ثم أن عبد الملك بناه بعد وحصنه » «٩» .

ويبدو أن معاوية قد أدرك أن اليهود قوم لا هم لهم الا تأمين مصالحهم الخاصة ، وأن كثيرا منهم لم يتورع عن خيانة البيزنطيين والانضمام الى صفوف العرب ، فهو لم ينجح فى فتح قيسارية الا لأن يهوديا أتى المسلمين ليلا فدلهم على طريق فى سرب فيه ماء يؤدى الى داخل المدينة «١٠» ، كما أن اليهود والسامرة لم يأنفوا من الاشتغال أدلاء وعيونا للعرب نظير اعفائهم من جزية الرؤوس ومنحهم الأراضى «١١» ؛ لذلك أسكنهم معاوية فى مدينة طرابلس .

---

(٩) المرجع السابق ــ تاريخ ابن الفرات ، ج ص ٧٦
(١٠) نفس المرجع ص ١٦٨
(١١) نفس المرجع ص ١٨٧

(٢)

طرابلس منذ خلافة معاوية الى فتح الفاطميين لمصر

— انتقاض طرابلس على الأمويين :

أصبحت طرابلس بعد ذلك قاعدة بحرية ودار صناعة لتوافر أخشاب الأرز اللبنانى ، وذلك فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ومن خلفه من بنيه ومن بنى مروان . وكان معاوية يوجه اليها كل عام جماعة كثيفة من الجند بشحنها بهم للدفاع عنها اذا ما أغار عليها الروم من البحر ، كما كان يولى عليها عاملا من قبله . وكانت حامية طرابلس تقيم بالمدينة فترة الصيف ، ثم يقفل الجند عن طرابلس الى دمشق عندما ينغلق البحر ، وتصعب الملاحة فيه بسبب الأنواء والعواصف ، فيبقى العامل فى قصره لا يفارقه مع عدد قليل من الجند ، وتغلق أبواب المدينة «١٢» .

ويبدو أن طرابلس انتقضت على معاوية فى أول خلافته ، وتمكن بعض الروم من ذبح عاملها واحراق قطع من الأسطول الاسلامى الراسى فى مينائها «١٣» ، ولكن معاوية تمكن من القضاء على هذه الحركة ، ولعل ذلك كان حافزا على قيامه بنقل جماعة من الفرس ، والأساورة الى سواحل الأردن والشام فى سنة ٤٢ هـ «١٤» ، ومن بينها طرابلس ، فقد ذكر اليعقوبى

---

(١٢) البلاذرى ، ص ١٥١ — تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٦

(١٣) جورجى ينى ، ص ٣٧٨

(١٤) البلاذرى ، ص ١٣٩

فى كتابه البلدان أن « مدينة طرابلس وأهلها قوم من الفرس كان معاوية ابن أبى سفيان نقلهم اليها » «[١٥]» .

ويرى الأب لويس شيخو أن بنى أمية سلموا سواحل الشام للفرس لحراستها من غزوات المردة الذين استقدمهم ملوك القسطنطينية للدفاع عن لبنان وكليكية من غزوات العرب ، وان بيروت بقيت تحت حكم أمراء الفرس الذين منهم الأرسلانيون والتنوخيون ، ولما صار الأمر لبنى العباس أقروا الأمراء المذكورين فى حكمهم على الساحل «[١٦]» ، ومعنى هذا أنه ينسب الأرسلانيين والتنوخيين الذين نزلوا بسواحل لبنان الى الفرس . ولكن الأستاذ محمد عزة دروزة لا يقبل ذلك الرأى ولا يعقله ، فليس من الممكن فى اعتقاده « أن يجلب معاوية عقب فتح بيروت الذى تم فى خلافة عمر جماعة من الفرس ، لأن الفرس لم يكونوا قد خضعوا للسلطان العربى وأسلموا بعد ، وصاروا موضع اعتماد لقتال المردة والروم والدفاع عن السلطان العربى ، ولا تستقيم الرواية كذلك حتى على فرض القول بأن معاوية جلبهم فى عهد ملكه ، لأن الأمويين كانوا يتبعون سياسة عربية ، فلم يكن من المعقول أن يأتوا بجماعة من الفرس ، ويسكنوهم فى سواحل

---

(١٥) أحمد بن أبى يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٣٣٧

(١٦) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ، ١٨٩٨

الشام ليتقووا بهم ، والعرب فى أوج قوتهم وقدرتهم ونشاطهم » «١٧» .
ويعتمد الأستاذ دروزة فى ذلك على ما ذكره الشدياق ، اذ ينسب أعيان التنوخيين والأرسلانيين الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمى «١٨» ، ويذكر أنهم قدموا من العراق مع خالد بن الوليد الى بصرى لنجدة أبى عبيدة بن الجراح «١٩» ، ونحن نميل الى الأخذ بما ذكره الشدياق ، فهو أقرب الى المنطق والصواب . ولقد حرص معاوية بن أبى سفيان على تحصين سواحل الشام ، ففى جبلة أقام حصنا خارجا عن الحصن الرومى القديم ، وفى أنطرسوس ومرقية وبلنياس أسس تحصينات هامة .

وفى خلافة عبد الملك بن مروان ثار أهل طرابلس ، وتحصنوا فى داخل أسوارها ، ولم يتمكن الأمويون استرجاع طرابلس الا فى خلافة الوليد ابن عبد الملك . وفى انتقاض أهل طرابلس يذكر البلاذرى ثلاث روايات ننظمها كما يلى :

الرواية الأولى : أنه فى خلافة عبد الملك ، « قدم فى أيامه بطريق من بطارقة الروم ومعهم بشر منهم كثير ، فسأل أن يعطى الأمان على أن يقيم

---

(١٧) محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجرى ، دمشق ١٩٥٩ ج ١ ص ١٥٤

(١٨) الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق ، أخبار الأعيان فى جبل لبنان ، بيروت ١٩٥٤ ج ١ ص ١٣٣ ، ٢٦٦

(١٩) نفس المرجع ص ١٤٠

بها ويؤدى الخراج . فأجيب الى مسـألته . فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تحين قفول الجند عن المدينة ، ثم أغلق بابها ، وقتـل عاملها ، وأسر من معه من الجنـد ، وعدة من اليهـود ، ولحق وأصحابه بأرض الروم . فقـدر المسلمون بعد ذلك عليه فى البحر وهو متوجه الى ساحل للمسلمين فى مراكب كثيرة فقتلوه . ويقال : بل أسروه وبعثوا به الى عبد الملك فقتله وصلبه » «٢٠» .

الرواية الثانية : جاء فيها « وسمعت من يذكر أن عبد الملك بعث اليه من حصره بأطرابلس ، ثم أخذه سلما ، وحمله اليه فقتله وصلبه . وهرب من أصحابه جماعة فلحقوا ببلاد الروم » «٢١» .

الرواية الثالثة : جاء فيها : « وقال على بن محمـد المدائنى ، قال عتاب بن ابراهيم : فتح أطرابلس سفيـان بن مجيب ، ثم نقض أهلها أيام عبد الملك ، ففتحها الوليد بن عبد الملك فى زمانه » «٢٢» .

أما الرواية الأولى فنستبعد وقوعها لأنهـا رواية يغلب عليهـا طابع الروايات الأسطورية ، واننا نتساءل : هل كان المسلمون من الغفلة بحيث يقبلوا نزول بطريق بيزنطى وفى صحبته عدد كبير من الأعوان فى طرابلس ،

---

(٢٠) البلاذرى ، ص ١٥١ — تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧

(٢١) نفس المرجع

(٢٢) نفس المرجع

دون أن يفرضوا عليهم حراسة أو يضعوهم تحت المراقبة ؟ وهل كان عدد المسلمين فى طرابلس قليلا لدرجـة أن ينجح هذا البطريق هو ونفر من أعوانه فى قتل والى المدينـة وأسر من معه من الجنـد ؟ وما المغزى من انتقاض البطريق بعد عامين من اقامته بطرابلس ثم فراره بعد ذلك منها الى بلاد الروم ؟ وكيف تم للمسلمين القبض عليه بعد أن فر فى عرض البحر الى بلاد الـروم ؟ ونخرج من ذلك كله بأن هـذه الرواية تتضـمن من التشويق وعناصر المفـاجأة ما تتضمنه الروايات القصصيـة ، فهى لذلك لا يعتد بها .

وتبقى بعـد ذلك الروايتان الثانيـة والثالثة ، وكلتاهما مستساغة مقبولة ، ولكننى أميل الى الأخذ بالرواية الثالثة ، فهى رواية ذات اسناد كامل ، وليست رواية شفوية ، ثم انها بدأت بذكر حقيقة ثابتة وهى افتتاح طرابلس على يدى سفيان بن مجيب ، يضاف الى ذلك أن ابن الفـرات ذكرها الى جانب الرواية الأولى المستبعدة ، فقال : « وقيـل انما تغلب عليها ، وقتل من بها بعد وفاة أمير المؤمنين عبـد الملك ، ثم فتحها ولده أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك »[٢٣] .

وظلت طرابلس منذ أن استرجعها المسلمون فى خلافة الوليد تابعـة لدمشق ، يتولاها نائب عن الخليفة ، وكانت تعتبر من سـواحل دمشق

---

(٢٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٧

حاضرة الخلافة الأموية ، وعملا من أعمالها «٢٤» ، فقد أشار الاصطخرى (المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) الى أن طرابلس ثغر تابع لدمشق «٢٥» • ولما كانت طرابلس عمــلا يتصل بدمشق العاصمة ؛ فقد تهمم بها خلفاء بنى أمية ، فحصنوها ورمموا ما وهى من عمــرانهــا وحصونها وشحنوها بالمقاتلة تأهبا لمواجهــة أى هجوم بيزنطى من جهــة البحر ، كما حدث فى خلافة عمر بن عبد العزيز عندما أغار الروم على ساحل اللاذقية فى سنة ١٠٠ هـ ، فهدموا المدينة وسبوا سكانها «٢٦» •

ب ـ طرابلس فى عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية :

ولما قامت الدولة العباسية ظلت طرابلس تابعة لولاية دمشق ، وكل ما طرأ من تغيير أن دمشق لم تعــد عاصمــة الخلافة ، وانما كان يتولى شؤونها عامل من قبل الخليفة العباسى ، كان من جملة اختصاصاته الاشراف على سواحل دمشق ، ومن بينها طرابلس ، وعلى هــذا النحو لم تعــد طرابلس مركزا لوال أو نائب للخليفة كما كان الحال فى العصر الأموى • ومع ذلك فقد تابع الخلفاء العباسيون السياســة الأموية فى الحرص على

(٢٤) نفس المرجع

(٢٥) الاصطخرى (أبواسحق ابراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١

(٢٦) البلاذرى ص ١٥٧

تحصين السواحل كلها بالحصون والمراقب خشية قيام البيزنطيين بالغارة عليها ، فأبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها ، فعمرها وحصنها ، وبنى ما احتاج الى البناء منها • ولما استخلف المهدى أتم ماكان المنصور لم يستكمله فى أيامه ، وزاد فى شحنها بالجند ، وكذلك أمر المتوكل على الله فى سنة ٢٤٧ هـ بترتيب المراكب فى جميع السواحل وشحنها بالمقاتلة «٢٧» •

واستمرت طرابلس تابعة لوالى دمشق الى أن تمكن الأمير أحمد ابن طولون فى سنة ٢٦٤ من الاستيلاء على دمشق وحمص وأنطاكية ؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت طرابلس تابعة لبنى طولون فى مصر • ولا شك فى أن طرابلس كانت من بين السواحل السورية التى اهتم بها ابن طولون، ولكن المصادر العربية تصمت صمتا مطبقا عن ذكر أعماله فى بلاد الشام بوجه خاص ، باستثناء تتف قليلة من الأخبار ، فابن طولون هو الذى عمل على تسوير عكا وشد سلسلة فى مينائها لمنع السفن من اجتيازه «٢٨» ، وخماروية أسس قصرا خارج دمشق على نهر ثورة ، أدنى ديرمران ؛ وفيه قتل فى ٧٢ ذى القعدة سنة ٨٢ هـ (٢٩) •

---

(٢٧) نفس المرجع ص ١٩٣

(٢٨) معجم البلدان ، مادة عكا

(٢٩) سعيد بن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ، ١٩٠٥ ج ٢ ص ٧٢

ولم تلبث طرابلس أن أصبحت تابعة من جديد للدولة العباسية بعد أن تمكن القائد محمد بن سليمان من ازالة الدولة الطولونيـة ، الى أن أصبح محمـد بن رائق الخزرى يتولى أمر الشـام بتقليد من الخليفـة العبـاسى الراضى ، فأصبحت تابعـة له ، حتى بعـد هزيمته على أيدى الاخشيديين فى سنة ٣٢٨ هـ ، فقد اتفق مع محمد بن طغج على أن يحكم ابن رائق الولايات الشاميـة الواقعة شـمالى الرملة نظـير أن يدفع له الأخشيد جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار • غير أن الاخشيد لم يلبث أن ضم أملاك ابن رائق بعـد وفاته ، وظفـر فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٣ هـ بتقليد من الخليفة العباسى المستكفى أقره فيه على ولاية مصر والشام «٣٠» • ولكن سلطان الأخشيديين على دمشق وأعمالها لم يلبث أن تزعزع بعـد أن انهزمت قواتهم على أيدى الحمـدانيين عنـد بلدة الرستن «٣١» ،واستيلاء سيف الدولة على دمشق • ولما استرد الاخشيد دمشق على أثر انتصاره على الحمدانيين فى واقعة قنسرين سنة ٣٣٣ هـ ؛ ووفقا للصلح المنعقد بين الأميرين فى ربيع الأول سنة ٣٣٤ هـ ، أصبحت للاخشيد دمشـق وأعمالهـا بما فى ذلك طرابلس وبيروت «٣٢» • وظل

---

(٣٠) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى على بلاد الشام والعراق ؛ القاهرة ١٩٥٩ ص ١٧

(٣١) كامل حسين بن محمـد البالى الحلبى ، نهر الذهب فى تاريخ حلب ، حلب ١٩٢٦ ، ج ٣ ص ٤٥ ـ جمال سرور ، ص ١٣

(٣٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ القاهرة ١٩٦٣ ص٥٧

سلطان الاخشيديين على دمشق بين مد وجزر الى أن تمكن الفاطميون من الاستيلاء عليها فى سنة ٣٥٩ هـ • وكان من بين عمال دمشق فى عهد الاخشيديين محمد بن يزداد ، والحسين بن لؤلؤ ، ويانس المؤنسى «[٣٣]» ؛ وكان يتولى طرابلس من قبل عامل دمشق فى سنة ٣٥٨ هـ ، وهى السنة الاخيرة من العصر الاخشيدى وال اسمه أبو الحسن أحمد بن نحرير الأرغلى ، كان قد طرده أهل طرابلس لجوره ، فأقام فى قلعة عرقا «[٣٤]» ، وأصبح أهل طرابلس بلا وال • وفى هذه الأثناء أغار البيزنطيون بقيادة الامبراطور نقفور فوقاس على بلاد الشام ، وكان هذا الامبراطور قد وجه كل همه لمحاربة المسلمين ، فغزا الشام غزوات متتاليات ففى سنة ٣٥١ هـ استولى على أهم مدن الثغور ، وفى سنة ٣٥٧ انتهز فرصة تنازع قواد الترك على الوصاية على أبى المعالى سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى ودخل الشام من جديد ، فخافه أبو المعالى ، فخرج من حلب الى بالس ، واستخلف على حلب قرعوية الحاجب ، « فواقعه قرعوية بعسكر حلب ، فأسر قرعوية ، ثم أفلت ، فانهزم أصحابه ، وأسر الروم جماعة من غلمان سيف الدولة ، ثم أن نقفور ملك الروم خرج الى معرة النعمان ففتحها ، وأخرب جامعها ، وأكثر دورها ، وكذلك فعل بمعرة مصرين ، ولكنه أمن أهلها من القتل ، وكانوا ألفا ومائتى نفس ؛ وأسرهم وسيرهم الى بلد الروم • ثم سار الى كفر طاب ، وشيزر ، وأحرق

---

(٣٣) عبد الكريم غرايبة ،العرب والأتراك ، دمشق ١٩٦١ ، ص ١١٧

(٣٤) يحيى بن سعيد الأنطاكى ، كتاب تاريخ يحيى ، نشره الأب لويس شيخو ، ص ١٣١

جامعها ، ثم الى حماة ففعل كذلك ، ثم الى حمص وأسر من كان صار الى تلك الناحية من الفلة ، ووصل الى عرقة ففتحها ، وأسر أهلها ، ثم نفـذ الى طرابلس ، وكان أهلها قد أحرقوا ربضها ، فانصرف الى جبلة ففتحها ؛ ومنها الى اللاذقية » «٣٥» • وذكر يحيى بن سعيد الأنطاكى ، أنه لما نزل طرابلس فى ١٠ من ذى الحجة سنة ٣٥٧ هـ ، أقام عليها تلك الليلة ، وأحرق ربضهـا «٣٦» • أما أبو المحاسن ، فقـد ذكر أنه استـولى على ربض طرابلس «٣٧» • وربض طرابلس المذكور كان يقع فى الموضع الذى قامت فيه مدينة طرابلس المملـوكية ، وكان غير مسور ، ولذلك تعرض لغارة البيزنطيين •

---

(٣٥) ابن العـديم الحلبى (كمال الدين أبى القاسم عمر) ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشره الدكتـور سـامى الدهان ، ج ١ دمشق ١٩٥١ ، ص ١٥٨ •

(٣٦) يحيى بن سعيد ، كتاب تاريخ يحيى ، ص ١٣١ •

(٣٧) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ١٩

(٣)

طرابلس فى النصف الأول من العصر الفاطمى

(منذ خضوعها للدولة الفاطمية الى استقلالها فى عهد بنى عمار)

١ ـ استيلاء الفاطميين على طرابلس :

لم يكد جوهر الصقلى ، قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، ينجح فى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، ويتمكن من اقامة الخطبة للخليفة الفاطمى على منابر مصر بدلا من الخليفة العباسى ، ويشرع فى تأسيس القاهرة المعزية لتكون مركزا للخلافة الفاطمية ، حتى أخذ يولى وجهه شطر بلاد الشام ، ويتطلع لفتحها ، للقضاء على بقايا النفوذ الاخشيدى فيها «٣٨» ، ولتأمين حدود مصر من جهة الشام ، والوقوف أمام الروم والقرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا بلاد الشام وأوقعوا الهزيمة بقوات الاخشيديين فى سنة ٣٥٧ هـ «٣٩» . ولم يمض عام واحد على استقرار جوهر فى مصر حتى سير حملة الى الشام فى أواخر سنة ٣٥٩ هـ ، بقيادة جعفر بن فلاح الكتامى ، الذى تمكن من دخول دمشق فى المحرم سنة ٣٦٠ هـ على أثر انتصاره على

---

(٣٨) السيد عبد العزيز سالم ، الصلات التاريخية بين الشام ومصر فى العصر الاسلامى ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، مايو سنة ١٩٦٤ ؛ ص ٢ .

(٣٩) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ١٦

الاخشيديين فى موقعتين حاسمتين : الأولى فى الرملة ، والثانية فى طبرية .
ولم يكتف جعفر بذلك ، بل سير من دمشق عسكرا عظيما مع غلامه فتوح الى أنطاكية فى سنة ٣٦٠ هـ ، ونازلها فتوح خمسة أشهر ، ولكنها استعصت عليه ، واضطر الى العودة الى دمشق عندما استدعاه جعفر لمواجهة الخطر القرمطى «٤٠» . فلقد ثار أهل دمشق على جيش جعفر مرتين ، لعبثهم بالنظام ، وانتهاكهم حرمة بيوتهم من جهة ، ولأن أهل دمشق كانوا سنيين متطرفين فى عدائهم للشيعة ، والتمسوا معونة الحسن بن أحمد القرمطى، وتضامنوا جميعا مع زعماء العرب فى الشام من بنى عقيل وبنى طىء ، ونجح هؤلاء المتحالفون فى هزيمة جعفر وقتله فى واقعة الدكة بالقرب من دمشق فى سنة ٣٦٠ هـ ، وأدت هذه الهزيمة الساحقة التى منى بها جيش الفاطميين الى انحسار النفوذ الفاطمى الى مصر ، وأصبحت معظم بلاد الشام تابعة للقرامطة الذين أقاموا الدعوة فى بلادها باسم الخليفة المطيع العباسى ، منذ سنة ٣٦٠ هـ الى أن تمكن الفاطميون بقيادة أبى محمود بن ابراهيم بن جعفر بن فلاح من استرجاع دمشق وأعمالها فى سنة ٣٦٣ هـ .

أما طرابلس فقد دخلت فى فلك الدولة الفاطمية منذ دخلت جيوش جعفر بن فلاح دمشق فى سنة ٣٦٠ هـ فأقر على اقليم الغرب بما فيه طرابلس

---

(٤٠) المقريزى ، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٧٨ — تاريخ يحيى بن سعيد ، ص ١٣٩ .

وبيروت وصيــدا الأمير عز الدولة تميم بن النعمـــان بن عامر بن هانىء التنوخي الذى قدم ولاءه للفاطميين «٤١» • وعلى الرغم من الهزيمة التى أوقعها القرامطة وحلفاؤهم العرب بقوات جعفر ، وانحسار النفوذ الفاطمى عن الشام ، فان عز الدولة أمير الغرب ظل مقيمـا على ولائه للفاطميين • فلما نجح الفاطميون بعد ذلك فى استرداد دمشق فى رمضان ٣٦٣ هـ عهد المعز الى ريان الخادم بولاية طرابلس «٤٢» ، وأصبحت طرابلس منذ ذلك الحين ولاية قائمة بذاتها لا تتبع دمشـق ، « وكانت قبل ذلك مضـافة اليها «٤٣» • ولم يطل العهد فى طرابلس بالقائد ريان ، فقد عهد اليه المعز الفاطمى بمهمة مطالعته بحقيقة الأحوال فى دمشق بعد أن بلغه ثورة أهلها على سياسة الظلم والبطش التى يجرى عليهـا عسكر المغاربة ، وفشـل القائد أبى محمود مقدم الجيش الفاطمى فى كف أهل الفساد • وظل ريان الخادم مقيما بدمشق الى أن تمكن أبو منصور التركى المعروف بأفتكين (أو الفتكين أو هفتكين) الذى قدم الى دمشـق مع ثلاثمائة من فرسانه سنة ٣٦٤ هـ من دخولها برغبة أهلها «٤٤» • وكانت مدينة طرابلس وقتئـذ تابعة للأمير عز الدولة تميم الذى كان مقيمـا فى بيروت ، قاعدة امـارة

---

(٤١) الشدياق ، أخبار الاعيان ج ٢ ص ٢٨٦ ـ محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة ، ج ١ ، ص ١٧٧

(٤٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٠

(٤٣) تاريخ ابن الفـرات ، ج ٨ ص ٧٧ ـ ابن شـداد ، الأعلاق الخطيرة ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٦

(٤٤) ابن القلانسى ، ص ١٢

الغرب • فلما تضامن الأتراك بزعامة أفتكين والقرامطة بزعامة الحسن ابن أحمد ، ونجحوا فى ايقاع الهزيمة بجيش جوهر فى الرملة وعسقلان ، أبحر الأمير عز الدولة تميم ، وظالم بن موهوب العقيلى من بيروت الى مصر، فرحب بهما الخليفة العزيز ولاطفهما •

ب ـ ولاة الفاطميين على طرابلس بعد ريان الخادم :

رأى العزيز بالله أن يخرج بنفسه على رأس جيش كثيف لاسترجاع النفوذ الفاطمى فى الشام ، فجعل جوهرا على مقدمة الجيش ، وزحف بجيوشه نحو الشام ، وفى الرملة وقعت بين جيش أفتكين يؤيده القرامطة وبعض قبائل العرب فى الشام وبين قوات العزيز بالله موقعة عنيفة فى المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) ، وفيها انتصر الفاطميون انتصارا حاسما وأوقعوا الهزيمة بقوات أفتكين والقرامطة ، وقد اشترك الأمير عز الدولة تميم مع الفاطميين فى هذه الموقعة ، وأبدى من الشجاعة والاقدام ما اجتذب بهما اعجاب العزيز ، فكافأه العزيز بأن ولاه امارة الغرب وبيروت «٤٥» • أما طرابلس فقد أسندت ولايتها بعد ريان الخادم الى عدد من الولاة نذكرهم بالترتيب التاريخى كما يلى :

١ ـ القائد نزال الكتامى

من وجوه قواد عيسى بن نسطورس وزير العزيز بالله ، ومن أقدر صنائعه وخواصه (*)، وتولى بعد ريان الخادم ، وورد ذكره فى ذيل تاريخ

---

(٤٥) الشدياق ، أخبار الأعيان ، ج ٢ ص ٢٨٨

(*) الروذراورى ، ذيل كتاب تجارب الأمم ، ج ٣ ، طبعة مصر ١٩١٦ ص ٢٠٩ •

دمشق فى سنة ٣٧٨ هـ ، وقد استمر القائد نزال فى ولاية طرابلس فترة طويلة دامت ثمان سنين (حتى ٣٨٦ هـ) ، ويعتبر من أبرز ولاتها فى العصر الفاطمى وأكثرهم كفاية ، وقد اشترك فى سنة ٣٧٨ هـ فى اخماد حركة منير الصقلبى بدمشق الذى كان قد خرج على الخليفة العزيز بالله «[٤٦]» . كذلك ظهرت حنكته السياسية وحسن تصريفه للأمور فى الأحداث التى جرت فى شمال الشام فى ذلك الوقت «[٤٧]» .

٢ — جيش بن محمد بن الصمصامة :

كان قد تولى أمر دمشق قبل القائد أبى محمود فى سنة ٣٦٣ هـ ، وذلك بعد أن صرف القائد ظالم بن موهوب عن ولايتها ، ثم تولى أمر طرابلس لفترة قصيرة من سنة ٣٨٦ هـ .

٣ — على بن جعفر بن فلاح :

قلده أخوه سليمان بن جعفر القائد ولاية طرابلس بعد أن صرف عنها جيش بن الصمصامة وذلك فى خلافة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ «[٤٨]» .

٤ — الأمير تميم التنوخى :

ولى أمر طرابلس بعد على بن جعفر بن فلاح فى نفس عام ٣٨٦ هـ «[٤٩]» .

---

(٤٦) يحيى بن سعيد ، ص ١٧٣

(٤٧) ابن القلانسى ، ص ٣٠ — ٣٤

(٤٨) ابن القلانسى ، ص ٤٨

(٤٩) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٩

٥ ـ ميسور الخادم :

صرف الحاكم تميما عن طرابلس وولاها لقائده ميسور الصقلى سنة ٣٨٧ هـ «٥٠»

٦ ـ القاضى ابو الحسن على بن عبد الواحد بن حيدرة الكتامى :

تولى أمر طرابلس فى سنة ٣٨٧ ، ويعتبر من أعظم ولاة الفاطميين على طرابلس (٣٨٧ ــ ٤٠٠ هـ) وقد اشترك مع ابن الصمصامة فى محاربة الدوقس عظيم الروم ، الذى نزل فى عسكر كثيف الى الشام على حصن أفامية «٥١» كذلك خرج بأسطول طرابلس فى سنة ٣٨٧ هـ لمحاصرة العلاقة الثائر على الفاطميين فى مدينة صور «٥٢» .

٧ ـ القائد ابو سعادة :

كان الوالى الرسمى لطرابلس فيما بين سنتى ٤٠٠ ، ٤٠٧ هـ ، وقد اشترك مع القاضى على بن عبد الواحد بن حيدرة لنجدة مرتضى الدولة منصور بن لؤلؤ أمير حلب ضد أبى الهيجاء ، وكان القاضى ابن حيدرة

---

(٥٠) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ص ٣٠٠ ، ملحق ٢ ــ ابن القلانسى ص ٥١ الشدياق ص ٢٨٩

(٥١) ابن القلانسى ص ٥١

(٥٢) نفس المرجع

المـذكور هو المستـولى وقتئـذ « على النظـر فى طرابلس وفى سائر الحصون » «٥٣» •

٨ ـ مختار الدولة بن نزال الكتامى :

ولى أمر طرابلس فى سنة ٤٠٧ هـ «٥٤» ، وقد ظل يتولى أمر طرابلس حتى توفى فى سنة ٤٦٢ هـ ، وعنـدئذ أعلن القاضى أبو طالب بن عمـار استقلاله عن الخلافة الفاطمية «٥٥» •

ج ـ غارات البيزنطيين على طرابلس :

اولا ـ حملة ابن الشمشقيق سنة ٣٦٥ :

كان الامبراطور البيزنطى حنا زيمسكيس Zimiskes الذى يعرف فى المصادر العربية باسم ابن الشمشقيق قد وطد العزم على القيام بحملة صليبية واسعة النطاق ضـد المسلمين فى الشام «٥٦» سالكا فى ذلك نفس السبيـل الذى سلـكه الامبراطور نقفور فوقاس من قبل • وقد وفق ابن الشمشقيق فى اختيار الوقت المناسب للشروع فى هذه الغزوة ، فقـد كان الفاطميون يواجهون وقتئذ متاعب لا حصر لها فى الشام ، اذ خرجت

---

(٥٣) ابن العديم ، ج ١ ص ٢٠٠ ـ يحيى بن سعيد ، ص ٢١٠

(٥٤) ابن العديم ، ج ١ ص ٢١٥

(٥٥) Wiet, Banū 'Ammār, in Ency. of Islam, new édition, Vol. I, p. 448

(٥٦) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٤

دمشق من سلطانهم ، ووقعت فى يد أفتكين التركى «٥٧» كانت الفرصة مواتية لابن الشمشقيق لكى يغزو بلاد الشام ، ويدخل بيت المقدس ؛ ففى سنة ٣٦٥ هـ « خرج ابن الشمشقيق الى الثغور ، فاستولى على أكثرها ؛

---

(٥٧) هو الحاجب أبو منصور الفتكين المعزى ، أختير زعيما للاتراك فى بغداد بعد وفاة سبكتكين المعزى ، على أثر عصيانه لعز الدولة بختيار ؛ ولكن الفتنة بين الأتراك والديلم لم تلبث أن احتدمت بعد خلع المطيع ؛ فزهد الفتكين فى الاقامة ببغداد وخرج منها بفرقة من رجاله عدتها ٣٠٠ فارس ، ونزل بظاهر دمشق ، حيث طلب منه أهلها أن ينزل فى بلدهم ويتولى أمورهم ويكف ما لحقهم على أيدى العسكر المغاربة من ضرر ؛ فأجابهم الى ما التمسوه . ولم يشأ الفتكين أن يدخل فى حرب سافرة مع الفاطميين فى الوقت الذى لم يكن قد تمكن بعد من تثبيت أقدامه فى دمشق ، فتظاهر بالولاء للفاطميين ، « فأجابه المعز بالقبول ، ودعاه لزيارته » ، وعندئذ أدرك أن الخليفة ينوى اجتذابه الى القاهرة ليقضى عليه ، فأعلن عن عدائه للفاطميين ، بأن أمر بذكر الخطبة للخليفة العباسى الطائع ، واتجه الى صيدا ، واستولى عليها ، ثم زحف الى عكا ، ومنها الى طبرية . ولما قدمت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلى ، وحاصرت دمشق ، استنجد الفتكين بالحسن بن أحمد القرمطى ، فأنجده ، واضطر جوهر الى الانسحاب الى الرملة ومنها الى عسقلان ، فتحصن فيها ، وحاصرته قوات الأتراك والقرامطة . وحاول جوهر أن يتفاهم مع الفتكين ، ودعاه الى الصلح ، وما زال به حتى أجابه الى طلبه نظير قدر معين من المال ، واشترط عليه أن يخرج من باب عسقلان من تحت سيف الفتكين ورمح الحسن بن أحمد ، وأرغم جوهر على قبول هذا الشرط المهين ، وعاود الفاطميون الكرة ، وخرج العزيز بنفسه فى هذه المرة ، واشتبك فى معركة عنيفة بالرملة مع الفتكين والحسن القرمطى فانتصر العزيز ، ووقع الفتكين بين يدى العزيز أسيرا ، فعفا عنه وأحسن معاملته . (ارجع الى ابن القلانسى ص ١٧ ، ١٨ — جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ص ٤٣)

واضطر بعض بطون العرب الى الدخـول فى طاعته ، ثم افتتح حمص ، واستولى على بعلبك ، وواصل زحفه الى دمشق «٥٨» فلم يجد أفتكين بدا من الدخول فى طاعته ، وأعلن له الولاء ، وتعهـد بدفع مائة ألف درهم ، ولكن ابن الشمشقيق الذى أعجبه منه اخلاصه وولاءه ، أعفاه من هـذا المال «٥٩» .

ثم سار الامبراطور البيزنطى جنـوبا بحذاء الساحل فوصـل الى صيدا ، وخرج والى صيدا ، أبو الفتح بن الشيخ ، فهـاداه وهادنه على

---

(٥٨) ابن القلانسى ، ص ١٢ . يصور ابن القلانسى كيف أذل أفتكين نفسه أمام الامبراطور البيزنطى ونزل على حكم اشارته للحفاظ على ولايته فى دمشق ، فيذكر أنه « خرج لمقابلة الملك فى ثلثمائة غلام فى أحسن زى وعدة ، واصطحب مع أشراف البلد ، وتوسط ابن الزيات ، بينه وبينهم على تقرير مائة ألف درهم ، وسار ابن الشمشقيق الى دمشق لمشاهدتها ، فلما وصل اليها ونزل بظاهرها ، استحسن ما رآه من سـوادها ، وتقـدم الى أصحابه بكف الأذية عن أهلها ، وترك الاعتراض لشىء من عملها ، ودخل الفتكين والشيوخ الى البلد لتحصيـل الملاطفات التى يخدم مثله بمثلها ، وتحصيل المـال . ولما خرج الفتكين تظاهر بالتـذلل لابن الشمشقيق ؛ وترجـل له ولأصحابه ، وقبلوا الارض بين يديه ، فسر الملك ، وأمرهم بالركوب ، وكان الملك فارسا يحب الفرسان ، فلعب الفتكين بين يديه لعبا استحسنه ، وشاهد من فروسيـة الفتكين ما أعجبه ، فتقدم اليه بالزيادة فى اللعب ، ففعل ، وأثنى الملك عليه ، فقال : هذا غلام نجيب ، وقد أعجبنى ما شاهدته منه » (ارجع الى ابن القلانسى ، ص ١٤) .

(٥٩) نفس المرجع

مال «٦٠» وما ان وصلت جيوش ابن الشمشقيق الى قيسارية واستولت عليها حتى ارتد الامبراطور مسرعا الى الشمال ، فحاصر بيروت وافتتحها عنوة ، ولم يكن مصير جبيـــل بأحسن من مصير بيروت ، وأخيرا وصلت قواته أمام طرابلس مرهقة مكدودة بعد هذه الغزوة الطويلة ، وحاصرت طرابلس ، ولكنها لم تستطع أن تدخلهـا لمناعة أســوارها وحصانتـها ، واشتبكت حامية المدينة ، يعاونها الأسطول الفاطمى مع القوات البيزنطية فى قتال عنيف انتهى بهزيمة البيزنطيين «٦١» • وعادت الحاميـة الفاطمية الى التحصن فى المدينة ، وطال حصار ابن الشمشقيق لطرابلس ، فاستمر أربعين يوما يقاتل أهلها ويقاتلونه دون أن يصل الى نتيجة «٦٢» ، ولمـا أدرك استحالةدخولها ، رأى الانصراف عنها ، فرفع الحصار ، ورحل الى أنطاكية فى طريقه الى بلاده حيث توفى فى العام التالى •

ثانيا ــ حملة بسيل الثانى الأولى (٣٨٥ هـ ــ ٩٩٥ م) :

كان بسيل الثانى مشـــغولا بمحاربة البلغار عندما وصله ملكويا السيرافى ، رسول سعيــد الدولة أبى الفضـــائل الحمدانى صاحب حلب

---

(٦٠) ابن القلانسى ، ص ١٤

(٦١) محمد جمال الدين سرور ، دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية فى العصـــور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٣١ ــ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٦

(٦٢) ابن القلانسى ، ص ١٤

يستغيث به من جيوش الفاطميين التى تهاجم حلب بقيادة منجوتكين ٠ وكان من الطبيعى أن يتحرك بسيل لدفع الخطر الفاطمى عن حدود بلاده، ونجدة حليفه الحمدانى ، فزحف بجيش كثيف نحو بلاد الشام ، ونزل بحلب ، ثم واصل السير الى شيزر وحاصرها ، فاضطر صاحبها منصور بن كراديس ، أحد قواد العزيز بالله الفاطمى الى طلب الأمان نظير مال وثياب قدمهما الى بسيل ، وسلم اليه الحصن «٦٣» ٠ ثم حاصر حمص وافتتحها عنوة ، ثم افتتح رفنية ومن هناك زحف تجاه طرابلس ؛ وهى على حد قول ابن القلانسى ثغر « برى بحرى متين القوة والحصانة ، شديد الامتناع على منازلته » «٦٤» فحاصره أكثر من أربعين يوما ، وقد بذل ما شاء أن يبذله من الجهد فى سبيل افتتاحه ، أو نقب ثغرة يصل اليه منها ، ولكنه أخفق فى سعيه ، واضطر الى الرحيل الى بلاد الروم ٠ ويذكر يحيى بن سعيد الأنطاكى ، أنه « نزل على طرابلس وحاصرها ، وخرج اليه المظهر بن نزال (لعله المظفر) وجماعة من وجوه أهلها ، وطرحوا أنفسهم بين يديه ، وأعلموه أنهم فى طاعته ، فخلع عليهم وأحسن اليهم ، وعادوا الى البلد على أن يسلموه اليه ٠ وكان فى البلد قاض يعرف بعلى بن عبد الواحد بن حيدرة من أهله ، فأغلق هو والرعية الباب فى وجوههم ، وأخرج عيال المظهر بن نزال من البلد ، فأخذهم وسار

---

(٦٣) نفس المرجع ص ٤٣ — أبو المحاسن ، ج ٤ ص ١٢١

(٦٤) نفس المرجع ص ٤٤

مع الملك ونزل على حصن أنطرطوس وعمره فى ثلاثة أيام ، وكان قبل ذلك خرابا ، وشحنه بالأرض والمقاتلة ، ورحل الى أنطاكية ، وولى عليها بطريقا دوقسا يسمى ذاميانوس ... وغزا ذميانوس الدوقس فى أول سنة من ولايته طرابلس وكبسها ليلا ، وأخذ ربضها وأسر كثيرا وعاد بعد ثلاثة أشهر الى عرقة ، وسبى جماعة منها ، وغزا فى السنة الثانية من ولايته الى طرابلس ، وسبى من بلادها كثيرا » «٦٥» .

ثالثا — حملة بسيل الثانى الثانية سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) :

عز على الخليفة العزيز بالله أن يتراجع جيشه الى دمشق ، وعظم عليه أن يتوغل البيزنطيون فى الشام على النحو الذى وضحناه ، فاستقر رأيه على الخروج بنفسه على رأس حملة برية لفتح حلب وارسال أسطول ضخم الى طرابلس . وفى نفس الوقت انتهز فرصة عودة بسيل الثانى الى بلاده وأمر قواته بمهاجمة أنطاكية . أما عن مشروع حملته البرية فلم يتهيأ له أن يتحقق ، اذ ما كاد يصل الى بلبيس حتى اعتل علة شديدة ، فتوفى فى سنة ٣٨٦ هـ ، وأما الأسطول فقد تعرضت قطعة لعاصفة عاتية حطمته بالقرب من طرابلس وأسر الروم بعض رجاله «٦٦» .

أخذ بسيل يفكر من جديد فى غزو الشام فأخذ يترقب الفرص للتدخل

---

(٦٥) يحيى بن سعيد ، ص ١٧٧

(٦٦) نفس المرجع ، ص ١٧٨

الحزبى ، وحدث فى سنة ٣٨٧ هـ أن ثار بمدينـــة صور ملاح يعرف باسم العلاقة ، تمكن هو ورفاقه من قتـــل قواد الحامية الفاطميـــة ، واستقل بالمدينة ، فأرسل برجـــوان الخادم جيشـــا بقيـــادة جيش بن الصمصامة وياقوت الخادم وأبى عبدالله الحسين بن ناصر الدولة لمنازلة صور وفتحها، ثم سير عشرين سفينة حربية مشحونة بالرجال لمحاصرة صور من البحر ، وكتب الى والى طرابلس على بن حيـــدرة والى والى صيـــدا ابن شيخ بالابحار بأسطوليهما الى صور ، فاستغاث العـــلاقة بالامبراطور بسيل ، فيسير اليه « عدة مراكب فى البحر مشحونة بالرجال ، والتقت هذه المراكب مع مراكب المسلمين ، فانهزم الروم » «٦٧» ، وقتـــل المسلمون منهم مائة وخمسين رجلا ، وتمكنوا من اقتحام صور ، وأسروا العلاقة «٦٨» . وفى هذه الأثناء استغل بسيل هذه الفرصة وأمر الدوق ذاميانوس الدلاسنوسى، الذى يسمى فى المصادر العربيـــة بالدوقس عظيم الروم «٦٩» ، بمهاجمة أراضى المسلمين ، فتصدت له القوات الفاطمية وأنزلت به الهزيمة .

بعد هـــذه الهزائم المتواصلة اضطر الامبراطور الى معاودة الغزو بنفسه ، ففى سنـــة ٣٨٩ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٩٩٩ م) ســـار الى شيزر

---

(٦٧) ابن القلانسى ، ص ٥٠

(٦٨) ابن القلانسى ، ص ٥٠ ــ عبد الكريم غرايبة ، العرب والأتراك ، ص ٢٢٢ ومايليها .

(٦٩) يحيى بن سعد ، ص ١٧٧

وحاصرها ، فسلمها ابن كراديس بالأمان ، وشحنها بسيـل بالأرمن ، ثم انتقل منها الى حصن أبى قبيس ، فاستولى عليه بالأمان ، ثم استولى على حصن مصياف وأخربه • وزحف الى رفنية ، فأحرقها وسبى أهلها ، ومضى فى طريقه يحرق ويدمر ويسبى حتى بلغ حمص فنزلها ، وأحرق من اعتصم من أهلها بكنيسة مار قسطنطين ، وسار الى بعلبك ، فاستولى عليها ، ومن هناك تتبع الطريق الساحلى ، فأحرق عرقة ، وهدم حصنها ، ثم نزل على طرابلس فى ذى الحجة سنة ٣٨٩ هـ • وهاجم عسـكره حصن طرابلس ، وكان يقع وفقا لوصف ناصرى خسرو فى الجانب الشرقى من المدينـة ، وكان مبنيا من الحجر المصقول ، وبأعلاه شرفات تتوزع بينـها المقاتلات الحجرية والعرادات «٧٠» ، وخنـدق الروم حول معسكرهم ، ثم قطعوا قناة الماء التى تصل الى الحصن وفى هذه الأثناء ، وافاه شلنديان يحملان زادا وعلوفة ، فتقوى بهما عسـكره ، فسير سرية الى بيروت وجبيل ، فأغارت عليهمـا ، وأسرت عـددا من أهلهما • ثم نشب القتال بينه وبين حامية حصن طرابلس برا وبحرا فى مستهـل المحرم سنة ٣٩٠ هـ ، فقتل كثير من أصحابه ، وهكذا عجز بسيل للمرة الثانية عن اقتحام طرابلس ، فاضطر الى الرحيل فى ٥ من المحرم الى أنطاكية عن طريق اللاذقية «٧١» •

---

(٧٠) ناصرى خسرو ، سفرنامة ، ترجمـة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣

(٧١) ارجع الى : أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص٢٠ ــ يحيى بن سعيد ، ص ١٨٤ ــ أسـد رستم ، الروم والعرب ، بيروت ١٩٥٦ ج ٢ ص ٥٦ ــ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٦٩

الفصل الثانى

طرابلس إمارة عربيـة مستقـلة فى ظل بنى عمـار

(١) المرحلة الأولى : ٤٦٢ ــ ٤٩٢ هـ

(٢) المرحلة الثانية : ٤٩٢ ــ ٤٩٥ هـ

(٣) المرحلة الثالثة : ٤٩٥ ــ ٥٠١ هـ

الفصل الثانى

طرابلس امارة عربية مستقلة فى ظل بنى عمار

(١)

المرحلة الاولى : ٤٦٢ ـ ٤٩٢ هـ

١ ـ تاسيس الامارة :

تمكن الفاطميون فى عصر الحاكم بأمر الله من السيطرة التامة على بلاد الشام «١» ، بعد أن عقد مع الامبراطور البيزنطى بسيل الثانى هدنة لمدة عشر سنوات ، وبعد أن قضى على حركة بنى جراح الطائيين فى فلسطين ، وعلى سلطان الحمدانيين فى حلب . وفى عهد الظاهر لأعزاز دين الله تمكن بنو مرداس الكلابيين من تأسيس امارة لهم فى حلب ، واضطر الخليفة الفاطمى الى محاربتهم حينا ، ومسالمتهم حينا آخر ، مما أتاح الفرصة لنشر الاضطراب فى هذا القسم الشمالى من بلاد الشام . وقد أدت هذه الفوضى المستحكمة فى فلسطين وحلب ، بالاضافة الى الضعف الذى منيت به الدولة الفاطمية منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى الى طمع السلاجقة فى الاستيلاء على حلب ودمشق . ففى سنة ٤٦٢ أعلن أمير حلب محمود بن صالح المرداسى ولاءه للسلاجقة،

---

(١) عبد المنعم ماجد ، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٣٣ ـ ١٣٦

وفى سنة ٤٦٥ هـ عهـد ملكشاه الى أتسز التركمانى المعـروف بالأفسيس بالاستيلاء على الشام ، ففتح الرملة وبيت المقـدس ، وتمكن من افتتاح دمشق فى سنة ٤٦٧ هـ • ولم يكتف أتسز بذلك ، بل هاجم مصر ، وتوغل فى أراضيها ، ولكنه لم يلبث أن انهزم على أيدى الفـاطميين ، وفر الى غزة ومنها الى دمشق • ولما حاصرته القوات الفاطميـة فى دمشق ، زحف لنجدته تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان — وكان يحاصر حلب — وتمكن تتش من دخول دمشق فى سنـة ٤٧١ هـ ، وقتل أتسز • وكان الفاطميون ما يزالوا يحتفظون ببعض السواحل السورية ، فوجه السلاجقة همهم الى الاستيلاء على تلك السواحل ، وتمكن تتش بمساعدة نواب ملكشاه فى حلب والرها من الاستيلاء على حمص وعرقة وأفامية ، ولما قتل تتش فى فى سنة ٤٨٨ هـ ، اقتسم ولداه رضـوان ودقاق بلام الشام ، فاستـقل رضوان بولاية حلب ، وقنع دقاق بولاية دمشق ، ولكن الخلاف لم يلبث أن نشب بين الأخوين ، وانتهز الأفضـل شاهنشـاه وزير المستعلى هذه الفرصة ، فحاول استرجاع النفوذ الفاطمى على الشام ، وتمكن فى سنـة ٤٨٣ من الاستيلاء على بيت المقدس بعـد أن تغلب على ايلغازى وسقمان ابنى أرتق «٢» •

---

(٢) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى على بلاد الشام ، ص٥٩ — ٦٥ — عبـد المنعم ماجـد ، الامام المستنصر بالله الفـاطمى ، القـاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠٠

وفى الوقت الذى بدأ سلطان الفاطميين على الشام يتخلخل ، وتتجلى نوايا السلاجقة ومطامعهم فى الشام ، كان قاضى طرابلس أبو طالب الحسن بن عمار «[٣]» يراقب هذه الأحوال السيئة ، فأخذ يعمل من جهته على الافادة من هـذه الاضطرابات ، ليحفظ لطرابلس استقلالها بين هـذه الأنواء والعواصف الهوجاء ، ولاشك أن القاضى المذكور لم يكن من الشخصيات البارزة فى طرابلس فحسب بل فى بلاد الشام كلها ، بدليل أننا نراه فى سنة ٤٥٩ هـ يقوم بالتوسط بين محمود بن نصر المرداسى بحلب المعروف بمحمود ابن الروقلية وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فقد بعث المستنصر الى محمود بن نصر ، « يطالبه بحمل المـال وغزو الروم ، وصرف ابن خاقان ومن معه من الغز ان كان على طاعته ، فأجاب : بأننى التزمت على أخـذ حلب من عمى أموالا اقترضتها وأنا مطالب بها ، وليس فى يدى ما أقضيها عما أصرفه لغيره ، وأما الروم منذ هادنتهم مدة وأعطيتهم ولدى رهينـة على مال اقترضته منهم فلا سبيـل الى محاربتهم ، وأما ابن خاقان والغز معه فيدهم فوق يدى » وعنـدئذ أمر المستنصر بالله بدر الجمالى واليه على دمشق بمحاربته ، فتدخل القاضى ابن عمار بينهما وأصلح الحال «[٤]» .

---

(٣) ذكر المقريزى أنه القاضى الأجل أمين الدولة أبو طالب عبد الله ابن محمد بن عمار بن الحسين بن قنـدس بن عبد الله بن أدريس بن أبى يوسف الطائى ، وأنه توفى بطرابلس الشـام فى ليلة السبت نصف رجب سنة ٤٦٤ هـ (أنظر : المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٦٦)

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٧٩

ولا شك أن القاضى ابن عمار لم يكن قد أعلن بعد استقلاله بطرابلس فى هذا التاريخ (٤٥٩ هـ) ، كما يزعم الدكتور عبد الكريم غرايبة «٥» فمن الثابت تاريخيا أنه أعلن استقلاله فى سنة ٤٦٢ هـ على حد قول ابن القلانسى «٦» .

ويعلق الأستاذ جاستون ڤييت على ذلك بقوله : « لم يحدد تاريخ استقلال الحسن بن عمار مؤسس هذه الأسرة بطرابلس بعد ، ويعتقد سوبرنهايم أن ذلك تم فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فان الذهبى المؤرخ يؤكد أن ابن عمار قاضى طرابلس استولى على شؤون الحكم فى طرابلس فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) وكانت هذه السنة سنة نكبة على الدولة الفاطمية ، اذ أعلنت دمشق وصور وفلسطين استقلالها فى هذا التاريخ » «٧» . ويذكر ابن القلانسى أن ثغرى صور وطرابلس قد تغلب عليهما قاضياهما ، وأصبحا « ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش ، بل يصانعان الأتراك بالهدايا والملاطفات » «٨» . وفى موضع آخر يذكر ابن القلانسى أن ابن أبى عقيل استولى على صور ، وأن القاضى ابن عمار استولى على

---

(٥) عبد الكريم غرايبة ، العرب والأتراك ، ص ٢٤٠

(٦) ابن القلانسى ، ص ٩٧

(٧) Gaston Wiet, Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu 'Ammār, dans Mémorial Henri Basset, publ. par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, t. XVIII, Paris 1928, p. 280

(٨) ابن القلانسى ، ص ١١٢

طرابلس ، وأن ابن حمدان استولى على الرملة والساحل ، ولم يبق لأمير الجيوش بدر الجمالى سوى عكا وصيدا «٩» .

كان ابن عمار هـذا رجلا عاقلا سديد الرأى ، وكان فقيها شيعيا ، فاستقل بمدينة طرابلس ، وتلقب بأمين الدولة ، والتزم سياسة حيادية ازاء الفاطميين والسلاجقة ، فهو على الرغم من خروجه على الدولة الفاطمية لم يعلن عداءه لها ، حتى لا يثير عليه أهل طرابلس الذين كانوا يميلون الى الفاطميين ، كما أنه لم يتورط فى الخضوع للسلاجقة ، فاكتفى بملاطفتهم بالهدايا ، وستتطور هذه السياسة فى عهد جلال الملك خليفته من بعده .

وفى امارة أمين الدولة أبى طالب بن عمار لجأ الى طرابلس سديد الملك بن منقذ صاحب شيزر سنة ٤٦٥ هـ فرارا من محمود بن نصر بن صالح المرداسى ، الذى استقل بحلب ، متبعا سياسة حفظ التوازن بين جبهة مصر الفاطمية والسلاجقة «١٠» ، فوجد سديد الملك فى طرابلس البلد الأمين الذى يمكن أن يقيم فيه آمنا من محمود بن نصر «١١» ، وفى ذلك دليل آخر على أن أمين الدولة ابن عمار كان يتبع سياسة حيادية بين المعسكرين السلجوقى والفاطمى ، فعلى الرغم من اتفاقه فى سياسته مع ابن نصر

(٩) نفس المرجع ص ٩٧

(١٠) عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، ص ٧٣

(١١) ابن العديم الحلبى ، ج ٢ ص ٣٥

المرداسى ، فقد أبى أن يسلم اليه سديد الملك بن منقذ ، ومع ذلك ؛ وبفضل سياسة أمين الدولة ، فانه نجح فى احتفاظ طرابلس باستقلالها فى تلك الآونة المشحونة بالاضطرابات «١٣» •

وعمل ابن عمار على رفع طرابلس الى مصاف الحواضر الشامية الكبرى ، فأسس بها دار العلم التى حوت من الكتب ما يزيد على مائة ألف كتاب ، وكان ابن عمار نفسه كاتبا قديرا ، فهو الذى صنف كتابه « ترويح الأرواح ومصباح السرور والأفراح » «١٣» • وتوفى أمين الدولة ابن عمار فى رجب سنة ٤٦٤ هـ بعد عامين فقط قضاهما فى امارة طرابلس •

ب ــ عصر جلال الملك ابو الحسن على بن عمار (٤٦٤ ــ ٤٩٢ هـ) :

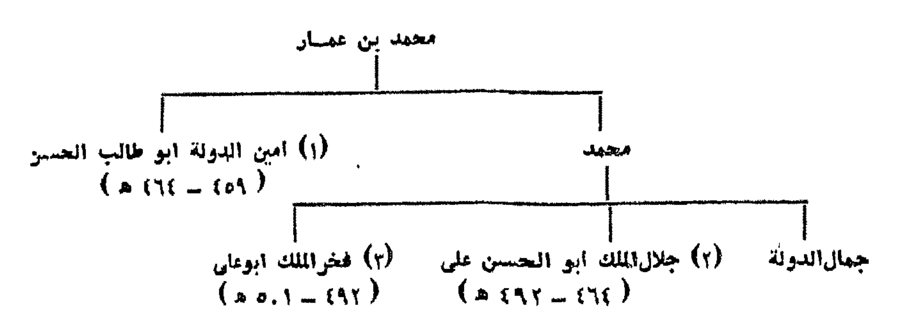
يغلب على الظن أن أمين الدولة بن عمار توفى دون أن يعقب ، فقام النزاع على امارة طرابلس بعد وفاته بين ابنى أخيه محمد ، وهما فخر الملك أبو على وجلال الملك أبو الحسن على ، وذلك بعد أن استبعد محمد أخو أمين الدولة • ويرجع الفضل الأعظم فى حسم هذه المشكلة الى سديد

---

(١٢) ذكر ابن العديم ان بنى عمار كانوا ينفرون من الشاعر أبى الفتيان بن حيوسى « لميله الى الدولة المصرية » ، فأشار عليه سديد الملك بن منقذ الذى كان يقيم بطرابلس بأن يقصد محمود بن نصر المرادسى بحلب (ابن العديم ج ٢ ص ٤٠)

(١٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧

الملك بن منقذ الذى أيد جلال الملك على بن عمار ، وعاضده بمماليكه «١٤» ؛ وقد كان لذلك أكبر الأثر فى تعظيم جلال الملك لابن منقذ ، فارتفعت مكانته عنده ، حتى أصبح بشريك له فى امارة طرابلس «١٥» .



ويعتبر جلال الملك أعظم أمراء بنى عمار على الاطلاق ، فقد تمكن من تدعيم مركزه فى طرابلس خلال ثلاثين عاما وسط العواصف السياسية التى كانت تجتاح بلاد الشام . وتدل الأحداث التى وقعت فى عصره على حنكته السياسية وعلى براعته فى تصريف الأمور ، فلقد رأينا أن عمه أمين الدولة اتبع سياسة حيادية بين المعسكرين الفاطمى والسلجوقى ، وحافظ على هذه السياسة حتى وفاته ، وفى أيام جلال الملك كانت امارة طرابلس محط أنظار كل من الفاطميين الذين فقدوا معظم أملاكهم فى الشام ، والسلاجقة الذين تمكنوا من بسط نفوذهم فى دمشق وحلب وغيرها من مدن الشام ، ففى بداية امارته أظهر ميلا نحو الفاطميين حين لا يكتسب عداوتهم ،

(١٤) نفس المرجع ص ٧٧ — ابن العديم ، ج ٢ ص ٣٥ — أبو الفداء ، ج ٤ ص ٩٧ — ابن لأثير ، ج ٨ ص ١١١

Wiet, Banu 'Ammàr, Ency. of Islam

(١٥) ابن العديم ، ج ٢ ص ٣٥

فعندما لجأ اليه صهره الأمير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامى خوفا من أن يقع فى أيدى الفاطميين فيقتلوه ، لم يتردد جلال الملك فى تسليمه للسلطات الفاطمية بالقاهرة ، حيث اعتقل وهلك فى معتقله قتلا بالنعال فى سنة ٤٨١ ، «١٦» ولدينا عملة من طرابلس باسم المستنصر بالله بتاريخ ٤٧٥ هـ مما يدل على محافظته على علاقات الود مع الفاطميين «١٧» . ويبدو أنه سلك هذا المسلك حتى يجنب نفسه عداء الفاطميين ، ولا يثير عليه أهل طرابلس الذين كانوا يظهرون ميلهم للفاطميين «١٨» . وقد عثر فى طرابلس على نقش من الكتابة الكوفية فى لوحة حجرية مكسورة نصها :

« بسم » (الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من) « آمن بالله واليوم » (الآخر وأقام الصلوة وآتى الزكاة ولم) « يخش الا الله فعسى أو » (لئك يكونوا من المهتدين هذا ما أنشأ) « تقربا الى الله تعالى ورغبة فى ث » (وابه القاضى ... جلال الملك (« أبو الحسن على بن محمد بن ع » (مار ... فى سنة ... وأ) « ربع مائة وجرى ع » (لى يدى ...) «١٩» .

---

(١٦) ابن القلانسى ، ص ٩٦

(١٧) عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر ص ١٨٤

(١٨) Wiet, Une inscription, p.284

(١٩) Repertoire Chronologique d'Epigraphie arabe - Ibid. p. 279 t. 8, p. 42

ونلاحظ فى النص السابق أن الكتابة المنقوشة على اللوحة هى الكتابة النسخية المحصورة بين أقواس صغيرة .

ولقد قام الأستاذ ڤييت بدراسة هذا النص ، ويعتقد أن هذا النص أول وثيقة أصلية من أسرة بنى عمار ، ويستنتج من تسجيل اسم أمير طرابلس فقط دون ذكر اسم الخليفة العباسى أو الخليفة الفاطمى أن بنى عمار كانوا منفصلين سياسيا عن الدولة الفاطمية ، ودفعهم هذا الموقف الى التطلع نحو بغداد بطبيعة الحال ، ولكن هذا التطلع كان يحوطه الحذر؛ لأن أهالى طرابلس كانوا يميلون الى الفاطميين «٢٠» .

ويذكر ابن الأثير أن السلطان ملكشاه السلجوقى أمر قسيم الدولة آقسنقر والى حلب ، وبوزان صاحب الرها أن يصحبا أخاه تاج الدولة تتش فى غزوه لسواحل الشام التابعة للدولة الفاطمية ، والسير معه الى مصر ، فزحفوا بجيوشهم الى بلاد الشام فى سنة ٤٨٥ هـ ، ونزل تتش على حمص فاستولى عليها ثم تغلب على عرقة عنوة ، واستولى على قلعة أفامية، ثم توجه الى طرابلس فنازلها ، ونصب عليها المجانيق ، « فرأى صاحبها جلال الملك بن عمار جيشا لا يدفع الا بحيلة ، فأرسل الى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله ، فلم ير فيهم مطمعا ، وكان من قسيم الدولة آقسنقر وزير له اسمه زرين بكر ، فراسله ابن عمار ، فرأى عنده لينا ، فأتمغه وأعطاه ، فسعى مع صاحبه قسيم الدولة فى اصلاح حاله ليدفع عنه ، وحمل له ثلاثين ألف دينار وتحف بمثلها ، وعرض عليه

---

(٢٠) Wiet, op. cit, p. 284

المناشير التى بيده من السلطان بالبلد «٢١» ، والتقدم الى النواب بتلك البلاد بمساعدته والشد معه ، والتحذير من محاربته ، فقال آقسنقر لتاج الدولة تتش لا أقاتل من هذه المناشير بيده ، فأغلظ له تاج الدولة وقال : هل أنت الا تابع لى ، فقال آقسنقر : أنا تابعك الا فى معصية السلطان ، ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة الى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد بوزان أيضا الى بلاده ، فانتقض الأمر » «٢٢» .

وبينما كان جلال الملك يدعم استقلال امارته أمام السلاجقة والفاطميين على السواء ، مع اتباعه لسياسة الحذر المقرون بالكياسة السياسية ، نراه يعمل على توسيع رقعة امارته ، فيضم جبلة الى أملاكه فى سنة ٤٧٣ هـ ، ففى هذا العام وثب أبو محمد عبد الله منصور بن الحسين التنوخى المعروف بابن صليحة قاضى جبلة عليها ، واستعان بالقاضى جلال الملك بن عمار فى تخليص المدينة من الاحتلال البيزنطى ، وتمكن بفضل هذه المعونة من اخراج الروم ، فانتقلوا الى طرابلس ، بينما آلت جبلة الى ابن عمار «٢٣» . وستظل جبلة تابعة لبنى عمار الى أن يتمكن تاج الملوك بورى بن طغتكين أتابك دمشق من دخولها فى سنة ٤٩٤ هـ فى امارة فخر الملك بن عمار .

---

(٢١) أى تقليده امارة طرابلس
(٢٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ١٦٠ ، ١٦١ حوادث ٤٨٥ ــ النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٣٢
(٢٣) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١١١

(٢)

المرحلة الثانيـة : ٤٩٢ ـ ٤٩٥ هـ

١ ـ طرابلس فى ظل فخر الملك بن عمار :

لما توفى جلال الملك فى شعبان سنة ٤٩٢ هـ خلفه على امارة طرابلس أخوه فخر الملك أبو على بن محمد بن عمار ، آخر أمراء بنى عمار فى طرابلس وقد كان فخر الملك أمير سىء الحظ على الرغم من سـطوته الحربية ، فقد اتفقت بداية امارته مع دخـول الصليبيين فى بلاد الشـام ، وقـد جاهد فخر الملك ضد الصليبيين جهاد الأبطال ، ودافعهم عن مدينته بقدر ماكان لديه من امكانيات ، وضرب المثل الأعلى فى الصبر والمجالدة والاستبسال فأخرت مقاومته العنيفة الفتح الصليبى لطرابلس سبع سنـوات كاملة . وكان فى مقـدور طرابلس أن تصمد أمام الصليبيين فترة أطول ، بل كان من الممـكن أن تستعصى عليهم لو كان لديهـا أسـطول قوى ، ولو كان السلاجقة أو الفاطميون قد مدوا له يد المسـاعدة ، ولو لم تقابل شجاعة فخر الملك وبطولته بالخيانة والغدر ، فتضيع عليه الامارة فى الوقت الذى كان يتباحث فيه مع الخليفة العبـاسى والسلطان السلجوقى محمـد بن ملكشاه لانقاذ طرابلس .

وعلى الرغم من الظروف السيـئة التى أحاطت بعهده منذ أن تولى الامارة حتى انتزعت منه ، فقد تمكن فخر الملك من المحافظة على استقلال

طرابلس ، الا أن مدينة جبلة التى كان أخـوه جلال الملك قد ضمها الى امارته لم تلبث أن شقت على فخر الملك عصا الطاعة ، فقد رأينا أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليحة انتزعها من البيزنطيين وسلمها لقمة سائغة لجلال الملك بن عمار ، فكافأه ابن عمار بأن أقره على ولايتها . فلما توفى ابن صليحة خلفه على ولايتها ابنه أبو محمد من قبل أمير طرابلس ، وكان شابا محبا للجندية ، ويظهر أنه أبدى بعض التصرفات التى استهجنها فخر الملك فعمل هـذا على القبض عليـه ، وعندئذ أعلن أبو محمد العصيان ، وأقام الخطبـة للخليفة العباسى . وكان ذلك كفيلا باثارة الأمير فخر الملك عليه ، ولكنه لم يشأ أن يهاجمه فيكون ذلك مبررا كافيا لحمل السـلاجقة على الوقوف ضـده ، واكتفى بأن حرض دقاق بن تتش على محاصرته ، فاستجاب دقاق لذلك ، ولكـنه لم يظفر منـه بشىء «٢٤» . والى هنا تركه فخر الملك لشـأنه ، فأقام أبو محمد بجبلة مطاعا ، الى أن نزلت الحملة الصليبية الاولى فى الشام ، وزحف الصليبيون بعد استيلائهم على أنطاكية جنـوبا ، فلما حوصرت جبلة اتفق القـاضى أبو محمد معهم على أن يدفع لهم قدرا من المال وعددا من الخيل على أن يفكوا الحصار ، وما ان زال هذا الخطر الصليبى مؤقتا حتى بادر أبو محمد فأرسل الى طغتكين بدمشق فى شعبان سنة ٤٩٤ هـ يلتمس منه انفاذ من يثق به ليتسلم منه ثغر جبلة ، ويتـولى حمايته . فأجابه طغتـكين أتابك

---

(٢٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٩

دمشق الى طلبه ، وسير اليه ولده تاج الملوك بورى ، الذى تسلم جبلة . أما أبو محمد فقد مضى الى دمشق بماله وأهله ومنها رحل الى بغداد وبها السلطان بركياروق «٢٥» .ولكن تاج الملوك بورى أساء الى أهل جبلة، واستبد بهم ، وجرى فى أحكامه على الظلم والعسف ، فشكا أهل جبلة ما أصابهم وما نزل بهم على أيدى بورى وأصحابه الى الأمير فخر الملك بن عمار ، والتمسوا منه ، لقربه منهم أن يساعدهم فى تخليصهم من هذا الطاغية ، ويرسل اليهم عسكرا يحررهم من نير حكمه . فوعدهم فخرالملك باجابة مطلبهم ، وتحقيق رغبتهم ، فسير الى جبلة فرقة من عسكره ، انضم اليها الأهالى ، وحملوا على بورى وأصحابه الأتراك فهزموهم هزيمة نكراء ، وقبضوا على بورى وحملوه أسيرا الى طرابلس . ولم يشأ فخر الملك أن يسىء معاملة تاج الملوك بورى حتى لا يكسب عداء أبيه طغتكين، فيوجه همه اليه ، ويقصده بالغزو ، وانما حرص على ارضائه ، فأكرم بورى غاية الاكرام ، وأحسن اليه ، وأعاده مكرما معززا الى أبيه بدمشق ، وكتب يعتذر اليه ، ويصور له الموقف على حقيقته ، ويبرر تدخله فى جبلة بخوفه من سقوطها فى أيدى الصليبيين «٢٦» . وقد كان لذلك التصرف الحازم من جانب فخر الملك أثر كبير فى ابقاء طغتكين على

---

(٢٥) ابن القلانسى ، ص ١٣٩ — أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٢٩ ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٩٩

(٢٦) ابن القلانسى ، ص ١٤٠ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٠

علاقات الود بينه وبين بنى عمار ، فعندما توجه اليه فخر الملك مستقبلا بطلب النجدة على الصليبيين ، لم يتردد طغتكين فى تلبية ندائه .

وبذلك أمكن لفخر الملك أن يسترجع جبلة ويضمها الى امارته بطرابلس ، فأصبحت تضم جبلة وأنطرطوس وعرقة وطرابلس وجبيل . وكانت عرقة حصنا من الحصون المنيعة التى تحمى اقليم طرابلس ، ولذلك حرص الصليبيون على مهاجمة عرقه ، وان كان سقوطها قد تم فى رمضان سنة ٥٠٢ هـ قبل سقوط طرابلس نفسها بثلاثة أشهر . وأما جبيل فقد سقطت قبل ذلك فى ٤٩٧ هـ وأما انطرطوس فقد سقطت قبل ذلك فى سنة ٤٩٥ بينما لم تسقط جبلة الا بعد سقوط طرابلس بأحد عشر يوما .

وسنرى فخر الملك — بعد أن يفقد امارته بطرابلس عقب الانقلاب الداخلى الذى حدث فى سنة ٥٠١ يقنع بجبلة ، فيقوم بامارتها الى أن تسقط فى أيدى الصليبيين فى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ بالأمان فيخرج منها سالما الى شيزر حيث يعرض عليه صاحبها محمد بن على بن منقذ أن يقيم عنده ، فيعتذر له ويستقر به المقام أخيرا فى دمشق فى كنف طغتكين ، الذى يقطعه عملا كبيرا من أعمال دمشق هو الزبدانى وذلك فى المحرم سنة٥٠٣ هـ ، ويظل فخر الملك مقيما فى اقطاعه الى أن يتوفى فى سنة ٥١٢ هـ .

ب — الصليبيون فى الشام :

بينما كانت امارة طرابلس تؤول بعد وفاة جلال الملك الى أخيه فخر الملك ، كانت الحملة الصليبية الأولى تأخذ طريقها الى بلاد الشام عن طريق القسطنطينية . ومن المعروف أن هذه الحملة الصليبية الأولى

كانت تتألف من فريقين من الصليبيين : الأول ، غير نظامى ، وهــو فريق العامة الذين استجابو لدعوة بطرس الناسك ، وقد ركدت ريحهم ، فأبيدوا تماما على أيدى السلاجقة بسبب اختــلافهم ، وعدم تجانسهم ، وروحهم الفوضوية ، وانتهت هذه الفئة من الصليبيين « الى ما يشبه الانتحار الذى ساقه اليها عــدم نظامها » «٢٧» . أما الفريق الثانى ، فكان قوامه الأمراء الأقطاعيون سواء من الفرنسيين أم الايطاليين أم النرمنديين ، وقد حافظ هــذا الفريق على النظام ، واستعد لمحاربة المسلمين بالســلاح والعدة ، واشترك فى هــذا الفريق شخصيات صليبيــة كبرى نخص بالذكر منها : كونت ڤيرماندوهيج الــكبير ، أصغر أبنــاء هنرى الأول ملك فرنسا ، وشقيق فيليب الأول ملكــها ؛ ثم جودفروى دى بويون ، دوق اللورين الأدنى ، وأخواه : أستاش الثالث المعــروف بكونت بولونيا ، وبلدوين ؛ ثم بوهسند النرمنــدى ، وابن أخيه تنكريد ؛ ثم ريمــوند الرابع كونت دى تولوز المعروف بالصنجيلى نســبة الى مقاطعة سان چيل بفرنسا ؛ ثم روبرت كونت دى نورماندى ، أكبر أبناء وليم الفاتح «٢٨» .

وما أن سقــطت نيقيــة فى أيدى الصليبيين ، حتى اتفق الرأى على الاتجاه نحو أنطاكية، وتم الاشتباك الثانى مع السلاجقة بالقرب من اسكى شهــر (دوريليم) فى ٤ يوليو سنــة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) ، وفيهــا انهزم

---

(٢٧) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٦٤

(٢٨) نفس المرجع ص ٦٤ — ٦٨

المسلمون هزيمة نكراء ، وتواصلت انتصارات الصليبيين فى قونية وهرقلية؛ وعندئذ انقسم الصليبيون الى قسمين : قسم بقيادة بلدوين دى بويون وتنكريد وبوهمند النرمندي ، وكانت وجهته النواحى الشرقية من آسيا الصغرى ، والقسم الثانى يتألف من معظم الجيش الصليبى ، وكانت وجهته أنطاكية . هـذا الفريق الأعظم كان هدفه الأساسى أنطاكية ثم الأراضى المقدسة فى بيت المقدس . وليس من شأننا أن نروى قصة سقوط أنطاكية، وانما قصدنا أن نشير الى خط سير الحملة الصليبية الأولى، ثم نقف عند وصولها الى طرابلس لنتتبع الصراع طويل الأمد الذى قام بين الصليبيين والمسلمين حول هذه المدينة بالذات .

سقطت أنطاكية فى أيدى الصليبيين فى ٧ يونيو سنة ١٠٩٨ (٤٩٢ هـ) بسبب تراخى أمراء الشام المسلمين فى نجدتها «٢٩» ثم تمكن جماعة من أتباع الكونت ريموند الصنجيلى برئاسة ريموند بيليه من الاستيلاء على قلعة تل منسى ، وفى ١١ سبتمبر توغلت قوات ريموند الصنجيلى فى الأراضى الاسلامية ، واستولت على بلدة البارة «٣٠» وفى أول نوفمبر ، عقد اجتماع

---

(٢٩) ذكر الدكتور عمر كمال توفيق أن بوهمند تواطأ مع أحد قواد الحامية الاسلامية بأنطاكية الذى أدلى له سلما تسلقه بوهمند ورجاله الى برج المدينة وفتحوا أحد أبوابها (راجع : مملكة بيت المقدس الصليبية الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٥)

(٣٠) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨. ص ١٠٦.

فى أنطاكية حضره رؤساء الحملة الصليبية ، لتقرير خط سير الحملة • وفى هذا الاجتماع ظهر الخلاف بين بوهمند وصنجيل ، ثم عقد اجتماع آخر تقرر فيه أن تقوم بعض قوات الصليبيين بمهاجمة معرة النعمان ، فزحف ريموند الصنجيلى ، وروبرت دى فلاندر اليها ، وأدركهما بوهمند بعد ذلك ، وحاصروا المدينة زهاء أسبوعين ، ثم دخلوها فى ١١ نوفمبر ، واقترفوا فيها من الفظائع وأعمال القتل وسفك الدماء ، ما تجزع له النفوس • وفى المعرة نشب النزاع من جديد بين بوهمند وريموند ، وانضم عامة الفرنجة الى ريموند وقودوه عليهم فى زحفهم الى بيت المقدس ، بعد أن اتضح لهم انحراف بوهمند عن الغاية الأساسية من الحركة الصليبية • ولم يتردد ريموند الصنجيلى فى قبول هذه المهمة ، وزحف بجموع الصليبيين من معرة النعمان الى كفر طاب ، وانضم اليه هناك روبرت النرمندى وتنكريد • وفى المعرة وكفر طاب ، بدأت رسل بعض الامارات الاسلامية الصغيرة تفد معلنة خضوعها للصليبيين ، حفاظا على استقلالها وتأمينا لسلامة سكانها من أعمال العنف التى يقوم بها الصليبيون ، فقد أصبح أصحاب هذه الامارات الصغيرة ، بعد انتصارات الصليبيين المتواصلة على السلاجقة يدركون ضرورة مسالمة هؤلاء الغازين عن طريق الاتفاق معهم «٣١» ، وأول من وفد من رسل هؤلاء الأمراء رسل أمير شيزر «٣٢» •

---

(٣١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ —
P. Rousset, Histoire des Croisades, Paris 1957, p. 101

(٣٢) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١٠٧

رأى الصليبيون أن يتجهــوا من شيزر الى الجنوب الغربى بحذاء الساحل ، اذ أرغمتهم على اتخاذ هذا الاتجاه ، طبيعة البــلاد الجغرافية ، والظروف السياسيــة المحيطة بهم ، ثم انهم كانوا يعتمــدون فى زحفهم على تلقى الامدادات من الســواحل عن طريق الأساطيل الايطالية «[٣٣]» . غير أن تنكريد عارض رأى صنجيل فى التزام الساحل ، ورأى أن حصار المدن الساحلية يحتاج الى تضحيات كثيرة ، واقترح أن يتوجه الصليبيون رأسا الى بيت المقدس سالكين فى ذلك جوف البــلاد ، اقتصادا للوقت . وأخــذ الصليبيون برأيه ، فمروا بقلعة مصياف فى ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، (٤٩٣ هـ) وعقدوا مع صاحبــها اتفاقا ، ثم زحفــوا الى بعرين ثم رفنية ومنها الى البقعية «[٣٤]» ، فاحتمى ســكان هذه المنطقة بحصن الأكراد ، وعندئذ طوقه الصليبيون ، واستولوا عليه فى ٢٩ يناير «[٣٥]» . ونلاحظ أن الصليبيين فى زحفهم نحو بيت المقدس لم يلقوا من الصعوبات مثلمـا كانوا يلقونه فى المراحل السابقة ، فقد آثر كثير من أمراء المسلمين المفاوضة ، وأنفــذوا رسلهم لمسالمتهم ، ففى قلعــة الكرك (حصن الأكراد) استقبل الصليبيون رســل جناح الدولة أمين حمص يحملون الهــدايا والأموال لموادعة الصليبيين ومهادنتهم .

---

(٣٣) Rousset, Histoire, p. 101

(٣٤) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ص ١٦٤

(٣٥) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٢٢٩

ج — موقف فخر الملك من الصليبيين :

زحف الصليبيون من حصن الأكراد الى قلعة عرقة ، وكانت تابعة لفخر الملك صاحب طرابلس ، وكانت عرقة مدينة فى غاية الحصانة والمنعة ، فحاصرها الصليبيون فى منتصف فبراير سنة ١٠٩٩ (٤٩٣ هـ) ، وظلوا يحاصرونها شهرين ، فعمل فخر الملك على افتدائها وافتداء غيرها من المدن التابعة له ، وبعث رسالة الى الكونت ريموند يسأله الموادعة والارتباط معه برباط المودة «٣٦» ، فأرسل ريموند رسلا الى طرابلس للاتفاق مع أميرها ، واسترعى نظر هؤلاء الرسل عظم ثروة طرابلس الزراعية ، اذ دخلوها فى فصل الربيع ، وأشجار الفاكهة قد أثمرت ، والمروج قد اخضرت ، وشاهدوا قصب السكر لأول مرة وذاقوه فأعجبوا به «٣٧» • ويبدو أن ما كانت عليه طرابلس من مظاهر الازدهار والرخاء أطمعت رسل ريموند فى هذه البلاد ، فصرحوا بأن ريموند لا يقبل مسالمة أمير طرابلس الا اذا اعتنق النصرانية «٣٨» • وأشاروا على ريموند بتشديد الضغط على فخر الملك • وبينما كانت معظم قوات الصليبيين تحاصر عرقة ، كان فريق آخر منهم يهاجم أنطرطوس التابعة لفخر الملك ، ولم تلبث هذه المدينة أن سقطت فى أيديهم فى ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ م «٣٩» ، وتيسر للصليبيين

---

(٣٦) أعمال الفرنجة ، ص ١٠٩

(٣٧) جورجى ينى ، ص ٣٨٠

(٣٨) أعمال الفرنجة ص ١٠٩

(٣٩) Rousset, op. cit. p. 101

بذلك الاتصال بالسفن الايطالية . أما عرقة فقد طال حصار الصليبيين لها الى أربعة شهور دون أن يؤدى هذا الحصار الى نتيجة . وكان بوهمند قد انتهز فرصة اشتغال منافسة ريموند الصنجيلى فى حصار عرقة ، لكى يطرد أصحاب ريموند من أنطاكية ويستأثر وحـده بملكية هذه المدينة . أما ريموند فقد تخلى نهائيا عن المطالبـة بحقه فى أنطاكية ، اذ أخذ يرنو بعينيه الى امارة طرابلس الغنية . ولمـا لم يجد بدا ، أمام اجماع أمراء الحملة ، من رفع الحصار عن عرقة لمتابعة الزحف الى بيت المقدس ، عقد اتفاقية مع فخر الملك ، بمقتضاها يقوم ابن عمار بتزويد الصليبيين بالميرة ، كما يتعهد بالتنصر اذا تمكن الصليبيون من الظهور على خليفة مصر ، فى الحرب التى أعدها لهم ، واذا تمكنوا من التغلب على بيت المقدس «٤٠» وقد أعطى فخر الملك الصليبيين ١٥ ألف دينار ، وخمس عشرة هـدية ، وعددا من الجياد والحمير ، وبعض الأقمشة ، وسلمهم أكثر من ٣٠٠ حاج كانوا فى أسره ، ووجه معهم أدلاء من المسـلمين ليرشـدوهم على أحسن المسالك وأكثرها أمنا الى بيروت «٤١» .

وبعد أن تم الاتفاق بين الطرفين على هذا النحو ، رحل الصليبيون فى ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، وسلكوا الطريق المارة بالبترون فجبيل فبيروت ؛

---

(٤٠) Ibid, p. 102 — أعمال الفرنجة ص ١١٣ .

(٤١) جورجى ينى ص ٣٨٠ — أعمـال الفرنجة ص ١١٣ — حسن حبشى — الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٧٠

فى طريقهم الى بيت المقدس • ولقد عاب بعض المؤرخين موقف فخر الملك الضعيف ازاء الصليبيين من الاستسلام المخزى ، ولكننا يجب ألا ننسى أنه لم يقف هذا الموقف الا بعد أن وجد نفسه وحيدا أمامهم • فقد رأينا حرصه على الاحتفاظ باستقلال طرابلس وسط النزاع القائم بين الفاطميين والسلاجقة ، كما أنه كان حريصا على حقن دماء المسلمين ، وعدم خوض معركة لن يضمن فيها غير الفشل ، واذا كان فخر الملك قد هادن الفرنجة على النحو المهين الذى ذكرته ، فانما فعل ذلك حتى يتأهب لحصار طويل الأمد ، فيحصن مدينته ، ويزودها بما يمكن أن تحتاج اليه من ميرة وسلاح • وقد دلت الأحداث التالية على بعد نظره ، فعندما عاد الصليبيون لمواجهته ، وجد نفسه مضطرا الى أن يتخلى أولا عن سياسته الحيادية بين المعسكرين الفاطمى والسلجوقى ، فيلقى نفسه فى أعضان القوى الاسلامية المجاورة له ، ثم يواجهه الحصار الطويل الذى فرضه ريموند الصنجيلى على طرابلس بروح عالية • ويمكننا أن نعتبر اذن الاتفاقية التى عقدها مع ريموند فى سنة ٤٩٣ ، والوعود التى وعده بها نوعا من الدبلوماسية التى أثبتت الأيام براعته فيها •

د ـ سقوط بيت المقدس وموقف الفاطميين :

سارت الحملة الصليبية من طرابلس جنوبا الى قيسارية مارة بجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا • وبالقرب من ثغر أرسوف انحرف الفرنجة شرقا نحو بيت المقدس ، وتركوا فى الرملة التى هجرها المسلمون حامية

لتأمين الطريق الذى يربط بيت المقدس بالساحل • وفى ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ م وصل الصليبيون أمام أسوار بيت المقدس وشرعوا على الفور فى حصارها «٤٢» •

وكانت بيت المقدس قد آلت منذ شهر شعبان سنة ٤٩١ هـ الى الفاطميين الذين رغم ضعفهم تمكنوا من انتزاعها من السلاجقة ، فقد استغل الأفضل شاهنشاه النزاع القائم بين دقاق ورضوان ابنى تتش ، وحاصرها وضرب سورها بالمجانيق ، وتمكن عسكره من دخولها ، وتولاها من قبله عامل اسمه افتخار الدولة • وكانت أنباء الزحف الصليبى على سواحل الشام تصل تباعا الى السلطات المصرية ، دون أن يقوم المسؤلون فى الدولة الفاطمية بأى عمل حاسم ضد الصليبيين • والواقع أن الدولة الفاطمية كانت تنظر منذ البداية الى الصليبيين على أنهم حلفاء طبيعيون ساقهم القدر للتنكيل بالسلاجقة ، خصوم الفاطميين من الناحيتين السياسية والمذهبية ، لذلك لا نعجب اذا رأينا الأفضل يبادر بارسال سفارة الى الصليبيين فى أنطاكية ، فى صفر سنة ٤٩٢ للاتفاق معهم ضد السلاجقة ، على أن تحتفظ مصر ببيت المقدس ، وتسمح للحجاج بزيارة الأماكن المقدسة ، وينفرد الصليبيون بأنطاكية «٤٣» • ومع أن هذا الموقف يمكن اعتباره موقفا مخزيا من جانب الأفضل فاننا نلتمس له العذر فى ذلك ؛ فقد كان يظن أن هذه الحملة الصليبية كالحملات البيزنطية السابقة ، ولا شك أن ترحيب الصليبيين بهذه السفارة الفاطمية ، يعبر عن وقه فهم

(٤٢) Rousset, op. cit. p. 102

(٤٣) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٠٨

علىٰ حالة الانقسام والتفتت المتفشيـة فى قوى المسلمين ، وقـد كتموا ما بأنفسهم ، ولم يفصحوا عن نياتهم فى فتح بيت المقدس «[٤٤]» •

وكان افتخار الدولة ، قد فطن الى خطة الصليبيين فى الاستيلاء على بيت المقدس ، فاتخذ أهبته للدفاع عنـها ، « فسمم الآبار وقطع موارد المياه ، وأخفى المواشى ، وطرد جميـع من بالمدينة من المسيحيين ، واهتم بتقوية الأسوار ، واعتمـد فى الدفاع عنهـا على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان » «[٤٥]» • أما الصليبيون فقد قسموا قواتهم الى فرق اتخذت كل منها موقعا من السور تأهبـا للهجوم ، وحاصروا المدينة أكثر من أربعين يوما ، وشرعوا هجومهم الفعلى على المدينة فى ١٣ يوليو سنة ١٠٩٩ م بعد أن أقاموا برجين يطلان على المدينـة ، أحدهمـا على باب صهيون ، والآخر على باب العمود ، وتمكن مقاتلة أحد البرجين من الصاقه بالسور ، ولم يلبث الصليبيون أن اقتحموا المدينة ، ودخلوها فى ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ م (٢٣ شعبـان سنة ٤٩٢ هـ) • ويذكر ابن الأثير ، أنهم قتلوا كل من كان فى المدينة « ولبث الفرنج يقتلون المسلمين أسبـوعا ، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا ، وأخذوا من الصخرة أكثر من أربعين قنديلا من الفضة ، وأخرى من الذهب » «[٤٦]» • ولم ينكر المؤرخ

---

(٤٤) Rousset, op. cit. p. 103

(٤٥) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ص ١٧٤ — سعيد عاشور الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٤١

(٤٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، حوادث ٤٩١ هـ ، ص ١٨٩

وليم الصورى أمر هذه المذبحة فقد وصف المدينة بأنها أصبحت « مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم » «٤٧» •

ويعلق روسيه Rousset على هذه المذبحة بقوله : « ولا يمكن أن يبرر الصليبيون بحال من الأحوال المذبحة المروعة التى قاموا بها خلال الأيام التى تبعت دخولهم بيت المقدس ، ولم تكن هذه المذبحة جريمة فحسب ، وانما كان خطئا سياسيا لا يغتفر ، فقد جعلت من الفاطميين أعداء ألداء للصليبيين • وانما نتعجب اذ نشاهد بعض المؤرخين يقصون مشاهد المذبحة دون أن يستنكروا بشاعتها ، فان ماتيو الرهاوى يزعم أن جود فروى ذبح ٦٥ ألف مسلم فى المعبد ، وكذلك يصف ألبرت ديكسن المحاربين اللاتين وهم يقتلون النساء والأطفال » «٤٨» •

ولم يسكت الأفضل بعد الفتح الصليبى لبيت المقدس أكثر مما سكت، فخرج على رأس جيش كثيف الى عسقلان لاسترداد بيت المقدس ، وذلك فى رمضان سنة ٤٩٢ هـ ، وأقام فى عسقلان انتظارا للنجدات التى وعده بها عرب فلسطين ، وأرسل الى الصليبيين ينكر عليهم ما فعلوه ويتهددهم «٤٩» • ولكنه أخطأ خطئا كبيرا بهذا الانتظار الطويل ، اذ أتاح لقوات الصليبيين أن تجمع شتاتها ، وتباغته بالهجوم ، وتهزمه فى عسقلان،

---

(٤٧) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٤٤

(٤٨) Rousset, op. cit. p. 104 et. sq.

(٤٩) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى ص ٦٨

ويذكر ابن القلانسى أن سيــوف الفرنج تمكنت من المســلمين ، « فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس، ونهب العسكر » «٥٠» • وحاصر جودفروى عسقلان ، ولما رأى أن أهل المدينة ينوون التسليم لريمند الصنجيلى ، خاف أن يقوم ريمند بانشــاء امارة صليبية فى فلسطين ، فطلب منه أن يتخلى عن عسقلان ، فاضطر ريمند الى الانسحاب مع بقيــة أمراء الصليبيين ، وعلى هــذا النحو لم يتمكن جودفروى من أن يفتتحها وحده ، فانسحب بدوره «٥١» • وكان جودفروى قــد اختير ملكا على بيت المقــدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩ ، كما اختير أرنولف مالكورن بطريقا لبيت المقدس فى أول أغسطس من السنة ، ولم يطل العهد بجودفروى ، اذ توفى فى العالم التالى ، وكان من الطبيعى أن يخلفه أخوه بلدوين بلدوين أمير الرها على ملكة بيت المقدس ، فقدم من الرها ومر بأنطاكية واللاذقية ، ثم بمدينة طرابلس حيث أكرمه أميرها فخر الملك، وأمده ورجاله بكل ما كانوا فى حاجة اليه من ميرة وغــذاء ، وتعهد بأن يحيطه علما بتحركات عــدوهما المشترك : دقاق ملك دمشــق • ثم يذكر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور أن سبب هذا التقارب بين الصليبيين وبنى عمار أن العداء كان مستحكما بين سلاجقة دمشق وبنى عمار ، مما دفع عرب طرابلس الى السعى لمحالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف فى وجه السلاجقة «٥٢» •

غير أننا لا نطالع فى المصادر العربية ما يشير من قريب أو بعيد الى

(٥٠) ابن القلانسى ، ص ١٣٧
(٥١) سعيد عاشور ، ج ١ ص ٢٥٨
(٥٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

وجود مثل هـــذا العداء المستحكم • صحيح أن فخر الملك بن عمار كان يسعى الى المحافظة على استقلال امارته ، ولكن ذلك لم يمنعه من التقرب الى السلاجقة ، وقد أشرنا من قبـــل ، كيف أنه أحسن معاملة تاج الملوك بورى بن طغتكين أتابك دمشق حتى لا يفسد العلاقات بينه (أى ابن عمار) وبين طغتكين والد بورى • وليس أدل على قيـــام العـــلاقات الودية بين الطرفين من توجـــه فخر الملك بطلب المعونة الى طغتكين فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) عندما نزل ريمنـــد الصنجيلى على طرابلس وحاصرها ، فبادر عسكر دمشق بتلبية ندائه واجابته الى ما التمس ، ونهض عسكر دمشق الى طرابلس ، وانضم الى هذا العسكر جناح الدولة حسين أتابك صاحب حمص «٥٣» • وفى سنة ٤٩٨ هـ قدم الملك رضـــوان بن تاج الدولة تتش لانقاذ طرابلس من الصليبيين النازلين عليها.«٥٤» • وهناك دليل آخر على استمرار علاقات المودة بين دمشق وطرابلس ، وهـــو أن فخر الملك عندما ضاع ملكه فى طرابلس وجبلة ، اختار أن ينزل فى كنف طغتكين فى دمشق ، وقد رحب به طغتكين وأقطعه أعمال اقليم زبدانى بدمشق •

وخرج بلدوين من طرابلس ، وتابع ســـيره الى بيت المقدس ، حيث نودى به ملكا عليها فى ديسمبر سنة ١١٠٠ م •

هـ ــ ريموند الصنجيلى وبداية الحصار على طرابلس :

كان ريمـــوند دى سان جيـــل ، كونت دى تولوز من بين زعمـــاء

---

(٥٣) ابن القلانسى ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ــ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ج ٨ ، ص ٢

(٥٤) ابن العديم الحلبى ، ج ٢ ص ١٥٠

الصليبيين ، الذين اشتركوا فى الحملة الأولى • وكان قبل مغادرته لبلاده، قد قطع على نفسه عهدا ألا يعود الى بلاده ، لذلك حمل معه زوجه ورحل من كونتيته بعد أن عهد بادارة شؤونها الى ابنه الأكبر برتران • وقد لعب ريموند الصنجيلى دورا هاما فى الحركة الصليبية «٥٥» ، وعندما ساهم فى افتتاح أنطاكية كان يأمل أن يقتسمها مع بوهمند ، غير أن بوهمند استأثر بها وحده ، ولما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه امارة فى شمال الشام على حساب سلاجقة حلب ، حول بارة ومعرة النعمان ، لاحقه بوهمند مرة ثانية ، ونافسه فى الاستيلاء على معرة النعمان ، وأرغمه على التخلى عنها فى يناير سنة ١٠٩٩ م • ولما استولى ريموند على أنطرطوس وحاصر عرقة أملا — هذه المرة — فى تأسيس امارة على الساحل الأوسط لبلاد الشام • ولكن زعماء الحملة الآخرين لم يتركوه على حصارها ، وألحوا عليه فى مواصلة السير الى بيت المقدس • ولما أراد أن يستولى على عسقلان وأرسوف بعد ذلك لم يمكنه جودفروى من تحقيق هدفه «٥٦» • وعندئذ رأى ريموند أن ينقل نشاطه الى شمال الشام ليعمل بمساعدة حلفائه البيزنطيين على الحد من قوة بوهمند أمير انطاكية «٥٧» • ورحل ريموند بعد ذلك الى القسطنطينية ليتفق مع الامبراطور الكسيوس كومنين على خطة تتيح له تحقيق هذا الهدف • وما كاد يصل الى القسطنطينية حتى بلغه نبأ وقوع بوهمند فى أسر الملك غازى كمشتكين ابن الدانشمند صاحب سيواس ، أثناء ذهابه الى ملطية لمساعدة أميرها الأرمنى ضد

---

(٥٥) Rousset, op. cit, p. 73

(٥٦) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤

(٥٧) نفس المرجع ص ٢٥٩

السلاجقة «٥٨» .واستدعى الصليبيون فى أنطاكية تنكريد ابن اخت بوهمند للقيام بالوصاية على امارة أنطاكية فى أثناء فترة الأسر.وتابع تنكريد أعمال بوهمند العدائية ضد البيزنطيين، فاستولى على طرسوس وأذنة والمصيصة.وفى سنة ١١٠٢ م هاجم اللاذقية التى كان ريموند قد افتتحها سنة ١٠٩٨ «٥٩»

وبينما كان ريموند الصنجيلى يسعى بمساعدة الامبراطور البيزنطى لاتخاذ اجراء حاسم ضد تنكريد وصلت الحملة الصليبية الثانية الى القسطنطينية ، وتوطن ريموند للاشراف عليها . وعلى الرغم من الكارثة التى منيت بها هذه الحملة على أيدى سلاجقة الروم فى غضون عام ١١٠١م، فقد نجح ريموند فى جمع فلولها الناجين ، والابحار بهم الى السويدية ميناء أنطاكية فى أوائل ١١٠٢ م تمهيدا للسير بهم الى بيت المقدس . وهناك قبض تنكريد على ريموند ، واعتقله فى قلعة أنطاكية ، ثم أفرج عنه على أساس أن يتنازل عن حقه فى أنطاكية واللاذقية . ومنذ ذلك الحين أخذ ريموند يعمل جديا لتكوين امارة لنفسه .

وكان من الطبيعى أن يفكر ريموند فى الافادة من فلول الحملة الصليبية المتجهة الى بيت المقدس فى تحقيق أغراضه ، وكان أول هدف له الاستيلاء على أنطرطوس التى استردها فخر الملك بن عمار أثناء اشتغال ريمند بقيادة الحملة الصليبية الثانية فى آسيا الصغرى.وقد تمكن ريموند من الاستيلاء عليها فى ربيع الآخر سنة ٤٩٥ هـ (فبراير ١١٠٢ م) بمساعدة فلول الحملة الثانية ، وبفضل استعانته بأسطول جنوى كان مارا بسواحل

---

(٥٨) نفس المرجع ص ٢٨٢

(٥٩) نفس المرجع ص ٣٤٦

الشام «٦٠» . وما ان افتتحها ريموند حتى جعلها قاعدة لامارته المستقبلة في هــذا الاقليم . ويذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٤٩٥ (١١٠٢) أن صنجيل الأفرنجى « سار في جمع قليل وحصر ابن عمار بطرابلس » «٦١». والواقع أن الجيش الذى كان يقوده من بقــايا الحملة الصليبية الثانية ، قد تخلى عن ريموند بعد فتح أنطرطوس ومضى هــذا الجيش الى بيت المقدس.ولم يبق لدى ريموند سوى فئة قليلة لا تتجاوز ثلثمائة رجل«٦٢». وغلبت على صنجيل روح المغامرة ، فهاجم بهذا العدد القليل من المقاتلة مدينــة طرابلس وحاصرها ، فاستنجد ابن عمار بصاحب دمشق على دفع ابن صنجيل النازل في عسكره من الافرنج على طرابلس ، كما استنجــد بجناح الــدولة صاحب حمص . ووصلت عســاكر حمص ودمشــق الى أنطرطوس ، واشتبكت مع الافرنج ، فانهزم عسكر المسلمين ، وقتل منهم أعداد كبيرة ، وعاد فلهم الى دمشق وحمص في ٢٢ جمادى الآخرة «٦٣» . أما ريموند فقــد عاد من جديد الى طرابلس لاستئناف الحصار . فكتب فخر الملك بن عمار مرة ثانية الى أميرى دمشق وحمص ، فجاء عسكرهما ، للدفاع عن طرابلس «٦٤» . ولكن المردة الموارنة هبوا من المناطق الجبلية باقليم طرابلس لنجدة صنجيل . والواقع أن هؤلاء الموارنة تواثقوا مع

---

(٦٠) Heyd, histoire du Commerce du Levant, t. 1, Leipzig, 1885, p. 139

(٦١) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٣٢

(٦٢) ابن الأثير، الكامل، حوادث ٤٩٥ — سعيد عاشور ، ج١ص٣٥٦

(٦٣) ابن القلانسى ، ص ١٤١

(٦٤) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٢ — Recueil des historiens des Croisades, t. III. p. 524

الحركة الصليبية منذ بدايتها، وساعدوا الصليبية فى محاربة المسلمين، وكانوا يبعثون معهم الأدلاء والمرشدين ليهدوهم الى عورات البلاد والمسالك الحسنة، وينجدوهم فى الوقائع، ويمدوهم بالميرة «٦٥» • ويشير الأستاذ فيليب حتى الى أن العلاقة الودية من الموارنة والصليبيين بدأت فى عصر مبكر، « وكان ذلك لما قدموا للحملة الصليبية الأولى أدلاء يرشدونهم الى الطرق والمعابر، وقد أرسلوا فرقة من النشابة المتطوعة الى مملكة بيت المقدس » «٦٦» • ولقد عرف الموارنة الذين يسكنون جبال طرابلس « بالرمى على القوس الثقيل بالنشاب الخارق » «٦٧» • وأدرك ريموند صعوبة الاستيلاء على طرابلس لمناعتها، وتوافد النجدات اليها، فقنع بما عرضه عليه فخر الملك من جزية مالية وبعض الخيل، وانسحب بعد ذلك الى أنطرطوس «٦٨»، وأرجأ مسألة فتح طرابلس الى أن تتوفر لديه القوة والسلاح والميرة •

---

(٦٥) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ ص ٢٥٠ — محمد عزة دروزة: العرب والعروبة ج ١ ص ٥٠٠

(٦٦) فيليب حتى، لبنان فى التاريخ، ص ٣٩٢

(٦٧) ابن الشحنة، ص ٢٦٤

(٦٨) سعيد عاشور، ج ١ ص ٣٥٦

(٣)

المرحلة الثالثة : ٤٩٥ ــ ٥٠١

١ ــ الحصار الصليبى الثانى حول طرابلس سنة ٤٩٧ :

ظل صنجيل مقيما فى أنطرطوس منذ عام ٤٩٥ هـ الى عام ٤٩٧ هـ ، ولكنه مع ذلك لم يكف فى هــذه الأثناء عن شن الغارات على طرابلس ، ومهاجمتها من حين الى حين ، وتهديدها بالحصار • ولكن طرابلس كانت مدينة مفتوحة من البحر ، لا تعبأ بهــذا الحصار البرى الموقوت ، فكانت السفن تحمــل اليها من البحر ما تحتاج اليــه من مؤن وأقوات ، وكان فخر الملك يرسل أصحابه فى المراكب للاغارة على البلاد التى بيد الافرنج فيقتلون من يجدوه أمامهم «٦٩» •

وانتهز صنجيل وصول بعض قطع بحرية جنوية فى ميناء اللاذقية فى ربيع الأول سنة ٤٩٧ هـ ، تحمل تجارا وأجنادا وحجاجا ، فاستــعان بهم لمحاصرة طرابلس برا وبحرا ، فســار اليها وأقام عليــها الحصار من البر والبحر، ولكنه لم يجد فيها مطمعا«٧٠» ، فالمدينة حصينة للغاية ، وفخرالملك قد اتخذ أهبته لحصار طويل ، فانتقل هو ومن معه من الفرنجة الى جبيل، وشدوا عليها الحصار البرى والبحرى ، وقاتلوا أهلها قتالا عنيفا ، وكانت جبيل تابعة لابن عمار ، فاستبسل أهلها فى الدفاع عنها ، فلما رأوا عجزهم عن المقــاومة ، والصمود أمام هجمات الفرنج ، فاوضــوه فى التسليم ،

---

(٦٩) ابن الأثير ، ج ٨ ، حوادث ٤٩٦ ، ص ٢١٩

(٧٠) نفس المرجع ص ٢٢١ ــ أبو الفداء ج ٤ ص ١٣٤

واشترطوا عليه أن يؤمنهم على أرواحهم وأموالهم ، فأجابهم الى ذلك ، ودخلها «٧١» • ولكنه نكث بعهده معهم ، فاستولى على أموالهم عن طريق العقوبات التى فرضها عليهم ، وكافأ صنجيل الجنوية الذين ساعدوه فى الاستيلاء عليها بأن منحهم ثلث جبيل ، وباستيلاء ريموند على جبيل ، أصبح يطوق امارة طرابلس من الشمال ومن الجنوب ، كما أنه وضع بذلك حدود الكونتية الصليبية التى يعمل جاهدا على تكوينها «٧٢» • ولم يبق أمامه الا الاستيلاء على مدينة طرابلس نفسها التى ستكون قاعدة لتلك الكونتية • ولما كانت طرابلس محصنة تحصينا طبيعيا يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها ، فقد أصبح من الضرورى أن يرجىء ذلك الى فرصة مواتية ، عندما يتصيد بعض السفن الجنوية للاستعانة بها فى الحصار • وسنرى كيف يعمد ريموند الى اقامة قلعة على تلة أبى سمرة لكى يحكم الحصار عليها من البر •

وفى جبيل وصله رسل بلدوين ملك بيت المقدس يطلبون منه أن يبادر بنجدته فى حصار عكا ، فزحف بجيشه ، وساهم فى حصارها برا وبحرا ، واستمات والى عكا زهر الدولة بنا فى الدفاع ، وقاتلهم المرة بعد المرة ، ولكنه عجز عن مواجهة حشود الصليبيين ، خاصة بعد أن انضمت اليها قوات ريمند ، فاضطر الى الخروج من المدينة ، وتمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها قهرا «٧٣» •

---

(٧١) يخلط ابن الأثير بين جبيل وجبلة فى كثير من المواضع •
(٧٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٦٠
(٧٣) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٢٢٩

عاد صنجيل الى استئناف حصاره لطرابلس ، وفى نيته هذه المرة أن يستولى عليها ، وقبل أن يشرع فى هـذا الحصار ، أخـذ يؤسس حصنا يشرف منه على المدينـة ويكون مركزا عسكريا للحصار المقبل . واختار لهذا الحصن موقعا استراتيجيا هاما ، على تلة أبى سمرة الحالية ، الواقعة على الضفة اليسرى من نهر قاديشـا وهى التى كانت تعرف بتلة الحجاج **Mons Peregrinus** وفـكرة اقامـة حصن خارج مدينـة طرابلس لاحكام الحصار عليها بريا والتحكم فى الطرق الرئيسيـة المؤدية اليها ، فكرة قديمة ، طبقها من قبل سفيان بن مجيب الأزدى عند قيامه بمحاصرة طرابلس كما سبق أن رأينا ، وطبقها عن الرحمن الناصر فى الأندلس عندما حاصر مدينة ببشتر قاعدة الثائر عمر بن حفصون فى سنة ٣١٦ هـ «٧٤» ، وسيطبقها أيضا عبـد المؤمن بن على ، خليفة الموحدين ، عنـدما يحاصر مدينة مراكش «٧٥» .

ومن المحتمـل أن تكون آثار برج سفـيان ما تزال ماثلة فى ذلك الوقت ، فأوحت الى ريموند بفكرة انشاء قلعته ، ومن المحتمل أيضا أن

---

(٧٤) أنشأ عبد الرحمن الناصر قلعة تجاه ببشتر سماها حصن طلجيرة (أنظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، فى ذكر أخبار المغرب ، طبعة بيروت، ١٩٥٠ ، ج ٢ ص ٢٦ ـ مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، نشرها الأستاذان ليڤى بروڤنسال ، وغرسية جومث ، مدريد ١٩٥٠ ص ٥٨ ـ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وحضارتهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢٨٣) .

(٧٥) البيذق (أبوبكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدى بن تومرت، تحقيق الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، باريس ١٩٢٨ ص ١٠٢

يكون قد أسس حصنه الصليبى فى نفس الموضع الذى كان يقوم عليه برج سفيان . وفكرة الحصن فكرة صائبة من الوجهة العسكرية ، وسيطبقهـا الصليبيون بعد ذلك فى سنة ٥٠١ هـ عندما يقوم بلدوين بحصار مدينـة صور ، فان ابن القلانسى يذكر أنه « قصـد ثغر صور ، ونزل بازائه ، وشرع فى عمارة حصن بظاهرها على تل المعشوقة » «٧٦» .

بدأ صنجيل العمل سريعا فى انشاء حصنه الموسوم باسمه ، وانشاء ربض أدناه لسكنى عسكره حتى يتمكن بعد ذلك من ضرب حصاره على المدينة . وقبل أن يتم بنـاء الحصن الصنجيلى ، فاجأه الأمير فخر الملك بن عمار بغارة على غرة ممن فيه ، فقتـل من به ، ونهب حاميته ، وأحرق الحصن وأخربه بعد أن نهبت قواته ما كان فيه من السلاح والمال ، فى ١٩ ذى الحجة سنة ٤٩٧ هـ «٧٧» .

ويذكر المؤرخون أن صنجيل وقف على بعض سقوف حصنه المحترقة ، فانخسف به ، فأصيب بحروق شديدة سببت له الوفاة بعد عشرة أيام من الغارة الاسلامية ، وقيل توفى فى ٤ جمـادى الأولى سنـة ٤٩٨ هـ (٢٨ مارس سـنة ١١٠٥ م) ، وحمل جثمانه الى بيت المقـدس حيث وورى التراب «٧٨» . ويبدو أنه كان قد صالح ابن عمار قبل وفاته على أن يكون لصنجيل ظاهر طرابلس ، ولا يقطع الميرة والمسافرين عن المدينة «٧٩» .

---

(٧٦) ابن القلانسى ، ص ١٥٩

(٧٧) نفس المرجع ص ١٤٦ — سبـط بن الجوزى ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٦ — أبو الفداء ج ٤ ص ١٣٨ — أبو المحاسن ج ٥ ص ١٨٨ .

(٧٨) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٣٨ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٥

(٧٩) ابن القلانسى ، ص ١٤٧ — سبط بن الجوزى ، ج ٨ ص ٨

الثانية : أن الأهالى هم الذين نادوا بشعار الأفضل وكتبوا اليه ، ويؤيد ذلك سبط بن الجوزى فى مرآة الزمان «٢١» .

الثالثة : أن الأفضل سير لهم تاج العجم ، الذى حاول العصيان عليه والانتزاء بطرابلس ، وهذه النقطة غير مذكورة فى الرواية الأولى .

الرابعة : أن أهل طرابلس نقموا على شرف الدولة بن أبى الطيب ، وعزموا على طرده ثم أحجموا عن ذلك حتى لا يثيروا عليهم الأفضل فيعاقبهم أشد العقوبات .

ورواية ابن الفرات تتضمن كثيرا من التفصيلات المعقولة ، أما الرواية الأولى فمبتورة وموجزة فى آن واحد ولذلك فهى ناقصة مشوهة . وأغلب الظن أن فخر الملك علم وهو بدمشق فى طريقه الى بغداد بهذا الخبر ، وأيقن بضياع ملكه ، فزاده ذلك اصرارا وعزما على السير الى السلطان ملكشاه ليساعده فى استرجاع امارته ، ودفع الصليبيين عن طرابلس فى وقت واحد ، فالمهمة فيما يبدو كانت مزدوجة ، ولكنه لم ينجح فيهما ، وعاد بخفى حنين ، وقنع بامارة جبلة الى أن استولى عليها الصليبيون وظلت طرابلس موالية للفاطميين حتى سقطت فى أيدى الصليبيين على نحو ما سأذكره فيما بعد .

---

(٢١) Recueil des Hist. des Croisades, t. III, p. 536

بشعار الأفضل بن أمير الجيوش شريك الخليفة الفاطمى صاحب مصر ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٠٠ ••• ولما نادوا بشعار الأفضل وبلغه ذلك جهز اليهم جيشا فى البحر ، وقدم عليهم تاج العجم ، فلما وصل الى طرابلس، أخذ جميع الأموال ، وما يحفظ به البلد ، وبلغ الأفضل أنه يقصد العصيان بطرابلس ، فقبض عليه على ما كان فصله ، وولى بدر الدولة ؛ وفى بعض النسخ شرف الدولة بن أبى الطيب الدمشقى • فوصل الى طرابلس ، وكان أهلها قد ضاقت صدورهم من طول الحصار ، ثم رأوا من خلفه مارغبهم عنه ، ونفرهم منه ، فعزموا على طرده ، ثم رأوا ابقاءه لأنهم لا ملجأ لهم الا من جهة المصريين • ثم وصلت مراكب من مصر بالغلات والرجال ، فقرر المذكور مع مقدمى الأسطول القبض على أعيان البلد وأصحاب فخر الملك بن عمار وحريمه ، فأخذهم ، وسيرهم فى البحر الى مصر المحروسة ، وبعث ما كان فى طرابلس من السلاح والذخاير ما لم يكن عند أحد من الملوك مثله ، وبعث مابة ألف دينار عينا ، فلما وصلوا الى مصر اعتقل الأفضل أهل بنى عمار » «٢٠» •

ووجه الاختلاف فى رواية ابن الفرات عن الرواية الواردة فى النصوص الثلاثة الأولى ينحصر فى النقاط الأربعة الآتية :

الأولى : أن نص ابن الفرات يصور محاولة أبى المناقب الخروج على فخر الملك ، فقبض عليه أعيان المدينة ، ولم يتضمن النص مناداته هو بشعار الأفضل ، كما هو وارد فى الرواية التى تتضمنها النصوص الثلاثة الأولى •

---

(٢٠) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨ — الأعلاق الخطيرة ، ج ٢ قسم ٢ ص ١١٠.

ويقول ابن ميسر فى ذلك : « نافق أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الملك ، ونادى بشعار الأفضل ، وسير اليه أن يحضر لتسليم طرابلس ، فسير اليه الأفضل الأمير شرف الدولة بن أبى الخطيب ، فلما وصلها نقل حريم فخر الدولة بن عمار وأولاده وأمواله وذخائره الى مصر » «١٧» .

ويتفق ابن الأثير مع ابن القلانسى وابن ميسر فى أن أبا المناقب أظهر الخلاف لفخر الملك ونادى بشعار المصريين ، وأن أهل طرابلس هم الذين راسلوا الأفضل أمير الجيوش فى مصر يلتمسون منه أن يرسل اليهم واليا من قبله ويزوده بالميرة والغلال وما تحتاج اليه طرابلس فى حصارها ؛ فسير اليهم شرف الدولة المذكور ، الذى قبض فور وصوله الى طرابلس على جماعة بنى عمار ، وسيرهم الى مصر مع ما استولى عليه من تحف ابن عماره وذخائره «١٨» .

أما المؤرخ الوحيد الذى يأتى برواية مختلفة كل الاختلاف عن الروايات السابقة هو ابن الفرات «١٩» ، الذى يروى النص التالى : « ... فجلس أبو المناقب فى بعض الأيام وعنده وجوه طرابلس وأكابرها ، فخلط فى كلام ، فنهاه سعد الدولة بلطف ، فجرد سيفه ، وضرب سعد الدولة فقتله ، وانهزم من كان فى المجلس ، وقام أبو المناقب ، وصعد على السور ، وصفق بابطيه ، فقبض عليه أهل البلد وحبسوه ، ونادوا

---

(١٧) نص ابن ميسر فى كتاب Recueil des Historiens des Croisades, t. III, p. 468

(١٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥١

(١٩) أتى ابن شداد فى الأعلاق الخطيرة بنص مماثل

العودة الى بلاده . فعاد الى دمشق فى منتصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ «[١٤]» . وهنـاك علم بنبأ الانقلاب الذى قام به أهـل طرابلس ضـد بنى عمار ، واعلانهم الولاء للخليفـة الفاطمى ، فلم يجد بدا من السـير الى جبلة ، وأمده الأمير طغتكين بفرقة من عسكر دمشق لتساعده فى دخول جبـلة . فدخلها ، وأطاعه أهلها .

ب ــ انضواء طرابلس للفاطميين (٥٠١ ــ ٥٠٢ هـ) :

اختلف المؤرخون فى رواية تفاصيل الثورة التى قام بها أبو المناقب ابن عمار والتى انتهت بدخـول طرابلس فى فلك الدولة الفاطمية ، فابن القلانسى يذكر أن أبا المناقب « أظهر الخلاف له والعصيان عليه ، ونادى بشعار الأفضل بن أمير الجيوش بمصر ، فلما عرف فخر الملك ما بدا منه ، كتب الى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله الى حصن الخوابى ، ففعل ذلك ... وأنفذ أهل طرابلس الى الأفضل بمصر يلتمسون منه انفاذ وال يصل اليهم فى البحر ومعه الغلة والميرة فى المراكب ، لتسلم اليه البـلد ، فوصل اليهم شرف الدولة بن أبى الطيب «[١٥]» واليا من قبل الأفضل ومعه الغلة . فلما وصل اليها ، وحصـل فيها قبض على جماعة أهل فخر الملك ابن عمار وأصـحابه وذخائره وآلاته وأثاثه ، وحمـل الجميع الى مصر فى البحر » «[١٦]» .

---

(١٤) ابن القلانسى ، ص ١٦١

(١٥) هو شرف الدولة بدر بن أبى الطيب الدمشقى

(١٦) ابن القلانسى ص ١٦١

غادر فخر الملك دمشق وفى صحبته تاج الملوك بورى فى ٨ رمضان سنة ٥٠١ هـ ، فلما وصل الى بغداد ، احتفل السلطان بتلقيه أروع احتفل السلطان بتلقيه أروع احتفال وأفخمه ، اذ أمر كافة الأمراء باستقباله واكرامه ، « وأرسل اليه شبارته «١١» وفيها دسته الذى يجلس عليه ليركب فيها ، فلما نزل اليها قعد بين يدى موضع السلطان ، فقال له من بها من خواص السلطان : قد أمرنا أن يكون جلوسك فى دست السلطان » «١٢» . وعندما قابل فخر الملك السلطان أنعم عليه ، وغمره بالاكرام ، واحتفى به ، وأرسل الخليفة المستظهر بالله اليه كبار خاصته وعظماء دولته لمقابلته وتهيئة أسباب الراحة له . وحرص فخر الملك على أن يجتمع بالسلطان ويصور له حقيقة الأوضاع فى طرابلس ، وما يعانيه فى مجاهدة الفرنجة ، وذكر له قوة عدوه وامتداد حصاره لمدينة طرابلس ، واختتم حديثه ملتمسا أن ينجده السلطان وينتصر له ، وأبدى استعداده للانفاق على عسكر السلطان ، فوعده السلطان بالنصرة له «١٣» .

اغتر الأمير فخر الملك بوعود السلطان محمد المعسولة ، وزاد أمله فى انجاد السلطان له بعد ما شاهد من حفاوته به تلك الحفاوة التى لم يكن يتوقعها . وطال لبث الأمير فى بغداد منتظرا عودة عسكر السلطان من الموصل ، اذ كان قد أسلهم لاخماد ثورة جاولى سقادة ، فلما طال مقامه دون جدوى ، سئم الاقامة ، واشتد به القلق على أحوال طرابلس ، فقرر

---

(١١) لعلها مركبة السلطان أو محفته

(١٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

(١٣) نفس المرجع

حمله ، واتحافه به » «٧» . ولقد دعاه طغتكين الى دخول دمشق والاقامة فيها بعض الوقت بقصد الراحـة ، فاشترط عليه ابن عمـار أن يقيم يوما واحدا ، وانتهز طغتكين هذه الفرصة ليعبر له عن مودته له فأقام له مأدبة جليلة ، واحتفى به غاية الاحتفاء ، وأدخله حمامه «٨» .

وجاءته الأنباء وهو بدمشق أن ابن عمـه أبا المناقب استغل فرصته غيابه ، وقتل سعد الدولة ، وأعلن خروجه على الأمير فخر الملك ، فما كان من فخر الملك الا أن كتب الى اتباعه بطرابلس يأمرهم بالقبض عليه وحمله الى حصن الخوابى «٩» من حصون الاسماعيلية ، التابعة لامارة طرابلس، ففعلوا ما أمرهم به . وعلى الرغم من انزعاج الأمير فخر الملك ، وشعوره بالقلق على مصير امارته ، فانه لم يتردد فى متابعة السير الى بغداد لاستنفار الخليفـة والسلطان ضـد الصليبيين . وأبدى طغتكين رغبته فى صحبة فخر الملك الى بغداد ، غير أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لخوفه من سعايات بعض حساده فى بلاط السلطان ، وأغلب الظن أنه خاف أن ينقلب عليـه أهل دمشق كما فعل أهـل طرابلس بفخر الملك . ومع ذلك ، فقد أوفد معه ابنه تاج الملوك بورى ، وحمله كثيرا من الهدايا والتحف من الخيول والثياب ليقدمها الى السلطان ، واستوزر له أبا النجم هبة الله بن محمـد ابن بديع ، وجعله مدبرا لأمره ، وسفيرا بينه وبين السلطان «١٠» .

---

(٧) ابن القلانسى ، ص ١٦٠.
(٨) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠
(٩) ابن القلانسى ، ص ١٦١ ــ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨ ــ ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠
(١٠) ابن القلانسى ص ١٦١

معه الأجناد برا وبحرا ، ومبالغة منه فى الاحتياط أطلق لهم رواتب ستة أشهر مقدما ، « وجعل كل موضع الى من يقوم بحفظه ، بحيث أن ابن عمه لايحتاج الى فعل شيء من ذلك » «٣» ، ثم استحلفهم «٤» . فلما تهيأ له ذلك ، أنفذ الى دمشق يستدعى وصول الأمير أرتق بن عبد الرازق ، أحد أمراء دمشق ، اليه ، ليخاطبه فيما أزمع عليه ، فأجابه أرتق الى ذلك ، واستأذن من ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق فى ذلك ، فاذن له ، ووصل الأمير أرتق الى طرابلس ، وقابل فخر الملك وهو يتأهب لمغادرة طرابلس سالكا الطريق البرى الى بغداد ، وفى صحبته نحو ٥٠٠ فارس وراجل ، ومعه هدايا وتحف جليلة ليقدمها الى السلطان عند مقابلته له «٥» . ويذكر ابن الأثير أن فخر الملك بن عمار « استصحب معه من الهدايا ما لم يوجد عند ملك مثله من الأعلاق النفيسة ، والأشياء الغريبة ، والخيل الرائقة «٦» واجتمع فخر الملك مع أرتق ، واتفق معه على أن يمر فخر الملك بدمشق فى صحبته .

ووصل فخر الملك الى دمشق ، وكان فى استقباله ظهير الدين طغتكين بنفسه ومعه العسكر ، ونزل أمير طرابلس فى مرج باب الحديد بظاهر دمشق ، وبالغ ظهير الدين فى اكرامه ، وتناهى فى احترامه ، « وحمل اليه أمراء العسكرية ، ومقدموه ، من الخيل والبغال والجمال وغير ذلك ما أمكنهم

---

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٦٠ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

(٤) نص ابن الجوزى فى Recueil des Historiens des Croisades

(٥) ابن القلانسى ، ص ١٦٠

(٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠

الفصل الثالث

سقوط طرابلس فى ايدى الصليبيين

(١)

الانقلاب الداخلى فى طرابلس وسقوط اسرة بنى عمار

١ ـ خروج فخر الملك بن عمار الى بغداد لاستنفار الخليفة العباسى المستظهر والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه (٥٠١ هـ/١١٠٨ م):

طال ترقب فخر الملك لوصول الامدادات من بغداد دون جدوى ، وكان ما يزال يأمل فى مساعدة السلطان محمد بن ملكشاه له ، فلما بلغه انتظام الأمور للسلطان السلجوقى ، وقضائه على كل مخالف ، عزم على الخروج اليه بنفسه ، ليعرض عليه ما ارتكبه الصليبيون من الفساد فى البلاد ، وينتصر به ، وكان لابد له قبل أن يقدم على هذه الخطوة من تدبير أمر طرابلس أثناء غيابه فقد يطول غيابه فى بغداد ، ويتأزم الموقف فى طرابلس ولم يجد فخر الملك من يثق به من أهله وذويه سوى ابن عمه أبا المناقب الذى وثق به ، فاستنابه عنه بطرابلس مع جملة من وجوه أصحابه نخص بالذكر منهم سعد الدولة فتيان بن الأعز «١» ، وقيل ابن الأعسر «٢» ، ورتب

---

(١) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٩

الفصل الثالث

ســقـــوط طرابلس فى أيدى الصليبيـــين

(١) الانقلاب الداخلى فى طرابلس وسقوط أسرة بنى عمار

(٢) استيلاء برتران بن صنجيل على طرابلس فى سنة ٥٠٢ هـ

(٣) عوامل سقوط طرابلس

ما يسد رمقهم من الغذاء . وبفضل هذه الثروات تمكن أهل طرابلس من التعامل مع أعدائهم من الصليبيين أنفسهم ومن البيزنطيين ومن البنادقة ، فان ابن الأثير ، يذكر فى حوادث سنة ٥٠١ ﻫ أنه « لما طال حصار الفرنج لمدينة طرابلس على ما ذكرناه ، ضاقت عليه الأقوات وقلت ، واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد ، فمن الله عليهم سنة ٥٠٠ بميرة فى البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البنادقة ، فاشتدت قلوبهم ، وقووا على حفظ البلد بعد أن كانوا استسلموا » «٩٠» .

(٩٠) نفس المرجع ، ج ٨ ص ٢٥٠

الغربية ما لاحد عليه ، حتى بيع كل مائة درهم فترة بدينار ، وشتان بين هذه الحالة ، وبين حالة الروم أيام السلطان ألب أرسلان » «٨٩» .

ونستخلص من هذا النص ثلاثة حقائق هامة : الأولى أنه على الرغم من طول الحصار الذى فرضه الصليبيون على طرابلس فان المدينة كانت تصلها الامدادات بانتظام من عرقة عن طريق البحر ومن الجبال المحيطة بطرابلس عن طريق البر ، ولا شك أن السبب فى ذلك يرجع قبل كل شىء الى عدم اعتماد الصليبيين على أسطول بحرى يرابط على مدخل الميناء ، وعلى جوانب المدينة المطلة على البحر . أما الحقيقة الثانية فهى شجاعة ابن عمار وأهل طرابلس ، ومضاء عزيمتهم ، وصبرهم على الجوع والمكاره على الرغم من طول أمد الحصار ، وقلة الأقوات ، وكان ذلك سببا فى امتداد أمرهم وطول مقاومتهم للصليبيين حتى سنة ٥٠٣ هـ وينبغى أن نخرج من حسابنا فئة الأغنياء الذين نكبهم ابن عمار بمصادرة أموالهم الكثيرة ، ولا شك أن هؤلاء الأغنياء المصادرين ، أصبحوا يؤلفون طبقة موتورة ناقمة على ابن عمار وحكمه ، ولم يتردد بعضهم فى الاتصال بالأعداء والانضمام الى صفوفهم . والحقيقة الثالثة : أن طرابلس كانت فى عصر بنى عمار مدينة كثيرة الخيرات والثروات بشهادة ابن الأثير ، وقد تجلى ذلك الثراء فى اقبال الأهالى على بيع تحفهم وحليهم مقابل

(٨٩) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣٥

لأن الفاطميين كانوا يشتهون الاستيلاء على طرابلس وانتزاعها من أمرائها المستغلين ، بل انهم كانوا لا يترددون فى محاربتهم لو استطاعوا الى ذلك سبيلا .

واشتد الأمر على أهل طرابلس بسبب الحصار البرى والبحرى الذى كان يفرضه وليم جوردان على طرابلس ، وضاقت عليها الأقوات ، وقلت ، واشتد الأمر على ابن عمار وأهل ثغر طرابلس ، « وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرمهم ، فجلا الفقراء ، وافتقر الأغنياء ، وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأى سديد » «٨٨» . وكان لابد لابن عمار من أن يواجه هذه الأزمة الاقتصادية المستحكمة التى تخلفت من الحصار الصليبى ، فيبادر بمصادرة أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء على نحو يتسق والنظام الاشتراكى الاسلامى ، ونلاحظ أنه لم يقدم على هذا الاجراء الا بعد أن اشتدت الضائقة بالفقراء ، وفى ذلك يقول ابن الأثير : وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفاء ، فلما قلت الأموال عنده ، شرع يقسط على الناس ما يخرجه فى باب الجهاد ، فأخذ من رجلين من الأغنياء ما لا مع غيرهما ، فخرج الرجلان الى الفرنج وقالا ، ان صاحبنا صادرنا ، فخرجنا اليكم لنكون معكم ، وذكرا له أنه تأتيه الميرة من عرقة والجبل ، فجعل الفرنج جمعا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شىء الى البلد ، فأرسل ابن عمار ، وبذل للفرنج مالا كثيرا ليسلموا الرجلين اليه فلم يفعلوا ، فوضع عليهما من قتلهما غيلة . وكانت طرابلس من أعظم بلاد الاسلام ، وأكثرها تجملا وثروة ، فباع أهلها من الحلى والأوانى

---

(٨٨) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٢٣٥

سكمان فى القريتين فى صفر سنة ٤٩٨ هـ ، وعوده عسكره الى كيفا «٨٤» • أما الملك رضوان بن تتش صاحب حلب ، فقد خرج فى شهر رجب سنة ٤٩٨ هـ وهو عازم على قصد طرابلس لمعاونة فخر الملك بن عمار على الافرنج النازلين عليه «٨٥» • وكان أهل حصن أرتاح من الأرمن قد سلموه حصنهم لما شملهم من جور الصليبيين ، وبينما كان رضوان يتأهب للسير الى طرابلس ، بلغه وصول جيش تنكريد (طنكرى) مع جيش كبير بغية استرجاع أرتاح ، فاصطدم معهم فى معركة ضارية فى ٣ شعبان انتهت بهزيمته ، وقتل من أصحابه ما يقرب من ثلاثة آلاف «٨٦» • ويذكر الاستاذ الدكتور سعيد عاشور أن ابن عمار لم يطلب المعونة من طغتكين أتابك دمشق وحلب بسبب ما وقع بين الطرفين من خلاف وعداء ، أو من الفاطميين الذين يتوثبون لانتزاع طرابلس من بنى عمار «٨٧» • وأعتقد أن ابن عمار لم يتردد فى الاستنجاد بطغتكين ، الا أن هذا — وقد اشتد عليه المرض — لم يكن فى حالة تسمح له بمد يد المساعدة لابن عمار ، فغارات الصليبيين كانت تجتاح بلاده ، والمرض قد اشتد عليه ، ولاأدرى السبب فى قيام الخلاف والعداء بينه وبين ابن عمار ، فالمصادر العربية كلها لا تشير بشىء من هذا الخلاف ، بل على الضد من ذلك نشاهد طغتكين سنة ٥٠١ هـ يبالغ فى غمر ابن عمار بكرمه ، عندما يزوره هذا فى دمشق وهو متوجه الى بغداد • أما أنه يستنجد بالفاطميين فأمر طبيعى

---

(٨٤) ابن القلانسى ، ص ١٤٦ ، ١٤٧
(٨٥) نفس المرجع ص ١٤٨ — ابن العديم ، ج ٢ ص ١٥٠
(٨٦) نفس المرجع
(٨٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٦٣

أسطول المسلمين من الاستيلاء على قطعة من الأسطول البيزنطى وأسر من كان فيها «٨٢» .

وفى هـذا العام (٤٩٨ هـ) اشتد حصار الصليبيين على طرابلس ، من البر والبحر ، وعانى أهل طرابلس من هذا الحصار ، ولم يجد الأمير فخر الملك بدا من ارسال رسله الى أمراء السلاجقة يستنجد بهم لمساعدته على كشف غمته بمهاجمة الصليبيين المحدقين بمدينته . وكان من بين من استنجد بهم ابن عمار الأمير سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وماردين بديار بكر ، والأمير جكرمش صاحب الموصل ، والملك فخر الملوك رضوان ابن تاج الدولة تتش صاحب حلب ، والأمير ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . واتفق الأميران سكمان ابن أرتق وجكرمش على الجهاد ونصرة أهل طرابلس ، أما الأمير ظهير الدين فقد اشتد عليه المرض حتى أشفى على الموت ، ولم يكن فى وسعه بذل المساعدة لابن عمار فى تلك الآونة بالذات ، بل انه كان فى حاجة الى من يحمى دمشق أثناء مرضه . ويذكر ابن القلانسى أنه كتب بدوره الى الأمير سكمان يستدعيه فى عسكره ليوصى اليه بأمر دمشق «٨٣» ، ووصل هذا العرض الى سكمان فى نفس الوقت الذى قرر فيه السير للجهاد ، فرأى أن يستفيد أولا من عرض ظهير الدين ، وبادر بالسير نحو دمشق ، وعبر الفرات الى القريتين من عمل حمص . ويبدو أن ظهير الدين ندم على تسرعه بدعوة سكمان وخوفه رجاله من عاقبة مجيئه الى دمشق ، وبينما كان يتدبر الأمر ورد عليه خبر وفاة الأمير

---

(٨٢) نفس المرجع

(٨٣) ابن القلانسى ، ص ١٤٧ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٢٧

ب ــ فخر الملك يقاوم وليم جوردان (السردانى) (: ٤٩٨ ــ ٥٠١ هـ / ١١٠٥ ــ ١١٠٨ م

كان ريموند دى صنجيل قد عهد الى ابنه الأكبر برتران بحكم امارة تولوز ، فظل برتران يحكم تلك الامارة فى حياة أبيه ، وبعد وفاته بثلاث سنوات • الا أن حكم برتران لم يكن يستند على أسس سليمة لأنه لم يكن ابنا شرعيا لريموند ، ولذلك استدعى أهل تولوز الفونس جوردان الابن الشرعى الأصغر لريموند الصنجيلى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨م)، وتم الاتفاق بين الأخوين فى ذلك التاريخ على أن يرث برتران أملاك أبيه فى الشام ، بينما يرث الفونسو امارة تولوز «٨٠» •

أما فى طرابلس فقد اختار فرسان ريموند دى صنجيل وليمجوردان، ابن أخت ريموند خلفا له ، لصعوبة استدعاء برتران القائم بحكمممتلكات أبيه فى الغرب ، فى هذا الوقت بالذات • ولقد قام جوردان بمهمته خير قيام ، وبذل كل جهوده لتحقيق أمنية خاله المتوفى فى احكام الحصار على المدينة تمهيدا للاستيلاء عليها ، ويبدو أنه حافظ على استمرار العلاقات الودية التى كانت قائمة بين ريموند والامبراطور البيزنطى الكسيوس كومينين • ويذكر ابن الأثير ، أن « ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس ، فحملوها فى البحر » «٨١» • ولكن أسطول طرابلس تصدى لهذه السفن البيزنطية ، واشتبك معها فى قتال بحرى عنيف ، انتهى بهزيمة البيزنطيين ، وتمكن

(٨٠) سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٦٧ ملحوظة ١
(٨١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣٥

(٢)

استيلاء برتران بن صنجيل على طرابلس فى سنة ٥٠٢ هـ

١ ــ الموقف حول طرابلس بعد وصول برتران :

واصل وليم جـوردان بعد وفاة ريموند الصنجيلى الحصـار على طرابلس ما يزيد على سنتين حافلتين بالأحداث ، اختتمها بفتح مدينة عرقة . وكانت عرقة من أعمال طرابلس ، وكان يتولاها من قبل فخر الملك بن عمار غلام من غلمانه ، استقل بهـا فى الوقت الذى شقت فيه طرابلس عصـا الطاعة على فخر الملك ؛ ولما انقطعت الميرة والأقوات عن عرقة بسبب عيث الفرنج فى نواحيها ، وأحس بعجزه عن حمايتها والحفاظ عليها ، لم يجد من يثق فى قدرته على الدفاع عنها من أمراء المسلمين غير طغتكين أتابك دمشق ، فكتب اليه يلتمس منه المعونة على دفع الفرنج عنهـا ، وانفاذ من يتسلمها منه ، « ولئن يأخذ المسلمون هذا الحصن خير له دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج » «[٢٢]» . نوجه اليه طغتكين قائدا اسمه اسرائيل فى ثلاثمائة رجل ، فتسلم منه الحصن سنة ٥٠٢ هـ . وعزم طغتكين على زيارة عرقة لمشاهدة تحصيناتها وتفقد أسوارها والاشراف على تقويتها بالرجال والعدة استعدادا لمواجهة الحصار الصليبى ، فسار بعد شهرين، فى ٤آلاف فارس ، وافتتح حصن الأكمة . فلما علم وليم جوردان بهذه الأخبار وهو

---

(٢٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٦ (حوادث سنة ٥٠٢ هـ)

مقيم على حصار طرابلس ، خرج فى فرقة من رجاله عدتها ثلثمائة فارس ، واشتبك مع جيش طغتكين ، فهزمه فى شعبان سنة ٥٠٢ هـ ، وطارده الى حمص . ثم عاد فحاصر عرقة واستولى عليها بعد ثلاثة أسابيع فى رمضان سنة ٥٠٢ هـ (ابريل ١١٠٨ م) بالأمان «٢٣» .

ثم ترك وليم جوردان بعرقة حامية من الصليبيين ، وعاد الى طرابلس لمتابعة الحصار . وكان يأمل أن يتوج جهوده بفتح المدينة على يديه ، بعد أن بذل قصارى جهده فى حصارها . ولكن حدث ما لم يكن فى حسبانه ، اذ وصل الى طرابلس فى ذلك الوقت منافس خطير أطاح بأمل جوردان فى فتح طرابلس ، وتأسيس امارة صليبية باسمه ، ذلك هو برتران الابن الأكبر لريمند الصنجيلى ، الذى اضطر الى التخلى عن حكم امارة تولوز لأخيه الأصغر الفونس جوردان ، نظير أن يرث هو أملاك أبيه فى الشام . ويبدو أن برتران كان قد فكر قبل وصوله الى طرابلس فى ضرورة الاستعانة بأحد الأساطيل الايطالية حتى يعجل بفتح طرابلس ، فخرج من بلاده على رأس جيش عدته أربعة آلاف فارس ، يحملهم أسطول مؤلف من أربعين سفينة ، وعرج وهو فى طريقه الى طرابلس على جنوة حيث تفاوض مع حكومتها فيما يمكن أن تقدمه من مساعدات فى سبيل محاصرة طرابلس من البحر ، وفى نفس الوقت كان وليم جوردان قد بعث

---

(٢٣) ابن القلانسى ص ١٦٢ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٦ — سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٣٦٦

أحد سفرائه الى جنوة لنفس الهدف . الا أن وجود برتران بنفسه فى جنوة جعله يكسب الجولة ويفوز بتعهد من حكومة جنوة تلتزم فيه بمساعدته فى الاستيلاء على طرابلس ، وفى الحصول على تركة أبيه فى الشام ، على أن يسنح الجنوية نظير ذلك امتيازات تجارية واسعة النطاق فى طرابلس «[٢٤]» .

وفى شعبان سنة ٥٠٢ ﻫ وصل برتران « فى جملة ستين مركبا فى البحر مشحونة بالافرنج والجنويين » «[٢٥]» ، وتعمد أن يرسو بهذا الأسطول فى ميناء السويدية بدلا من أنطرطوس ، لكى يقابل تنكريد ويطالبه بحصة أبيه فى أنطاكية واللاذقية . فأبدى تنكريد موافقته ولكنه اشترط على برتران فى مقابل ذلك أن يساعده فى حملته التى ينوى القيام بها ضد البيزنطيين فى المصيصة . وبطبيعة الحال رفض برتران هذا الشرط ، فاستثار بذلك غضب تنكريد ، الذى طلب منه الرحيل على الفور . وعلى أثر ذلك أبحر برتران فى أسطوله البروفنسى الجنوى الى أنطرطوس «[٢٦]» ، حيث طالب وليم جوردان بأنطرطوس وجبيل وعرقة باعتباره صاحب الحق الوحيد فى تركة أبيه . فاعترض عليه جوردان ورفض أن يسلمه شيئا منها ، وهنا احتدم الخلاف بين برتران وجوردان ، فاستنجد جوردان بتنكريد

---

(٢٤) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٣٦٨

Heyd, Histoire du Commerce du Levant, t. 1, p. 140.

(٢٥) ابن القلانسى ص ١٦٣ — سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ج ٨ ص ١٧ — أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٩ . ويذكر الدكتور سعيد عاشور أنه وصل فى ثمانين سفينة (ج ١ ص ٣٦٨)

(٢٦) سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٦٨

بعد أن تعهد له أن يصير تابعا له . وعلى هـذا الأساس ، وعده تنكريد بالسير فى جيشه للدفاع عن حق جوردان فى المـدن التابعة له . وأسرع برتران فى العمل ، فبادر بالسير فى أسـطوله الى طرابلس ليحاصرها من البر والبحر ، وفى الوقت نفسه كتب الى بلدوين الأول ملك بيت المقدس يدعوه للحضور لمسـاعدته فى النزاع القـائم بينه وبين وليم جوردان ، ويخبره فى نفس الوقت بمنـاصرة تنكريد لوليم جـوردان عليه ، ويعده بالتبعية له اذا تمكن من فض النزاع لصالحه . فلم يتردد بلدوين عندما بلغته الرسالة فى الحضـور الى طرابلس على الفور فى مقـدمة فرقة من خمسمـائة فارس . وفى قلعـة صنجيـل تم اجتمـاع بلدوين ببرتران فوعده بلدوين بالانتصـار لقضيته وفى مقابل ذلك حلف له برتران يمين الولاء «٢٧» . ثم ان بلدوين استـدعى أمراء الفـرنج لبحث المـوقف وتصفية النزاع ، فقدم بلدوين دى بورج ، ووليم جوردان ، وتنكريد . وبفضل جهود بلدوين ملك بيت المقـدس ، صالح جوردان برتران على أساس تقسيم التركة بين المتنازعين ، فكان نصيب جوردان عرقة وأنطرطوس . اللتين إفتتحهما بعد وفاة ريمند . بينما ظفر برتران بجبيل وقلعة صنجيل وطرابلس التى اتفق الجميع على أن يتعـاونوا على فتحها ، كما تقرر أنه اذا توفى أحدهما دون أن يعقب ولدا فان الآخر يرثه فى ممتلكاته «٢٨» .

---

(٢٧) نفس المرجع ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ . ويقول ابن القـلانسى فى ذلك انه وقع بين ريمنـد بن صنجيل (يقصد برتران) وبين السردانى (يقصد وليم جوردان) مشاجرة ، ووصل طنكرى (يقصد تنكريد) صاحب أنطاكية اليه لمعونتـه للسردانى ، ووصل الملك بغدوين صاحب بين المقـدس فى عسـكره ، فأصلح بينهم (أنظر ابن القـلانسى ص ١٦٣ — ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩)

(٢٨) سعيد عاشور ج ١ ص ٣٧٠

ب — الحصار الثالث وسقوط طرابلس فى ايدى الصليبيين فى سنة ٥٠٢ هـ :

تضامن أمراء الفرنجة جميعا على فتح طرابلس ، فالأسطول البروفنسى الجنوى كان يحاصرها من البحر ، وتنكريد صاحب أنطاكيـة ، وبلدوين صاحب مملكة بيت المقـدس ، وبرتراند بن ريسـوند الصنجيلى كانوا يحاصرونها بحشود الصليبيين مجتمعـة من البر • وشرع الصليبيون فى فى التضييق عليها منـذ أول شعبان سنة ٥٠٢ هـ الى ١١ ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ ، وقطعوا عنها الاتصال تماما من البر والبحر • ثم اقترب المحاصرون الصليبيون من أسوار المدينـة ، وأسندوا ابراجهم عليها ، واستمات أهل طرابلس فى الدفاع عن مدينتهم ، وابتكر بعض أهل الصناعات من رجالها طريقة تهـدف الى احراق الأبراج الصليبية ، وتعطيل الكباش المخصصة لنطح الأسوار لنقبهـا ، وهى طريقة أثبتت جـدواها عندما طبقها هؤلاء الطرابلسيون وقت حصـار الصليبيين لمدينة صـور سنة ٥٠٥ هـ • وقد وصف ابن القلانسى هذه الطريقة العربية المبتكرة وصفا طويلا ، فيـذكر أحد هؤلاء الرجال — وكان بحريا من طرابلس — عمد الى خشبة طويلة جافية قوية أقامهـا فى برج البلد الذى بازاء برج الافرنج ، وفى رأسـها خشبـة على شـكل الصليب ، طولهـا أربعون ذراعا ، تدور على بكر بلولب كيف مـا أراد متـوليها على مثـال مـا يكـون فى الصـوارى البحـرية وفى طـرف الخشـبة التى تـدور سهـم حـديد ، وفى طرفها الآخر حبال مدارة بها على ما يريد متوليها • وكان يرفع فيها جرار الـكور والنجاسـه ليشغلهم بطرح ذلك عليهم فى البرج عن الكبـاش وعمد البحرى الى سلال العنب والقفاف فيجعل فيها الزيت والغير والسراقة والقلفونية وقشر القصب ويطلق فيها النار ، فاذا علقت بذلك وقع ذلك فى

الآلة المذكورة حتى يوازى برج الافرنج ، فتقع النار فى أعلى البرج ، فيبادر برفع أخرى ، ومع هذا كان يرمى أرضا بالزيت المغلى فى قدور صغار على البرج ، فيعظم الوقيد ، وبذلك احترق البرج الافرنجى «(٢٩)» .

ولكن أبراج الفرنج على أسوار طرابلس تكاثرت ، وتضافرت جهود الصليبيين فى الهجوم فى الوقت الذى أخذ الأسطول الجنوى يحكم الحصار على طرابلس من البحر ، ويقضى على أى محاولة تسلل من جانب السفن الاسلامية ، لامداد المدينة بالميرة . وسقط فى أيدى أهل طرابلس اذ رأوا اقتراب مقاتلة الفرنج من أسوار المدينة ، وكانوا قد كتبوا منذ شهور مضت الى مصر يستنجدون وزيرها الأفضل ، ويسألونه أن يسدهم بالأقوات والمؤن ، وأقاموا ينتظرون ورود السفن الفاطمية ، ومضت الأيام والامدادات لا تصل والأمل يذبل ويذوى ، والمقاومة تفتر ، وكلب العدو يستأسد . فقر عزم واليها على التسليم بعد أن يئس من وصول السفن الفاطمية ولكن نفرا من أهل طرابلس عز عليهم أن ينتهى كفاحهم على هذه الصورة ، فأبوا الاستسلام وآثروا المضى فى المقاومة حتى النهاية . ومن الغريب أن يكون والى طرابلس الفاطمى نفسه هو الذى دعا للهزيمة والاستسلام وعارض فكرة المعارضة ، ولكن يبدو أن اجماع أهل طرابلس على مواصلة الدفاع والجهاد حمله على أن يستأمن لنفسه وللحامية الفاطمية من العدو ، فان ابن القلانسى يشير الى أن « واليها وجماعة من جنده

(٢٩) ابن القلانسى ، ص ١٧٩ ، ١٨٠

كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها ، فلما ملكت أطلقوا ووصلوا الى دمشق بعد أيام » «(٣٠)» ، ويؤيد ذلك ما ذكره يوسيفوس بن كريون المؤرخ اليهودى اذ يقول : «وكان واليها قد استأمن قبل فتحها فى جماعة من الجند فلحقوا بدمشق » «(٣١)» • كذلك يشير أبو الفداء الى أن بعض أهالى طرابلس كانوا « قد طلبوا الأمان ، وخرجوا منها الى دمشق قبل أن يسلكها الفرنج » «(٣٢)» • ويأتى ابن الأثير بعبارة تقترب معنى ولفظا من عبارة ابن القلانسى «(٣٣)» • ونستنتج من نص أبى الفداء أن انقساما حدث فى داخل طرابلس ، فكان الوالى والحامية الفاطمية ينادون بالتسليم ، بينما أصر أهالى طرابلس على الاستمرار فى النضال ، ولا نفسر خروج الوالى وجنده قبل دخول الفرنج الا بأحد أمرين: اما أن أهل طرابلس لم يقبلوا أن يبقى بين ظهرانيهم جبناء ودعاة هزيمة ، فأرغموهم على الخروج منها أو أنهم خرجوا من تلقاء أنفسهم بعد أن استأمنوا على أرواحهم ، ومضوا الى دمشق ، كما نستنتج من نص ابن القلانسى وابن الأثير أن ابقاء الصليبيين على والى طرابلس وجنوده بعد فتح المدينة يعنى أن الوالى المذكور اتصل بهم فى السر وأمن على نفسه وعلى جنده ، ومنه علم الفرنجة بالخلاف القائم فى المدينة ولذلك :فرجوا عنه وعن جنده بعد دخولهم طرابلس • وأيا ما كان

---

(٣٠) ابن القلانسى ، ص ١٦٣

(٣١) جورجى ينى ، ص ٣٨٣

(٣٢) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣

(٣٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩

الأمر فان موقف والى طرابلس كان موقفا مخزيا ، فقد كان فى امكانه بث روح المقاومة فى نفوس أهل طرابلس، وكان فى مقدور الحامية أن تلهم أهل البلد القوة والحماس والجلد على القتال ، ولذلك لم تستطع طرابلس أن تقاوم الصليبيين طويلا بعد ذلك .

ومضت أيام وهجمات الفرنج على سور طرابلس تشتد ، وانتهزوا فرصة الارتباك الداخلى الذى سببه خروج الوالى والحامية الفاطمية ، فشددوا القتال، وحملوا حملة رجل واحد «[٣٤]» فى يوم الاثنين ١١ ذى الحجة « وهاجموها من الأبراج ، فملكوها بالسيف فى ١١ من ذى الحجة ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها ، وحصل فى أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها ، وما كان منها فى خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصر فيذكر » «[٣٥]» . ويعلق ابن الأثير على ما فعله الصليبيون بأهل طرابلس بقوله : « ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة ودور العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يحصى ، فان أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا وتجارة » «[٣٦]» .

ويختلف المؤرخون العرب فى تحديد سنة سقوطها ، فبعضهم يحدد

---

(٣٤) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٨٠

(٣٥) ابن القلانسى ، ص ١٦٣

(٣٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٩

سنة ٥٠٢ هـ ومنهم ابن القلانسى «٣٧» ، وسبط بن الجوزى «٣٨» ، وابن شداد «٣٩» ، وأبو المحاسن «٤٠» . وبعضهم الآخر يجعل سقوطها فى سنة ٥٠٣ ، ومنهم أبو الفداء «٤١» ، والحافظ الذهبى «٤٢» ، وابن الأثير «٤٣» ، وابن الفرات «٤٤» . ولكن ابن الأثير يناقض نفسه بعد ذلك ، فمن المعروف أن الصليبيين افتتحوا جبلة بالأمان بعد طرابلس فى المحرم سنة ٥٠٣ هـ ، ولكن ابن الأثير بينما يذكر أنها سقطت فى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٠٣ هـ ، وان صاحبها فخر الملك بن عمار خرج منها الى دمشق بعد ذلك نجده يذكر تاريخ خروجه — فى موضع آخر — فى المحرم سنة ٥٠٢ هـ «٤٥» وتصحيحها ٥٠٣ . ونميل فى تحديد سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين الى الأخذ بتاريخ ١١ ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ التى ذكرها الفريق الأول من المؤرخين ، وعلى هذا الأساس تكون جبلة قد سقطت فى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ ، ويكون خروج فخر الملك بن عمار الى دمشق واقطاعه أعمال الزبدانى فى المحرم سنة ٥٠٣ هـ .

---

(٣٧) ابن القلانسى ، ص ١٦٣ .
(٣٨) مرآة الزمان ج ٨ ص ١٧
(٣٩) ابن شداد ، ج ٢ قسم ٢ ص ١١١
(٤٠) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٠
(٤١) أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣
(٤٢) الحافظ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٣ ج ٤ ص ٦
(٤٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩
(٤٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨
(٤٥) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩

(٣)

عوامل سقوط طرابلس

ا ــ ضعف الجبهة الاسلامية :

كانت الدولة الفاطمية فى مصر تعانى وقت دخول الصليبيين فى بلاد الشام من الضعف السياسى والانقسامات المذهبيــة ، وأخذت منذ ظهور السلاجقــة فى الشام تفقــد أملاكها تدريجيا ، ولم تستطع ــ أمام الدفع السلجوقى ــ أن تحتفظ طويلا بالسواحل الشامية على الرغم من الجهود التى بذلها بدر الجمالى فى هذا السبيل ، فقد تمكن تاج الدولة تتش من الاستيلاء على حمص وعرقة وأفامية ، واقتسم ابناه دقاق ورضوان الشام بعضد مقتله فى سنة ٤٨٨ هـ فاستقل رضوان بحلب وانفرد دقاق بدمشق . وأدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة من الناحيتين السياسية والمذهبيــة الى عــدم تماسك المسلمين وتضامنهم أمام الغزو الصليبى ، وكان ذلك نذيرا بما حل ببــلاد الشام من نكبات على أيدى الصليبيــين . ولو أن الفاطميين اتفقوا على السلاجقة على دفع الخطر المشترك لكان من الممكن أن تفشل الحملة الصليبية الأولى ، ولاستعصى على الصليبيين أن يخترقوا جبال طوروس الى الشام ، ولكن ما حــدث كان مؤسفا ومخزيا فى آن واحــد ، فان الأفضــل لم يتردد فى السعى للتحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة ، وقد ذكرت من قبــل كيف عبر رسله الى زعماء الصليبيين فى أنطاكية عن فرحتهم لسقوطها فى أيديهم .

ولو أن الدولة الفاطمية كانت قوية الجانب ، تستطيع وحدها أن تتحمل مهمة الدفاع عن بلاد الشام لكان الأمر قد هان ، ولكنا اغتفرنا لها ما اجترمته ولكن الدولة الفاطمية كانت قد بلغت فى أيام الآمر بأحكام الله درجة كبيرة من الضعف والانحلال ، وأخذت تسير بخطى حثيثة نحو نهايتها المحتومة ، فمن انقسامات مذهبية الى حروب داخلية . وبينما كان الصليبيون يؤسسون لأنفسهم مملكة فى بيت المقدس وامارتين فى الرها وأنطاكية ، ويحاصرون طرابلس تمهيدا لجعلها مركزا لامارة ثالثة ، كان الأفضل رجل مصر الأقوى مشغولا بمحاربة النزارية والقضاء على أعدائه وأعداء المستعلية فى الداخل ، بعد أن فشلت قواته التى أرسلها الى عسقلان مؤخرا فى مواجهة الصليبيين .

ولو أن دعاة الأفضل وأنصاره فى طرابلس لم يتدخلوا فى اسقاط فخر الملك لكان من الممكن أن تطول مقاومة المسلمين فيها ، ولكن تدخله عجل بالنهاية ، ذلك أن طرابلس أصبحت بعيدة عن جيوش الفاطميين ؛ وأصبح من العسير عليهم أن يدافعوا عنها ، فقبول الفاطميين لمهمة يعرفون مقدما عجزهم عن أدائها خطأ جسيم ارتكبوه ، ويعتبر نقطة سوداء فى تاريخهم .

والى جانب الفاطميين ، أوجه تبعة سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين الى السلاجقة ، فعلى الرغم من مسير فخر الملك الى السلطان السلجوقى بنفسه ، مع علمه بالانقلاب الداخلى الذى قام به أبو المناقب وأهل طرابلس

لصالح الفاطميين على أثر خروجه منها ، وعلى الرغم من الهـدايا الكثيرة التى حملها معه للسلطان محمد وللخليفة ، وعلى الرغم من تعهده للسلطان بنفقات الجند الذين يسـيرون معـه لرفع الحصار الصيلبى عنها ، فان السلطان السلجوقى تقاعس عن نجدته ، بحجة اشتغال جيشه باخماد ثورة جاولى شقاوة بالموصل . ولذلك فالسلاجقة على الرغم من مواقفهم المشرفة فى بلاد الشام أمام الصليبيين لا يمكن اعفائهم من تبعة سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين .

ب ـ استهتار الفاطميين بالموقف فى طرابلس :

لمـا تضافرت جهـود الصليبيين لمحاصرة طرابلس من البر والبحر ، وتشددوا فى أحكام الخناق عليها ، لم يجد أهل طرابلس من البر والبحر ؛ يطلبون العون منه سوى سـلطات القـاهرة ، فتوجهـوا اليها بصيحات الاستنجاد ، وأرسلوا رسلهم الى الأفضل يلتمسون منه أن يزودهم بالميرة والرجال والسلاح ؛ ولو أن الحكومة الفاطمية اتخذت وقتئذ اجراء سريعا حاسما لتموين طرابلس ونجدتها لأمكن للمدينـة أن تقـاوم الصليبيين ، فأسوارها منيعة ، وأهلها يأنفون الاستسلام والهزيمة ، ويدافعون عنـها فى بسالة رائعة مدت أمد الحصار الصليبى الى سبع سنين كاملة . ولكن استهتار الأفضل بنجدة طرابلس ، وتلكأه فى ارسال المؤن ، وجهل الخليفة الفاطمى بحالة طرابلس السيئة ، لصغر سـنه ، واستبداد الأفضل بأمور الدولة ، كان من العوامل الرئيسية فى سقوط المدينة . ونستنتج من نص

لابن الأثير اذ يقول : « وكان سبب تأخره (أى الأسطول) أنهم فرغوا منه ومن البحث عليه ، واختلفوا فيه أكثر من سنة ، وسار ، فردته الريح ، فتعذر عليهم الوصول الى طرابلس ليقضى الله أمرا كان مفعولا » «[٤٦]» نستنتج من ذلك النص أن الاجراءات الخاصة بجمع قطع الأسطول الذى أعده الأفضل لنجدة طرابلس من الموانىء المصرية استغرقت وقتا طويلا ، وأن خلافا نشب بين قواد الأفضل فيمن يتولى قيادته ، ودام هذا الخلاف ما يقرب من سنة ، وأن ريحا مضادة لسير الأسطول عرقلت سيره الى طرابلس وردته «[٤٧]» ، فوصل الأسطول بعد أن سقطت طرابلس ، وجبلة كذلك ، فى أيدى الصليبيين . ويشير ابن القلانسى الى هذا الأسطول عقب سقوط طرابلس بقوله : « ووصل عقيب ذلك الأسطول المصرى ، ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ، ومراكب ، وعدد ، وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما فى المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله ، ووصل الى صور فى يوم الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها ، وأقام بالساحل مدة ، وفرقت الغلة فى جهاتها ، وتمسك به أهل صور وصيدا

---

(٤٦) ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٢٥٩

(٤٧) ابن القلانسى ، ص ١٦٣ — ابن الجوزى ، ص ١٧ — أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣

وان كان أبو المحاسن يذكر أن أسطول مصر وصل الى مياه طرابلس « وصار كلما سار نحو البلد ردته الفرنج الى مصر » ، أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٩

وبيروت ، وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الافرنج ، ولم يمكن الأسطول المقام ، فأقلع عائدا عند استقامة الريح الى مصر » «[٤٨]» •

وهكذا كان تأخير مصر فى ارسال الأسطول سببا فى وصوله الى ساحل صور بعد سقوط طرابلس بنحو ثمانية أيام وهو ان دل على شىء فعلى مدى استهانة المسؤولين وقتئذ فى مصر الفاطمية ، واستهتارهم بالموقف ، وكان فى امكان هذا الأسطول انقاذ صيدا من الحصار الصليبى، ولكن قادته بعد أن وزعوا الميرة فى ساحل صور أسرعوا بالعودة الى مصر «[٤٩]» •

ويندد أبو المحاسن بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنج ، ويصور هذه اللامبالاة فى الدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : تقاعدهم عن المسير مدة طويلة ، وضعف العسكر الذى أرسلوه مع الأسطول ، وعدم خروج الأفضل بنفسه للدفاع عن طرابلس • ويقول أبو المحاسن تعليقا على وصول الأسطول الفاطمى متأخرا : « ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه : الأول من تقاعدهم عن المسير فى هذه المدة الطويلة ؛ والثانى لضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال ، والثالث لم لا خرج الوزير لأفضل ابن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان

---

(٤٨) ابن القلانسى ص ١٦٤
(٤٩) نفس المرجع ص ١٧١

فعل والده بدر الجمالى فى أوائل الأمر ، هــذا مع قوتهم من العســاكر والأموال والأسلحة » «٥٠» .

وليس لدينا ما ندافع به عن الحــكومة الفاطمية فى مصر فى تقاعسها عن تلبية نداء أهــل طرابلس فى سرعة تتناسب مع الظروف القاسية التى تعرضت لها طرابلس بسبب الحصار الصليبى ، واذا كان ابن الفرات قــد أورد رواية تتضمن ســخرية لاذعة لموقف الفاطميين من طرابلس «٥١» ، وعلى الرغم من وضوح عامل الاختــلاق فى هذه الرواية ، فانها تعبر عن حقيقة لا شك فيها وهى استهتار الفاطميين بالخطر الصليبى ، وهواستهتار ظهر منذ أن وطئت قوات الصليبيين أرض الشام .

ج ـ مساعدة الجنوية والمردة للصليبيين :

قدم الجنوية لريمند الصنجيلى ومن خلفه خدمات جليلة لتأسيس

---

(٥٠) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧٩

(٥١) يقول ابن الفرات : « وحكى أن السبب فى أخذ طرابلس أنه لما ضايقها الفرنج كتب من بها الى الديار المصرية يستنجدون خليفتهــا ، ويسألون الميرة ، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة ، فبينمــا هم فى ذلك ، اذا بمركب قد أقبل ، فما شكوا أن فيه نجدة ، فطلع منــه رسول وقال : قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة ، وأنها تصلح للخدمة ، وقد أمر بارسالها اليه ، وأرسلوا اليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهى ، فعند ذلك أيسوا من نصره ، وضعفت قواهم وخارت نفوسهم وذلوا وملكها الفرنج فى التاريخ المذكور » ابن الفرات ج ٨ ، ص ١٧٩

امارة طرابلس الصليبية ، ففى رجب سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤) وصل أسطول جنوى فى البحر الى ظاهر اللاذقيــة مشحون بالتجار والأجناد والحجاج ، يقوده هيو امبرياتشى ، واستــعان بهم ريمــوند الصنجيلى فى محاصرة طرابلس ، وبفضل هذا الأسطول تمكن من افتتاح ثغر جبيل فى هذه السنة، وقد كافأ ريموند الجنوية على خدماتهم بأن أعطاهم الحق فى ثلث مدينــة جبيــل ، وقد مهد ذلك التنازل من جانبه ، فيما بعــد ، لأن تصبح جبيل نفسها مستعمرة جنوية لها أهميتها ، تحت اشراف أسرة امبرياتشى «٥٢» •

وفى أثناء قدوم برتران بن ريموند الصنجيلى الى طرابلس ، مر بجنوة وأجرى مباحثات مع حــكومة جنوة التى عرضت عليه مساعداتها البحرية فى الاستيلاء على طرابلس وحصوله على تركة أبيه ، مقابل أن يقوم برتران بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة فى طرابلس «٥٣» • وقد لعب هذا الأسطول الجنوى دورا هاما فى منع وصول الأسطول الفاطمى الى طرابلس وبذلك ساهم فى احكام الحصــار حــول المدينة من البحر ، وقد طالب الجنوية برتران بثمن خدمتهم ، وفقا للاتفاق الذى أبرم بينه وبين حكومة جنوة فى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) ، فتقرر أن يمنح الجنويون ثلث طرابلس مكافأة لهم على خدماتهم «٥٤» ، كما أصبحت جبيــل مستعمرة جنوية ؛

---

(٥٢) سعيد عاشور ، ج ١ ، ص ٣٥٩
(٥٣) نفس المرجع ، ص ٣٦٨
(٥٤) ابن القلانسى ص ١٦٣

ونجح أميرها هيوج امبرياتشيو فى الحصول على حق الحكم الوراثى فيها من جنوة ، مع تعهده بدفع المال اللازم لحكومة جنوة «٥٥» .

والى جانب الجنوية قدم المردة الموارنة بجبال طرابلس (جبل سير ، واهدن ، وصقع الضنية ، وبشرى ، وجبيل) مساعداتهم للصليبيين فى فتح طرابلس ، فقد أمدوهم بالميرة ، وساهم بعضهم فى مقاتلة المسلمين . ويشير الشدياق الى مساعدة أمراء المردة لبلدوين فى منازلة بيروت ومحاصرتها من البر والبحر فى سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) «٥٦» . ولما حاول السلاجقة استنقاذ بعض المدن الاسلامية المحاصرة ، زحف المردة الى قتالهم عند شيزر سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) وأرغموهم على النكوص الى العراق «٥٧» . ولاشك أن انضواء فئة من أهل البلاد الى الصليبيين ومساعدتهم لهم ماديا وأدبيا ، كان له أثره الكبير فى التفوق الحربى الذى أحرزه الصليبيون ، خاصة وأن هؤلاء المردة كانوا يشتهرون بقدرتهم الفائقة فى الرمى على القوس الثقيل بالنشاب ، وسنرى فيما بعد فى عصر المماليك كيف أن هؤلاء المردة سيقومون بدور خطير فى تأخير استرداد المسلمين لمدينة طرابلس .

---

(٥٥) سعيد عاشور ، ص ٣٧٣
(٥٦) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٤
(٥٧) الشدياق ، ج ١ ص ٢٥٠

د ـ استيلاء الصليبيين على المدن المحيطة بطرابلس :

أحدث سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين دويا هائلا فى بلاد الشام، فقد انهارت له مقاومة المسلمين فى كثير من المدن الساحلية التى كانت متعصية على الصليبيين ، فاستغل تنكريد فرصة الاضطراب الذى شمل البلاد وقتئذ ، فنزل على ثغر جبلة ، وفيه فخر الملك بن عمار ، وحاصرها حصارا شديدا ، ثم دخله فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ بعد أن بذل لأهله الأمان «٥٨» . ونشط برتران من جهته ، فزحف بحشود الصليبيين الى بلدة رفنية ، وحاصرها ، فخرج طغتكين للدفاع عنها : وفاوضهم فى التخلى عنها ، فاشترطوا أن يكون لهم الثلث من استغلال اقليم البقاع ، وأن يسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار ، وأن يقدم أهل مصياف وحصن الأكراد وحصن الطوفان مالا معينا للصليبيين كل سنة «٥٩» . وفى ٢١ شوال سنة ٥٠٣ هـ تمكن الصليبيون من دخول بيروت عنوة «٦٠» . وفى سقوط بيروت يذكر ابن القلانسى أن الملك بغدوين (بلدوين) وابن صنجيل (برتران) نزلا على ثغر بيروت برا وبحرا ، وعاونهما جوسلين صاحب تل باشر ، وحاصروا بيروت ، وشرع الصليبيون فى عمل البرج ونصبه على سور بيروت ، فلما أتموا صنعه زحفوا به ، ولكن أهل بيروت قذفوه بحجارة المجانيق ، فكسروه ، فشرع

---

(٥٨) ابن القلانسى ، ص ١٦٤ ـ ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩

(٥٩) ابن القلانسى ص ١٦٥

(٦٠) نفس المرجع ص ١٧١

الصليبيــون فى عمــل غيره ، كما قام برتران بعمل برج آخر . وفى ذلك الوقت وصل من مصر أسطول قوامه ١٩ سفينة حربية ، وتغلب الأسطول المصرى على مراكب الفرنج ، واستولى على بعضها ، وبذلك تمكنوا من انجاد أهل بيروت بالميرة والعــدة ، فقويت نفوسهم على القتال ، وعندئذ أنفد الملك بلدوين الى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوية ، فقــدم منهم عدد كبير فى ٤٠ سفينة ، فزحف الصليبيــون برا وبحرا فى ٢١ من شوال سنة ٥٠٣ هـ ، ونصبوا على السور برجين ، واشتد القتال،فقتل مقدم الأسطول المصرى وعدد كبير من المسلمين ، وأيقن المســلمون بالهزيمة ، وتمكن الصليبيون من دخولها عنوة «[٦١]» .

وذكر الشدياق أن الأمير شجاع الدولة هو الذى تولى الدفاع عن المدينــة ، وان الصليبيين قوبلوا بمقاومة شــديدة فاضطر بلدوين الى الاستنجاد بافرنج السواحل وأمراء المردة ، وبهذه النجدات شدد الفرنج الحصار عليها ، ففتحوها فى ٢٣ ابريل سنة ١١١٠ (٥٠٣ هـ) «[٦٢]» .

وبسقوط بيروت ، استأصل الصليبيون مراكز المقاومة حول طرابلس وبدأت طرابلس عهدا جديدا من تاريخها فى ظل الصليبيين .

---

(٦١) ابن القلانسى ص ١٦٨

(٦٢) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

الفصل الرابع

طرابلس كونتية صليبيـــة

---

(١) نشأة الكونتية وحدودها الجغرافية

(٢) قمامصة طرابلس من البيت الطولوشى

(٣) أمراء طرابلس من البيت النورمانى بأنطاكية

(٤) علاقة كونتية طرابلس بالدول المسيحية المجاورة

أ ــ علاقة الكونتية بالدولة البيزنطية

ب ــ علاقة الكونتية بمملكة بيت المقدس

ج ــ علاقة الكونتية بامارة أنطاكية .

(٥) نظم الحكم والحضارة فى كونتية طرابلس الصليبية

ا ــ الكونت وسلطاته

ب ــ مقدمو الكونتية

ج ــ النظام الحربى

د ــ النظـــام المالى

هـ ــ الكنيســـة

و ــ منظمات الرهبان العسكريين

ز ــ سكان طرابلس الأصليين

ح ــ الحياة الاقتصادية فى الكونتية

ط ــ الحيـــاة العلميـــة .

الفصل الرابع

طرابلس كونتية صليبية

(١)

نشأة الكونتية وحدودها الجغرافية

أصبحت طرابلس مركزا لكونتية صليبيـه يحكمها البيت الطولوشى حتى سنة ١١٨٧ م ، ثم البيت البوهمندى بأنطاكية حتى سنة ١٢٨٧ ، ثم أصبحت بعد ذلك قومونية مستقلة ، لم تلبث أن دخلت فى حماية جنوة عامين الى أن تحررت أخيرا فى سنة ١٢٨٩ م على أيدى المماليك • ويرتبط قيام كونتية طرابلس الصليبية بريموند الصنجيلى قومص (كونت) طولوشة؛ Raymond IV de Saint - Gilles, Comte de Toulouse الذى يرجع اليه الفضل الاعظم فى تخطيط حدودها التى وصلت اليها الكونتية فى عهد خلفائه ، وان كان يطمع فى انشاء امارة كبرى غنية تكون شيزر الخصبة محورها : واللاذقية حدها الغربى •

ولم تحظ كونتية طرابلس ، آخر الامارات اللاتينية التى تكونت فى الشام فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى ، بنصيبها من الدراسة الكاملة ؛ ذلك لأن مؤرخى الحركة الصليبية كانوا يعتبرونها عملا من أعمال مملكة بيت المقدس ، أو مجرد امارة صغيرة أقل شأنا من الامارات الثلاث الأخرى «١» • والواقع أن هذه الكونتية الصغيرة كانت ، على ضآلة

---

(١) Jean Richard, Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine, Paris, 1945, avant - propos, p. I

مساحتهـا ، تتسم بطابع خاص ميزها عن غيرها من الامارات الصليبيـة فمؤسسها كان ينتمى الى أسرة پروڤنسيـة بينما كان مؤسسو الامارات الأخرى ينتمون اما الى شمال فرنسا أو الى ايطاليا النورمندية «٢» ، ثم انها تتميز بموقعها الجغرافى الرائع ، فهى تشغل موقعا استراتيجيـا هاما من بلاد الشام ، أهلها للنهوض والبقاء ، بحيث تسيطر على كل من الطريق الساحلى فى الشام ومنطقة وادى الأورنت بحاضرته حمص ، وهى المنطقة التى يطلق عليها الفرنجة اسم « لاشاميل » (أى الناقة) «٣» . ويضاف الى ذلك أن جبال النصيرية (أو البهرة) فى الشمال ، وسلسلة جبال لبنان فى الجنوب كانت تؤلف حدا طبيعيا يمنع اللاتين المقيمين غربا من غارات حكام دمشق «٤» ، ويحمى الكونتية من الشرق ومن الشمال «٥» .

كانت كونتية طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى تمتد على شريط ساحلى يزيد اتساعه فى الشمال عنـه فى الجنوب ، ويقع بين البحر وجبال لبنان . وتتميز الكونتية بوجود منفذ أو معبر يعرف بمنفذ حمص يتجه من الغرب الى الشرق ، ويقع بين جبال لبنان المرتفعة وجبال النصيرية التى ترتفع على مسافة قصيرة من الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط ، ويربط هذا المنفذ المنطقة الساحلية بالجوف السورى عن طريق

---

(٢) Ibid,

(٣) Steven Runciman, A history of the Crusades, vol. II, Cambridge, 1952, p. 57

(٤) Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, p. 52 - Jacques Nantet, His. de Liban, Paris 1963, p. 60

(٥) Grousset, op cit, p 129

وادى الأورنت • وتتألف منطقة الساحل من سهول ساحلية ضيقة على مصبات الأنهار ، وهى سهل مرقية فى الشمال ، وسهل جبيل فى الجنوب «٦» • والى جانب هذه السهول الساحلية يمكننا اضافة سهل هام تكون بفضل رواسب النهر الكبير وروافده ، وفيه قامت مدينتا عرقة وأنطرطوس ؛ ولذلك فان المناطق الخصبة الوحيدة فى كونتية طرابلس الصليبية هى سهل النهر الكبير وخاصة القسم الأعلى من وادى البقيعة الواقع بين جبال النصيرية فى الشمال وجبل عكار فى الجنوب «٧» ، أما فيما عدا ذلك فمناطق فقيرة غير صالحة للزراعة ، لا تضمن امداد الكونتية بالميرة والأقوات ، وهذا يفسر اعتماد كونتية طرابلس على الموارد الخارجية التى كانت تصل اليها من أوربا أو من جزيرة قبرص ، كما يفسر أيضا ضرورة اعتماد الكونتية على التجارة كمصدر رئيسى لحياتها «٨» •

وجبال النصيرية سلسلة جبلية ينخفض ارتفاعها فى القسم الجنوبى بحيث تصبح صالحة للعبور عن طريق ممرات تحميها بعض القلاع والحصون مثل قلعة صافيثا ، وحصن ابن الأحمر ، وحصن دى لوكاميل المعروف فى المصادر العربية بحصن الأكمة •

وكانت الكونتية تشرف على شيزر والطريق الموصل بين حمص

---

(٦) J. Richard, op. cit. p. 1.
ـ فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٣٢
(٧) J. Richard, op. cit. p. 1, 2
(٨) Ibid p. 3

وحماة بواسطة قلاع الحصن الشرقى وبعرين ورفنية ، كما كانت تشرف فى الشمال على الاسماعيليـــة الحشيشية عن طريق قلاع مرقية والقليعة والمرقب ، مما دعا هؤلاء الاسماعيليـــه الى انشـــاء امارة لهم حول قلاع لا ترام ، تعرف بقلاع الدعوة ، نخص بالذكر منها مصياف ، والقدموس ، والرصافة ، والكهف ، والخوابى «٩» . ولكن الاسماعيلية اضطروا الى الدخول فى حماية الاسبتارية نظير أن يدفعوا لهده المنظمة جزية سنوية «١٠»

وكانت الحدود الشمالية لكونتية طرابلس تمتد بين مرقية والمرقب بحذاء نهر بانياس ، وكانت مدينتا رفنية وبعرين تقعان على الطرف الشمالى للمنفذ المؤدى الى سهل البقيعة الذى كان يحميه حصن دى فونتين ، بينما كان حصن الأكراد ، الذى كان يعرف عنـــد البروفنسيين فى القرن الثانى عشر الميلادى باسم le Crat ، ثم حرف فيما بعد الى اسم Crac des Chevaliers فكان يقع عند الطرف الجنوبى لهذا المنفذ . ويتولى الدفاع عن هـــذه المنطقة من المنفذ حصنان هما حصن البقيعـــة المعروف بأعناز وحصن فليزيوم ، بينما كانت تقوم خلفهما قلعتا العريمة «١١» وعرقة «١٢»

(٩) Lammens, La Syrie; Précis historique, Beyrouth, 1921, p. 221

(١٠) Ibid. p. 221

(١١) تقع العريمة على نهر الأبرش شمالى عرقة

(١٢) عرقة مدينة كانت تابعـــة لكونتية طرابلس ، استـــولى عليها الصليبيـــون فى ســـنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) وازدهرت فى العصر الصليبى ، ويصفها الادريسى بأنها مدينه عامرة بالسكان ، مبنية على سفح أكمة وفيها حصن شامخ ، وتقع عرقة على نهر سمى باسمها . ولقد آلت الى فرسان الاسبتارية وأصبحت اقطاعا مستقلا (Nantet, op cit p. 61)

وغيرهما من الحصون التى تؤلف الخط الدفاعى الثانى عن الكونتية «[١٣]». الا أن القلاع المشرفة على الوديان العليا من الأنهار التى تصب فى البحر المتوسط ، وسلسلة التحصينات الدفاعية عن الكونتية ما تلبث أن تقل اذا انحدرنا جنوبا من عكار ، فلا نميز منها سوى قلعتين هما : بشرى «[١٤]» والمنيطرة . ويلى ذلك الحدود الجنوبية للكونتية ، ويحدها نهر المعاملتين، الذى يمر بجونية الواقعة شمالى بيروت . والى الشرق من سلسلة جبال لبنان المرتفعة يقع أخدود وادى الليطانى ومنابع نهر الأورنت ، وهى المنطقة المعروفة باقليم البقاع ، ومركزه بعلبك ، حيث يصل المرء الى جبيل عن طريق المنيطرة ، والى طرابلس عن طريق بشرى ووادى نهر قاديشا . ويشق نهر الأورنت ، طريقه بصعوبة فى قلب الهضاب الجيرية الواقعة الى الشمال من سهل البقاع ، ثم يصل بعد مروره بحمص وحماة الى منخفض آخر هو منخفض شيزر ، الذى يفصل بين جبل السماق وجبال النصيرية.

وعلى هذا النحو كانت حدود كونتية طرابلس بوجه عام تمتد من قلعة المرقب شمالا الى جبيل وجسر نهر المعاملتين جنوبا «[١٥]» ، ومن وادى الأورنت شرقا الى الساحل غربا ، فهى تكاد تشغل كل القسم الشمالى من جمهورية لبنان فى الوقت الحاضر ، بالاضافة الى قسم من الجمهورية السورية .

---

(١٣) J. Richard, p. 3

(١٤) بشرى بلدة تقع على ربوة بين سلسلة من الجبال المرتفعة وتشرف على وادى قاديشا ، وبجوارها غابة الأرز (راجع : حليم أبو العز محافظة الشمال ، ص ٥٠)

(١٥) Lammens, op. cit. p. 220

(٢)

قمامصة طرابلس من البيت الطولوشي

١ ـ ريموند دى سان جيل :

ريموند الرابع كونت دى سان جيل الملقب فى المصادر العربية بصنجيل هو ابن بونزدى طولوشة والمودى دى لامارش ، وقد اقتسم ريموند مع أخيه وليم الرابع أملاك أبيهما بونز • ولما توفى وليم فى سنة ١٠٩٣ م ، آلت أملاكه الى ريموند ، وأهمها كونتية طولوشة والبيجوا وكاركاسيس • ولقد مكنته شجاعته وحماسه الدينى لخوض غمار الحرب المقدسة ، خاصة بعد أن اشترك فى سنة ١٠٨٥ م مع نصارى اسبانيا فى محاربة المسلمين فى الأندلس ، من أن يظهر سريعا كبطل من أبطال المسيحية ، ويزعم بعض المؤرخين أنه هو الذى حث البابا أوربان الثانى على تنظيم الحملة الصليبية الأولى ، وأنه ألح عليه لعقد مجلس دينى للدعوة اليها ، ولكن ثبت أن هذا الزعم لا يستند على أساس تاريخى سليم

والواقع أن البابا بعد رحيله من پوى فى ١٥ أغسطس ١٠٩٥ زار ريموند فى سان چيل ، واتفق معه على أن يشترك فى هذه الحملة ، وأن ريموند تطوع للاشتراك فى الحملة الصليبية بعد انفضاض مؤتمر كليرمون فى ١٨ نوفمبر بأيام مما لا يدع مجالا للشك فى أن ريموند كان على علم سابق بهذه الخطوة قبل انعقاد المؤتمر بوقت كاف «[١٦]» •

---

(١٦) جوزيف نسيم ، الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، عدد ٢٦ ، الاسكندرية ١٩٦٣ ص ٢٠٢ ـ عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٩

غير أنه غلبت على محاسن ريمـوند صـفات الزهـو ، والترفع ، والطموح ، والحقد ، والعناد ، وهى صفات كان لها أعظم الأثر فى اخفاقه مستقبلا فى تحقيق آماله «[١٧]» ، وعلى الرغم من تقواه ، فقد اتهم بالبخل والطموح ، كما كانت تسود رجاله البروڤنسيين روح المادة أكثر من روح الجهـاد «[١٨]» .

ولقد رأينا كيف اشترك ريموند فى الحملة الصليبية الأولى ، وكيف أقسم أن يرحل عن بلاده الى الأبد دون أن يعود اليها ، وأن يكرس حياته الباقية فى خدمة الحركة الصليبية . وكان قد عهـد الى ابنه برتران (من زوجة غير شرعية) بشؤون بلاده ، ولكن ريموند سينجب ولدا آخر من زوجته الكونتيسة البيرة فى تلة الحجاج ، أثنـاء فترة حصاره لطرابلس : هو الفونس جوردان .

ولم يتهيأ لريموند أن يشـهد فتح طرابلس التى ستصبح فى عهـد خلفائه قاعدة الكونتية الطولوشية اذ توفى متأثرا بحروقه التي أصيب بها على أثر غارة قام بها بنو عمار فى ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥ م «[١٩]» .

٢ ـ السردانى وليم جوردان ونزاعه مع برتران بن ريموند الصنجيلى :

كان الفونس جوردان ، المعروف فى المصادر العربية باسم الفنش ،

---

(١٧) J. Richard, p. 4

(١٨) Edward Gibbon, The history of the decline and fall of the Roman Empire, vol. VI, London, p. 280

(١٩) Runciman, op. cit. p. 61

وقت وفاة أبيه صبيا ، الأمر الذى أدى الى اقصائه عن امارة كونتية طرابلس ، التى شرع أبوه فى تكوينها ، بينما نجح وليم جوردان كونت دى سردانية ، وحفيد رنجارد خالة ريموند دى سان جيل فى الظفر بها . وكان وليم قد وصل الى تلة الحجاج بعد وفاة ريموند مباشرة قادما من أوربا ، ويبدو أن الفرسان البروفنسيين انتهزوا فرصة وجوده بينهم لكى يختاروه كافلا أو وصيا على الفونس جوردان الطفل «٢٠» .

ولقد امتنع وليم جوردان السردانى عن التلقب بلقب الامارة ، وترك هذا اللقب لوريث من أعقاب ريموند المتوفى . غير أن بعض بارونات طولوشة أرسلوا يستقدمون الفونس جوردان ، عندما علموا بأنه الابن الشرعى لريموند ، ولم تزهد الكونتيسة البيرة فى أن يرث ابنها أملاك أبيه فى جنوب فرنسا ، اذ آثرتها على السيادة الموقوتة فى الشرق ، فرحلت معه الى طولوشة ، ويبدو أنها أبرمت مع برتران بن ريموند اتفاقا بمقتضاه يتنازل برتران عن حقه فى حكم أراضى أبيه فى أوربا لأخيه الفونس ، نظير أن يتنازل الفونس جوردان عن حقه فى أملاك أبيه فى المشرق «٢١» .

رحل برتران الى المشرق فى صيف عام ١١٠٨ م فى رفقة ولده بونز ، وقد عزم على أن يستكمل كونتيته المستقبلة بانتزاع مدينة طرابلس من أصحابها بنى عمار ، ولعله كان يتوقع بعض المتاعب من جانب السردانى وليم جوردان ، فاصطحب معه جيشا يتألف من أربعة آلاف من الخيالة

---

(٢٠) Richard p. 5 - Ibid p. 61

(٢١) Runciman, op. cit. p. 65

والرجالة ، تحملهم أربعون سفينة ، وكان برتران يعلم تمام العلم بأن طرابلس التى تحاصرها قوات وليم جوردان لم تسقط بعد ، وأن الاستيلاء عليها يتطلب أسطولا يحكم الحصار عليها من البحر حتى لا تصل اليـها الميرة والأقوات من مصر . ولما كان المستعمرون الصليبيون مقـاتلة بريين لا رجال بحر ، فقد استلزم الأمر استخدام أسطول قوى لهذا الغرض «٢٢» ، وهذا يفسر نزول برتران فى جنوة ، ونجاحه فى أن يسبق وليم جوردان بعقد اتفاقية مع حكامها فى هذا الشأن ، وبمقتضى هـذه الاتفاقية يساعد الجنوية برتران فى فتح طرابلس نظير امتيازات تجارية هامة يحصل عليهـا الجنوية فى طرابلس . ولما أبحر برتران من جنوة متجهـا الى الشام كان يصحبه أسطول جنوى ضخم ذكر ابن القلانسى أنه يتألف من ستين مركبا مشحونة بالافرنج والجنويين «٢٣» ، وأرسى برتران فى السـويدية ميناء أنطاكية ، وطالب طنكرى (تنكريد) بنصيبه فى أنطاكية . ولكن طنكرى

---

(٢٢) Ibid. p. 314

راجع فضـل أساطيل البيازنة والجنوية والبنادقة فى الاستيلاء على أنطرطوس سنـة ١١٠٢ م فى (Heyd, op. cit. p. 139 ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٥٥) وفى فتح حيفا فى سنة ١١٠٠ (سعيد عاشور ، ج ١ ص ٢٧٦) وأرسوف سنة ١١٠١ (سعيد عاشور ، المرجع السابق ص ٢٩٢) وعكا فى سـنة ١١٠٤ (نفس المرجع ص ٣٠٢) ، وفى فتح جبيل فى نفس السنة (Runciman, vol. II, p. 60 Stevenson, op. cit. p. 55) كذلك تمكن بلدوين الأول بفضـل مساعدة أسطول بيزى وجنوى من الاستيلاء على بيروت فى سنة ١١١٠ (Nantet, p. 58)

(٢٣) ابن القلانسى ، ص ١٦٣

لم يجبه الى طلبه ؛ واضطر برتران الى الاقلاع جنوبا الى أنطرطوس «*» التابعة لوليم جوردان. وكان وليم جوردان قد نجح فى الاستيلاء على عرقة وأضاف بهذا الفتح أملاكا جديدة الى أملاك ريموند الصنجيلى ، ولم يعد فى نيته أن يتنازل عنها لبرتران . فلما طالبه برتران بميراث أبيه ، لم يجبه الى طلبه بحجة أنه ورثها عن ريموند بالاضافة الى أنه دافع عنها وحفظها من الضياع ، بل أضاف اليها . غير أن قوة الأسطول الجنوى أخافته ، فأرسل الى طنكرى يطلب منه أن يتدخل فى جانبه نظير أن يصبح تابعا له ، وفى نفس الوقت أبدى بلدوين الأول ملك بيت المقدس استعداده لنصرة برتران حتى يضمن بذلك تبعية برتران له ، وخرج بلدوين ملك بيت المقدس على رأس خمسمائة من خيالته «٢٤» وعدد كبير من رجالته

(*) Runciman, vol. p. 66

(٢٤) Stevenson, op. cit, p. 57 - Runciman, op. cit. p. 68

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٧٠

وتشير المصادر العربية الى هذا النزاع ، فيذكر ابن القلانسى أنه وقع بين ريمند بن صنجيل (يقصد برتران) وبين السردانى ابن أخت صنجيل (يقصد وليم جوردان) مشاجرة ، « ووصل طنكرى صاحب أنطاكية اليه لمعونته للسردانى ، ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس فى عسكره ، فأصلح بينهم » (راجع ابن القلانسى ، ص ١٦٣) . أما ابن الفرات ، فيذكر أنه « لما استولى السردانى على طرابلس تحكم فيها ، واستقل بملكها ، وبينما هو كذلك اذا بمركب قد وصل اليها وفيه صبى ادعى أنه ولد الملك صنجيل الفرنجي واسمه بتران ومعه مشايخ من أصحاب والده يخدمونه ويدبرون أمره ، فطلعوا الى السردانى وقالوا له : هذا ولد صنجيل وهو يريد تسليم مدينة والده التى فتحها عسكره ، فأنكر =

لمساعدة برتران الذى كان قد شرع فى حصار طرابلس . ولم يسع وليم جوردان الا أن ينسحب من جبل الحجاج ، وأقام فى انطرطوس ، حيث التقى بطنكرى وأخذ يستحثه على القتال فى جانبه . وكان بلدوين قد وصل الى طرابلس ، وأرسل رسله الى طنكرى ووليم جوردان والى بلدوين دى بورج صاحب الرها ، وجوسلين صاحب تل باشر ، يدعوهم للقدوم الى معسكره المنصوب أمام أسوار طرابلس ، وذلك لفض قضية ميراث ريموند «[٢٥]» ، واتمام الصلح بين زعماء الفرنجة ، وتم اجتماع أمراء الفرنجة فى الشرق خارج أسوار طرابلس فى يونية سنة ١١٠٩ ، لتسوية النزاع . وتم الصلح بين المتخاصمين منهم ، واتفق الجميع على أن يقسم ميراث ريموند الصنجيلى بين وليم جوردان وبرتران على النحو التالى :

١ — يحتفظ وليم جوردان بأنطرطوس ومدينة عرقة التى كان قد فتحها بقائم سيفه .

٢ — يحتفظ برتران بجبيل وتلة الحجاج ، وبمدينة طرابلس بعد أن يتم فتحها .

٣ — تؤول أملاك أى من الطرفين الى الآخر عند وفاته .

السردانى ذلك ، وقام ورفس الصبى وأخرجه ، فأخذه أصحابه ، وجعلوا يطوفون به على الفرسان ، فرحموه وتذكروا ايمانهم لأبيه ... » (تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٩)

(٢٥) Runciman, op. cit. p. 68

وتلقى الوسيطان مكافأتهما على هـذا الحل ، فأصبح برتران تابعا لبلدوين الأول ، بينمـا أقسم وليم جـوردان يمين التبعيـة والولاء لطنكرى «٣٦» .

وما ان تم الصلح بين الطرفين المتخاصمين ، حتى تضامن الصليبيون جميعا فى أحـكام الحصار حول طرابلس من البر والبحر ، وانتهى الأمر بتدمير جانب من أسـوار طرابلس البرية ، وأرسل شرف الدولة بن أبى الطيب ، والى طرابلس من قبـل الفاطميين فى مصر ، الى الملك بلدوين يعرض عليه التسليم بشروط فى ١٢ يوليو سـنة ١١٠٩ «٣٧» على النحو الذى أوضحناه «٣٨» .

٣ — الكونت برتران بن ريموند الصنجيلى (١١٠٩ — ١١١٢ م) :

بعد أن تمكن الصليبيون من افتتاح طرابلس ، استقر بها برتران ، وتلقب بلقب « كونت طرابلس » وجـدد ولاءه لمملكة بيت المقـدس ، وأصبحت تربطه بهـا علاقة وثيقة من التبعية ، ومنذ ذلك الحين ارتبط تاريخ كونتية طرابلس بتاريخ مملـكة بيت المقدس مدة استغرقت نحو سبعين سنة «٣٩» .

---

(٣٦) Stevenson, op. cit. p. 57

(٣٧) Runciman, op. cit. p. 69

(٣٨) راجع ص ١١٩ من هذا الكتاب

(٣٩) Stevenson, p. 58

ويدل على تبعية برتران لبلدوين ما ذكره ابن القلانسى من أنه أفرد له من وسط طرابلس مارضى به (ابن القلانسى ، ص ١٦٣)

ولم تكد طرابلس تسقط فى أيدى الفرنجة حتى طالب الجنوية بثمن مساعدتهم التى قدموها لبرتران ، فمنحهم حيا فى طرابلس يقارب ثلثها ؛ كما منحهم حصن يقع على بعد عشرة أميال جنـوبى طرابلس ، بالاضافة الى ثلثى مدينة جبيـل الباقية ، فأصبحوا بذلك يمتلكونها كلها ، وسلم الجنوية هذه المدينة الى أمير البحر هيوج امبرياتشيو ، فاتخذها اقطاعا له ولأعقابه يتوارثونه «٣٠» .

ولم يطل انتظار برتران ليسترد جميـع أملاك أبيه فى الشام ، ففى الوقت الذى كان جيش الفرنجة ما يزال معسكرا فى طرابلس ، وقع حادث لم يكن فى الحسبان ، فقد أصيب وليم جوردان بسهم أرداه قتيلا «٣١» ؛ فآلت أملاكه الى برتران وفقا لاتفاقية الصلح ، فضم برتران مدينة عرقة اليه ، وبالتالى أصبحت عرقة تابعة لبلدوين ملك بيت المقدس بعد أن كانت

---

(٣٠) لم تلبث أسرة أمبرياتشيو الجنـوية أن اصطبغت بالصبـغة الفرنسية ، ولقد أثرى أصحاب جبيل ثراء فاحشا وانتهوا فى القرن الثالث عشر بأن أصبحوا يساوون فى قوتهم أمراء أنطاكيـة وطرابلس ، فبعد أن تزوج جى الأول (١١٨٦ — ١٢٣٣) أختا لبوهمند الرابع ، تزوج هـذا الأخير أخت جى . ثم ثار جى الثـانى (١٢٧١ — ١٢٨٢) على بوهمنـد السابع وستكون هـذه الثورة ختـاما لحـكم أسرة امبرياتشيو لجبيل
J. Richard, p. 74

(٣١) ما زالت ظروف اغتياله غامضـة ، وان كان من المتفق عليه أن مصرعـه تم نتيجـة مؤامرة اتهم برتران بتدبيرها (Richard p. 5) الا أن ما ذكره ابن القلانسى فى هذا الصدد يلقى بعض الضوء على هذه القضيـة ، فقـد أشار ابن القلانسى الى أن وليم جوردان عاد الى عرقة « ووجد بعض الافرنج فى زرعها ، فأراد ضربه ، فضربه الافرنجي فقتله » (ابن القلانسى ، ص ١٦٣)

نابعة لطنكرى . ويعلق رنسمان على ذلك بقوله . « وهكذا قامر طنكرى على الجواد الخاسر ، وحقق برتران أحـلام أبيـه فى اقامـة ملك له فى الشرق » «[٣٢]» . أما أنطرطوس التى كان برتران يطالب بها ، فقد تمسك بها طنكرى «[٣٣]» . وفى أثناء عودته ، هاجم بلنياس واستولى عليهـا كما استولى على جبله «[٣٤]» ، وجعـل بذلك حـدود امارته لصق حـدود برتران «[٣٥]» . وفى نفس الوقت شن برتران هجوما على رفنيـة بقصد افتتاحها ، فأسرع ظهير الدين طغتكين بالدفاع عنها ، وخيم تجاه حمص ، واستعصت رفنية على برتران ، وترددت بينه وبين طغتكين الرسل ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن ينسحب برتران بقواته ، نظير حصـوله على ١/٣ استغلال اقليم البقاع بالاضافة الى استيـلائه على حصن المنيطرة الذى يسيطر على الطريق الموصل بين بعلبك وجبيـل وكذلك حصن ابن عكار الذى يشرف على الطريق الموصل بين عرقة وحمص ، وفى مقابل ذلك يتعهد برتران بأن يكف عن العيث فى أراضى المسـلمين ، وألا يهـاجم حصن مصياف وحصن الطوفان وحصن الاكراد بشرط أن يقـدم أهـل هـذه الحصون اليه عنها قدرا معينا من المال .

الا أن طنكرى لم يلبث أن استـولى على حصن الأكراد أثناء غارته على شيزر فى ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ، ولكنه سيتخلى بعـد ذلك عن هـذا الحصن لبونز بن برتران (بنص) بحـكم قرب هذا الحصن من كونتية

---

(٣٢) Runciman, p. 70

(٣٣) Stevenson, p. 58

(٣٤) ابن القلانسى ، ص ١٦٤ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٩

(٣٥) Runciman, p. 115

طرابلس ، وبسبب تحسن العلاقات بين أنطاكية وطرابلس فى عهد بونز ، وسيظل حصن الأكراد تابعا لكونتية طرابلس الى أن يمنحه كونت طرابلس فى سنة ١١٤٢ الى الفرسان الاسبتارية «٣٦» .

ولا شك أن طموح برتران ورغبته فى توسيع نطاق كونتيته ، وعدم اكتفائه بالقسم الساحلى منها يوضح لنا فيما يظهر أن ريموند الصنجيلى كان يهدف منذ البداية الى فتح الوادى الأعلى من نهر الأورنت ، بدليل أنه لم يتلقب هو وخليفته وليم جوردان بلقب كونت طرابلس ، أو كونت أنطرطوس أو حتى بلقب سيد جبل الحجاج اكتفاء بلقب (رئيس الجيش المسيحى) ، وان كان وليم جوردان لقب نفسه بسيد لا شاميل أى اقليم حمص . ويطلق وليم الصورى اسم لا شاميل على الأراضى التى كان برتران يسعى لضمها ، ولكن يبدو أن استعصائها عليه كان نتيجة طبيعية لضعف قوته الحربية . وعلى هذا النحو ، فالفتح لم يكن قد تم بعد فى عهد ريموند الصنجيلى ووليم جوردان طالما كانت المدينتان الكبيرتان فى الداخل حمص وحماة ما تزالا فى أيدى المسلمين ، وسنرى أن خلفاء برتران يسعون الى الاغارة عليهما مستقبلا «٣٧» .

٤ ـ الكونت بونز بن برتران (١١١٢ ـ ١١٣٧ م) :

توفى برتران فى فبراير سنة ١١١٢م (شعبان ٥٠٥ هـ) ، وخلفه ابنه

---

(٣٦) ابن القلانسى ، ص ١٦٥ ـ Nantet, op. cit. p. 62
سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٧٦

(٣٧) J. Richard, p. 17, 18

الصغير بونز الذى يعرف فى المصادر العربية باسم بنص . لم ينهج بونز منهج أبيه فى معاداة طنكرى ، ويبــدو أن العلاقات بين أنطاكية وطرابلس قد تحسنت تحسنا ملموسا منذ أواخر أيام برتران ، بحيث قام الأوصياء على بونز بارساله الى أنطاكية ليتلقى فيها أصول الفروسية ويصبح فارسا «٣٨» ، ولعل بونز كان يسعى الى خلق جو من التفاهم بين الامارتين ، بغية الافادة منه لمصلحته الخاصة ، اذ كان يتوق الى خلع ولائه لمملكة بيت المقدس والتحرر من القيود التى تربطه بهـــا ، ففى سنة ١١٢٢ ، حاول التنصل من تبعيته لبلدوين الثانى ولكنه لم يوفق ، واذا صـــدقنا ما ذكره ابن القلانسى فان طنكرى أقطعه انطرطوس وصافيثا ومرقية وحصن الأكراد «٣٩» ، وبذلك اتسعت كونتية طرابلس فى عهــده اتساعا لم تشهده من قبل ، ووصلت بذلك الى حدودها النهائية . ففى سنة ١١١٥م استولى بونز على قلعــة رفنية التى تسيطر على مدخل البقيعة من جهة وادى نهر الأورنت ، وأغار فى العـــام التالى على ســـهل البقاع وأسس فيه قلعة بعرين القائمـــة على السفوح الشرقية من جبـــال النصيرية لحماية مدخل البقيعة ، ثم عسكر بجيشه فى عين جار ، فلما هاجمته قوات دمشق تراجع الى طرابلس وتمكن طغتكين من استرداد رفنية «٤٠» . ولم يشأ بونز أن يفقد حصن رفنيـــة المنيع ، ففى ١١٢٦ دعا بلدوين الثانى لمساعدته فى التغلب عليها ، فلم يتردد بلدوين فى اجابته الى طلبه ، وتمكن الاثنان من دخولها قبل أن تهب جيوش دمشق

(٣٨) Runciman, p. 125, Note 1 — سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٧٧

(٣٩) ابن القلانسى ، ص ١٨١

(٤٠) Stevenson, p. 101 — سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣٧٨

لانقاذها، وكان سقوطها في أيدي الفرنجة حدثا هاما الأن رفنية تمت كونتية طرابلس، وضمنت الاتصال بين بيت المقـدس وأنطاكية «٤١» . ولاشك أن نجاح بونز في الاستيلاء على قسم من البقاع ودخول حصن الطوفان كذلك في أملاك كونتية طرابلس أصبح يمثل خطرا يتهدد أراضي حمص مباشرة «٤٢» .

واذا كان بونز قـد أصاب نجاحا كبيرا في النصف الأول من امارته على طرابلس ، فقـد أصيب في النصف الثـاني منـها بهزائم على أيدي المسلمين ، ففي سنة ١١٣٢ م (٥٢٧ هـ) قام عسكر التركمان بالاغارة على طرابلس وأعمالها ، وتمكنوا من الظفر بغنـائم كثيرة ، وفشـل بونز في مدافعتهم ، فانهزم ، وقتل معظم رجاله ، والجأ مع قلة الى حصن بعرين ، فتحصن فيه ، وحاصره التركمان أياما ، غير أن بونز تمكن من التسلل من الحصن في عشرين من أصحابه «٤٣» ، وهاجم رفنيـة ، فاضطر عسـكر المسـلمين الى رفع الحصـار عن بعرين . ثم تكررت غارة التركمان على طرابلس في رجب سنة ٥٣١ (مارس ١١٣٧ م) ، وانتهت هـذه الغـارة بمقتل بونز في ٤ رجب . وتفصيل ذلك أن جنـد دمشق والتركمان بقيادة الأمير شجاع الدولة بزواج مقـدم عسـكر دمشق ، أغاروا على أراضي الكونتية ، وقادهم جماعة من نصارى طرابلس الوطنيين عبر منافذ لبنان الى السهل الساحلي ، وفوجيء كونت بونز بالهجوم ، فبادر بمدافعتهم ،

---

(٤١) Runciman, p. 175

(٤٢) J. Richard, p. 18-19

(٤٣) ابن القلانسي ، ص ٢٤٠ ــ أبو الفدا ، ج ٥ ، ص ١٤

فخرج على رأس جيش هزيل ، واشتبك معهم فى موقعة دارت بالقرب من قلعة صنجيل ، انتهت بهزيمة بونز هزيمة نكراء ، فر على أثرها الى الجبال؛ ولكن عسكر المسلمين عثروا عليه وقتلوه «٤٤» ، وترتب على مقتله أن انتزع والى حماة حصن الخريبة من الصليبيين ، بينما نجح بزواج فى انتزاع حصن ابن الأحمر (شاستل روج) «٤٥» .

٩ ـ الكونت ريموند الثانى بن بونز (١١٣٧ ـ ١١٥٢) :

كان لبونز ثلاثة أبناء : الأول ، ريموند الثانى ، الذى تزوج هوديرنا ، أنجب منها ولده ريموند الثالث وابنته ميلسند ؛ والثانى فيليب ؛ والثالث ابنته آنيس التى تزوجها رينو الثانى صاحب المرقب ؛ وأنجبت منه برتران الثانى .

وعندما اختير ريموند الثانى خلفا لأبيه ، لم يكن يتجاوز من العمر اثنتين وعشرين سنة ، وشرع عهده بالسعى للانتقام من نصارى طرابلس الذين تسببوا فى قتل أبيه اذ دلوا المسلمين على موضعه ، فأغار على القرى الجبلية التى اتهم سكانها بمساعدة المسلمين ، وأذرع رجاله فى قتل هؤلاء السكان وسبى النساء والأطفال منهم ، وبيعهم أرقاء فى طرابلس «٤٦» .

---

(٤٤) ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٩ — - Stevenson, p. 137
Runciman, p. 202

(٤٥) Richard, p. 20

(٤٦) Runciman, p, 203

وفى عهـده زاد خطر غارات عماد الدين زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل وحلب على أراضى الكونتية ، ففى نفس العـام الذى تولى فيه امارة طرابلس نازل عماد الدين زنكى مدينة حمص ، وكان يليها من قبل أتابك دمشق معين الدين أنر ، فأقام زنكى على حصـارها بعض الوقت ، فلما استعصت عليه رحل عنهـا فى ٢٠ شوال ، وزحف الى حصن بعرين أقوى قلاع كونتية طرابلس ، فحاصرها ، وضيق عليها الحصار ، فخرج ريموند الثانى وفولك دانجو ملك بيت المقدس (١١٣١ — ١١٤٤ م) «٤٧» على رأس قوات كثيفة من الصليبيين ، وزحف جيشاهما حـول سفوح جبال النصيرية الى بعرين لارغام زنكى على رفع الحصار عنها . واشتبك الفريقان فى موقعة عنيفة حدثت خارج بعرين ، انتهت بهزيمة الفرنج هزيمة نكراء ، قتل فيها عدد كبير من كمـاة الفرنجة وأبطالهم ، ووقع ريموند الثانى أسـيرا فى أيدى المسلمين بينما نجح فولك ملك بيت المقـدس فى النجاة بنفسه ، وتحصن مع فرقة من جيشه فى داخل قلعة بعرين «٤٨» ، ومن هنـاك أرسـل الى صاحب الرها ، وأمير أنطاكية ، وبطريرك بيت المقـدس ، يسـألهم أن يسرعوا لنجدته ، فلب الجميع نداءه ، وتجمعت حشودهم فى البقيعة . وفى هذه الأثناء كان فولك قد اشتـد به الضيق

---

(٤٧) يسميه ابن الفرات فلك بن فلك (ابن الفرات ، ج ٨ ، ٧٩)

(٤٨) أبو شـامة ، كتاب الروضتين فى أخبـار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمـد أحمد ، القـاهرة ، ١٩٥٦ ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص٨٧ — أبو الفـدا ، ج ٥ ، بـيروت ١٩٦٠ ص ١٩ — Runciman, p. 203 , 204 . ويجعل أبو شامة تاريخ هـذه الوقعة فى سنة ٥٣٤ هـ

لطول أمد الحصار ، وانقطاع الأخبار الخارجية عنه ، فأرسل أخيرا الى زنكى يطلب منه الأمان ، فلم يشترط عليه زنكى سوى التخلى عن بعرين ودفع خمسين ألف دينار . وتم الاتفاق على ذلك ، وأطلق المسلمون سراح فولك والأسرى جميعا ومن بينهم ريموند الثانى «[٤٩]» .

كانت هزيمة ريموند الثانى فى بعرين درسا قاسيا لم ينسه حتى وفاته ، فعاد الى طرابلس ولزمها ولم يعمل بعد ذلك على مناوأة سلطان المسلمين ، على الرغم من قيام الصليبيين بحملتهم الثانية على أثر استرداد المسلمين لمدينة الرها فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤) بعد حصار دام ٢٨ يوما «[٥٠]» ، وعلى الرغم من قدوم فرسان الاسبتارية الى طرابلس فى سنة ١١٤٢ ، واتخاذهم قلعتى حصن الأكراد ورفنية مركزا رئيسيا لهم للدفاع عن اقليم البقيعة «[٥١]» ، فلم يشترك ريموند الثانى فى حصار الفرنجة لدمشق ، بل نراه يستحث نور الدين محمود بن زنكى على أن يستولى على حصن العريمة الذى يقع فى كونتيته . وتفسير هذا التحول الفجائى الى جانب المسلمين ، يرجع الى أنه قدم مع الحملة الصليبية الثانية التى تزعمها كونراد ملك ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، الأمير الفونس جوردان بن ريموند دى سان جيل كونت طولوشة ، قدم هذا الكونت

---

(٤٩) أبو الفدا ، المرجع السابق ص ٢٠ — ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٩
Runciman, p. 205

(٥٠) الروضتين ، ج ١ قسم ١ ص ٩٤ — أبو الفدا ، ج ٥ ، ص ٢٥
Stevenson, p. 149

(٥١) Stevenson, p. 147

على رأس جيش كامل ، وبصحبته ابنه برتران «٥٢» • ونزل الفونس جوردان فى ميناء عكا بدلا من ميناء طرابلس الذى كان ينزل فيه معظم فرنجة بروفنس • غير أن الفونس جوردان لم يلبث أن توفى فى ظروف غامضة فى مدينة قيسارية بعد أيام من وصوله الى عكا ، وأشيع أنه مات مسموما بايعاز من ريموند الثانى حتى يتخلص منه • فاشترك ابنه برتران الثانى فى الحصار الصليبى لدمشق ، وانتزع قلعة العريمة من ريموند الثانى صاحب طرابلس ، ثم سعى بعد ذلك للتغلب على كل كونتية طرابلس • فلما أحس ريموند الثانى بعجزه بسبب تخلى بعض أنصاره عنه ، وتسببهم بذلك فى استيلاء برتران على العريمة ، كتب الى نور الدين محمود بن زنكى الذى خلف أباه الشهيد منذ ٦ ربيع الأول سنة ٥٤١ هـ (١٤ سبتمبر ١١٤٦ م) — وكان نور الدين مجتمعا فى بعلبك مع معين الدين أنر والى دمشق — يشير عليه « بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج » «٥٣» • وتمكن نور الدين ومعين الدين أنر بفضل المعونة التى قدمها لهما سيف الدين غازى صاحب الموصل من محاصرة العريمة ونقب

---

(٥٢) ترك الفونس جوردان كونتية طولوشة لابنه ريموند الخامس ، ويغلب على الظن أنه كان فى نيته أن يطالب من جديد بكونتية طرابلس ؛ معتمدا على مولده الشرعى الذى يجعل منه الوريث الحقيقى لكونتية طرابلس ، ولعله فكر فى السعى للظفر بهذه الكونتية ليقدمها لابنه برتران الثانى (Richard, op. cit. p. 7)

(٥٣) ابن القلانسى ، ص ٣٠٠ — أبو شامة ، ص ١٤٢

أسوارها واقتحامها بعـــد ذلك . وقام المسلمون بتدمير الحصن وأسروا من كان فيه ، ومن جملتهم برتران نفسه وأمه ، وعاد نور الدين الى حلب ومعه أسيراه «٥٤» .

وتعرضت طرابلس فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) لغزوة بحرية قام بها الأسطول المصرى على سواحل الشام ، حطم خلالها عددا كبيرا من سفن الفرنجة الراسية بالمينا «٥٥» .

وفى أواخر أيام ريموند الثانى (فى سنة ١١٥٢ بالذات) حدث خلاف بينه وبين زوجته هوديبرنا ابنة بلدوين الثانى ، واشتد النزاع بينهما الى حد قيام بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ — ١١٦٢ م) بالتوسط بينهما لفض النزاع . فقـــدم بلدوين الثالث وأمه ميلسند أخت هوديبرنا الى طرابلس . ولكن بلدوين أخفـــق فى اصـــلاح الأمـــور بين الزوجين المتخاصمين ، فاضطرت هوديبرنا الى الرحيل مع أختها الى نابلس ، بينما آثر بلدوين البقاء بعض الوقت فى طرابلس ، عنـــدما أشيع أن نور الدين يتأهب للهجوم على طرابلس «٥٦» . وبينـــما كان ريموند يتأهب لمواجهة

---

(٥٤) أبو شامة ، ص ١٤٣ — Stevenson, p. 164 - J. Richard, p. 6

(٥٥) ابن القلانسى ، ص ٣١٥ — أبو شامة ، ص ٢٠٢

(٥٦) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٤٧

الهجوم النورى وثب عليه جماعة من الاسماعيلية الحشيشية ، فقتلـوه وخلفه ابنه القاصر ريموند الثالث •

٦ ــ الكونت ريموند الثالث بن ريموند الثانى (١١٥٢ ــ ١١٨٧ م) :

كان لا يتجاوز من العمر احـدى عشر سنة عند وفاة أبيه ، فوكل بلدوين الثالث أمر الوصاية عليه الى أمه (أى أم ريموند) هوديبرنا «٥٧» • وعلى الرغم من صغر سن ريموند الثالث ، فقـد أثبت فيما بعد أنه من أعظم رجال السياسة فى الشرق اللاتينى ، وهيـأت له الظروف أن يرشح ملكا على مملكة بيت المقدس وذلك عندما اختير كافلا (وصيا) لبلدوين (١١٨٥ ــ ١١٨٦ م) ملك بيت المقـدس فى ١٦ مارس سنة ١١٨٥ لمدة عشر سنوات • وقد أشار الرحالة ابن جبير الى أن ريموند الثالث كونت طرابلس وطبرية كان حاجبا للملك بلدوين المجذوم ، وأنه كان يتمتع بقدر ومنزلة عند الافرنج ، « وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر ، وكان أسيرا عند نور الدين نحو اثنتى عشرة سنه أو أزيد ثم تخلص بمال عظيم بذله فى نفسه مدة صلاح الدين وعند أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق » «٥٨» •

---

(٥٧) Runciman, p. 333 ــ سعيد عاشور ، المرجع السابق ص٦٤٨

(٥٨) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ص ٣٠٩
ولعل ذلك كان سببا فى أنه كان مواليا لصلاح الدين •

ولم يلبث بلدوين المجذوم أن توفى فى صيف عـام ١١٨٦ م ، فأعيد اختيار ريموند كافلا لمملكة بيت المقدس حتى يتم اختيار ملك جديد . ولكن اختياره لم يرض خصومه السياسيين الذين نادوا بجى دى لوزنيان زوج سيبيلا أخت بلدوين الرابع المجذوم ، باعتبار أن سيبيلا هى أقرب الورثة الى العرش . وما زال هؤلاء الخصوم «٥٩» يكيدون لريموند ؛ ويعملون على احباط خطته فى الوصول الى عرش بيت المقدس حتى أقصى عن الوصاية ، واختير جى دى لوزينيان ملكا على بيت المقدس فى اغسطس سنة ١١٨٦ . وبذلك اشتد العداء بين ريموند وجى ، وزاد تقرب ريموند من صلاح الدين . ويذكر المؤرخون العرب أن القومص صاحب طرابلس « هادن السلطان ودخل فى طاعتـه » «٦٠» . وذكر أبو شامة فى حوادث ٥٨٠ هـ أنه « رغب فى مصافاة السلطان والالتجاء اليه والمساعدة له على أهل ملته » «٦١» .

واضطر ريموند الى الانسحاب فى اقطاعه بطبرية وهو حانق على جى ، وفكر الملك جى بدوره فى محاربة ريموند ، ولـكنه عدل عن ذلك

---

(٥٩) نخص بالذكر منهم : جيرار دى ريدفورد ، وجوسلين الثالث ؛ ورينو دى شاتيون ، وهيراقليوس بطريرك بيت المقدس .

(٦٠) أبو الفدا ، ج ٥ ص ٩٥

(٦١) Recueil des historiens des Croisades vol. IV, p. 207

خوفا من وقوف صلاح الدين الى جانب ريموند «٦٢» . وكان السنون التى قضاها ريموند الثالث فى أسر نور الدين ، وعدتها احدى عشرة سنة (١١٦٣ — ١١٧٤ م / ٥٥٩ — ٥٧٠ هـ) «٦٣» قد صقلته ، وهيأته لتمكين صلاته بالمسلمين ، وكان عمورى قد تولى الوصاية على كونتية طرابلس أثناء هذه الفترة «٦٤» .

أما عن الأحداث الكبرى التى وقعت فى عصره فأهمها الزلازل التى دمرت طرابلس وغيرها من المدن الشامية فى سنوات متتالية . ففى أوائل سنى امارته تعرضت طرابلس وحصونها لزلزال حدث فى ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) أدى الى تخريب كثير من أبنيتها وأبراجها «٦٥» . كذلك تعرضت طرابلس

---

(٦٢) العماد الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، نشره الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦٨ — Stevenson, p. 238 سعيد عاشور ، ج ٢ ، ص ٧٩٦ .

(٦٣) ابن الفرات ج ٨ ، ص ٧٩ — ابن جبير ص ٣٠٩ — Runciman, p. 369 . ويجعلها ستيفنسن Stevenson, تسع سنوات (Stevenson, p. 213)

(٦٤) Runciman, p. 370

(٦٥) أبو شامة ج ١ ص ٢٦٠ — ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، مرآة الزمان ، ص ١٤٠ — النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٢٥ — Nicola Ziadeh, Urban life in Syria under the early Mamluks, Beirut 1953, p. 61

لغارات كثـيرة قام بها نور الدين محمـود بن زنكى ، ففى سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) نزل نور الدين بالبقيعة ، بالقرب من حصن الأكراد ، وعسكر فى هذه المنطقة استعدادا لمحاصرة طرابلس ، ولكن هـذه الغزوة لم تتم ؛ اذ قامت الحامية الصليبية بحصن الأكراد بالهجوم على المسـلمين وردهم الى حمص «٦٦» • وفى سنة ٥٥٩ هـ • (١١٦٣ م) وقع ريمـوند أسيرا فى أيدى عسكر نور الدين عندما افتتح نور الدين قلعة حارم فى رمضـان ٥٥٩ هـ «٦٧» • واستغل نور الدين مظاهر الفوضى والاضطراب فى امارة طرابلس بعد وقوع أميرها فى قبضته ، فأغار على كونتية طرابلس فى ٥٦٢ هـ ١١٦٧ م ، وبدأ بمهاجمـة مرج حصن الاكـراد ، وحاصر عرقة وجبـلة وأخربهما ، وافتتح قلعتى العريمة وصافيثا «٦٨» • ثم أعاد الكرة فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) وافتتح حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من عسـكره الى حصنى صافيثا والعريمة ، فأخذهما عنوة ، وتوغل فى داخل كونتية طرابلس مدمرا ما كان يقابله من مراكز عمرانية «٦٩» •

---

(٦٦) مرآة الزمان ص ١٥٠ — ابن العديم ، ج ٢ ص ٣١٣ — أبو شامة ، ص ٣١٨

(٦٧) أبو شامة ج ٢ ص ٣٣٩ — أبو الفدا ، ج ٥ ص ٥٧

(٦٨) أبو شامة ، ج ٢ ص ٣٧٤

(٦٩) Runciman, p. 395

ثم توفى ريموند الثالث فى سنة ١١٨٧ عقب هزيمة الصليبيين على أيدى المسلمين فى وقعة حطين ، دون أن ينجب من زوجته اشيف صاحبة طبرية • وذكر ابن شداد أنه توفى بذات الجنب «٧٠» ، وكان ريموند قد اتفق على أن يتولى أمر كونتية طرابلس الأمير ريموند الابن الاكبر لبوهمند الثالث صاحب أنطاكية ، على أن ترد الكونتية لأى سليل من البيت الطولوشى يطالب بها مستقبلا • ولكن بوهمند الثالث أبدل ابنه الأكبر ريموند بابنه الأصغر بوهمند الرابع ، الذى خلف ريموند الثالث على كونتية طرابلس «٧١» • وبذلك انتهى حكم البيت الطولوشى بنهاية عهد ريموند الثالث «٧٢» •

---

(٧٠) ابن شداد ، المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٧

(٧١) Claude Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche, Paris 1940, p. 427

(٧٢) Runciman, p. 469 , 470 - Stevenson, p. 298 - Richard, p. 8

(٣)

امراء طرابلس من البيت النورماندى بانطاكية

١ — بوهمند الرابع (١١٨٧ — ١٢٣٣ م)

فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) وقع بوهمند الثالث أمير أنطاكية أسيرا فى يد ليون العظيم ملك أرمينيه ، واضطر بوهمند الى قبول الشروط التى فرضها عليه ليون فى مقابل الافراج عنه . وهى أن يتزوج ريموند ، الابن الأكبر لبوهمند ، آليس ابنة أخت ليون ، وعلى هذا الأساس أطلق سراح بوهمند قبل سبتمبر سنة ١١٩٤ م «١» . وتم الاتفاق على أن يرث روبان من الأرمينية أباه فى كل من أنطاكيــة وأرمينية . ولكن بوهمند الرابع بن بوهمند الثالث الذى تولى الامارة على كونتية طرابلس منذ سنة ١١٨٧ م عارض هــذه الاتفاقية ، وطالب بحقه فى امارة أنطاكية «٢» ، غير أن أباه بوهمند الثالث جمع بارونات امارته فى أول سبتمبر سنة ١١٩٨ ، وأقسم بمينا بالاعتراف بريمــوند روبان خلفــا له «٣» ، وكان من الطبيعى أن يرفض بوهمند الرابع أمير طرابلس الاتفاقيــة التى أبرمها أبوه ، فمضى يبحث عن أنصار يعضدونه فى قضيته . وبدأ بالبيــازنة ، ونجح فى كسب تأييدهم له ، ثم اتجه بعــد ذلك الى فرسان الداوية ، فأبدوا استــعدادا كبيرا لتأييده ضد ليون ملك أرمينية الذى كان قد انتزع منهم بغراس ؛

---

(١) Claude Cahen, op. cit. p. 586

(٢) Stevenson, op. cit. p. 298

(٣) Claude Cahen, p. 591

ولم يردها لهم منذ سنة ١١٩١ • كذلك لم يزهد الاسبتارية فى تأييده بعد أن سدد فى منتصف عام ١١٩٨ بقية ديون ريموند الثالث لهم «٤» • ونجح بوهمند الرابع بالاضافة الى أولئك المشايعين والمعضدين له فى كسب تعضيد الملك الظاهر صاحب حلب •

وبعد أن استكمل بوهمند استعداداته لتأمين ظهره ، تمكن بفضل بعض أنصاره من دخول أنطاكية فى أواخر عام ١١٩٨ م ، وجمع مجلس العموم الذى سحب ولاءه لبوهمند الثالث وأقسم يمين الولاء لبوهمند صاحب طرابلس كأمير لأنطاكية •

ومع ذلك فقد أخفقت المحاولة ، وتمكن ليون الأرمنى من التخلص سريعا من الخطر الاسلامى ، كما نجح فى عقد الصلح مع الاسبتارية الذين لم تكن تربطهم ببوهمند الرابع أى مصلحة خاصة ، ومع الداوية الذين وعدهم بتسوية عاجلة لمشكلة بغراس • وبعد أن أمضى بوهمند الرابع ما يقرب من ثلاثة أشهر فى أنطاكية ، لم يحاول ان يقاوم الجيش الأرمنى الافرنجى الذى سيره ليون لاعادة تنصيب بوهمند الثالث على دست امارة أنطاكية • ولكن الامور لم تجر على نحو ما اشتهاه ليون ، فان ماخسره بوهمند حربيا استرجع قسما منه دبلوماسيا ؛ فان مغامرته فى أنطاكية لم تفسد ما بين الأب وابنه ، ولم تؤد بالتالى الى توتر فى العلاقات بين أنطاكية وطرابلس ، ثم ان ليون لم يتخل عن بغراس للداوية حتى يضمن دخول قواته الى أنطاكية وقتما شاء عندما تثار مسألة وراثتها ، وأثار تمسكه

---

(٤) Ibid. p. 592 , 593

بها غضب أهل أنطاكية وكنيستها ، فأهل أنطاكية أنفوا من وجود حامية أرمنية على أبواب امارتهم ، والكنيسة لم تطمئن الى تجريد منظمة دينية من حق من حقوقها لصالح أمير لا دينى ، وعلى هذا النحو أجمع بطريرك انطاكية وبوهمند الرابع ومجلس العموم بأنطاكية بالاضافة الى بوهمند الثالث الذى تضامن فى هذه الأثناء مع المجلس المذكور ، على استنكار رفض ليون لمطالب الداوية ، وبعثوا احتجاجا على هذا الرفض الى البابا «٥» .

ولما توفى بوهمند الثالث فى طليعة سنة ١٢٠١ ، بادر ابنه بوهمند الرابع صاحب طرابلس الى احتلال أنطاكية ، حيث أعلن نفسه أميراً عليها ، وقام نزاع طويل الأمد بينه وبين روبان على امارة أنطاكية ، وتدخل ليون فى هذه القضية لصالح روبان حربيا اكثر من مرة ، وحوصرت انطاكية ، وتغير القائسون بأمرها مرات عديدة . وكان الداوية يعضدون بوهمند ، بينما كان فرسان الاسبتارية يناصرون ليون . وكان الظاهر غازى صاحب حلب حليفا صادقا لبوهمند الرابع ، وعدوا لدودا للملك الأرمنى ليون الذى كان يغير على حلب ونواحى حارم «٦» . ولم تلبث العلاقات بين بوهمند الربع وليون الأرمنى أن تطورت الى صدام مسلح ، وحاول ليون الاستيلاء على أنطاكية عدة مرات دون أن ينجح فى ذلك «٧» ،

---

(٥) Claude Cahen, p. 593 , 594

(٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٩

(٧) حاول ليون أن يستولى على أنطاكية فى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) (راجع ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٤٠ — Cahen, p. 602) وفى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) (ابن واصل ، نفس المرجع ، ص ١٥٤)

فى الوقت الذى تعقــدت الأمور فى كونتية طرابلس نفسها تعقيدا ينذر بالخطر فيما بين عامى ١٢٠٤ ، ١٢٠٦ ، فلقد حــدث أن البارون رينوار صاحب حصن أنفة (١١٩٦ — ١٢٠٦) تزوج ابنــة بارون حصن عــكار ووارثته الوحيدة دون أن يستأذن من مولاه بوهمند الرابع ، فشــكاه بوهمند أمام مجلس بارونات طرابلس الذى اتخــذ قراره بمصــادرة اقطاعات رينوار فى ١٢٠٣ — ١٢٠٤ • وشرع بوهمنــد فى تنفيــذ قرار المجلس ضــد رينوار ، وسبب ذلك قيام حرب أهلية بين أنصار رينوار وعلى رأسهم عمــورى ملك بيت المقــدس وجماعة من الاقطاعيين نخص بالذكر منهم راؤول صاحب طبرية ، وبين أنصار بوهمند ، وتمكن رينوار عدة مرات من الوصول بقواته الى نواحى طرابلس • وفى هــذه الحرب فقــد بوهمنــد احــدى عينيــه ، كما قتــل هيوج شقيق صــهره جى صاحب جبيل • ولحسن حظ بوهمند توفى ملك بيت المقدس فى ١٢٠٥ ، وتولى جان دى ايبلن الوصاية على المملكة ، وكان جان خصما لرينوار • وأخيرا أسفر الصراع القائم بين بوهمند ورينوار عن وقوع رينوار أسيرا فى أيدى أنصار بوهمند ، واستسلم حصن أنفه وحصن عكار لبوهمند فى نهاية عام ١٢٠٥ م «٨» •

وظلت امارة أنطاكية ميدانا للقتال بين ليون وبوهمند تبودل فيــه النصر والهزيمــة ، الى أن تمكن ليون فى شوال ٦١٢ هـ (١٢١٦ م) من الاستيلاء على أنطاكية ، وتنصيب ابن أخته روبان على امارتها ، وعلى أثر

---

(٨) Claude Cahen, p. 608, 609 - Jean Richard, p. 75

ذلك عــاد الى بلاده «٩» . الا أن امارة أنطاكيــة لم تلبث أن عادت الى بوهمند الرابع بعــد وفاة ليون فى ١٢١٩ م ، فقد تآمر وليم فارابيل من أسرة بارونات بوى على ريموند روبان ، فى أنطاكية ، ودعا بوهمند الى دخــولها ، فلم يتردد بوهمنــد فى الاسراع باحتلالها ، أما ريموند فقــد تحصن بقلعتها ، ثم عهد بحمايتها الى الاسبتارية وعاد هو الى قيليقيا «١٠» ، وعلى أثر ذلك تمكن بوهمنــد من انتزاع قلعــة أنطاكية من الاسبتاريه بقوة السلاح .

وهكذا ارتبطت انطاكية بطرابلس فى ظل بوهمند الرابع من ١٢١٩ حتى ١٢٣٣ ، وأصبح بوهمند الرابع بذلك أعظم أمراء الفرنجة شأنا .

ولقد ترتب على النزاع حــول أنطاكية تضعضع مركز الصليبيين فى شمال الشام ، يضاف الى ذلك أن هذا النزاع كان عاملا من عوامل تفتيت قوى الصليبيين فى الشام وانعدام أى تعاون صليبى مشترك ضد الامارات الاسلامية المجاورة . وليس أدل على الانقسامات الداخلية بين اللاتين فى طرابلس من تعصب الاسبــتارية للأرمن ضــد الداوية ، ولذلك عــمل بوهمند الرابع على الانتقام من الاسبتارية لمناصرتهم لخصــمه ، فجردهم من جميع ممتلكاتهم فى أنطاكية وطرابلس «١١» . وكان بوهمند قد وعد

---

(٩) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٣٣

(١٠) Claude Cahen, p. 631

(١١) Ibid p. 633 ــ سـعيد عاشـور ، الحركة الصليبيــة ، ج ٢ ص٩٩١ . ولقــد أمر بوهمند باعــدام اخوين من الاسبتارية أحــدهما سحل حيــا .

الداوية بأن يهبهم مدينة جبلة حتى يغريهم بنصرته على الاسبتارية ، ولذلك أيضا قام نزاع خطير بين المنظمتين لم تخف حدته الا فى سنة ١٢٢١ ، ثم استؤنف النزاع بينهما فيما بعد . وكان طبيعيا أن يحدث رد فعل بابوى وشيك ، فقد امتنع البابا من الاعتراف لبوهمند بلقب الامارة ، وسمح للاسبتارية بمقاومة أعماله التعسفية بحد السلاح فى ديسمبر سنة ١٢٢٥ : بل أنه حرضهم فى يناير سنة ١٢٢٨ على محاولة انتزاع أنطاكية من دائرة نفوذه «١٢» ، ومن المعروف أن فرسان الاسبتارية قدموا الى امارة طرابلس فى سنة ١١٤٢ م ، فمنحهم ريموند الثانى صاحب طرابلس حصن الأكراد ورفنية للدفاع عن اقليم البقيعة «١٣» . وفى أثناء الفترة التى أسر فيها ريموند الثالث ، توسع عمورى منذ ١١٦٧ فى منح الاسبتارية والداوية القلاع والمدن بقصد أن يتولوا الدفاع عنها ، اذ وجد فى هاتين المنظمتين وسيلة ناجعة تكفل له الدفاع عن الامارات الصليبية فى الشام ، وبذلك بسط الداوية نفوذهم على أنطرطوس ومعظم الأراضى الواقعة الى الشمال من كونتية طرابلس ، وفى نفس الوقت عهد الى الاسبتارية بالدفاع عن سهل البقاع وحصن الأكراد . وكذلك فعل بوهمند الثالث صاحب أنطاكية ، اذ منح الداوية كثيرا من الحصون الشمالية من امارته حول بغراس ، كما منح الاسبتارية حصونا أخرى فى الجنوب «١٤» ، وفى سنة ١١٦٩ عهد عمورى الى الاسبتارية بحماية حصن عكار وعرقة «١٥» .

---

(١٢) Claude Cahen p. 634

(١٣) Stevenson, p. 147

(١٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٩٣

(١٥) نفس المرجع ص ٧١٤

ولقد تمتع الاسبتارية باستقلال فعلى ، خاصة فى طرابلس ، فكان مقدم الاسبتارية يشن الغارات على أراضى المسلمين ، ويعقد معهم الصلح كما لو كان أميرا مستقلا ، وكان لهذه الامتيازات أثرها العميق فى خلق جو من التوتر بين كونتات طرابلس وهذه المنظمة «١٦» .

وبينما حرص بوهمند الرابع على ألا يقحم نفسه فى حروب مع جيرانه المسلمين ، كان فرسان الاسبتارية بحصن الأكراد والمرقب وصافيثا يعيثون فى أراضى المسلمين ، ففى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أغار الاسبتارية من حصن الأكراد والمرقب على عمل بعرين ، فهزمهم المنصور صاحب حماة «١٧» ، وفى سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) أغاروا على حماة «١٨» ، وفى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) أغاروا على جبلة واللاذقية «١٩» ، كما أغار الاسبتارية بحصن الاكراد على بعرين وما حولها فى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) «٢٠» .

ومع أن فرسان الاسبتارية فى اقليم طرابلس كانوا أنشط المنظمات الدينية فى محاربة المسلمين المجاورين لهم ، فى الوقت الذى قامت الحروب

---

(١٦) Stevenson, p. 300 - 301

(١٧) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٤٨ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٣٤

(١٨) نفس المرجع ، ص ١٦٢

(١٩) نفس المرجع ، ص ١٦٦

(٢٠) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١٠٢٤

الأهلية بين أمراء البيت الأيوبى فى الشـام ، وانصراف هؤلاء عن الجهاد المشترك ضد اللاتين بخلافاتهم الشخصية ، فلقـد كان كل من منظمتى فرسان الاسبتارية والداوية ، وهم ألد أعداء الاسلام ، فى بعض الأحيان يحالفون المسلمين ضد الصليبيين بحكم الخصومات القائمة بينهم : فلقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاسبتارية ومصر ، وكانت المعارك التى خاضها الفرسان المتخاصمون من أضرى المعارك «[٢١]» .

٢ ـ بوهمند الخامس (١٢٣٣ — ١٢٥١ م) :

لم يطل العهد ببوهمنـد الرابع ، اذ توفى فى مارس سنة ١٢٣٣ م ، وخلفه ابنه بوهمند الخامس الذى جرى على نفس سياسة أبيه فى مهادنة جيرانه المسلمين ، ونخص بالذكر منهم الملك العزيز الذى تولى ملك حلب بعد وفاة أبيه الملك الظاهر فى ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) . ففى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) توسط بوهمند الخامس بين الملك العـزيز وبين الداوية وذلك عندما قام الداوية بتعمير بغراس التى كان قد خربها صلاح الدين . وعلى أثر تدخل بوهمند فى القضية وتوسطه بين المسلمين والداوية رفع المسلمون الحصار عنـها ، بعد أن أشرفوا على فتحها ، ثم رحلوا عنها «[٢٢]» .

---

(٢١) جون ل. لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، مقال فى كتاب « دراسلات اسلامية » ترجمة أنيس فريحه وآخرين ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٣٠

(٢٢) أبو الفداء ، ج ٦ ص ٦٠ ـ جون لامونت ، الحروب الصليبيـة والجهاد ، ص ١٣١

٢ ـ بوهمند السادس (١٢٥١ ـ ١٢٧٥ م) :

كان عمره عندما خلف أباه على امارة أنطاكية ـ طرابلس لا يتجاوز ١٤ سنة ، ويتميز عهده بثلاثة أحداث كبرى هى : النزاع بين الجنوية والبنادقة ، وتعاون بوهمند مع المغول ضد المسلمين ، وسقوط أنطاكية المعقل الأمنع لامارته فى أيدى المسلمين فى ٦٦٧ هـ (١٢٦٨)

الحدث الأول (النزاع بين الجنوية والبنادقة) : أدى النزاع بين المستعمرات الايطالية فى الامارات الصليبية ، ونعنى به المشاحنات بين الجنوية والبنادقة والبيازنة الى تفتيت ما بقى من قوى الصليبيين فى الشام . ولقد بدأت الاشتباكات الأولى بين المستعمرات الايطالية فى عكا سنة ١٢٢٢ ، ثم تجددت بعد ذلك فى سنة ١٢٤٣ ، وازدادت حدة فى سنة ١٢٥٦ الى درجة قيام الجنوية فى عكا باحتلال دير القديس سابا ، وتوغلهم فى حى البنادقة ، واستيلائهم على سفن البنادقة الراسية فى الميناء . ولم يلبث امراء الفرنجة فى الشام أن زجوا بأنفسهم فى هذا الصراع القائم ، مؤيدين فريقا على فريق ، فوقف فيليب دى مونتفورت أمير صور والاسبتارية والقطلان الى جانب الجنوية ضد البنادقة ، وانضم اليهم أمراء جبيل الجنويون ، أما بوهمند فقد تعصب للبنادقة بسبب عدائه لبرتران الثانى أمير جبيل والبترون ،وانضم البيازنة وفرسان الداوية والتيوتون والپروڤنسيون الى جانب البنادقة . وبذلك تفتتت قوى اللاتين أمام الدفع القوى لحركة الاسترداد الاسلامية بزعامة السلطان الملك الظاهر بيبرس . وامتد النزاع بين الجنوية والبنادقة الى طرابلس

وجبيل، وقام أمير جبيل بتحريض بارونات طرابلس على الثورة على بوهمند، وخرج بنفسه على رأسهم لمهاجمة طرابلس فى ١٢٥٨ مستعينا مستعينا بالاسبتارية «٢٣» ؛ ويعلق استيفنسن على ذلك بقوله : « بينما كانت نيران الحرب تحتدم برا وبحرا ، كانت الألوف تسقط ضحيتها ؛ وأسوار المدن اللاتينية تنهار على أيدى أولئك الذين كان ينبغى أن يتولوا تدعيمها وتقويمها «٢٤» ؛ وظلت المعارك تدور بين الطرفين المتخاصمين الى أن عقد الصلح بينهما فى عام ١٢٧٧ م ٠

الحدث الثانى (تعاون بوهمند السادس مع المغول) : كان للانتصارات المتواصلة التى أحرزها المغول بقيادة هولاكو بعد استيلائهم على بغداد ؛ وتقدمهم المذهل فى الشرق الأدنى الاسلامى دوى هائل فى العالم المسيحى، فرحت له أوربا النصرانية وهللت ، واعتبر البابا وحكام أوربا الغربية المغول حلفاء لهم فى صراعهم المشترك ضد الاسلام ؛ لأن تحالفهم مع المغول يضمن لهم امتلاك الأراضى المقدسة «٢٥» ، على الرغم من أنهم كانوا على يقين بأن المغول كانوا يهددون أوربا المسيحية كما كانوا يهددون الاسلام «٢٦» : وكانت البابوية وحكام غرب آسيا (الأرمن) يسعون منذ أمد بعيد على تكوين حلف يضم المغول وحكام

---

(٢٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٠٥ — ١١١١

(٢٤) Stevenson, op. cit. p. 332

(٢٥) حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام بين المغول والتتار ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٣٠

(٢٦) مصطفى طه بدر ، مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، ص ٥

آسيا الغربية المسيحية وأوربا ، غايتــه سحق القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى «٢٧» ، وفى نفس الوقت لم يزهد خانات المغول فى اعتناق المسيحية

(٢٧) كان لهيثــوم الأول ملك أرمينيــة المسيحى أعظم الأثر فى اقناع مانجوخان بضرورة توجيــه حملة مغولية للقضاء على الاسلام ، فبعث أخاه الى بلاط مانجوخان فى ١٢٤٧ م ، ثم سافر هو بنفسه للقاء مانجوخان فى سنة ١٢٥٤ م . وكان مانجوخان يعطف على المسيحيين متأثرا فى ذلك بزوجته المسيحية (فؤاد عبــد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٣٣) . وكذلك تحالف هولاكو مع ملك أرمينية والصليبيين لمواجهــة كل من بركة خان المسلم وحليفه بيبرس ، مدفوعا فى ذلك هو الآخر بتأثير زوجته المسيحيــة دوقوز خاتون ، التى عملت من جانبها على اجتذابه الى جانب المسيحيين .

وأقدم السفارات المتبــادلة بين المغول وأوربا المسيحية وأشهرها ترجع الى منتصف القرن ١٣ م ، عنــدما أرسل البابا اينوسنت الرابع أثناء انعقاد مجلس ليون سفيرين من قبله الى كويوك خان فى سنة ١٢٤٥ يدعوه وشعبه لنصرة الكنيسة وتعضيد المسيحيــة ، هما : لورنزو البرتغالى ، وجيوڤانى دى بلانو كاربينى (Aziz Surial Atiya, The Crusade in the later Middle age, London, 1938 p. 238)

ويعتبر كويوك خان المــذكور من أشــد خامــات المغول وطأة على المسلمين ، اذ ألقى زمام أموره الى وزيرين مسيحيين ، وامتلأ بلاطه بالرهبان النصارى (حسن ابراهيم حسن ، ص ٣٢ — فؤاد الصياد ، ص ١٢٧). كذلك أرسل جغتاى خان رسولين من قبله هما داود ومرقص من نساطرة الموصــل سنة ١٢٤٨ الى الملك لويس التاسع يحملان اليه رسالة ، وذلك عندما وصل اليه خبر قيامه بحملته الصليبية الى الشرق بقصد شغل مصر عن انقاذ الشرق الأدنى الاسلامى (Aziz Surial op. cit. p. 242) باعتبار أن مصر هى القوة الوحيــدة التى يمكنها الوقوف أمام أطماع المغــول والصليبيين فى الشرق الاسلامى (ابراهيم أحمد العدوى ، العرب والتتار ، المكتبة الثقافية، ١٩٦٣،

وفى نفس الوقت لم يزهد خانات المغول فى اعتناق المسيحيـة وفى محالفة المسيحيين فى أرمينية وفى أوربا ضـد المسلمين «٢٨» ، وتألفت جبهة تضم المغول والأرمن والصليبيين غايتها القضاء على القوة الاسلامية . ولما كان بوهمند السادس ، بعكس أبيه ، حليفا وفيا لهيثوم والد زوجته ، فلم يتردد فى الانضمام الى الحلف المغولى الأرمنى «٢٩» ، واشترك هيثوم ملك أرمينيـة فى وضع الخطة المغولية الأرمنية لغزو بلاد الشـام . ولم يكن هيثـوم فى تحالفـه مـع المغـول يعبـر عن سيـاستـه الشخصيـة ووجهـة نظـره فحسب ، بـل عن سيـاسـة زوج ابنتـه بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس ، الذى ارتبط مع صهره ارتباطا وثيقا ، وعلى هذا النحو انساق بوهمند وراء صهره فى الحملة المغولية بقيـادة هولاكو خان «٣٠» ، ثم كيتبوغا القـائد النسطورى الذى تسلم القيادة المغولية فى الشام بعـد قفول هولاكو الى ايران . الا أن انضواء بوهمند السادس فى فلك المغول والأرمن أزعج أمراء الصليبيين وزعمائهم

ص ٧١ ــ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠٠) . فرد لويس التاسع على هـذه السـفارة بسفارة أخرى تتألف من أندرى وجيـوم دى لونجومو ، وجان القرقشونى فى سنة ١٢٤٩ ، ثم أردفها بسفارة أخرى الى مانجوخان الذى خلف كـويوك خان يشلهـا جيـوم دى روبروك وبارتلميو داكريمونا فى سنة ١٢٥٢ وذلك بعد فشل حملته على دمياط ؛ ولم تؤد هذه السفارة الى نتيجة (راجع : Aziz Surial p. 242 - 244)

(٢٨) Aziz Surial, op. cit. p. 238

(٢٩) فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص ١٩٣

(٣٠) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٢٣ ــ ١١٢٤

فى جنوب الشام ، لانشغالهم فى خصـــوماتهم الداخلية ، كما ان البنادقة رأوا فى حركة المغول تهديدا لمصالحهم التجارية مع مصر المملوكية ، وقد يكون مصـــدر انزعاجهم راجعا الى عطف المغول الواضح على المسيحيين الشرقيين دون الغربيين ، بدليل أنهم طلبوا من بوهمنـــد اعادة البطريرك الأرثوذكسى ، الذى كان قد أقصى من أنطاكية «٣١» ، وعلى هـــذا النحو كان بارونات الصليبيين فى الجنوب مترددين بين محالفة المغول أو الانضمام الى المصريين ، وفضل جوليان آمير صيدا ، وچان دى ايبلين أمير بيروت بالاضافة الى أميرجبيل وفرسان الداوية وسكان عكا محالفة المصريين «٣٢» ، واشترك بعضهم فعلا فى مهاجمة المغول «٣٣» ، اذ كان هؤلاء البـــارونات ينظرون الى المغول كبرابرة لا يمكن مقارنتهم بالمسلمين المتحضرين «٣٤» ، ولعل هذا الموقف الذى وقفه هؤلاء البـــارونات بالنسبة للمسلمين يفسر قيام المماليك بتدمير امارة أنطاكية التى تعاونت تعاونا تاما مع المغول بعـــد انحسار الخطر المغولى عن الشام ومصر «٣٥» ، فى حين قـــدر للمدن التى

---

(٣١) نفس المرجع ص ١١٢٩ — ١١٣٠

(٣٢) چون لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١٣٦

(٣٣) سعيـــد عاشور ، ج ٢ ص ١١٣٢ — راجع نص كتاب بيبرس الى بوهمند بعد فتح أنطاكية ، السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٩٦٦ — ٩٦٩ .

(٣٤) فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص ٢٠١ — سعيد عاشور ج ٢ ص ١١٣٢

(٣٥) فى سنة ١٢٦٤ شخص هيثوم وبوهمنـــد السادس الى بلاط هولاكو لاستنفاره ضد المسلمين (Claude Cahen, p. 711)

أيدت مصر المملوكية ضد المغول أن تعمر بعض الوقت «٣٦» • صحيح أن بيبرس شن حربه ضد الصليبيين فى الشام ، ولكنهـا لم تكن قط حربا دينية ، بل كانت حربا سياسية فرضتها سياسته التوسعية ، فانه لم يوجه حملاته على الصليبيين فحسب وانما وجهها أيضا الى الامارات الاسلامية التى احتـك بها مثل بقايا الأيوبيين فى سورية ، والحشاشين فى لبنـان ، والنوبيين فى جنوب مصر • ومما يدل أيضـا على ان حروبه ضد اللاتين كانت مجرد حروب توسعية ، أنه كان حريصا على كسب صـداقة ملوك النصرانية أمثال شارل دانجو ، وخايمى ملك أرغون ، ءالفونسـو ملك قشتالة ، وميخائيل الثامن امبراطور القسطنطينية «٣٧» •

الحدث الثالث (سقوط أنطاكية) : كان بوهمند السادس من أعظم أنصار المغول وذلك للصلة التى كانت تربطه بهيثوم الأول ملك أرمينية ؛ يدل على ذلك اشتراكه فى الحملة المغولية الأرمنية التى انتهت بالفشل فى عين جالوت • وكان بيبرس يرى فى بوهمند العدو الأعظم له من بين أمراء الفرنجة ، لأنه كان يتلقى النجدات من أوربا ، ويعين المغـول على غزو الشام ، ويشن الغارات التخريبية فى أراضى المسلمين «٣٨» ، وأنه استولى على البلاد المجاورة له بعد زوال الأيام الناصرية «٣٩» ، لذلك ركز بيبرس

---

(٣٦) جون لامونت ، ص ١٣٦

(٣٧) جون لامونت ، ص ١٣٧

(٣٨) ميخائيل نجم خورى ، سـيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦ ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بيروت الامريكية ، ١٩٦١ ، ص ١٩٧

(٣٩) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٣ ، ملحوظة ٢

هجومه على بلاده ، وانتهى الأمر باستيلائه على أنطاكية فى رمضان سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) ، ولم يستطع بوهمند الذى كان مقيما يومئذ بطرابلس أن يفعل شيئا أمام الكارثة . وكان سقوط أنطاكية أهم حدث وقع فى الشام منذ أن استرد المسلمون الرها على يدى عماد الدين زنكى ، ومنذ انتصار صلاح الدين فى حطين ، وكان سقوطها يعنى قرب نهاية الصليبيين.

ولم يطل العمر ببوهمند بعد سقوط أنطاكية ، ليشهد سقوط طرابلس ، فقد توفى فى رمضان سنة ٦٧٣ هـ (١١ مارس سنة ١٢٧٥ م) وخلفه ابنه القاصر بوهمند السابع .

٤ ـ بوهمند السابع (١٢٧٥ ـ ١٢٨٧ م) :

كان الأمير بوهمند السابع عند وفاة أبيه طفلا قاصرا ، ولذلك أصبحت كفالته موضع منافسة شديدة ، وشهدت طرابلس فى عهده حربا أهلية وقف فيها أسقف أنطرطوس موقفا مضادا من أسقف طرابلس، كما وقف فيها الداوية وجاى الثانى أمير جبيل ضد بوهمند السابع وأمه سيبل الأرمنية وأسقف أنطرطوس «٤٠» ، وتمكن بوهمند فى سنة ١٢٨٢ من الاستيلاء على جبيل والقاء القبض على جاى (سيركى Sire Guy) «٤١». وكان خطر الاسترداد الاسلامى يقترب من طرابلس فى تلك الفترة الحرجة

(٤٠) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١١٦٠

(٤١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص٣١٦ ، حاشية٢ — Stevenson, p. 348 . راجع محاولة جاى صاحب جبيل مفاجأة طرابلس ثلاث مرات فى وثيقة رقم ٧ الواردة فى : Michaud, Histoire des Croisades, vol. 4, p. 650

التى تبعت وفاة بوهمنـــد السادس ، وازداد ضغط بيبرس على طرابلس ، فاضطر بوهمند السابع الى مهادنة المسلمين ، فدفع جـزية سنوية قدرها ٢٠ ألف دينار صـــورية لبيبرس فى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) نظير تجديد الصلح الذى كان معقـودا بين والده بوهمنـــد السادس وبين الظـاهر بيبرس «٤٢» • وفى سنة ٦٨٠ هـ (يوليـــو ١٢٨٠ م) جددت الهدنة مع بوهمند السابع لمدة عشر سنوات •

وتوفى بوهمند السابع فى خريف عام ١٢٨٧ ، وترتب على وفاته قيام قيام أزمة بشأن وراثة العرش ، فان بوهمند مات دون أن يعقب ، فطالبت أخته لوسيا بحقها فى امارة طرابلس ، ولكن هذا الطلب قوبل بمعارضـــه شـــديدة من الحزب الذى يتزعمه الجنـــوية ويؤيده السلطان المنصـــور قلاوون «٤٣» فاستحكمت الفوضى فى طرابلس ، خاصة بعد أن تدخـــل الجنوية فى الصراع القائم أمام معارضة البنادقة والبيازنة ، وقامت الحرب بين الاسبتارية والداوية ، وعندئذ أعلن فرسان طرابلس وتجارها قيـــام قومونية بطرابلس يرأسها بارتلميو أمبرياتشو صاحب جبيل وابن جاى (سيركى) • واشتد الصراع بين لوسيا وريثة بوهمند الشرعية وأنصارها الاسبتارية وبين قومونية طرابلس يعضدها الجنوية «٤٤» ، وامتد أمد هذا الصراع الى أن قام السلطان قلاوون بالاستيلاء على طرابلس فى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) •

---

(٤٢) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٦١٩ — Stevenson, p. 345

(٤٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٠ حاشيـــة رقم ٢ .

(٤٤) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١١٧٢

(٤)

علاقة كونتيــة طرابلس بالدول المسيحية المجاورة

أخذ موقف كونتية طرابلس ازاء جاراتها من الامارات الصليبيــة والدولة البيزنطية يتضح بجلاء فى خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكن هذا الموقف لم يلبث فى القرن الثالث عشر أن تغير تغــيرا جذريا على أثر اتحادها مع امارة أنطاكية ، وزوال مقومات كل من الامبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس • ونقتصر فى هذا الموضوع على ذكر علاقات ثلاث من التبعية والولاء الاسمى كانت ترتبط بها كونتية طرابلس فى آن واحد مع الامبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس وامارة أنطاكية • وعلى الرغم من هذا الارتباط بالتبعية ، فقد تمكن قمامصة طرابلس من تحقيق استقلال كامل لكونتيتهم «٤٥» •

١ ـ علاقة الكونتية بالدولة البيزنطية :

لم يتوان أباطرة بيزنطة عن المطالبة بحقهم فى الاراضى الشامية التى كانوا قد استردوها فى نهــاية القرن الخامس الهجرى ثم أطاح السلاجقة بنفوذهم فيها منــذ عام ١٠٧٠ م «٤٦» ، ونعنى بهــذه الأراضى ، المــدن

---

(٤٥) Jean Richard, op. cit. p. 26

(٤٦) سقطت بيت المقدس فى أيدى السلاجقة فى سنة ١٠٧٠ م وتبعتها أنطاكية فى سنة ١٠٨٤ • (راجع Vasiliev, Histoire de l'Empire byzantin trad du russe par Brodin. t. II, Paris, 1932, p. 25)

الساحلية الممتدة من أنطاكية حتى مرقية . وهى مدن أصبحت تابعة لامارة أنطاكية الصليبيـــة . أما الأراضى التابعة لكونتية طرابلس ، فلا تدخل فى نطاق مطالب البيزنطيين ، اذ أن طرابلس ، كما أشرنا الى ذلك من قبـــل ، لم تشهد قوات بيزنطية داخل أسوارها ، على الرغم من جهود نقفور فوقاس (٩٦٧ — ٩٦٩ م) ، وحنا الأول زمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦ م) ، وبسيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) . فنقفور فوقاس نجح فى الاستيلاء على حمص وحلب بصفـــة مؤقتة ، واستولى على أنطاكية وجبلة وعرقة وأنطرطوس واللاذقية فى سنة ٩٦٨ م «٤٧» ، ولكنه أخفق أمام أسوار طرابلس . أما حنا الأول فقد استعاد حمص وجبلة ، واحتل جبيل وبانياس فى سنة ٩٧٥، واستعصت عليه مدينتا طرابلس وبيروت «٤٨» ، فى حين استرجع بسيل الثانى حمص وانطرطوس فى ٩٩٥ ، واستـــولى على حلب وشيزر «٤٩» ، ولكنه لم يتمكن من انتزاع طرابلس التى قاومت جيوشه فى ٩٩٩ م على النحو الذى فصلناه . وعلى هذا الأساس لم يكن الامبراطور البيزنطى اليكسس كومنين يهدف من وراء الحملة الصليبية الأولى الا الى استرداد الأراضى التى كانت قد دخلت فى فلك الامبراطورية قبل غزو الأتراك السلاجقة «٥٠» ،

---

(٤٧) Edward Foord, The Byzantine empire, London, 1911, p. 271 - Oman. The Byzantine empire, London 1914, p. 231

(٤٨) Edward Foord, op. cit. p. 280

(٤٩) Charles Diehl, Histoire de l'Empire byzantin, Paris, 1924, pp. 99 - 100

حسن جبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٥

(٥٠) Claude Cahen, la Syrie du Nord, p. 206

وخاصة الأراضى التى أصبحت تؤلف امارة أنطاكية الصليبية ، وفى سبيل ذلك لم يتردد فى بذل الأموال الطائلة على زعماء الحملة بقصد استمالتهم اليه لخدمة أغراضه السياسية ، واملاء ارادته عليهم بعد ذلك ، ولهـذا السبب طالبهم بأن يقسموا له يمين التبعية والولاء حتى يصبح فى المستقبل القريب مهيمنا على فتوحاتهم فى منطـقة النفوذ البيزنطى القديم «٥١» • وعلى هذا الأساس عقدت اتفاقية القسطنطينية فى مايو سنة ١٠٩٧ م بينه وبين زعماء الحملة ، تعهدوا فيهـا برد الأقاليم التى كانت من ممتلكات البيزنطيين فى الماضى ، وأقسموا للامبراطور يمين الولاء والتبعيـة ، كما تعهد هو فى مقابل ذلك بمساعدتهم والمحافظة على سلامتهم «٥٢» •

وما كاد الصليبيون ينجحون فى فتح أنطاكية فى يونيو سنة ١٠٩٨ ، بفضـل مساعدة جيش بيزنطى يقوده القـائد التركى المرتد تاتيكيوس ، وان كان قد انسحب قبل أن يفتتحها الصليبيون ، حتى وضع بوهمنـد يده عليها ، وتخلص من الحامية التى وضعها منافسه ريموند الصنجيلى فى مقر الامارة وبرج الجسر ، وعزل البطـريرك البيزنطى ، ووضع مكانه بطريركا لاتينيا ، وحنث بذلك بقسمه للامبراطور • ثم سعى بعـد ذلك ، بفضل البيازنة ، الى انتزاع اللاذقية من البيزنطيين ، ونجح طنكرى (ابن

---

(٥١) جوزيف نسيم يوسف ، العـرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ ص ١٠٦

(٥٢) ابن القلانسى ، ص ١٣٥ — حسن حبشى ، الحرب الصليبيـة الأولى ، ط ، ١٩٤٧ ، ص ٣٥ — جـوزيف نسيم ، المـرجع السـابق ، ص ١٩٤ ، ١٩٥

أخته) فى ذلك فى سنة ١١٠٢ ، أثناء أسر بوهمند • وعندما قامت الحرب بين اليكسيوس وبوهمند فى سنة ١١٠٧ ، انهزم بوهمند هزيمة نكراء ، ووقع مع اليكسيوس معاهدة مهينـــة له فى سنة ١١٠٨ ، بمقتضاها أقسم بوهمند يمين الولاء للامبراطور ، واعترف بتبعيته له ، وتعهـد بألا يشهر السلاح فى وجهـه مرة أخرى ، كما تعهـد باعادة اللاذقيـة الى الدولة البيزنطية ، وأن يتولى امارة أنطاكية كاقطاع من الامبراطور «٥٣» •

وهكذا تمكن الامبراطور البيزنطى فى ١١٠٨ من الظفر باللاذقيـة وجبلة وبانياس ومرقية وأنطرطوس وأرواد • ولكنه لم ينعم طويلا بذلك، اذ رفض طنكرى ، الذى خلف خاله بوهمنـد ، أن ينفذ بنود المعاهدة ، وعاد يطبق سياسة بوهمند العدائية نحو بيزنطة من جديد «٥٤» • وقـد دعا هذا الموقف الذى التزمته امارة أنطاكية نحو الامبراطورية البيزنطية الامبراطور الى اتخاذ موقف عدائى من هذه الامارة وامارة الرها كذلك، ولم يتردد فى عقد تحالف مع السلاجقة أعدائه القدامى ضد الصليبيين «٥٥»

---

(٥٣) Charles Diehl, op. cit, p. 151 - Vasiliev, op. cit. t. II, p. 48 — Cahen, p. 252

(٥٤) Vasiliev, p. 48

(٥٥) أرسل اليكسيوس سفيرا من قبله الى بغداد فى سـنة ٥٠٤ (١١١٠ م) لاستنفار الخليفـة على محاربة الصليبيين ، وقـد أشار ابن القلانسى الى هذه السفارة بقوله : « وفى جمادى الآخرة منها وصل رسول متملك الروم بهدايا وتحف ومراسلات مضمونها البعث على قصد الافرنج والايقـاع على طردهم من هـذه الأعمـال ، وترك التراخى فى أمرهم ، =

وكما فعل الامبراطور البيزنطى فعــل الصليبيون ، اذ أقاموا مع الأتراك السلاجقة حلفــا مماثلا ضــد بيزنطة «٥٦» • وفى نفس الوقت يصادق اليكسيوس مع ريموند الصنجيلى الذى كان قد رفض من قبل أن يقسم يمين الولاء له ، وأدى ريموند الصنجيلى ابان هذه المشاحنات التى قامت بشأن مسألة أنطاكية دور المدافع عن الحقوق البيزنطية على الشام الشمالى ، كما استجاب لرغبة الامبراطور بوضع اللاذقية ومرقية وبانياس بين يدى الامبراطور ، ولكنه اختص لنفسه بأنطرطوس • وفى نظير ذلك قام الامبراطور بمعاونة ريموند فى حصاره لطرابلس فى سنة ١١٠٣ م «٥٧» •

ولم يكف ريموند عن الظهور بمظهر التابع المخلص للامبراطور ، وأوفى بقسمه له • ولمــا توفى ريموند قام خليفته وليم جوردان السردانى

=

واستعمال الجد والاجتهاد فى الفتك بهم قبل اعضال خطبهم ، واستفحال شرهم ، ويقول انه منعهم من العبــور الى بلاد المسلمين وحاربهم ، فان طمعوا فيها بحيث تواصل عساكرهم وامدادهم الى البــلاد الاسلاميــة احتــاج الى مداراتهم ، واطــلاق عبــورهم ومساعدتهم على مقاصدهم وأغراضهم للضرورات القائدة الى ذلك ، ويبــالغ فى الحث والتحريض على الاجتمــاع على حربهم وقلعهم من هــذه الديار بالارتفاق عليهم » (ابن القلانسى ص ١٧٣ ، ١٧٤)

(٥٦) Vasiliev, pp. 45 - 46

(٥٧) اشترك فى حصار طرابلس لصالح ريموند دوق قبرص البيزنطى كما ساعده القائد البيزنطى كانت كوزين بحرا وتمكن من انتزاع المرقب وجبلة والعليقة ممــا يدل على أن الامبراطور اعترف ا[illegible] أنطرطوس

بتجديد هــذا القسم • أما برتران الأول الذى وصل بادىء ذى بدء الى القسطنطينية ، بعد أن نهب رجاله بعض الأراضى التابعة للبيزنطيين ، فانه لم يقسم له يمين الولاء فى ســنة ١١٠٩ على حد ما ذكره البير ديكس ، ولكن آنا كومنين ابنة اليكسيوس حددت تاريخ قسم يمين الولاء فى عام ١١١٢ ، عندما قدم رسل بيزنطة يطلبون مساعدة برتران ضدطنكرى «٥٨»

وعلى الرغم من تأخر برتران فى قســمه يمين الولاء للامبراطور الى سنة ١١١٢م ، فانه كان قد تصرف قبل هذا التاريخ تصرفا يعبر عن ولائه للامبراطور ، وذلك عندما رفض اقتراح طنكرى الاشتراك معه فى مهاجمة المصيصة التابعة للبيزنطيين لحساب طنكرى ، كى يرد اليه طنكرى نصيبه من أملاك أبيه فى أنطاكية «٥٩» •

وبقــدر العداء القائم بين برتران وطنكرى ازداد تقرب برتران من الامبراطور البيزنطى الى حــد انه وعد فى سنة ١١١١ م بحمل بارونات الفرنجة على مخالفة الامبراطور أو على الأقل عــدم نصرتهم لطنكرى ، كما أكد لبوطوميتس ، مبعوث الامبراطور البيزنطى ، الذى نزل بطرابلس وسلم اليــه أموالا ضخمة بأنه سيحضر الى القسطنطينية ليقــدم ولاءه للامبراطور «٦٠» •

---

(٥٨) J. Richard, p. 28

(٥٩) Runciman, p. 66 - Claude Cahen, p. 245

(٦٠) J. Richard, p. 28

الا أن بونز الذى خلف أباه برتران على كونتيـة طرابلس ، والذى لم يكن يربطه بالامبراطور قسم بولاء أو تبعية ، لم يلبث أن امتنع عن رد الأموال التى كان قد أودعها بوطوميتس فى طرابلس ، ولكنهاضطر الى ردها واعلان ولائه للامبراطور بعد أن هـدده هذا الأخير بقطع الأقوات التى كان يبعثها الى الكونتية من قبرص «٦١» .

واستمرت طرابلس موالية للامبراطورية البيزنطية فى عهـد ريموند الثـانى الذى أقسم يمـين الولاء للامبراطور جـان كومينين فى سنـة ١١٣٧ «٦٢» ، وعلى الرغم من أن قيام الامبراطور برفض خطوبته لميلسند أخت ريموند كان سببا فى اغارة ريموند على سواحل قبرص «٦٣» ، فان ذلك لم يضع حـدا لاعتراف طرابلس بولائها للامبراطورية ، وتعـاون البيزنطيـون بقيـادة قسطنطين كولومان « الدوك » أى رئيس الروم ومقـدمهم «٦٤» مع ريموند الثالث صاحب طرابلس فى سنـة ١١٦٣ م فى انزال الهزيمة بجيش نور الدين فى البقيعة «٦٥» ، كذلك اشترك دوق

---

(٦١) Claude Cahen, p. 255 - J. Richard, p. 29

(٦٢) Claude Cahen, p. 360

(٦٣) Ibid, p. 406

(٦٤) هكذا ورد اسمه فى المصادر العربيـة ، وكان الدوك المذكور حاكما على اقليم قيليقيا

(٦٥) مرآة الزمان ، ص ١٥٠ — ابن العـديم ، ج ٢ ص ٣١٣ — الروضتين ج ١ ص ٣١٨ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ٥٦ — Cahen, p. 408 حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٢٨٨

قيليقيا مع بوهمنـــد الثالث وريموند الثالث كونت طرابلس فى مقاتلة جيش نور الدين فى حارم سنة ١١٦٤ ، وهى الموقعة التى انتصر فيها المسلمون ، ووقع فى أسرهم بوهمنـــد وريمـــوند ودوق قليقيـــا ، وتوروس ملك الأرمن «٦٦» .

وأخذ ولاء طرابلس للدولة البيزنطية يتخذ مظهرا شكليا ، خاصـــة بعد أن زار بوهمند الثالث القسطنطينيـــية فى ١١٦٥ م ، وعبر للامبراطور عن شكره على ما بذله من جهود فى سبيل اطلاقه من الأسر «٦٧» ، كمـــا طلب من الامبراطور أن يدفع عنه ما تبقى من فديته ، ثم عاد الى أنطاكية فى صحبة بطريرك بيزنطى «٦٨» ، وانتهى بذلك العداء بين أنطاكية والدولة البيزنطية فى الوقت الذى انتهى بين طرابلس وأنطاكية .

ب ـ علاقة الكونتية بمملكة بيت المقدس :

كانت تبعية كونتية طرابلس لمملكة بيت المقدس الصليبية عملية أكثر منهـــا نظرية ، فبينمـــا كانت تبعيتها للدولة البيزنطية مجرد ذكرى باهتة

---

(٦٦) الروضتين ج ١ ص ٣٣٩ ومايليها ـ أبو الفداء ج ٥ ص٥٧ ـ حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٨٩ ـ حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٩٤

(٦٧) J. Richard, p. 29 ـ حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون، ص ٩١

(٦٨) Claude Cahen, p. 412

لدعاوى ريموند دى سان جيل فى حكم الشام بتفويض من الامبراطور ، فان تبعيتها لمملكة بيت المقدس كانت نابعة حقا من حاجة طرابلس الى سند حربى يضمن لها تخفيف الضغط الذى كان يمارسه المسلمون عليها منــذ نشأتها «[٦٩]» . ولم تكن هذه العــلاقة فى أيام ريموند الصنجيلى ينظر اليها على أنها نوع من الولاء أو التبعية لمملكة بيت المقدس ، لأن ريموند الذى كان مرشحا للظفر بتاج مملكة بيت المقــدس كان لقوته وطموحه وحنكته السياسية أكثر من ند للملك جودفروى ، بحيث أنه لم يقبل قط يكون واقعا فى دائرة نفوذه «[٧٠]» . أما خلفاؤه من بعده فكانت تعوزهم هذه الصفات . وجاءت اللحظة التى وجد فيها ملك بيت المقدس فرصتــه للتدخل فى شؤون الكونتية ، وممارسة نوع من السيطرة عليها ابان النزاع الذى قام بين برتران المطالب الشرعى بالكونتية وبين وليم جوردان الذى خلف ريموند الصنجيلى فى القيام بشأنها . وبينما اعتمد وليم جوردان فى هــذا النزاع على مساعدة طنكرى المناهض لبرتران ، اضطر هذا الأخير الى الاستعانة ببلدوين الأول ليقف الى جانبــه ، ووعده فى مقابل ذلك بأن يدخل فى دائرة نفــوذه ، ويصبح مواليا له «[٧١]» . ولم يزهد كل من طنكرى وبلدوين فى التدخل ، اذ وجدا فى ذلك مجالا مهيئا للسيطرة على امارة طرابلس . ولكن بلدوين كان يطمع فى أكثر من ذلك ، فقــد كان يعمل على أن يتوسط بين الفريقين المتخاصمين حتى يسكن نفوذه على كل

---

(٦٩) J. Richard, p. 30

(٧٠) Ibid, p. 30

(٧١) Claude Cahen, p. 245

من امارتى أنطاكية وطرابلس فى آن واحـد ، بل وامارة الرها كذلك ، وهو أمر كان يتطلع الى تحقيقه . وفى مارس سنـة ١١٠٩ أمر بلدوين وليم چوردان وطنكرى بالحضور الى تلة الحجاج ، هذه الخطوة الجريئة من جانبه آكدت تفوق مملكة بيت المقدس على الامارات الصليبية الأخرى ، وتمكن الملك بفضل نفوذه الشخصى من تسوية المسائل المتعلقة بطرابلس والرها ، وقبـل الطرفان المتنازعان : وليم چـوردان وبرتران ، تقسيم الكونتية الى قسمين : قسم يشتمل على أنطرطوس وعرقة يكون من نصيب وليم چوردان الذى أعلن ولاءه لطنكرى ، وقسم يضم جبيل وتلة الحجاج تجاه طرابلس ، وطرابلس المحاصرة نفسها ، يكون من نصيب برتران الذى أقسم يمين الولاء والتبعية لبلدوين ، بعد أن تلقى منه تقليدا بامارتها «(٧٢)» . ولكن وفاة وليم چوردان المبكرة قضت على هـذا الحل الذى وضعه بلدوين ، فقد أسرع طنكرى بضم شمال الكونتية اليه ، وفى الوقت نفسه لم يتوان برتران عن ضم قسم من تركة وليم چوردان ، فبادر بالاستيلاء على عرقة ، وأصبحت كونتية طرابلس بحدودها التى وصلت اليـها فيمـا بين عامى ١١٠٩ ، ١١١٢ م تتبع مملكة بيت المقـدس تبعية اسمية ، باستثناء رابطة الولاء النظرى للامبراطورية البيزنطية . هذه التبعية الاسمية لمملكة بيت المقدس كانت تقوم أساسا على مصلحة كونت طرابلس فى الاعتماد على سند قوى يكفل له مواجهة أطماع طنكرى ، وعلى هذا النحو نجد برتران يشترك مع قوات الملك بلدوين ، شأنه فى ذلك شأن أى بارون تابع لمملكة

---

(٧٢) Claude Cahen, p. 246 - J. Richard, p. 31 - Stevnson, p. 51

بيت المقدس ، فى حصار بيروت «٧٣» سنــة ٥٠٣ ، ونجده يشترك أيضا مع قوات الملك وقوات أنطاكية فى الحملة الصليبية التى سيرها ملك بيت المقدس لانقاذ الرها من هجوم عسكر التركمان والسلاجقة فى ١٢ شوال سنة ٥٠٣ (١١١٠ م) «٧٤» • ويذكر ابن القلانسى أن بلدوين كتب الى برتران فى سنة ٥٠٤ هـ (١١١ م) يطلب منــه الوصول اليــه فى عسكره ليجتمع معه فى طبرية «٧٥» • وفى سـنة ٥٠٥ هـ اجتمع برتران وطنكرى وبلدوين يدا واحدة على المسلمين فى شيزر «٧٦» •

وظلت تبعية كونتية طرابلس لمملكة بيت المقدس قائمة عمليا فى عهد برتران حتى وفاته ، وذلك بسبب استمرار العـداء بينه وبين طنكرى ، ولكنها بدأت تتزعزع فى عهــد بونز ، لأنه أصبح مرتبطا بأمير أنطاكيــة برابطة الود والموادعة ، ولم يعــد فى حاجة الى سند ملكى «٧٧» لتدعيم نفوذه ، وأصبح اشتراك كونتية طرابلس فى الحملات الملكية يتم فى فتور، لأن الكونت بونز أصبح يؤديه كنوع من الواجب البغيض ؛ ففى ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) و٥١٣ (١١١٩ م) أرسل بونز عسكره للدفاع عن أنطاكية ،

---

(٧٣) ابن القلانسى ، ص ١٦٧ — Runciman, vol. II, p. 92

(٧٤) ابن القلانسى ، ص ١٦٩ — Claude Cahen, p. 255

(٧٥) نفس المصدر ص ١٧٤

(٧٦) نفس المصدر ، ص ١٧٧

(٧٧) J. Richard, p. 32

تجرأ فى سنة ١١٢٢ على خلع ولائه لبلدوين الثـانى ، ولكن مجلس بلاطه الأعلى أرغمه على الخضوع له «٧٨» . وفى ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) خرج بونز ، استجابة لطلب فرسان مملكة بيت المقدس ، للاشتراك فى حصـار صور «٧٩» . وحدث فى سنة ١١٣١ أن اتفق جوسلين الثانى صاحب الرها ، وبونز صاحب طرابلس ووليم صاحب حصن صهيون من حصون أنطاكية على حماية الأميرة آليس ، أرملة بوهمند التى كانت تحكم أنطاكية باسم ابنتها كونستانس ، من فولك ملك بيت المقدس ، ولكن بارونات أنطاكية كتبوا الى فولك يستقدمونه ، فأسرع فولك بالسير ، ولكن بونز رفض السماح له بالمرور فى أراضى كونتية طرابلس «٨٠» ، فلم يحاول فولك أن يمر بالقوة ، وآثر الركوب بحرا ، واشتبك مع بونز فى معركة بالقرب من حصن ابن أحمر ، وفيهـا سلك بونز مسلك بارون أنطاكى أكثر من كونه قومصا لطرابلس ، بينما تصرف فولك كوصى على امارة أنطاكية . وانتهى الأمر بهزيمة بونز ووليم الصهيونى ، وأرغمهما فولك على عقد الصلح ؛ ولكنه لم يوقع عليهما أى عقوبة «٨١» . ومع ذلك كله فقد استنجد بونز فى العام التالى ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) بفولك عنـدما أغار التركمان على معاقله بطرابلس وهزموه بالقرب من بعرين ، فلبى الملك نداءه «٨٢» .

---

(٧٨) Runciman, vol. II, p. 305 - Ibid. p. 32

(٧٩) Ibid p, 34

(٨٠) Runciman p. 350

(٨١) Claude Cahen p. 350 - J. Richard p. 32

(٨٢) ابن القلانسى ، ص ٢٤٠

واذا بحثنا فى مدى تبعية طرابلس فى ظل امارة أسرة طولوشة لمملكة بيت المقدس ، وجدنا أنها تبعية اسمية وعملية فى نفس الوقت ، فالكونت كان قرينا للملك وندا له على الرغم من تصرفه تصرف التابع للسيد ، واذا كان الملك يقوم أحيانا بدور الكافل للكونتية فى حالة موت أحد القمامصة أو وقوعه فى أسر المسلمين ، كما حدث عندما قتل ريموند الثانى فى سنة ١١٥٢ م ، وكما حدث عندما وقع ريموند الثالث فى أسر نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ١١٦٣ ، فهل كان يفعل ذلك بدافع من واجبه كملك صليبى ، له حق الاشراف على جميع أمراء الفرنجة ، أو كصاحب اقطاع يهيمن على اقطاعاته ؟ والواقع أن كفالة الملك لكونتية طرابلس لا يمكن تفسيرها على أنها علاقات اقطاعية بين بيت المقدس وطرابلس ، فلم يكن بلدوين الأول على حد قول الأستاذ چان ريشارد « يمارس هذه الكفالة فى الوقت الذى كان بونز قاصرا . واذا كان عمورى الأول قد تصرف ككافل للكونتية فى فترة وقوع ريموند الثالث أسيرا فى أيدى المسلمين فانما فعل ذلك بلا شك لأن ريموند الثانى كان متزوجا من هوديرنا ابنة الملك بلدوين الثانى ، وعلى هذا النحو توثقت الروابط الأسرية التى جعلت الملك أقرب الأقربين الى الكونت ، والتى دعت الملكة ميلسند تتدخل فى صالح هوديرنا فى سنة ١١٥٢ . ونفس هذا السبب (ونعنى به توثق الروابط الأسرية) هو الذى يفسر لنا ممارسة ريموند الثالث للوصاية على مملكة بيت المقدس مرتين فى عهد بلدوين الرابع وبلدوين الخامس . هذه العلاقات الأسرية هى التى لعبت دورها فى المساعدة

الحربية التى كان يقدمها الملك للكونت ، وكما يذكر وليم الصورى رضى المللك فولك بفضل توسلات أخته (زوجة بونز) أن ينجد بونز المحاصر فى بعرين • وبالاضافة الى عامل الصلات الأسرية يمكننا أن نضيف عامل التضامن المسيحى بين الصليبيين ، وهـو عامل كان يدفع الملك الى اغاثة أمراء الفرنجة » «(٨٣)» •

وعلى هـذا النحو يمكن اعتبار تبعية طرابلس لمملكة بيت المقدس تبعية فعلية ولكنها محـدودة ، وهى فى نفس الوقت تبعية رمزية تعبر عن وحدة الصليبيين وتضامنهم تحت رئاسة الملك • وعلى هذا الأساس كانت كونتية طرابلس امارة شبـه مستقلة باستثـناء ولاء شكلى كان يحقق التضامن والتكافل بين الفرنجة «(٨٤)» •

ج ـ علاقة الكونتية بامارة انطاكية :

لم تكن العلاقات الأولى بين أسرة سان جيل وبين بوهمند وطنكرى علاقات ودية ، فان ريموند الصنجيلى وبوهمنـد لم يكفا عن التنـازع والاختلاف منذ أن عبر بوهمند عن مطامعه فى أنطاكية ، وأدى ذلك بطبيعة الحال الى تحول ريموند الذى كان يتزعم الحزب المعارض لاليكسيوس الى حليف له يناصره على بوهمند ، خصمهما المشترك • فأقام فى اللاذقية

---

(٨٣) J. Richard p. 33 - 34

(٨٤) Ibid p. 37 - 38

كممثل لأليكسيوس ، وسلم اليه اللاذقية وبلنياس ومرقية • ولا شك أن هذا التصرف من جانب ريموند كان يشكل تهديدا خطيرا لامارة أنطاكية التى حرمت من اللاذقية ، مينائهـا الأعظم ، وانقطع اتصالها بحرا الا عن طريق السويدية ، وهى ميناء صغيرة لا تصلح لأن تكون مرفئا لهذه الامارة• ثم ازداد النزاع حدة عندما حاول بوهمند بمعاونة البيازنة انتزاع اللاذقية من حـوزة البيزنطيين «٨٥» • واذا كان الأسقف دايمبرت قـد نجح فى التوفيق بين بوهمند وريموند ، الا أن بقاء ريموند فى اللاذقيـة ظل عبئا ثقيلا على كاهل بوهمنـد ، الذى وجد نفسه فى يناير سنة ١١٠٠ محروما من الأقوات «٨٦» ولم يهدأ النزاع النرمانى البروفنسى فى الفترة التى رحل فيهـا ريموند الى القسطنطينية ، ووقع خـلالها بوهمند أسيرا فى أيدى المسلمين (١١٠٠ ــ ١١٠٢) ، فقـد قام طنكرى الذى خلف بوهمند فى امارة أنطاكية بعـد وقوعه فى الأسر ، بالاستيـلاء على اللاذقية فى شتاء سنة ١١٠٢ ــ ١١٠٣ ، وذلك بفضل معونة الجنوية «٨٧» •

ثم انتهى النـزاع النرمانى البروفنسى بعـد عـودة ريمـوند من القسطنطينية ، فعند نزوله فى السويدية وقع فى قبضة طنكرى ، الذى أمر بحبسه فى قصر سيليسيا ، ولم يفرج عنه الا بعـد أن أقسم ريموند يمينا

---

(٨٥) Cahen, op. cit. p. 223

جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ٢٢١

(٨٦) J. Richard, p. 38 , 39

(٨٧) Cahen, p. 233

بعدم القيام بأى معامرة فى شمال الشام . ومنذ ذلك الحين توقف ريموند عن التدخل فى شئون أنطاكية «٨٨» . .

ولكن النزاع بين طنكرى وآل صنجيل لم يلبث أن تجدد بعد وصول برتران بن ريموند الصنجيلى الى الشام ، ونزوله فى السويدية فى عسكر من البيزنطيين ، ومطالبته بنصيب أبيه فى أنطاكية . وأبدى طنكرى استعداده لرد أملاك أبيه اليه ، ولكنه اشترط عليه فى مقابل ذلك أن يساعده فى انتزاع المصيصة من الدولة البيزنطية . وكان من الطبيعى أن يرفض برتران بحكم العهد الذى قطعه على نفسه نحو الامبراطور ، وعندئذ لم يجد طنكرى بدا من طرده من انطاكية . ثم اشتد النزاع بين الطرفين عندما أيد طنكرى وليم چوردان فى مشكلة مطالبة برتران بحقوقه فى امارة طرابلس ، وتدخل بلدوين ملك بيت المقدس لصالح برتران ، ثم سويت المشكلة تسوية وقتية عندما ارتضى الطرفان تحكيم بلدوين الذى قضى بأن تكون عرقة وأنطرطوس لوليم چوردان . وما كاد وليم چوردان يموت حتى بادر برتران بضم عرقة ، فى حين قنع طنكرى بالاستيلاء على أنطرطوس التى أقطعها لوليم دى برشيه «٨٩» . ولم يمنع العداء القائم بينهما برتران من أن ينضم الى حشود الملك بلدوين وطنكرى ، والتعاهد

---

(٨٨) J. Richard, p. 39

(٨٩) Claude Cahen, p. 246 - J Richard, p 39

والتعاقد على الثبات أمام الرها فى ذى القعدة سنة ٥٠٣ «[٩٠]» ، والوقوف وقفة واحدة فى سنة ٥٠٤ فى شيزر أمام المسلمين «[٩١]» .

وهكذا قضى هــذا التعاون المشترك والتضامن بين قوى الصليبيين على « التباين والمنافرة والخلف » القائمة بينهم ، وكان ذلك مقدمة طيبة لزواله نهائيا فى بداية عهــد بونز . ويعبر ابن القلانسى عن ذلك بقوله : « وفى الثانى من شعبان (سنة ٥٠٥ هـ) ورد الخبر بهلاك بدران بن صنجيل (يقصد برتران) صاحب طرابلس بعلة لحقته ، وأقام ابنــه فى الأمر من بعده وهو طفل صغــير كفله أصحابه ، ودبروا أمره مع طنكرى صاحب أنطاكية ، وجعلوه من خيله (أى فرسانه) ، وأقطعــه أنطرطوس وصافيثا ومرقية وحصن الاكراد » «[٩٢]» . ويبدو أن طنكرى اتفق مع الأوصيــاء على بونز على أن يقطعه المدن المــذكورة فى النص السابق ، أى المنطقة التى كان قد احتلها طنكرى بعد وفاة وليم چوردان بالاضافة الى ما فتحه فى جــوف أنطرطوس ، فى مقــابل أن يخرج بونز من الحلف البيزنطى . وليس أدل على ذلك من الاشارة الى العداء الذى أبداه بونز لبوطوميتس البيزنطى

---

(٩٠) ابن القلانسى ، ص ١٦٩

(٩١) نفس المصدر ، ص ١٧٧

(٩٢) نفس المصدر ، ص ١٨١

(٩٣) Claude Cahen, p. 256 - Jean Richard, p. 40

نتيجة لهــذه الاتفاقية «٩٣» ، وسجل طنكرى صلة الود والصداقة القائمة بينه وبين بونز عنــدما خطب وهــو على فراش الموت زوجتــه الشابة سيسيل لبونز «٩٤» ، وقدمت سيسيــل بائنتها الى بونز ممثلة فى حصن ابن أحمر وأردكان وجبلة • وظل حصن الاكراد اقطاعا يتــولاه بونز من امارة أنطاكيــة حتى اللحظــة التى تسلمه الاسبــتارية بموافقة ريموند والاميرة كنستانس فى سنة ١١٤٥ م •

وهكذا ارتبطت كونتية طرابلس بامارة أنطاكية ارتباطا وثيقا ظهرت آثاره فى سنــة ١١٦٣ عنــدما اشترك ريموند الثالث مع أمير أنطاكية فى محاربة المسلمين فى حارم ، وفى مساندة بوهمنــد الثالث فيما بين ١١٨٢ و١١٨٦ لسياسة ريموند الثالث فى مملكة بيت المقــدس ، وفى اختيــار ريموند الثالث الابن الاصغر لبوهمند الثالث ليخلفه على كونتية طرابلس بعد وفاته ، وهو بوهمند الرابع الذى سيسعى الى توحيد أنطاكية وطرابلس فى ظل امارته «٩٥» •

---

(٩٤) Cahen, p. 256

(٩٥) J. Richard, p. 42

(٥)

نظم الحكم والحضارة فى كونتية طرابلس الصليبية

١ ـ الكونت وسلطاته :

كان ريموند الصنجيلى يدين بالولاء فى بادىء الأمر للامبراطورية البيزنطية ، وكانت سلطته تكمن فى فتوحه التى تعتمد فى شرعيتها على تغلبه على الأراضى التى كانت تتبع فيما مضى دوقية أنطاكية البيزنطية ، ولذلك السبب لم تكن كونتية طرابلس فى بداية تكوينها دولة مستقلة من الوجهة القانونية ، وكانت الفتوح تعتمد فى شرعيتها أيضا على موافقة الكنيسة ، ومع ذلك فليس هناك ما يجعلنا نؤكد وجود نوع من الاشراف الأعلى كانت تمارسه الكنيسة على الكونتية ، فان أسقفيات طرابلس لم تكن تؤلف كنيسة قائمة بذاتها ، فلم تكن احدى هذه الأسقفيات تتمتع بنفوذ بطريركى . ولقد حاول بطاركة بيت المقدس اخضاع أساقفة طرابلس وأنطرطوس وجبيل لهم ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل على الرغم من تعضيد البابوية «(١)» . وعلى هذا النحو كان ريموند الصنجيلى سيدا على الأراضى التى افتتحها عن طريق شرعية الفتح فحسب ، ولكن الحق الذى كان قد أقره البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمون لم يلبث أن حل محله حق الوراثة ، فان وليم جوردان ورث ريمون الصنجيلى على كونتية طرابلس ، فلما طالبه برتران بارث أبيه رفض وليم جوردان التخلى عن

---

(١) Runciman, p. 311

حقه فى ولايتها مستندا على حق الفتح : فهـو الذى افتتح عرقة ، وهو الذى حمى فتوحات ريموند من مطامع طنكرى ، ودافع عنها ضد غارات المسلمين «٢» . على أن نجاح برتران فى تحقيق مطالبه واستيلائه على كونتية طرابلس المستقبلة كان من أثره تحويل الاستخلاف بالوراثة الى أعقـابه بصفة نهائية ، فلما حاول الفونس جوردان بن ريموند دى سان جيل أن يفيد من هذا المبدأ لصالح ابنه برتران الثانى بحـكم أنه (أى الفونس) هو الابن الشرعى لريموند الصنجيلى ، وباعتبار أنه ولد فى تلة الحجاج ، توفى مسموما ، وفشلت محاولة برتران الثانى الاستيلاء على الكونتية ، وانتهى أمره بوقوعه فى أسر نور الدين «٣» .

وكان نظام الاستخلاف فى كونتيـة طرابلس ، بعد أن اتخذ صفـة الوراثة ، يقضى بأن يتولى الامارة الابن الأكبر دون غيره من اخوته ، على النحو السائد فى نظم الاقطاع فى العصور الوسطى «٤» . أما الفتيات فلم يكن لهن نصيب فى تولية الامارة .

أما من حيث ألقاب القمامصة (الكونتات) فقد كانت تتبع منذ عهد

---

(٢) J. Richard, p. 45

(٣) راجع ما ذكرناه فى هـذا الشأن تحت عنـوان ريموند الثانى ، وارجع الى ابن القـلانسى ، ص ٣٠٠ ــ أبو شـامة ، الروضتين ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٤) سعيد عاشـور ، أوربا فى العصـور الوسـطى ، ج ٢ (النظم والحضارة) القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٩

عهـد بونز نظاما يماثل نظام الألقاب فى الاقطاعات الـكبرى فى الغرب ، لاسيما فى كونتية طولوشة ، فمنذ أن خلف بونز أباه على كونتية طرابلس أصبح القمامصة يحملون لقب « قومص طرابلس بعون الله » ، أما ريموند فلم يكن يحمل من اللقب سوى « رئيس الجيش المسيحى فى الشام » وهو لقب ورثه وليم جوردان من بعده ، بحكم أن طرابلس ، قاعدة الكونتية ، لم تكن قد افتتحت بعد «(٥)» •

ونظام الكفالة أو الوصـاية كان يحـدث عنـدما يتوفى القومص (الكونت) قبل أن يبلغ وريثه سن الفروسية ، وكان الكافل للكونتيـة يمارس جميع امتيازات الكونت ، فهو يقوم مقامه فى شؤون الكونتية فى الفترة التى يكون فيهـا الكونت قاصرا ؛ وتنتهى فترة الكفالة بمجرد أن يخلع على القاصر لقب فارس • ويشترط فى الكافل للكونتيـة أن يكون أقرب أقرباء الكونت القاصر ، ونلاحظ أن الـكافل الوحيد الذى اختير لكونتية طرابلس خـلال فترة أسر ريموند هو عمورى الأول ملك بيت المقدس ، خلال الفترة التى كان فيها ريموند الثالث أسيرا فى أيدى المسلمين• أما فى الأحوال الاخرى التى يتولى فيها الكونتية أطفال قصر ، مثل حالة بونز وريموند الثانى ، فلم يكن الملك هو الذى يتولى الكفالة ، ففى حالة بونز تولى كفالته مجلس للوصاية يتألف من عدد من كبار رجال الكونتية ، وفى ذلك يذكر ابن القلانسى أنه لما توفى برتران ، « وأقام ابنه فى الأمر من

---

(٥) J. Richard, p. 47

بعده وهو طفل صغــير ، كفله أصحابه ودبروا أمره مع طنكرى صاحب أنطاكية وجعلوه من خيله » «(٦)» • أما فى حالة ريموند الثانى ، فلم يصبح فولك ملك بيت المقدس هو الكفيل Magister Comitis فى سنة ١١٣٩ ، وانما اختير رجــل من مقــدمى عســكر طرابلس يعرف باسم البيرتوس Albertus «(٧)» • ولقــد حظى كونت ريموند الثالث بمنصب الكافل لملــكة بيت المقدس ، فكان حاجبا للملك بلدوين الرابع وصاحب الأمر عوضه ، وكانت ترتفع الجباياتاليه « وكان هو المشرف علىالجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن فى الافرنجية اللعينة » «(٨)» •

ب ــ مقدمو الكونتية :

كان النظام الاقطاعى فى الغرب يتميز بوجود عــدد من الشخصيات الهامة أو من المقدمين فى الكونتية فى بلاط الكونت ، أهمهم على الاطلاق الحاجب العسكرى (Senechal) ، ويقوم بوظيفة رئيس الوزراء فى الوقت الحاضر • ولكن الأمر فى الامارات اللاتينية بالشرق يختلف بعض الشىء ، بسبب الصراع القــائم بين الصليبيين والمسلمين ، فكان حجاب طرابلس العسكريين شخصيات عادية غير لامعة ، تذكر أســماؤهم فى نهاية قوائم الشهود ، ولا نعرف اذا ما كان يحق لهم الاشراف على الادارة الماليــة ، كما كان الشأن فى مملكة بيت المقدس ، فليست لدينا وثيقة ما تؤكد ذلك•

---

(٦) ابن القلانسى ، ص ١٨١

(٧) J. Richard, p. 47, 48

(٨) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ص ٣٠٩

والى جانب الحجاب العسكريين كان يوجد فى كونتية طرابلس المقدمون المدنيون Chambriers الذين يدخل فى اختصاصهم حماية الخزانة المالية . وقد وصلت الينا أسماء ثلاثة فقط من هؤلاء المقدمين المدنيين هم : جوتييه المرقبى (ورد ذكره فى أحداث سنة ١١٣٧) ورينو (فى سنة ١١٣٩) وألبير (فى سنة ١١٤٣ م) «٩» .

وأهم مناصب مقدمى الكونتية منصب المقدم العسكرى الأول Le Connetable المعروف فى المصادر العربية باسم «المقدم كنداصطبل» «١٠» وكان يتولى قيادة الجيش فى أثناء غياب الكونت أو فى حالة مرضه ، ويليه المارشال أو المارشان «١١» Marchal ، وهو مساعد المقدم العسكرى .

ومن المناصب المعروفة فى الكونتية منصب كنسى يعرف صاحبه باسم الرئيس الأعلى للقضاء Le Chancellier ، ولعله كان يتولى حمل خاتم الكونت ، وكتابة القوانين التشريعية ، ولا نعرف من وظائف البلاط غير وظيفة « القيمة على غرفة كونتيسة طرابلس » وهى وظيفة تقابل

---

(٩) J. Richard, p. 48

(١٠) ابن القلانسى ، ص ١٩٧

(١١) هكذا ورد ذكره فى المصدرين الآتيين : محيى الدين عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ ص ٣٥ — تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٦٢

القهرمانة فى تصور الخلفاء والسلاطين ؛ ومنها وظيفة « قس الكونتيسة » «[١٢]» •

ولقد وردت فى مجموعة النظم القضائية ببيت المقدس نصوص تدل على أن نظام الحسبة الاسلامى استخدم فى مملكة بيت المقدس ، وكان صاحب الحسبة يسمى بنفس اسمه العربى (Mathessep) * ، وليس من المستبعد أن يكون هذا النظام قد طبق فى الامارات الصليبية الاخرى ومن بينها طرابلس •

ج ـ النظام الحربى :

لم تكن عدة جيش الكونتية الذى يتولى قيادته سواء الكونت أو الكافل للكونتية أو المقدم كنداصطبل أو مساعده المارشان تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل من الرجالة والخيالة معا • أما الخيالة (الفرسان) فكانوا أقلية الجيش لأنهم صفوته وأهم عناصره الضاربة ، فلم يكن لدى ريموند الصنجيلى فى معركة أنطرطوس فى سنة ١١٠٢ م سوى ثلاثمائة من الخيالة ، واذا كان قد تضاعف عدد الرجالة (المشاة) فى جيش طرابلس بعد ذلك ، فقد ظل عدد الخيالة فيه محدودا • ففى سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م)

---

(١٢) J.Richard, p. 51,52

(*) الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق الاستاذالسيد الباز العرينى ، ص ١٢٥ ملحق ٣ القاهرة ١٩٤٦ — زكى النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ، بيروت، ١٩٥٨ ، ص ١٥٧

حشد بونز من ما استطاع حشده من عسكره لاغاثة أمير أنطاكيه ، فبلغ عدد خيالته مائتى خيال (فارس) وعدد رجالته ألفين ، ولكن ظهير الدين أتابك وسيف الدين البرسقى ترصدا لهذا الجيش فى البقاع ، واشتبك المسلمون مع الفرنجة فى موقعة دامية انهزم فيها الصليبيون هزيمة نكراء ، وقتل فيها كماتهم ، ولم ينج من هذا الجيش على حد قول ابن القلانسى سوى «مقدمهم بدران بن صنجيل والمقدم كنداصطبل ونفر يسيرة معهما» ، ثم أشار الى أن « المفقود والمقتول من الافرنج الخيالة والسرجندية الرجالة والنصارى الخيالة والرجالة فى هذه الوقعة بما يزيد على ثلاثة آلاف نفس » «١٣» • وينبغى أن ندخل فى هذا العدد عسكر نصارى لبنان المرتزقة الذين ينعتهم ابن القلانسى « بالنصارى الخيالة والرجالة » ، ونعنى بهم مقاتلى الموارنة أو عناصر مسيحية أخرى كاليعاقبة والنساطرة • أما الموارنة فكانوا أعظم أعوان الفرنجة ، وكان الكونت يجمعهم من أعماله «١٤» ، وكان معظم قتالهم يعتمد على الرمى على القوس الثقيل بالنشاب الخارق «١٥» •

على أن جيش الكونتية قد يتضخم فى بعض الأحيان نتيجة لوصول امدادات تصل فى صحبة أمير وافد ، مثل العسكر الذى قدم فى صحبة برتران ، أو نتيجة لوصول حملة صليبية جديدة ، مثل عسكر البروفنسيين

---

(١٣) ابن القلانسى ، ص ١٩٨

(١٤) نفس المصدر ، ص ١٩٧

(١٥) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤ — Lammens, op cit. p. 255

الذين صحبوا الفونس جوردان وابنه برتران الثانى • ولكن هذه الامدادات لم تكن تصل بانتظام ولذلك لم يكن يعول عليها كثيرا •

والى جانب هذا الجيش المقاتل ، كانت توجد فى الحصون والقلاع المتوزعة فى أنحاء الكونتية حاميات ، يرأسها نظار أو مستحفظة ، نخص بالذكر منهم ريديلوس Reidellus مستحفظ حصن صنجيل (فى سنة ١١٦٣) •

أما فيما يختص بالبحرية فقد نشأت فى كونتية طرابلس عندما أصبح وجود أسطول خاص بالكونتية أمرا ضروريا للدفاع عن سواحلها ضد غارات الأساطيل المصرية «١٦» • والواقع أن كونتية طرابلس كانت تعتمد فى نقل أقواتها على السفن البيزنطية التى كانت تتردد ما بين قبرص وسواحل طرابلس لامدادها بالميرة والامدادات ، أو على الأساطيل الجنوية والبندقية التى طالما ساعدت الصليبيين فى فتح مدن الساحل أثناء الحرب الصليبية الأولى • فالفضل الأعظم فى سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين يرجع الى جهود الأسطول الجنوى الذى استقدمه برتران معه عند وصوله

---

(١٦) كثيرا ماكان الاسطول المصرى فى العصر الفاطمى يهاجم السواحل الشامية التابعة لكونتية طرابلس ومملكة بيت المقدس الصليبيتين ، ومن أمثلة الغارات البحرية التى كان يوجهها أسطول مصر على سواحل الكونتية الهجوم البحرى الذى شنه الاسطول المذكور على ساحل طرابلس وبيروت وصيدا وعكا فى سنة ٥٤٦ هـ (راجع : ابن القلانسى ص ٣١٥ — أبو شامة ، ج ١ ص ٢٠٢)

الى الشام . وقنع قمامصـــة طرابلس فى بداية الأمر بمســاعدة الأساطيل الايطالية ولم يفكروا فى بناء أسطول محلى ، ولكنهم سرعان ما تنتبــهوا الى الأهمية الكبرى والفائدة العظمى التى يجنونها من وراء ذلك على أثر غارة الأسطول المصرى فى ســنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) على ساحل طرابلس وأنطرطوس وما تبع ذلك من نهب هذين الثغرين ، فعمد قومص طرابلس منذ ذلك الحين الى تعهد البحرية بالرعاية ؛ ففى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) أمر بوهمنــد الرابع بشحن سفنــه العشرة وتسليحــها لانقــاذ مدينــة صور «١٧» .

د ـ النظــام المالى :

كان لكل امارة صليبية عملتها الفضية الخاصة ، للتعامل الداخلى ، ولكنهــا اضطرت الى اتخاذ نوع من العملات الذهبية للتعامل الخارجى تعرف بالبيزنت «١٨» . وكان قمامصــة طرابلس منذ عهد برتران يسكون عملة فضية «١٩» على نفس أسلوب العملات التى كان يسكها القومص فى طولوشة قبل أن يأتى الى المشرق ، مع تغيير طفيف : ففى وجه العملة نقشت صورة صليب ، وعلى ظهــرها نقش : « مدينــة طرابلس » Tripolis Civitas .

---

(١٧) J. Richard, p. 54

(١٨) Lammens, La Syrie, p. 252

(١٩) كانت تسمى فى المصادر العربية بالقراطيس (راجع الشيزرى ؛ نهاية الرتبة ، ص ٧٥)

أما ريمـوند الثانى فقد سـك عمـلات فضية مماثلة مع اضـافة عبارة Monata Tripolis على الوجـه ، بينـما امتـلأ الصليب المنقـوش على ظهر العملة بدوائر وخواتم صغيرة متصلة . وكانت عملات ريموند الثالث الفضية تتخذ الطابع الطولوشى الذى يحمل نقشا يمثل الشمس والهلال ، وهو طابع ظهر فى طولوشة فى سنة ١١٤٨ ، ويعرف بالطابع الريموندى «٢٠»

أما العملات الذهبيـة التى كانت تضرب فى الكونتية فهى البيزنت Besant Tripolaz الذى كان تقليـدا للدنانير الاسلاميـة ، والى جانب البيزنت كان الدينار الصورى ، وهو دينار اسلامى ، يستخدم للتداول بين المسلمين والصليبيين . وكان قمامصة طرابلس يعهدون بادارة دار السكة أو الضرب بطرابلس الى شخص مسؤول عنها يعرف بصاحب السـكة ؛ وأهم أصـحاب السـكة فى طرابلس الذين تردد ورود ذكرهم فى الوثائق شخصية حنا صاحب السكة Johannes de Moneta

أما الموارد الخاصة بالكونت فمنـها ما كان يتحصله عن أراضى أو منشآت معينـة مثل الضريبـة التى كان يفرضهـا على ماشية الوطنيين الذين يرعون فى القرى المجاورة لتلة الحجاج ، والرسـوم التى يتحصلها من التجار فى ميدان سوق طرابلس المعروف باسم Placearius Montis Peregrini ، وفى معرض البضائع بالميناء ، والمكوس التى يفرضها على

(٢٠) J. Richard. p. 55

راجع فى هذا الصدد : Schlumberger (Gustave); Numismatique de L'Orient Latin. Paris, 1878

فرن دير الضريح المقدس بتلة الحجاج ، والرسوم التى يتحصلها على المبيعات والمشتريات ، والرسوم الجمركية عند جسر تلة الحجاج ، وعلى حدود امارة أنطاكيـة ، وعلى طريق وادى آمريت الواقع بين أنطرطوس وحصن الأكراد .

ومن موارد الكونتيـة أيضا الغنائم التى يظفر بهـا الفرنجة نتيجة الغزو فى أراضى المسلمين ، أو عقب الانتصارات التى يحرزها عليهم كونت طرابلس ، كما حدث فى البقيعة أو بالقرب من حصن الأكمة فى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) عندما أرسل ريموند الصنجيلى ثلثمائة من خيالته لنجـدة من بالأكمة ، أرغموا المسلمين على الانسحاب عنـها ، وغنم الصليبيون « من الخيل والكراع غنيمة كبيرة » «٢١» ، وكما حدث عنـد سقوط طرابلس « فحصل فى أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها وما كان منهـا فى خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصر فيذكر » «٢٢» .

وكانت الغنائم توزع وفقا للاتفاقيـة التى عقدت فى سنة ١١٤٢ مع الاسبتارية على النحو الآتى : يخصص للـكونت قسم من الغنائم يعرف « بنصيب اللواء » ، أما باقى الغنائم فيوزع على من اشترك من الجيش فى القتال . وكان الكونت فى بادىء الأمر يهب نصفه نصيب اللواء لنظام فرسان الاسبتارية عندما يساهمون فى حملاته ، ثم حدث بعدذلك أن أصبح

---

(٢١) ابن القلانسى ، ص ١٦٢

(٢٢) نفس المصدر ص ١٦٣

نصيب اللواء كله يمنح لهم «[٢٣]» . ولم يكن الكونت يقنع دائما بالغنائم والأسلاب التى يكسبها جيش الكونتية من غاراته على أراضى المسلمين جزية سنوية أو قدرا مما تغله هذه الأراضى نظير عدم اعتدائه على أراضيهم، كما حدث فى سنة ٥٠٣ هـ عندما هاجم برتران رفنية وتقررت الموادعة بينه وبين المسلمين « على أن يكون للافرنج الثلث من استغلال البقاع ، ويسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار ... وأن يكون حصن مصياف، وحصن الطوفان وحصن الأكراد داخلا فى شرط الموادعة ، ويحمل أهلها عنها مالا معينا فى كل سنة الى الافرنج » «[٢٤]» . وفى بعض الأحيان نشهد كونت طرابلس (ريموند الثالث) يعيث فى الأراضى البيزنطية « ليعوض ما أنفقه على جهاز أخته ميلسند ، وذلك بسبب قيام الامبراطور البيزنطى نفسخ خطوبتها » «[٢٥]» وتزوجه من الأميرة مارى الأنطاكية . ولا شك أن كونت طرابلس قد أثرى بسبب ما كان يجنيه من مكوس ، وما كان يؤول اليه من غنائم وجزيات ، ويكفى للتعبير عن عظم ثرائه الجهاز الفخم الذى أعده ريموند الثالث لميلسند ، وهو جهاز بلغ من التأنق والفخامة ما جعل وليم الصورى يتأثر بمظهره تأثرا عميقا «[٢٦]» . ولكن يبدو أن ثروة ريموند الثالث تأثرت تأثرا بالغا فى السنوات العشر التى قضاها أسيرا فى حلب ، بسبب الغارات المتواصلة التى كان يشنها جيش نور الدين محمود

---

(٢٣) J. Richard, p. 56

(٢٤) ابن القلانسى ، ص ١٦٥

(٢٥) Claude Cahen, p. 406

(٢٦) J. Richard, p. 57

على الكونتية ، والدمار الذى أصاب طرابلس بسبب زلزال سنة ١١٧٠ م، فلما أطلق صلاح الدين سراح ريموند من الأسر بعد أن اشترط عليه دفع فدية قدرها ثمانون ألف بيزنت من الذهب ، لم يستطع ريموند دفعها كلها . فدفعها عنه الاسبتارية . وظل بوهمند الرابع الذى خلف ريموند الثالث مدينا للاسبتارية بنحو ٣٧ ألف بيزنت كانت باقية من فدية ريموند الثالث. وهكذا كانت ثروة كونت طرابلس قابلة للتغيير ، فبينما كان قمامصة طرابلس الأولون على درجة كبيرة من الثراء ، بسبب ما كان لدى ريموند الصنجيلى من أموال طائلة وبفضل ما كان يغدقه عليه الامبراطور البيزنطى ، فان هذه الثروة أخذت تتضاءل تدريجيا نتيجة للخسائر الفادحة التى كانت تسببها غارات المسلمين على كونتية طرابلس ، مما أثر تأثيرا عميقا على مواردها المالية «٢٧» .

هـ ــ الكنيسة :

كانت كونتية طرابلس تضم أربعة مراكز أسقفية تتبعها تسعة مدن . وردت فى التشريعات باسم Civitates ، وهى : ١ ــ أسقفية أنطرطوس التى تتبعها مدينة أنطرطوس وجزيرة أرواد ، ومدينة مرقية ٢ ــ أسقفية طرابلس، وكانت تجمع معها سدة طرابلس والبترون ، وعرقة ، وأرطوسية. ٣ ــ أسقفية جبيل ٤ ــ أسقفية رفنية .

وتعتبر أسقفية أنطرطوس أول أسقفية أسست بالكونتية ، ومن أقدم

---

(٢٧) Richard, p. 57

أساقفتها الأسقف ريموند الذى ورد ذكره فى سنة ١١٢٧ ، وخلفه الأسقف وليم سنة ١١٤٢ ، ثم الأسقف بيير (١١٦٣ — ١١٦٩) • أما أسقفية جبيل فقد قامت بعد استيلاء اللاتين على هذه المدينة فى سنة ١١٠٤ ، كما وجد برفنية أسقف منذ أن افتتحت على يدى بونز فى سنة ١١٢٧ م •

وأول أساقفة طرابلس هو الأسقف البير دى سان أرارد ، من خاصة ريموند الصنجيلى ، وقد لقب بلقب أسقف قبل افتتاح مدينة طرابلس • ويبدو أن ريموند الصنجيلى اذ نصب ألبير رئيسا للأساقفة فى كونتيته المستقبلة ، كان يسعى الى انشاء كنيسة مستقلة ، ولكن خلفاءه قبلوا مبدأ الخضوع كنسيا لأنطاكية «٢٨» • ويرى الأستاذ چان ريشارد أن ريموند الصنجيلى كان يرغب فى تنصيبه مطراتا يتبعه الأساقفة الآخرون فى كونتية طرابلس المستقبلة ، ويستدل على ذلك بأنه رحل الى روما بقصد استحضار طيلسان المطرانية ، فانتهز فرصة وجوده بروما ، وحضر جلسات مجمع ماند ، الا أن البابا رفض التصديق على جعل طرابلس مركزا مطرانيا ، اكتفاء ببيت المقدس وأنطاكية ، وعلى هذ الأساس قنع الأسقف ألبير بلقبه «٢٩» • ولكن مسألة خضوع الأسقفيات الطرابلسية ظلت معلقة حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر •

وكانت أسقفيات طرابلس وفقا للتنظيم الكنسى القديم تخضع

---

(٢٨) Runciman, p. 311

(٢٩) J. Richard, p. 59

لأسقفية صور الرئيسية التابعة بدورها لبطريركية أنطاكية ، الى أن أصدر البابا أربان الثانى قراره فى سنة ١٠٩٥ ، الذى يقضى بأن يضم بطريرك بيت المقدس لسدته أسقفية صور الرئيسية والأسقفيات الأخرى التابعة لها . الا أن أسقفيات طرابلس وجبيل وأنطرطوس ورفنية لم تخضع لبطريركية بيت المقدس على الرغم من ميل البابوية لذلك . وانما خضعت لبطريركية أنطاكية ؛ وعلى الضد من ذلك ضمت أسقفيات بيروت وصيدا وعكا التابعة لصور الى بطريركية بيت المقدس . وكان أول بطاركة أنطاكية اللاتين ، البطريرك برنارد دى ڤالنس «٣٠» الذى حاول تخفيف حدة الخلاف بين ريموند الصنجيلى وطنكرى فى سنة ١١٠٢ ، وبين برتران وطنكرى فى سنة ١١٠٩ ، وهو الذى نظم كنيسة أنطاكية ، وطالب بمد نفوذ بطريركيتها الى الحدود التى كانت موجودة فى القوائم الأسقفية البيزنطية القديمة ، ومن بينها بطبيعة الحال أسقفيات طرابلس والرها وأنطاكية «٣١» . ولم يتم خضوع أسقفيات طرابلس لبطريركية أنطاكية تماما الا بعد أن اتحدت كونتية طرابلس سياسيا مع امارة أنطاكية «٣٢» .

ولم يكن التنظيم الداخلى لكنيسة طرابلس أو أنطاكية يختلف كثيرا عن نظيره فى الكنائس الغربية ، فقد كان لها مجمعها الكنسى الاقليمى الذى

---

(٣٠) Claude Cahen, p. 310

(٣١) Ibid, p. 314, 315

(٣٢) Ibid, p. 317

يضم ١٢ من رجال الكهنوت النظاميين ابان القرن ١٢ م ، ثم أصبح يضم عشرين رجـلا منهم فى القرن ١٣ ، كذلك كان لها قساوستها ، ورئيس القساوسة ، ومرتلها ، وحامل الأختام ، ومعلمها اللاهوتى ، ومتولى خزانتها ومشرعها «٣٣» ، وكانت للكنيسة أملاكها الخاصة بها فى كل اسقفية . أما موارد الأساقفة والقساوسة فكانت تعتمد على ضريبة العشور ، وهى ضريبة خاصة بهم يدفعها اللاتين عن المزارعين الذين يعملون فى أراضيهم ، باعتبار أن المونوفيزيت والأرمن كانوا يتبعون كنائس أخرى شرقية «٣٤» ، وكانت موارد الكنيسة تعتمد على بعض ايجارات أبنية وعلى أوقاف أديرة طرابلس أو أديرة بيت المقدس التى تملكها الكونتية «٣٥» .

ويغلب على الظن أن الكونت كان يحتفظ ببعض الحقوق على أراضى الكنيسة ، لأننا نراه يتدخل فى كثير من القرارات الأسقفية ، ومرجع ذلك فيما يظهر أن القمامصة كانوا يقطعون الأسقفيات بعض أملاكهم .

وعلى الرغم من أن كنيسة طرابلس لم تكن مهيأة للحياة الديرية بسبب الحروب التى كانت تخوضها الكونتية بدون انقطاع مع الدويلات الاسلامية المجاورة ، فقد وفـد المسترشيون الى الكونتية ، وشرعوا فى تأسيس

---

(٣٣) Richard, p. 61

(٣٤) كان يقيم بطرابلس أسقف يعقوبى وأسقف ملـكانى وآخر فى أنطرطوس . أما البطـريرك المارونى والأسـاقفة الخمسة عشر فكـانوا يقيمون فى منطقة أنفة والبترون وجبيل (Richard, p. 61)

(٣٥) Richard, p. 60, 61

الدير المعروف بدير بلمون فى سنــة ١١٥٧ م ، واستكملوا انشــاءه فى سنة ١١٦٩ • ويقع الدير المذكور فى جنوب شرقى مدينة طرابلس ، ومالبث هذا الدير الأم أن تفرعت عنه أديرة أخرى فى أنحاء الكونتية «(٣٦)» •

و ـ **منظمات الرهبان العسكريين** (أو جماعة الفرسانالاسبتارية و الداوية)

الاسبتارية جماعة من الفرسان الذين جمعــوا بين الفكرتين الدينية والعسكرية على النحو الذى عرفه المســلمون فى عصر الفتوحات بوجــه عام «(٣٧)» ، وترجع تسميتهم بهــذا الاسم الى دير أقامه تجار من أمالفى فى بيت المقــدس بجوار دير سان مارى اللاتينيــة فى عصر المستنصر بالله الفاطمى ، جنوبى باب الضريح المقدس ، وقد سكن هذا الدير جماعة من البندكتان الايطاليين ، وبجواره أقيم بيمارستان فى فترة تسبق الحمــلة الصليبية الأولى ، بقصد ايواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم • ولم تلبث هذه الجماعة أن تطوعوا بحماية الحجاج ، وأبدوا من الفروسـية

---

(٣٦) Ibid. p, 61

(٣٧) اشترك فى الفتوحات العربية أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين، وكان الفتح على هــذا النحو يرتبط بفكرة الجهاد • وكانت الســواحل الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين أرض رباط لدفع العدوان • ثم ظهرت الأربطة فى المغرب الاسلامى منذ النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، باعتبار المغرب أرضا صالحة للجهاد ومدافعة الروم • والأربطة أبنية تجمع بين الصفتين الحربية والدينية ، فقــد كانت تزود عادة بمنار توقد فيه النيران ليلا للنذير باقتراب العــدو ، وعن طريق هــذه الاشارة ، كانت المحارس والأربطة المجاورة تتأهب لملاقاة العــدو برا وبحرا (السيد عبــد العزيز سالم ، المغرب الكبير ج ٢ ص ٤٤٩)

والأقدام ما جعلهم موضع احترام جودفروى دى بويون ملك بيت المقدس وتقديره ، فأقطعهم احـدى الضواحى ، وأغدق عليهم الأموال ، وتوالت عليهم الهبات والاقطاعات ، فأثروا بعد فقر ، وتدرج بهم الأمر فى عهد أول رئيس لهم ويدعى جيرار ، الى أن أصبحوا يؤلفون قوة حربية لها شأنها بالنسبة للصليبيين ، اذ اشتركوا معهم فى حملاتهم ضد المسلمين . وجيرار المذكور يعتبر همزة الوصل بين ماضى الجماعة ممثلة فى مؤسسة البندكتان وبين النظام الجديد الذى شرعه الفاتحون ، وتطور نظام الفرسان الاسبتارية فى عهد ريموند دى بوى الى منظمة عسكرية الطابع «٣٨» .

ويرجع الفضل فى منح فرسان الاسبتارية اقطاعات كبرى فى كونتية طرابلس الى الكونت ريموند الثانى ، ذلك أن الهبات والمنح التى كان يقدمها من سبقه من قمامصة طرابلس الى منظمة الاسبتارية كانت تماثل غيرها من الهبات التى تلقتها المنظمات الدينية الأخرى ، وأول الهبات التى منحها الأسقف بونز للاستبارية فى سنة ١١١٥ كانت تتضمن كنائس اقليمية وعشور وطواحين تقع بين مدينة طرابلس والبترون . كذلك منح

---

(٣٨) راجع : Delaville Le Roulx, les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chipre, (1100 - 1310) Paris, 1904, p. 31 - 43 - Woodhouse (F. C.). The Military religious Orders of the Middle ages : The Hospitallers, the Templars, the Teutonic knights and others, London, 1879, pp. 23 - 30 — King (E. J.), The Knights Hospitallers in the holy Land, London, 1931, pp. 21 - 23.

حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الأولى ، ص ٩٦

الكونت بونز بن برتران الاسبتارية فى جبل الحجاج فيما بين عامى ١١٢٥ ، ١١٢٧ قرى ومنازل فى ظاهر مدينة طرابلس حتى بلدة علما ، كما منحهم قرية جلياث الواقعة الى الشمال من طرابلس ، وقرى أخرى فى البقيعة ، واقطاعات فى بعض المدن والحصون مثل عرقة وحصن الاكراد ولوكاميل ، وأصبحت جماعة الاسبتارية فى عهده تملك فى كونتية طرابلس قلاعا هامة . وكانت الاسبتارية حتى هذا الحين تجمع بين الصفة الدينية ممثلة فى خدمة الحجاج ، والصفة العسكرية ممثلة فى الاسهام فى الحرب «٣٩» ، ولكن الاقطاعات التى أقطعها لهم ريموند الثانى فى سنة ١١٤٢ كانت نقطة انطلاقهم نحو السيطرة الاقطاعية العظمى للاسبتارية ، ففى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٧ م) انتزع المسلمون حصن بعرين ورفنية من كونت ريموند ، بعد موقعة سقط فيها صفوة خيالته ورجالته صرعى ، وحصل للمسلمين « من الغنائم الشىء الكثير من الكراع والسواد والأثاث » «٤٠» . هذه الهزيمة النكراء استنفذت قوى كونتية طرابلس ، وعرضتها لخطر المد الاسلامى ، وعندئذ استنجد ريموند بفرسان الاسبتارية ، الذين تحولت منظمتهم فى أثناء ذلك الى منظمة حربية خالصة ، للدفاع عن حدود كونتيته ، خاصة فى منفذ حمص — طرابلس ، وفى جبال الاسماعيلية «٤١» . وكانت المنطقة التى أقطعها الكونت ريموند الثانى للاسبتارية تقع فى أشد مناطق الكونتية تعرضا لغارات المسلمين ،

---

(٣٩) Delaville le Roulx. p. 42 — Jean Richard, p. 61

(٤٠) ابن القلانسى ، ص ٢٥٩

(٤١) Claude Cahen, p. 511

وكانت بحيرة حمص هى منطلق هـذه الغارات ومركزها الرئيسى ؛ ثم ان هذه الاقطاعات كانت تضم أراضى استولى عليها المسلمون ، وعلى هـذا الأساس تخلى ريموند للاسبتارية عن جميـع حقوقه على رفنية وبعرين ، اللتين سقطتا فى أيدى المسلمين قبل ذلك بخمسة أعوام ، بدون تحفظ ؛ وأضاف اليها بعض أعمال رفنية التى كانت ما تزال تحت سيطرته «[٤٢]» مثل مرداش ، هذا بالاضافة الى حقه فى الصيد من بحيرة حمص . أما بقيـة الاقطاع الذى منحه للاسبتارية ، فقد خصصه للقلاع الواقعة على الجانب الآخر من المنفذ ، بوادى البقيعة ، وهى حصن الأكراد ، وحصن البقيعـة (أعناز) وحصنا فيليسيوم ولاكوم فى السهل الساحلى الواقع عند مصب النهر الكبير ، وهى حصون هامة تحمى الطريق الممتد من عرقة الى وادى الأورنت . وكان يتولى أمر هذه الحصون عدد من البارونات نخص بالذكر منهم وليم صاحب حصن الأكراد ، وجيلبرت دى پوى لورنس ، وقد قام الكونت وأسقف طرابلس وبارونات الكونتية بتعويضهم عنها . وبدأت هذه الاقطاعات الاسبتارية تتخذ مظهر الدولة المستقلة بفضـل الاعفاءات المالية المختلفة والامتيازات التى نالتها ، فلقـد سمح الـكونت لفرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد بالحرية المطلقة فى الاتجار فى أراضى الكونتية ، يضاف الى ذلك أنه لم يكن من حق الكونت وفقا لشروط الاتفاقية التى عقدها مع الاسبتارية أن يعقد أى هدنة مع المسلمين بدون استطلاع رأى

---

(٤٢) Claude Cahen, p. 511 — Richard p. 63

الاسبتارية ، كما أنه نص فى هـــذه الاتفاقية على أن يؤول قسم من الغنائم للاسبتارية «٤٣» • أما الحملات المشتركة فقد كان نصيب اللواء من الغنائم يقسم بين الاسبتارية وبين الكونت أو الكافل للكونتية • وفى حالة غياب الكونت لم يكن يحق لمقدم كنداصطبل أو مساعده المرشان أن يقوم مقامه فى تسلم نصيبه من الغنائم ، وبذلك كان نصيب اللواء كله يؤول فى هذه الحالة الى الاخوة الاسبتارية •

وفى سنة ١١٦٣ م ازدادت منطقة نفوذ الاسبتـــارية بعد أن أقطعهم بارون مرقية الحصن الشرقى وحصن وادى لوش • ثم بدأت منظمة فرسان الاسبتارية تكسب أراض جديدة منذ العام الذى وقع فيه الكونت ريموند الثالث فى أسر نور الدين محمود ، وقيام عمورى الأول بكفالة الكونتية فى غيابه ، ويرجع السبب فى بسط نفوذ الاسبتارية على مناطق جديدة من الكونتيـــة الى أن زلزال سنة ١١٧٠ سبب تخريب حصـــون عرقة وعكار والأكراد وصافيثا ، الأمر الذى دعا عمورى كافل الكونتية اذ رأى نفسه عاجزا عن ضمان الدفاع عن أراضى الكونتية التى تفتحت فى هذه المناطق الشمالية من الكونتية ، الى أن يمنح فرسان الاسبتارية حصنين مهدمين هما حصن عرقة وحصن عـــكار • وفى سنة ١١٧٧ منحهم ريموند الثالث حصن وادى الأحمر ، الواقع عن طريق أنطرطوس ــ رفنية «٤٤» •

---

(٤٣) Claude Cahen, p. 517 - Richard, p. 63

(٤٤) Ibid. p. 65

وتوالت المنح والاقطاعات على منظمة فرسان الاسبتارية منذ ذلك التاريخ ؛ ففى يوليو سنة ١١٨٠ ، تخلى ريموند الثالث ، عقب الغارات الرهيبة التى شنها صلاح الدين على كونتية طرابلس ، عن حصن الطوفان بكل ملحقاته للاسبتارية ، وأضاف اليه فى العام التالى أرضا تقع بين البقيعة والطوفان والأورنت . وفى هذا الوقت تنازل بوهمند الثالث صاحب أنطاكية للاسبتارية عن حقوقه فى الروج وجبل السماق ومنطقة أبى قبيس الواقعة غربى الأورنت وأفامية التى كانت تابعة للمسلمين منذ سنة ١١٤٩ بالاضافة الى مناطق أخرى «٤٥» ، وذلك بعد هزيمة الصليبيين فى حارم بثلاث سنوات ونصف . وكان هذا التنازل من جانبه مقدمة لتكوين امارة للاسبتارية تكاد تكون مستقلة ، اذ أن هذه الأراضى تقع تماما فى شمال الاقطاع الذى تنازلت لهم عن كونتية طرابلس حول حصن الأكراد . وفى سنة ١١٨٦ سمح بوهمند ، بناء على نصيحة البطريرك ايمرى ، لبرتران موزوار أن يبيع اقطاعاته لفرسان الاسبتارية مع المرقب والحصون التابعة له ، بعد أن عجز برتران المذكور عن الدفاع عنها ، وكانت أراضيه تقع لصق حدود الكونتية «٤٦» ، وبذلك أصبح جبل النصيرية تحت رحمة الاسبتارية ، اذ كانوا يحصرونه من الجنوب ومن الغرب . وفى سنة ١١٩٩ منح بوهمند منظمة الاسبتارية مدينة المرقب حتى يتهيأ للاسبتارية بذلك

---

(٤٥) King, op. cit. p. 93 — Cahen, p. 513

(٤٦) Cahen, p. 514, 515 — Richard, P. 66

استكمال حلقة الحصار حول جبل الاسماعيلية ، وأصبحت المرقب فى القرن الثالث عشر الميلادى القاعدة الهامة لدولة مستقلة تمام الاستقلال هى دولة الاسبتارية «٤٧» .

* * *

أما نظام فرسان المعبد Templiers المعروفين فى المصادر العربية باسم الداوية فقد قام أساسا على الحماس الدينى وعلى الفروسية فى آن واحد ، وكان يجمع منذ نشأته بين الاتجاه الدينى والاتجاه العسكرى ، وهو فى هذا يشبه الى حد كبير نظام فرسان الاسبتارية ، وان كانت نشأته تقترن منذ البداية بفكرة القتال والحرب ، ولم تكن تربطه بالناحية الدينية سوى القسم الدينى «٤٨» . ويرجع الفضل فى نشأته الى سبعة رجال يتزعمهم هيوج دى باينز ، اتفقوا فيما بينهم على فكرة تكوين جماعة من بينهم تتولى مهمة الدفاع عن فلسطين والأراضى المقدسة ؛ ووجدت الفكرة تعضيدا وقبولا حسنا عند جرموند بطريرك بيت المقدس ، ولم يلبث هؤلاء الرجال الأتقياء أن أقسموا أمام البطريرك بالمحافظة على الشعائر الثلاثة : الفقر والطاعة والعفة ، وبالاضافة الى ذلك أقسموا يمينا بحمل السلاح واشهاره ضد المسلمين «٤٩» ، وتلقبوا بجنود المسيح الفقراء «٥٠» . ولقد منحهم

---

(٤٧) Cahen, p. 514

(٤٨) Woodhouse, the Military religious Orders, p. 207 Claude Cahen, p. 510

(٤٩) حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الأولى ص ٩٧ ، ٩٨ — Woodhouse, p. 208

(٥٠) عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٠٤ — Woodhouse, p. 208

بلدوين الثانى خانا يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان ، فسموا لذلك بفرسان المعبد . وبفضل الجهود المضنية التى بذلها هيوج دى باينزمؤسس هذه المنظمة «٥١» ، وبفضل تعضيد سان برنارد ، انضوى الى فلكها عدد كبير ممن اجتذبتهم أهدافها ، وتدفقت عليهم الهبات والمنح ، ولم يلبث هؤلاء الفرسان أن أصبحوا يؤلفون طبقة مثرية بعد أن كانوا فقراء معدمين . وفى سنة ١١٤٦ اعترف بهم البابا ايوجين الثالث كمنظمة خاصة ، لها نظمها وأهدافها فى خدمة المسيحية ، وأقطعهم ملوك بيت المقدس وأمراء أنطاكية وطرابلس اقطاعات كبيرة فى الأراضى الخاضعة لنفوذهم ، ومنذ ذلك الحين ساهم الداوية مساهمة فعالة فى الحروب الصليبية فى الشام «٥٢» .

---

(٥١) رحل هيوج دى باينز فى سنة ١١٢٧ الى فرنسا وأسبانيا وانجلترا لجمع الصدقات ، بقصد مساعدة فقراء الأراضى المقدسة .

(٥٢) ذكر ابن القلانسى فى حوادث سنة ٥٢٣ هـ (١١٥٧ م) أنجماعة من أبطال الاسبتارية والسرجندية والداوية عدتهم ٧٠٠ فارس سوى الرجالة ، نهضوا الى ناحية بانياس فى ١٥ ربيع الأول لتقويتها بالسلاح والمال ، فأدركهم عسكر نور الدين قبل أن يصلوا اليها ، وأوقعوا بهم ، فانهزموا هزيمة ساحقة ، واسر منهم المسلمون عددا كبيرا (ابن القلانسى ص ٣٣٩) . وفى ٩ من جمادى الأولى تمكن عسكر نور الدين من هزيمة فرقة من الداوية فى الملاحة الواقعة بين طبرية وبانياس ، وأسروا منهم عددا كبيرا قادوهم الى دمشق ، « وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ... والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية ، والرجالة من السرجندية والدركيولية كل ثلثة وأربعة وأقل وأكثر فى حبل » (ابن القلانسى ، ص ٣٤٢)

غير أن ضياع سجلات الداوية يعوقنا عن متابعة تطور مناطق نفوذهم فى كونتية طرابلس، ومع ذلك فلدينا وثائق استقينا منها بعض المعلومات عن المنح والاقطاعات التى وهبها القمامصة للداوية : ففى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) وهب الكونت ريموند الثانى قلعة أنطرطوس للداوية ، وكان قد وهبهم العريمة قبل ذلك فى سنة ١١٤٨ ثم انتزعها منهم برتران • أما صافيثا فلا نعرف على وجه اليقين متى أقطعها كونت طرابلس للداوية • ويعتقد الأستاذ چان ريشارد أن هناك صلة ما بين اقطاعات الداوية فى كونتية طرابلس وبين سقوط حصون هذا الأقطاع فى أيدى المسلمين ، ففى ٥٤٧هـ (١١٥٢ م) تمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على حصن أنطرطوس «٥٣» ، وفى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فتح نور الدين حصنا العريمة وصافيثا «٥٤» • ونلاحظ أن قمامصة طرابلس كانوا يمنحون الداوية قلاع كونتيتهم التى خربتها جيوش المسلمين لترميمها واتخاذها مراكز دفاعية للكونتية «٥٥» •

أما أملاك الداوية الخاصة فى كونتية طرابلس فغير معروفة على وجه الدقة ، ويبدو أن الداوية كانوا ينازعون الاسبتارية على امتلاك حصن الأكراد وبعرين ، كما أنهم نازعوا الچنوية بسبب الدور التى أقامها الداوية فى ظاهر عرقة على أراضى تابعة للكنيسة الچنوية •

---

(٥٣) ابن القلانسى ، ص ٣١٨

(٥٤) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٧٤

(٥٥) J. Richard, p. 67

وهكذا خرج القسم الشمالى من كونتية طرابلس من أيدى القمامصة ، وآل الى منظمتى فرسان الاسبتارية والداوية ، وأصبح لهؤلاء ، وخاصة للاسبتارية ، منطقتين هامتين للغاية : فقد آلت الى هاتين المنظمتين جميع الأراضى الواقعة شمالى النهر الكبير باستثناء اقطاع مرقية ، وأصبحت حدود الكونتية مع أراضى المسلمين تقتصر على بضع منافذ بلبنان بين عكار والمنيطرة ، فى حين وقع عبء محاربة الاسماعيلية وأمراء حمص وحماة فى القرن الثالث عشر على عاتق فرسان الداوية والاسبتارية ، وتفرغ سكان الكونتية على هذا النحو لمنازعاتهم الداخلية ولأعمالهم التجارية •

واذا بحثنا عن السبب فى قيام هذه الاقطاعات الدينية الطابع ، نجد أنها ترجع أساسا الى ضعف موارد كونتات طرابلس وقلة امكاناتهم لتحصينها واعدادها لتكون صالحة أمام الدفع السريع لحركة الاسترداد الاسلامى ، وأدت الهزائم الساحقة التى منى بها قمامصة طرابلس الى ابادة قوة خيالتهم التى لم يستطع الوافدون الجدد من الصليبيين أن يدعموها التدعيم الكافى ، ثم ان كونتية طرابلس لم يعد لها من قواعد فى الغرب سوى المنطقتان الطولوشية والپروڤنسية اللتان انصرفتا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر عن متابعة الاشتراك فى الحركة الصليبية • وكان الفونس جوردان ، آخر أمراء الحركة الصليبية الذين قدموا من طولوشة للاشتراك فى الحرب الصليبية ، والذى طالب بحقوقه فى امارة طرابلس ؛ كان هذا الأمير سببا من أسباب زيادة ضعف الكونتية ، وبث بذور الانقسام بين طوائفها •

وهكذا كان الاسبتارية والداوية ، بامكاناتهم المادية المتفوقة ،

ووفرتهم العددية والمالية ، معينا لا ينضب ، وقوة هائلة لا تستنفذ ، فهم يشاون قوة لايستهان بها على أهبة الاستعداد للقتال ، ولم تكن الكوارث والنكبات التى منيت بها هاتان المنظمتان تفت فى عضـدهما أو تقلل كثيرا من قوتهما ، لأن هذه القوة كانت قابلة دائما للزيادة ، وهذا يفسر السبب فى أن كونتيـة طرابلس ، أضعف الامارات الصليبيـة فى الشرق ، كانت أول هـذه الامـارات فى الاغـداق عـلى هـاتين المنظمتين الدينيتين ، وبالذات منظمة فرسان الاسبتارية ، بالاقطاعات والمنح ، وفى التمهيد التمهيد لها بانشاء ما يشبه الولاية المستقلة ، على حساب أراضى الكونتية ، الىحد تصبح بعده الكونتية قاصرة على قسمها الجنوبى «(٥٦)» .

ومما تقدم يمكننا أن نميز مرحلتين فى تاريخ الكونتية : الأولى مرحلة استقلال الكونتية بالدفاع عن نفسها ، وتنتهى هذه المرحلة بوفاة برتران ، والثانية وتبدأ منذ قيام أتابكيـة حلب ودمشق ، وفيها نشهـد الهزائم الساحقة التى منى بها بونز وريموند الثانى ، وحاجة الكونتيـة لخدمات الاسبتارية والداوية . وعند قيام صلاح الدين تسوء حالة الكونتية أكثر مما ساءت فى عهد نور الدين ، وتنسـو مقاطعات الاسبتارية وتمتد حتى تصبح أشبه ما تكون بدولة مستقلة ، بينما تنشأ مقاطعة أخرى شبه مستقله لصالح الداوية . ولم تلبث هاتان المنظمتـان أن أصبحتا فى عهد الأسرة النورمانية البواتية « أسرة بوهمند » العناصر النشطة الوحيدة فى كونتية طرابلس ، فعليها كان يقع عبء الحرب المقدسة ، ولم يلبث حصن الأكراد

---

(٥٦) J. Richard, p. 69

الذى عرف باسم « نرقعة الخيالة » Crac des Chevaliars أن أصبح المركز الدفاعى الرئيسى عن كونتية طرابلس «٥٧» •

ز ـ عناصر السكان البلديين فى كونتية طرابلس :

بالاضافة الى طائفة الفرنجة بطبقيتهم الأشراف والبرجوازية • والجاليات الايطالية التى كانت تقيم فى أحياء خاصة ، كانت كونتية طرابلس تضم عناصر محلية تتوزع فى طوائف منفصلة فيما بينها نذكر منها ما يلى :

١ ـ المسلمون : احتفظت كونتية طرابلس بجماعة من المسلمين تبقت من سكانها القدامى قبل الغزو الصليبى ، فعلى الرغم من هجرة العدد الأعظم من سكان الكونتية الى ديار الاسلام على أثر المذابح الرهيبة التى تبعت دخول الصليبيين فى أراضى الشام ، كان بعض المسلمين ممن استهواه حب الوطن ، ودفعه الحنين اليها يعود الى هذه المدن التى كان قد هجرها بعد الغزو الصليبى ، ويستقر فيها بعد أن يشترط عليه الصليبيون شروطا فى ذلك «٥٨» • وكان هؤلاء المسلمون يؤدون الخراج والطاعة للفرنج «٥٩» ، ويشترك بعضهم فى الغزوات التى كان يقوم قمامصة طرابلس

---

(٥٧) Ibid. p. 70

(٥٨) ابن جبير ، الرحلة ؛ ص ٣٠٧

(٥٩) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريين من بنى الغرب ، تحقيق الأب لويس شيخو ، بيروت ، ١٨٩٨ ص ٣٩

بها ضد المسلمين ، ويذكر ابن القلانسى أن جماعة من مسى جبل عاملة كانوا يعاونون الصليبيين فى بانياس «٦٠» • وكان الصليبيون فى كونتية طرابلس، شأنهم فى ذلك شأن اخوانهم فى مملكة بيت المقدس ، يحسنون معاملة المسلمين المستقرين فى أراضيهم ويرفقون بهم ، وكانوا يتركون لهم أراضيهم يزرعونها نظير نصف غلاتها وبعض ضرائب أخرى خفيفة • ويذكر ابن جبير أن المسلمين كانوا « مع الفرنجة فى حالة ترفيه — نعوذ بالله من الفتنة — وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم ، وكل ما بأيدى الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقها كلها للمسلمين ، وهى القرى والضياع ، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق ، وهذه الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامى جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله » «٦١» •

وكان لكل ضيعة أو قرية رئيس مسلم هو الناظر فيها ، يقدمه الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين «٦٢» • ويبدو أنه كان يمنح للمسلمين

---

(٦٠) ابن القلانسى ، ص ٣٣٩

(٦١) ابن جبير ، ص ٣٠١

(٦٢) ابن جبير ، ص ٣٠٢

مسجد صغير يؤدون فيه صلاتهم على النحو الذى كان متبعا فى صور وعكا «٦٣» .

ونستنتج أيضا مما ذكره ابن جبير أن التجار المسلمين كانوا يجتازون الأراضى التابعة للصليبيين بعد أن تحصل منهم المكوس ، وهى دينار وقيراط عن كل رأس ، وكان هؤلاء التجار ينزلون نزلا خاصا بهم «٦٤» .

٢ — **النصارى** : كان منهم اليعاقبة ، وكانت لهم أسقفية بطرابلس ، وكانوا يؤثرون السكنى فى بلدة جونية «٦٥» ، ومن المعروف أن الفرنج كانوا يحسنون معاملتهم ، ولم يعطلوا كنائسهم ، ولذلك أيد اليعاقبة الحكم الصليبى «٦٦» ، وكان منهم الموارنة وهم الأغلبية العظمى من جمهور سكان كونتية طرابلس النصارى ، ولقد كان الموارنة قد انضموا مع الصليبيين منذ البداية ، وارتبطوا معهم بروابط ودية وثيقة ، فساعدوا ريموند دى سان جيل فى حصار مدينة طرابلس «٦٧» ، ويذكر الشدياق أن أمير المردة أرسل ولده الأمير سمعان فى سنة ١٢٥٠ م على رأس خمسة

---

(٦٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٢

(٦٤) نفس المرجع ، ص ٣٠٣

(٦٥) J. Richard, p. 86

(٦٦) Lammens, op. cit. p.248

(٦٧) حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٢ — محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة ، ص ٤٩٩ — ٥٠٠

وعشرين ألف من الخيالة الموارنة الى لويس التاسع ملك فرنسا عند وصوله الى عكا ، نجدة له ، وكان لذلك التصرف من جانبه أعظم الأثر فى قيام علاقة من الود بينه وبينهم «٦٨» .

---

(٦٨) الشدياق ، ج ١ ص ٢٥١ . كتب لويس التاسع الى أمير الموارنة يقول :

« لقد أفعم قلبنا سرورا عند رؤيتنا ولدكم سمعان آتيا الينا من قبلكم على رأس ٢٥ ألف رجل يبلغنا عبارات حماساتكم ، ويقدم لنا الهدايا فضلا عن الخيل الكريمة التى أرسلتموها الينا . فنؤكد لكم أن المودة الصادقة التى أخذنا نشعر بها بحرارة شديدة نحو الموارنة فى مدة اقامتنا فى قبرص ، حيث هم مقيمون ، قد زادت فينا أيضا ، ونحن على يقين من أن هذه الأمة التى وجدناها قائمة تحت اسم القديس مارون انما هى قسم من الأمة الفرنسية ، وأن اخلاصها للفرنسيين أشبه باخلاص الفرنسيين بعضهم البعض ، ومن ثم فمن العدل أن تتمتعوا أنتم وسائر الموارنة بنفس الحماية التى يتمتع بها الفرنسيون لدينا ، وأن تقبلوا فى الوظائف نظيرهم تماما . ونحن نحرضك أيها الامير الشريف على بذل الغيرة والجهد فى سبيل سعادة سكان لبنان ، وعلى العناية باقامة أشراف من الأكثر أهلية بينكم كما يعمل عادة فى فرنسا ، وأنتم أيها السيدالبطريرك والسادة الأساقفة وسائر الاكليروس والشعب المارونى مع أميركم الشريف أيضا ، انما يعزينا تعلقكم الثابت بالديانة الكاثوليكية واحترامكم لرئيس الكنيسة خليفة القديس بطرس ، ونحضكم على حفظ هذا الاحترام وعلى الثبات على ايمانكم بلا انقسام . أما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم أنتم وشعبكم نفس الحماية التى للفرنسيين أنفسهم وبأن نعمل على الدوام كل ما هو ضرورى لسعادتكم » صدر من عكا فى ٢١ مايو سنة ١٢٥٠ وهى الرابعة والعشرون لتملكنا . التوقيع (راجع يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ج ١ ص ٢٢٨ — Nantet, p. 66)

وكان الموارنة «٦٩» يسكنون الجبال المجاورة لمدينة طرابلس مثل اهدن وجبة بشرى والحدث وبقوفا وعكار والزاوية والضنية والبترون وجبيل والمنيطرة «٧٠» •

ولقد قام الموارنة فى جبل طرابلس وفى كسروان بمساعدة الصليبيين

---

(٦٩) تنسب طائفة الموارنة أو الطائفة المارونية الى القديس مارمارون الذى عاش فى أواخر القرن الرابع الميلادى وتوفى فيما يقرب من عام ٤١٠م (فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص٣٠١ ، ٣٠٣) أما يوحنا مارون الذى تعتبره الطائفة المارونية بطلا للقومية المارنية فكان أول بطريرك لهذه الطائفة ، واليه يرجع الفضل فى جمع شمل أبناء ملته وحمايتهم من الفوضى والانحلال • ولد يوحنا مارون فى قرية سرومة الواقعة بجبل السويدية على مقربة من أنطاكية فى الثلث الاول من القرن السابع الميلادى • وقد نجح يوحنا فى أن يجعل من الموارنة شعبا ذا سيادة ، كما اهتم بتنظيم أمور أتباعه فعين لهم كهنة وقسسا لأمور دينهم وأمراء وقادة لجيوشهم للدفاع عن شعبه (يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، ج ١ ص ١٨٢)

فيما يختص بتاريخ الموارنة راجع المصادر الآتية :

الدويهى (اسطفان) : تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ١٨٩٠

يوسف الدبس : تاريخ سورية ، ج ٥ ، بيروت ١٩٠٠

لامنس : تسريح الأبصار فيما يحتويه لبنان من الآثار ، بيروت ، جزآن ، ١٩١٤

لويس شيخو : بيروت ، تاريخها وآثارها ، ١٩٢٧

Pierre Dib, L'Eglise Maronite, vol. I, Paris 1930

عجاج نويهض : أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، بيروت ١٨٩٠

(٧٠) J. Nantet, Histoire du Liban, p. 65

فى حروبهم ضد المسلمين خاصة فى أواخر أيام الفرنجة فى الشام (قرب نهاية القرن السابع الهجرى) حيث اشتد نشاط سلاطين المماليك لتصفية ما بقى من امارة طرابلس ومملكة بيت المقدس ؛ ففى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) زحفت قوات المسلمين على كسروان والجرد لأن سكان هاتين المنطقتين نزلوا من الجبال لنجدة الافرنج عندما حاصر المسلمون طرابلس، وقتلوا عددا كبيرا من عسكر السلطان ، وكان سنقر الأشقر المنصورى يقود جيش المماليك الذى ساهم فيه أمراء الغرب التنوخيون وعلى رأسهم جمال الدين حجى بن نجم الدين محمد وزين الدين . وقد تمكن الموارنة من ايقاع الهزيمة بجيش المسلمين «٧٢» . وفى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) تمكن الموارنة الكسروانيون من الترصد لجيش المماليك فى الأوعار ومضايق الجبال وهزموهم هزيمة نكراء ؛ وفى سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) أعلن الموارنة خروجهم على طاعة الناصر محمد بن قلاوون بعد هزيمته على أيدى المغول وتحصنوا بجبالهم المنيعة ، فخرج جمال الدين آقش الأفرم نائب الشام اليهم لارغامهم على الرجوع الى الطاعة ، فأبوا ، وعندئذ أجتمعت عساكره وعدتها خمسون ألفا فى المحرم سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) مع عساكر طرابلس بقيادة نائبها سيف الدين أسندمر ، وعساكر شمس الدين سنقرجاه المنصورى نائب صفد ، وتمكن عسكر أسندمر من اخضاعهم بعد أن دمر دورهم وقتل منهم عددا كبيرا ، واستخدم جماعة منهم فى طرابلس بجامكية، وأقطع بعضهم أملاكا من حلقة طرابلس «٧٣» .

---

(٧١) محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة ، ص ٤٧٩

(٧٢) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٤٨ — ٥٠

وكان من بين طبقات النصارى المحليين فى كونتية طرابلس طبقة عبيد الأرض ، وطبقة العامة ، وطبقة البرجوازية ، وطبقة مثرية تتكون من سادة القرى ورؤساء القبائل فى الكونتية ، ويعرفون بالرؤساء «[٧٣]» • وكان هؤلاء الرؤساء يزودون جيش الكونتية بالخيالة البلديين «[٧٤]» • وعلى الرغم من مساعدة هؤلاء الرؤساء للفرنجة ، فقد كان بعضهم يعمل على التآمر عليهم وخيانتهم ، ويرجع وليم الصورى معظم هزائم الفرنجة اليهم «[٧٥]» •

ويبدو أن الصليبيين أفادوا فائدة كبيرة من خبرة النصارى البلديين فى الكونتية ، فوضعوهم فى المناصب التى تستلزم احتكاكا مباشرا مع المسلمين ، فديوان التمكيس بعكا على حد قول الرحالة ابن جبير كان يتولاه كتاب من النصارى الذين يحسنون التكلم بالعربية والكتابة بها «[٧٦]» •

٣ — اليهود : كانت لهم مستعمرتهم الرئيسية فى جبيل ، ويبدو أن قيام كونتية طرابلس الصليبية اجتذب عددا كبيرا من يهود جنوبى

---

(٧٣) J. Richard, p. 87 -- J. Nantet, p. 66

(٧٤) عرف أفراد الخيالة الصليبية المكونة من البلديين (مسلمين ونصارى) باسم التركبولى • وقد اتخذ كونت طرابلس منهم حرسه الخاص فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر (راجع زكى النقاش ص ١٦١)

(٧٥) J. Richard p. 88

(٧٦) ابن جبير ، ص ٣٠٢

فرنسا ، فاندمج الوافدون من اليهود مع اليهـود البلديين الذين كانت امارة بنى عمار تدين بثرائها وتفوقهـا الاقتصادى الى حد ما الى الدور التجاري الذى لعبه اليهـود فى بلادهم «[٧٧]» ، وقد أحصى الاستاذ چاك نانتيه عدد الأسرات اليهودية فى كونتية طرابلس ، فوجد أنها كانت تضم ما يقرب من مائة وخمسين أسرة «[٧٨]» • وقد اشتغل يهود الكونتية بأعمال مختلفة منها الصيرفة «[٧٩]» ، واحتـكروا دون سـواهم صناعة الأصباغ والدباغة وتحضير الغراء «[٨٠]» •

ح ـ الحياة الاقتصادية فى الكونتية :

ازدهرت الحياة الاقتصادية فى كونتية طرابلس ازدهارا يذكر بمـا وصلت اليه فى عهـد بنى عمار ، فلقد كانت كونتية طرابلس تقوم بدور الوسيط التجارى بين داخـل البـلاد والخارج ، فكانت على حـد قول الادريسى معقلا « من معاقل الشام مقصود اليها بالأمتعة وضروب الأموال وصنـوف التجارات » «[٨١]» • وعلى الرغم من الأضرار الجسيمـة التى سببها زلزال ١١٥٧ فى عمران الكونتية ، فقد ظل اقتصادها منتعشا وخاصة فى مدن الساحل وطرابلس على رأسها جميعا •

---

(٧٧) J. Richard, p. 86

(٧٨) J. Nantet, p. 64

(٧٩) زكى النقاش ، ص ١٩٣

(٨٠) زكى النقاش ، ص ١٨٣

(٨١) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٧

فمن حيث الثروة الزراعيــة كانت الكونتية تعتمد بوجه خاص على زراعة القطن وقصب السكر «٨٢» ، وكانت تحيط بطرابلس بساتين ممتدة غرست فيها أشجار البرتقال «٨٣» . وذكر الادريسى أن بطرابلس من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشئ الكثير.ومن حيث التجارة ، كان ميناء طرابلس يجتذب اليه قسما كبيرا من تجارة البحر المتوسط «٨٤» ، فكان يشحن منها الى موانىء الغرب فى ايطاليا وجنوبى فرنسا منتجات الشام والشرق ، وكانت طرابلس على هــذا النحو وثيقة الاتصال من الناحية التجارية مع الامارات الاسلامية المجاورة ، وكان قوافل المسلمين على حد قول ابن جبير « تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين » . ومن حيث الصناعة اشتهرت طرابلس بوجه خاص بصناعة المنسوجات النفيسة ، وكان يصنع بهــا نوع من النسيج السميك يشبه الديباج يعرف باسم المخمــل les Camelots «٨٥» ، وكانت تضم فى القرن الثالث عشر أربعــة آلاف نول لنسج الحرير والمخــمل «٨٦» .

---

(٨٢) Nantet, p.72 — زكى النقاش ، ص ١٧٦

(٨٣) Dussaud, Deschamps, Seyrig, plate 113

(٨٤) Michaud, op. cit. p. 449

(٨٥) E. Rey, Colonies Franques en Syrie aux XIIe et XIIIe Siècles, Paris, 1883 p. 220 - J. Nantet, p. 73

(٨٦) Rey, op. cit. p. 216 - Dussaud, pl. 113

كذلك اشتهرت طرابلس بتفوقها فى صناعة الصباغة التى اختص بها يهود الكوتنية وكانت هذه الصناعة تعتمد على نوع من النبات يطلق عليه اسم الجرانس الذى كانت تستخرج منه أصباغ أرجوانية اللون • وذاعت شهرة طرابلس أيضا فى صناعة الزجاج وأنواع الخزف «٨٧» •

ط — الحياة العلمية :

احتفظت طرابلس الصليبيـة بشهرتها العلمية التى وصلت اليهـا فى عهد بنى عمار ، فقد كانت فى عصر الصليبيين مركزا علميا متفوقا يفد اليه طلاب العلم من أوربا لأخذه على علمائهـا المسلمين والنصارى البلديين • وذاعت شهرتها فى علوم الطب والكيمياء والصيدلة والرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة والفلك • ففى مجال الطب كانت مدرسة طرابلس أعظم مدارس الطب فى الامارات الصليبيـة على الاطـلاق ، وكان الطب من اختصاص اليعاقبة البلديين ، نخص بالذكر منهم الأسقف اليعقوبى ميشيل الحلبى الـذى مارس الطب محاطا بتقـدير رجال الدين وطبقـة أشراف الفرنجة «٨٨» ، وفى طرابلس أتم العالم الكبير برهبراوس دراساته العلمية على أستاذ نسطورى طرابلسى ، ويشير أحد اليعاقبة الأنطاكيين الى وجود

---

(٨٧) Nantet, p. 73

(٨٨) Rey, op. cit. p. 181 - Lammens, La Syrie, p. 246

عدد كبير من الأطباء اليعاقبة والملكانيين والمسلمين فى طرابلس كان يتردد عليهم فى معاملهم وعالجوه فى المستشفيات «٨٩» •

كذلك نبغ فى طرابلس أدباء وكتاب كانت لهم شهرة كبيرة فى العصر الصليبى نذكر منهم وليم الطرابلسى الذى صنف كتابا عن العرب استقى مادته من أصول عربية ، وقد اهتم فى مصنفه بذكر قصة الراهب بحيرى، وفيه أوضح مشكلة الخلافة وقارن بين الخليفة عند المسلمين والبابا عند المسيحيين «٩٠» •

---

(٨٩) Lammens, La Syrie, p. 246

(٩٠) Ibid. p. 264

الفصل الخامس

استرداد المسلمين لطرابلس

(١) محاولات صلاح الدين وخلفاؤه من البيت الأيوبى

أ ــ المد الاسلامى فى عهد نور الدين

ب ــ سياسة صلاح الدين والعادل نحو كونتية طرابلس

(٢) غزو بيبرس لأراضى الكونتية

أ ــ تجريد كونتية طرابلس من حصونها ومعاقلها الأمامية

ب ــ عوامل تأخير استرداد المسلمين لطرابلس

(٣) سقوط طرابلس فى أيدى المسلمين

ا ــ وضع امارة طرابلس بعد وفاة بوهمند السادس

ب ــ معركة التحرير

الفصل الخامس

استرداد المسلمين لطرابلس

(١)

محاولات صلاح الدين وخلفاؤه من البيت الأيوبى

١ ــ المد الاسلامى فى عهد نور الدين :

كان الصليبيون قبل ظهور عماد الدين زنكى بن آقسنقر « قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم ، وضعف أهلها عن كف عاديهم ، وتتابعت غزواتهم ... » «[١]» ، ولكن هذا الوضع لم يلبث أن تغير بعد ظهور عماد الدين زنكى ، فمنذ أن تولى امارة الموصل والجزيرة فى سنة ٥٢١ هـ«[٢]» حتى «أخذت عقود الفرنج تنفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقلها تفرع» «[٣]» ، فقد شرع عماد الدين فى تسكين نفوذه فى المناطق التى خضعت لسلطانه ،

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٧٦

(٢) السيد الباز العرينى ، مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥

(٣) أبو شامة ، ج ١ ص ١١٥

وتوسعة هـذه المناطق بضم ما أمكنه ضمه من البلاد الجزرية والشامية ، تمهيدا للمهمة العظمى التى نيطت اليه ، وهى الجهاد ضد الصليبيين ، واستخلاص الأراضى الاسلامية التى كانوا قد استولوا عليها • وما ان تم له تحقيق الشطر الأول من خطته بضم حلب فى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) بحجة تخليصها من أخطار الصليبيين «٤» ، وحماة فى سنة ٥٢٤ وحمص فى سنة ٥٣٢ هـ ، وبعلبك فى سنة ٥٣٤ ، والقضاء أيضا على التحالف الدمشقى الصليبى «٥» ، حتى تفرغ للصليبيين ، فأخذ يعمل على توجيه ضرباته نحو القوى الصليبية التى ظهرت عليها عوامل الخلاف والانقسام بعد وفاة فولك ملك بيت المقدس ، فاستغل هذه الفرصة المواتية لمهاجمة الرها ، ونجح فى ذلك نجاحا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، واختتم بفتحها فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) سلسلة انتصاراته السابقة : فى حصن الأثارب «٦» (فى سنة ٥٢٤ هـ) ، وفى شيزر وعرقة «٧» (فى سنة ٥٣٢) وفى بعرين «٨» فى سنة ٥٣٤ هـ) • ولم يتهيأ لعماد الدين زنكى أن ينفذ خطته كلها بالنسبة للامارات الصليبية الأخرى ، وهى خطة كانت تهدف — بعد استيلائه على الرها — الى القضاء على امارة طرابلس ، حتى يتمكن بعد ذلك من فصل

---

(٤) السيد الباز العرينى ، المرجع السابق ، ص ١٨

(٥) حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٢٩

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٤٣

(٧) ابن الأثير ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق الاستاذ عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٥٦ ، ٥٧

(٨) نفس المصدر ، ص ٥٩

انطاكية عن بيت المقدس «٩» ، ثم يعمل على هذا النحو على ضربهما الواحدة بعد الأخرى ، فقد وثب عليه غلام افرنجي وجماعة من المماليك ، فقتلوه على فراشه فى ٦ ربيع الثانى سنة ٥٤١ هـ .

وخلفه على حلب ابنه المجاهد نور الدين محمود ، فى وقت بلغ فيه الصراع بين الصليبيين والمسلمين ذروته ، وبدأ نور الدين ينفذ خطة أبيه فى تكوين جبهة اسلامية قوية ، عن طريق التكتل وتوحيد القوى الاسلامية المتبعثرة فى الشام ، وتم ذلك على مرحلتين .

المرحلة الأولى : وتبدأ باستيلائه على دمشق نهائيا فى صفر سنة ٥٤٩ «١٠» هـ (١١٥٤ م) بعد محاولات ثلاثة ، أولها عندما قام الصليبيون بمحاصرتها فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ورحيلهم عنها بعد أن بلغهم مسارعة عسكر المسلمين من سائر البلاد الشامية لنجدة الدماشقة ، وتتابع خيالة التركمان ورجالتهم ، واجتماع نور الدين محمود ومعين الدين أنر قرب دمشق ، وزحفهما الى حصن العريمة بايعاز من ريمند الثانى كونت طرابلس ، ونجاحهما فى التغلب على هذا الحصن وأسر برتران الثانى ابن الفونس جوردان (الادفونش) وأمه ، وانضمام قوات سيف الدين غازى صاحب الموصل الى المعسكر الاسلامى «١١» .

---

(٩) حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ١٧٩

(١٠) ابن القلانسى ، ص ٣٢٧ — ٣٢٩ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥ — ٢٤٢

(١١) ابن القلانسى ، الذيل ص ٣٠٠ — أبو شامة ، ج ١ ص ١٤٣ — ابن واصل ، ج ١ ص ١١٤ — ابن الأثير الباهر ، ص ٩٠

ثم تبعتها المحـاولة الثانية للاستيلاء على دمشق فى سنة ٥٤٥ هـ ، وذلك عندما عاد الدماشقة الى تطبيق سياسة التحالف مع الصليبيين فى بيت المقدس ، وقد انتهت هـذه المحاولة بالصلح بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق ، حقنا لدماء المسلمين «[١٢]» . أما المحاولة الثالثة فكانت فى العام التالى (فى محرم سنة ٥٤٦ هـ) وذلك لمعاضدة أهلها للفرنج وانتصارهم بهم . وفى هـذه المحاولة لم يحاول نور الدين اقتحام دمشق عنـوة حتى لا يوصم بعد ذلك بأنه اغتصبها قهـرا من أهلها ، وآثر أن يحاصرها الى أن تم الصلح بينه وبين مجير الدين أبق فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٦ «[١٣]» .

أما المحاولة الأخـيرة فانتهت باستيلائه عليها نهائيا فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) بعـد أن أثار أهلهـا على مجير الدين الذى كان من الضعف والتخـاذل الى الحـد الذى دفعـه الى الاستنصـار بالصليبيـين على المسلمين «[١٤]» ، وقد أطمع تخاذله الصليبيين فى الاسـتيلاء على دمشق ، فجعلهم يفرضون على أهلها « قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجىء الى دمشق ويجبيها من أهل البلد ، حتى أرسل الفرنج ، واستعرضوا عبيدهم واماءهم ممن أخـذ من سائر بلاد النصرانيـة ، وخيروهم بين المقام عند

---

(١٢) أبو شامة ، ج ١ ص ١٧٩

(١٣) ابن القلانسى ، ص ٣١٥ — ٣١٦

(١٤) ابن واصل ، مفرج الـكروب ، ج ١ ص ١٢٦ — ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٦ — برنارد لويس ، العرب فى التـاريخ ، تعريب نبيـه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ، ١٩٥٤ ص ٢١٧

مواليهم أو العودة الى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار اليــه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهــل البلد ، الى أن حصروه فى القلعــة ... » «(١٥)» .

وباستــيلاء نور الدين على دمشق أصبحت بلاد الشام الاســلامية ترتبط فى وحدة وثيقة تحت زعامته ، وأوجــد هذا العمل العظيم نوعا من التوازن بين قوى المســلمين وقــوى الصليبيين فى بلاد الشــام . وكان الصليبيون يستغلون الفرقة والانقســام بين صفوف المســلمين لتسديد ضرباتهم الى مدن الشام . وكان الصليبيون يستغلون الفرقة والانقسام بين صفوف المسلمين لتسديد ضرباتهم الى مدن الشام المختلــفة ، فعندما هاجم الصليبيون عسقلان ، لم يكن نور الدين يستطيع أن يفعــل شيئا لانقــاذها من الصليبيين بسبب وجــود دمشق حائلا بينــه وبين الدفاع عنهــا «(١٦)» .

أما المرحلة الثانية من توحيد الجبهة الاسلامية ، فقد تمت بعد فتح العســكر النورى لمصر ، القاعدة الهجومية والدفاعية عن الشرق الأدنى ضــد الصليبيين ، واليــها يرجع الفضل فى طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام «(١٧)» . وقد نجح نور الدين فى خطته على نحو تجاوز كل تقدير ، وضمن بذلك وضع الصليبيين فى الشام بين شقى رحى .

---

(١٥) ابن واصل ، ج ١ ص ١٢٦ — ابن الأثير ، الباهر ، ص١٠٦ ، ١٠٧
(١٦) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص٥٩
(١٧) محمد مصطفى زيادة ، تصدير لكتاب نور الدين والصليبيون ، للدكتور حسن حبشى ص ٣

وفى خــلال هاتين المرحلتين ، لم يكف نور الدين عن تهـديد قوى الصليبيين فى الشام ، فعنـدما انتهز جوسلين الثانى الذى اقتصرت امارته الصليبية بعـد سقـوط الرها على تل باشر وسميساط ودلوك ومرعش وأعزاز وراوندان ، فرصة انقسام الأتابكية الزنكية عقب مصرع عمادالدين زنكى الى امارتين ، وحاول استرداد الرها ، أخفق فى هـذه المحاولة كما أخفق فى محاولات أخرى انتهت بوقوعه أسيرا فى يد نور الدين فى ٥ محرم سنة ٥٤٥ هـ «١٨» . ولمـا أسر جوسلين تيسر لنور الدين فتح « تل باشر وعين تاب وأعزاز وقورس والراوندان وحصن البـارة وتل خالد وكفر لاثا وكفر سوت وحصن بسرفوث بجبل بنى عليم ودلوك ونهـر الحوز وبرج الرصاص » «١٩» . أما بالنسبة لأنطاكية فقد انتهز نور الدين فرصة رحيل الصليبيين الأوربيين ، وعلى رأسهم لويس السابع ، عنها الى بيت المقدس حتى بادر بتوجيه ضربته التاليـة نحوها ، واصطدمت قواته مع قوات ريموند دى بواتييه فى بلدة انب فى صفر ٥٤٤ ، وانتهى الأمربهزيمة الصليبيين ، ولقى أميرهم رسوند مصرعه فى هذه الموقعة «٢٠» ، كما قتـل

---

(١٨) ابن القلانسى ، ص ٣١٠ — ابن واصل ، ج ١ ص ١٢٣ — ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠١

(١٩) أبو شامة ، ج ١ ص ١٨٥ — ابن الأثير ، الباهر ص ١٠٣

(٢٠) ابن القلانسى ص ٣٠٥ — أبو شامة ، ص ١٥٢ — ابن واصل ج ١ ص ١٢١

زينو صاحب كيسوم وسرعش وعلى بن وفا زعيم الباطنية الحشيشية «٢١».

واستغل نور الدين هـذه الفرصة وحاصر أنطاكية بعد أن خلت من حماتها ، ولكنه لم يشـأ أن يفتتحها خـوفا من أن يتدخل البيزنطيون فى المعركة «٢٢» فأرجأ فتحها الى فرصة أخرى مواتية ، ثم زحف نحو أفامية وافتتحها فى ١٨ ربيع الأول سـنة ٥٤٤ هـ «٢٣» (٩١١٤٩ م) . ولما توفى بلدوين الثالث ، وانصرف خليفته الى التدخـل حربيـا فى مصر ، لاحت الفرصة أمام نور الدين فى معاودة الهجوم على أنطاكية ، فخرج على رأس قواته فى سنة ٥٥٩ هـ قاصدا حارم ، وأدرك قسطنطين كولمان حاكم قيلقيا البيزنطى مدى الخطر الذى يتهدد أملاك البيزنطيين اذا تمكن نور الدين من فتح أنطاكية ، فحشد جيشا من الأرمن وزحف نحو حارم ، فعندما علم نور الدين بذلك غير خط سـيره الى أرتاح «٢٤» ، ويبدو أن بوهمنـد الثالث ، وكان فتى غريرا ، انخدع بانسحاب نور الدين ، وظن أن نور الدين انما عدل عن مهاجمة حارم لخوفه من جيش كولمان ، وأن الموقف يتطلب منه مطاردته ، فمضى بجيشه وراء جيش نور الدين ، ولكنه فوجىء عنـد

---

(٢١) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ٥٥

(٢٢) حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٨٢

(٢٣) ابن القلانسى ، ص ٣٠٥ — ابن واصل ، ج ١ ص ١٢٢

(٢٤) حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٨٩

اقترابه من بلدة عم باستدارة قوات نور الدين وتطويقها لجيشه ، فانهزم الصليبيون هزيمة نكراء ، ووقع البرنس بوهمند الثالث والكونت ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وعامل الدولة البيزنطية على أرمينية أسرى فى أيدى المسلمين ، وتبع ذلك استيلاء نور الدين على قلعة حارم فى ٢١ رمضان سنة ٥٥٩ هـ «٢٥» (١١٦٣ م) . وكان فى امكان نور الدين أن يستغل هذا الانتصار الحاسم ويستولى على أنطاكية ، ولكنه لم يفعل ، ورد على من نصحه بالاستيلاء عليها بقوله : « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التى لها فهى منيعة لا تؤخذ الا بعد طول حصار ، واذا ضيقنا عليهم أرسلوا الى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ، ومجاورة بيمند أحب الى من مجاورة ملك الروم » «٣٦» .

ولا شك أن نور الدين لم يكن يخشى من التدخل البيزنطى فحسب بل كان يعمل حساب عمورى أيضا ، ملك بيت المقدس ؛ كان نور الدين يخاف أن ينهض عمورى اليه من الجنوب ، وكان يسعى للوصاية على الامارة ، وأن يزحف البيزنطيون عليه من الشمال ، فيحصرانه ، ويقضيان على قواته . وقد أثبتت الأيام صدق رأيه وحسن فراسته وتبصره فى

---

(٢٥) أبو شامة ، الروضتين ج١ قسم ٢ ، ص٣٣٩ — أبو الفداء ، ج٥ ، ص ٥٧ — ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٩

(٢٦) أبو شامة ، الروضتين ، قسم ٢ ص ٣٤٢

الأمور ، فقد أسرع عمورى بالعودة من مصر فى نوفمبر سنة ١١٦٤ ، وزحف نحو أنطاكية ، وترددت الرسل بينه وبين نور الدين بشأن الأسرى ، وانتهت المفاوضات بأن أطلق نور الدين سراح بوهمند الثالث «٢٧» •

ولم تقف اعمال نور الدين على تصفية امارة الرها والحد من خطورة امارة أنطاكية باستئصال قلاعها وانما عمل على مواجهة مطامع مملكة بيت المقدس دون أن يهاجمها حتى يتجنب وصول حملة صليبية جديدة من أوربا ، وكان نور الدين يحرص كل الحرص على ضم حصن بانياس الى أملاكه ، فشرع منذ سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣) فى مهاجمته • ففى هذه السنة تمكن من الاستيلاء على حصن بافلس بالسيف ، وقتل حاميته ، ومن هناك زحف نحو ثغر بانياس ، ولكنه اضطر الى العدول عن ذلك وعاد الى حمص «٢٨» ، وعقدت الهدنة بينه وبين بلدوين الثالث ملك بيت المقدس لمدة عام كامل • ولقد قبل نور الدين أن يوقع هذه الهدنة حتى يكسب من الوقت ما يمكنه من التأهب والاستعداد للمعركة الكبرى بينه وبين مملكة بيت المقدس ، ولكن الصليبيين سرعان ما نقضوا الهدنة ولم يمض على عقدها أربعة أشهر ، وذلك عندما وصلتهم امدادات من البحر ، وقويت بذلك شوكتهم «٢٩» ، فزحفوا الى الغيضة

---

(٢٧) حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٩٠

(٢٨) ابن القلانسى ، ص ٣٢٠

(٢٩) نفس المصدر ، ص ٣٣٧ — الروضتين ، ج ١ ص ٢٥٩

المجاورة لبانياس ، وأغاروا على جماعات الرعاة والفلاحين من المسلمين ؛ وأسروا من وجدوه فيها ، ناقضين بذلك شروط الهدنة .

جاء هذا الاعتداء الصليبي الآثم نذيرا لنور الدين بالخطر الجاثم ، فاستعد له منذ صفر سنة ٥٥٢ ، واستنفر أرباب الأعمال والمعاقل والولايات بالاستعداد والتجمع تمهيدا لمهاجمة الصليبيين الذين نكثوا بالعهد، وظهرت آثار هذا الاستعداد فيما قام به نور الدين من استعراض لأسلحته ، وتزيين لقلعة حلب وأسوارها بالآلات الحربية « وبالجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق الافرنجية والقنطاريات والأعلام والمنجوقات والطبول والبوقات » «٣٠» استثارة لنفوس المسلمين للجهاد . ولم يكتف بذلك ، بل عمد الى التأكد من تنظيم دفاعه ، فتوجه الى ناحية بعلبك لتفقد قلعتها ، وتوزيع مهام المستحفظين لها . وفي الوقت الذي كان يستعد فيه المسلمون للصدام الوشيك كان الصليبيون قد أرسلوا سرية تتألف من سبعمائة من خيالة الاسبتارية والسرجندية والداوية سوى الرجالة لتدعيم الدفاع حول بانياس «٣١» ، استجابة لرغبة صاحبها هنفرى الثاني Omfroy الذي أحس بحركة نور الدين ، وتطلعه للاستيلاء على هذه المدينة «٣٢». وما أن وصلت أنباء احتشاد الصليبيين بالقرب من بانياس الى مسامع نصرة الدين أمير ميران أخي نور الدين ، حتى أسرع بالزحف اليهم في ١٥

---

(٣٠) ابن القلانسي ص ٣٣٨

(٣١) ابن القلانسي ، ص ٣٣٩ — الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٠

(٣٢) حسن حبشي ، نور الدين ، ص ٦٣

ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ (٢٨ أبريل سنة ١١٥٧ م) ، وأدركهم قبل أن يصلوا الى بانياس ، وأوقع بهم ، وتمكن رجاله من هزيمتهم ، وأسر المسلمون عددا كبيرا من مقدميهم سيقوا الى حلب «٣٣» . واستغل نور الدين هذا الانتصار الكبير وزحف بقواته من بعلبك ، بقصد استنزال بانياس ، وبلغه وهو نازل عليها بعساكره يحاصرها نبأ انتصار أسد الدين فى هونين على الفرنجة ، فاشتد حماسه ، وتمكن من الاستيلاء على بانياس ، ولكن صاحبها الهنفرى تحصن فى قلعتها ، فلما علم بلدوين الثالث بذلك أسرع الى نجدة الهنفرى ، فخرج المسلمون من بانياس بعد أن خربوا عمرانها ، ودمروا مبانيها ، ودخلت قوات الصليبيين بانياس وأنقذت المحصورين فى قلعتها ، ثم قفل بلدوين عائدا الى بيت المقدس بعد أن فرغ من مهمته . أما الصليبيون فقد عسكروا فى الملاحة ، الواقعة بين طبرية وبانياس ، فدهمهم المسلمون وهزموهم هزيمة نكراء ، وأسروا منهم عددا كبيرا من أبطالهم ، على رأسهم مقدم الداوية ، وسيق الأسرى الى دمشق ، وخرج الدماشقة لمشاهدتهم «٣٤» .

ثم حاول نور الدين استرجاع بانياس بعد ذلك ، ولكن الدفاع عنها أصبح فى هذه المرة قضية تحدى من جانب الصليبيين ، له ارتباط كبير بكرامتهم وشرفهم ، فاضطر نور الدين الى رفع الحصار عنها «٣٥» ، ثم

---

(٣٣) ابن القلانسى ، ص ٣٣٩ — الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣٤) نفس المصدر ص ٢٤٢

(٣٥) حسن حبشي ، نور الدين ، ص ٦٦

كانت محاولته الثانية فى سنة ٥٦٠ هـ ، وهى المحاولة التى انتهت بنجاحه فى استرداد بانياس «٣٦» .

ولكن نور الدين ، على الرغم من الارتباك الذى أحدثته زلازل عام ٥٥٢هـ ، وعلى الرغم من الأراجيف التى أذاعها أعداؤه بموته ، ومراسلة أولاد الأمير سلطان صاحب شيزر للصليبيين لتسليم هذه المدينة لهم ، وقدوم رسل منهم لأخذها ، على الرغم من كل ذلك فقد بادر نور الدين واستولى على شيزر وعمرها وعمر أسوارها بعد أن سقطت بسبب الزلازل «٣٧» ، ثم سلمها الى مجد الدين بن الداية «٣٨» . ورد الصليبيون على هذا العمل باستيلائهم على حارم فى أول محرم سنة ٥٥٣ «٣٩» مستغلين فرصة معاودة المرض لنور الدين وبدأوا يشنون غاراتهم فى اقليم جوران وداريا ، ولكن نور الدين لم يلبث أن خرج بنفسه لمحاربتهم ، والتقى مع أسد الدين عقب غزوة قام بها فى أعمال صيدا ، فشنا معا هجوما على أراضى

---

(٣٦) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٣٥٦ — ابن الأثير ، الباهر ص ١٣٠

(٣٧) ابن الأثير ، الباهر ص ١١٢ .

تهدم بسبب هذه الزلازل حصن شيزر على واليها تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ (راجع ابن القلانسى ، ص ٣٤٤ — أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٢)

(٣٨) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ص ٢٧٦

(٣٩) ابن القلانسى ، ص ٣٥٠

الصليبيين ، فتصدى لهما بلدوين ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين. ثم حاول نور الدين مهاجمة حصن الأكراد بالبقيعة من أراضي كونتية طرابلس في سنه ٥٥٨ هـ . ولكن هذه المحاولة أخفقت بسبب مفاجأة الاسبتارية وقوات ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهمند الثالث وقسطنطين كولمان لجيش نور الدين «٤٠» • وفي سنه ٥٦١ هـ تمكن نور الدين من الاستيلاء على حصن المنيطرة من حصون كونتية طرابلس «٤١» ، وقيل في سنة ٥٦٢ هـ «٤٢» • وفي هذه السنة (أعنى في سنة ٥٦٢ هـ) أغارت عساكر نور الدين على حصن الأكراد وعرقة وجبله . وافتتحت العريمة وصافيثا «٤٣» • وأتم نورالدين فتح عرقة في سنه ٥٦٧. ثم أغارت عساكرد بعد ذلك على طرابلس «٤٤» •

ثم توفى نور الدين محمود في سنه ٥٦٩ باخوانيق . بعد أن حقق القسم الأعظم من خطته في توحيد الجبهة الاسلاميه ومواجهة الخطر

---

(٤٠) أبو شامة ، ج ١ ص٣١٨ — ابن واصل . ج ١ ص١٣٥ — ابن الأثير ، الباهر ص ١١٦

(٤١) أبوشامة ، ج ٢ ص ٣٦٠ — ابن واصل ، ج ١ ص ١٤٨ — الباهر ص ١٣١

(٤٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٣٨ • وبجعلها أبو الفداء في سنة ٥٦١ هـ (المختصر ، ج ٥ ص ٦٠)

(٤٣) أبوشامة ، ج ٢ ص ٣٧٤ . ٣٧٥ — ابن واصل . ج ١ص ١٥٢ . ١٥٣ — أبو الفداء ، ج ٥ ، ص ٦٠

(٤٤) نفس المصدر ، ص ٥١٧ — ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٤ •

الصليبي . وستشهى الناصر صلاح الدين أثره فى هذا السبيل • ولا شك أن نور الدين محمود كان صاحب الفضل فى توحيد قوى المسلمين لمواجهة أطماع الصليبيين فى الشام . وأنه تمكن بفضل بلائه ومهارته الحربية أن يوقف حركة الدفع الصليبي وأن يسترجع عددا من المعاقل والحصون . وأن يمهد بذلك للدور العظيم الذى قام به الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب والسلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس •

وينبغي بهذه المناسبة أن نشير الى أن الفضل فيما احرزه المسلمون من انتصارات فى ظل نور الدين محمود يرجع قبل كل شىء الى روح المرابطة التى تجلت فى عصره ، والى صلاحه وزهده وحبه للجهاد • وقد أفسحت هذه الروح المجال لاشتراك جماعة من المغاربة فى الجهاد مع عساكره «٤٥» ; ولذلك عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بجامع دمشق أوقافا كثيرة «٤٦» . كما كان يبذل غاية جهده لافتداء الأسرى منهم لأنهم غرباء لا أهل لهم «٤٧» . ولعل اشتراك جماعة من المرابطين المغاربة فى الجهاد ضد الصليبيين السبب فى كثرة وجود التأثيرات المغربية على بعض آثار طرابلس فى العصر المملوكى •

ب ـ سياسة صلاح الدين والعادل نحو كونتية طرابلس :

بدأت نذر الانقسام والاختلاف تظهر من جديد بعد وفاة نور الدين

---

(٤٥) ابن جبير . الرحلة ص ٣٠١

(٤٦) نفس المرجع ص ٢٨٥

(٤٧) نفس المرجع ص ٣٠٨

مهدده وحدة الجبهه الاسلامية بالتفتت والتصدع ، فلقد تنازع الوصاية على الصالح اسماعيل بن نورالدين الذى لم يكن يتجاوز من العمر احدى عشر سـنة كبار قادة الشام ، مندفعين فى ذلك وراء مطامعهم الشـخصية للسيـطرة على شؤون الشـام ، ونخص بالذكـر منهم شـمس الدين محمد بن المقدم فى دمشق وشمس الدين على بن الداية فى حلب ، وسعد الدين كمشتكين الخادم فى حلب ، وهو الذى قبض على ابن الداية وانفرد هو بأتابكية الملك الصالح اسماعيل .

ومن حسن طالع المسلمين فى ذلك الحين أن تولى القائد البطل صلاح الدين القيام بنفس الدور الذى قام به نور الدين محمود من قبل ، لتوحيد القيادة الاسلامية ، وحسم أدواء الفتن ، تمهيدا لمواجهة قوى الصليبيين ، وكانت مصر فى هذه المرة قاعدة النضال ضـد الصليبيين ، والمركز الذى انطلقت منه حركة توحيد الصف الاسلامى .

شرع صلاح الدين فى تنفيذ خطته للقضاء على أسباب الخـلاف ، وجمع شمـل المسلمين ، وتأليف كلمتهم ، تجنبا لما قد يقوم به الفرنجة من حركات توسعية مستغلين اختلاف أمراء الشـام «٤٨» ، فدخل دمشق فى ٣٠ ربيع الاول سنة ٥٧٠ ، ثم استولى على حمص فى جمـادى الاولى ، ووكل الى جماعة من عسكره بمحاصرة قلعتها ، ثم استولى على الرستن وحماة ، وزحف بعد ذلك الى حلب ، ونزل على جبـل جوشن ، وأحاط عسكره بحلب . فكتب سعد الدين كمشتكين الى راشد الدين سنان زعيم

---

(٤٨) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٦٠٥

الاسماعيلية الحشيشية ، وأرسل اليه الأموال ووعدهم بالضياع ، نظير أن يعمل الحشيشية على اغتيال صلاح الدين عن طريق الفداوية «٤٩» • ولكن جماعة الحشيشية الذين كلفهم سنان بهذه المهمة أخفقوا فى مهمتهم ، فاضطر كمشتكين الى أن يكتب الى ريموند الثالث صاحب طرابلس وكافل مملكة بيت المقدس ، وصاحب الكلمة العليا فى الامارات الصليبية بعد وفاة عمورى الأول «٥٠» ، يحثه على مهاجمة صلاح الدين ويعده بكثير من الوعود ويطعمه فى حمص • ولم يكن ريموند زاهدا فى حمص ، وانما أراد استغلال النزاع القائم ليكسب من ورائه أملاكا جديدة وقلاعا اسلامية ، كما كان يدرك مدى الخطورة التى يمكن أن تنشأ عند قيام حلف اسلامى يضم القاهرة ودمشق وحلب «٥١» ، وعلى هذا النحو لم يتردد ريموند فى الاستجابة الى طلب كمشتكين ، وزحف بجيشه الى حمص حتى يرغم صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب ، ونجح فى تحقيق غرضه ، اذ انسحب صلاح الدين الى حمص «٥٢» وحصنها ، فخاف ريموند

---

(٤٩) ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٤ ــ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٩٢

(٥٠) أمضى ريموند اثنتى عشر سنة أسيرا فى حلب بعد هزيمته فى حارم سنة ٥٥٩ هـ ، ثم سعى فخر الدين مسعود بن الزعفرانى فى اطلاقه قبل وفاة نور الدين نظير فدية قدرها ١٥٠ ألف دينار وفكاك ألف أسير (راجع الروضتين ، ص ٦١١ ، ٦١٤)

(٥١) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ١١٦

(٥٢) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ص ٦١١ ، ٦١٤

من لقاء قوات صلاح الدين ، وانسحب الى حصن الأكراد . وعندئذ سار صلاح الدين الى بعلبك واستولى عليها فى ٤ رمضان «٥٣» .

وفى هذه الأثناء كان سيف الدين غازى الثانى صاحب الموصل يراقب الأحداث ، فاستاء لاستفحال أمر صلاح الدين ، وعلو كلمته ، وامتداد نفوذه ، وعظم سطوته ، ووجد سيف الدين غازى نفسه مرغما على التداخل لينال نصيبه من الغنيمة قبل أن تمتد اليها يد صلاح الدين . فسير جيشا كثيفا قدم عليه أخاه عز الدين مسعود ، وانضم الى هذا الجيش عسكر حلب ، واشتبك المواصلة والحلبيون مع عسكر صلاح الدين فى قرون حماة فى ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) وانتهت المعركة بانتصار صلاح الدين وتم الصلح بينه وبين خصومه على أن يكون له حكم بلاد الشام ابتداء من جنوب حماة بالاضافة الى المعرة وكفر طاب . ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل ضم اليه حصن بعرين «٥٤» .

لم ترض هذه النتيجة التى أسفرت عنها معركة قرون حماة سيف الدين غازى أتابك الموصل ، فسعى الى نكث الصلح بين الحلبيين وصلاح الدين ، كما اتفق مع ريموند الثالث على أن يطلق من كان فى أسره من أمراء الصليبيين بحلب ومن جملتهم أرناط صاحب الكرك وجوسلين

---

(٥٣) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ص ١١٦

(٥٤) ابن شداد ، ص ٥١ — ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٤ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ٧٨ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٥٩ .

الثالث ، فى مقابل أن يقــوم ريسوند بمحالفة الحلبيين والمواصــلة ، وأن يساعدهم على صلاح الدين •

وأعد سيف الدين غازى للمرة الثانيــة حملة لمهاجمة صلاح الدين ، وعلى الرغم من كثافة جيش المواصلة والحلبيين ، بحيث بلغت عــدته نحو عشرين ألفا من الفرسان ، فقد تمكن صلاح الدين من انزال الهزيمة بهم عند تل السلطان فى ٥٧١ هـ «٥٥» ، واستغل صلاح الدين هذا الانتصار الحاسم فى الاستيلاء على بزاعة ومنبج وأعزاز • ثم تأهب لحصار حلب للمرة الثانية وحدث أن حاول الاسماعيلية اغتيال صلاح الدين أثناء حصاره لأعزاز ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل فى هذه المرة كذلك ، واضطر صلاح الدين الى ممحاصرة مصياف حصنهم الأمنع ، ونصب عليــها المجانيق فى ســنة ٥٧٢ هـ «٥٦» • ولم يتوان الصليبيون فى هذه الآونة عن شغل صلاح الدين عن محاصرة حلب ، فقــام بلدوين الرابع ملك بيت المقــدس مع ريسوند الثالث صاحب طرابلس وكافل مملكة بيت المقدس بمهاجمة اقليم البقاع ، غير أن ابن المقدم متولى بعلبك وأعمالها تمكن من هزيمتهم فى عين الجر وردهم على أعقابهم «٥٧» •

---

(٥٥) ابن شداد ص ٥٢ ــ أبو شامة ، ص ٦٥١ ــ ابن واصل ، ج٢ ص ٣٨ وما يليها ــ سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ١١٨ ، ١١٩

(٥٦) ابن واصل ، ج ٢ ص ٤٧ ــ أبو الفدا ج ٥ ص ٨٠ ــ السلوك ، ج ١ ص ٦٢

(٥٧) ابن شــداد ص ٥٣ ــ الروضتين ص ٦٦٩ ــ السلوك ، ج ١ ص ٦٤

على أن أعمال الصليبيين العدوانية ضد صلاح الدين لم تقف الى هذا الحد ، فقد أثارت انتصارات صلاح الدين فى الشام على الصابيين والصليبيين فى آن واحد مخاوف الصليبيين ، وكان لذلك أعظم الأثر فى قدوم حملة صليبية جديدة الى الشام فى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) يقودها فيليب الألزاسى دى فلاندر (كنداقلندس) ، ولكن هذه الحملة فشلت فى مهمتها شأنها فى ذلك شأن الحملات السابقة وتحولت مشروعاتها من مهاجمة مصر الى مهاجمة حماة وحارم . ويهمنا أن نعرف بوجه خاص سياسة صلاح الدين نحو كونتية طرابلس .

أدى انتصار الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع على المسلمين عند نهر تل الصافية بالقرب من الرملة فى أول جمادى الآخرة سنة ٥٧٣ هـ «٥٨» الى تعديهم على أراضى المسلمين فى شمال الشام فى حماة وشيزر وحارم ، وعندئذ عمد صلاح الدين الى تطبيق سياسة هجومية على مملكة بيت المقدس ، وانتصر على الصليبيين انتصارات متتالية فى ظاهر بانياس وفى حصن بيت الأحزان وفى مرج عيون فى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) . وفى مخاضة بيت الأحزان تمكن المسلمون من قتل الهنفرى صاحب حصن بانياس . كذلك هاجم صلاح الدين صيدا وصور وبيروت فى محرم سنة ٥٧٥ هـ «٥٩» ، فاضطر بلدوين الرابع الى عقد الهدنة مع صلاح الدين فى مايو سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) . ويذكر الدكتور سعيد عاشور أن هذه

---

(٥٨) الروضتين ، ج ٢ ص ٧٠٠

(٥٩) السلوك ج ١ ص ٦٨

الهـدنة كانت وقفا على مملكة بيت المقدس مما جعل صلاح الدين فى حل من مهاجمة الصليبيين فى شمـال الشام ، وخاصة امارة طرابلس ، فهاجم صلاح الدين بالاستعانة بأسطول مصر ثغر أنطرطوس ، وأنزل بهذه المدينة خسائر فادحة ،رغمت ريموند الثالث على عقد هدنة مماثلة مع صلاح الدين فى سنة ٥٧٧ هـ «[٦٠]»

ولم تلبث العلاقات بين صلاح الدين وريموند الثالث صاحب طرابلس وكافل مملـكة بيت المقدس أن تحسنت بعد ذلك تحسنـا ملموسا فى الوقت الذى ساءت فيه بين ريموند وباردنات مملكة بيت المقدس بسبب اختيارهم لجى دى لوزينان ملكا على بيت ابلمقـدس . وكان ريمـوند قد جدد الهدنة بينه وبين صلاح الدين لمدة أربع سنوات (٥٨١هـ — ٥٨٥هـ ١١٨٥ — ١١٨٩ م) ودخـل فى طاعة السلطان ، فرد اليه صـلاح الدين أسرى كوتتية طرابلس . فلما أقصى ريموند عن كفالة بيت المقدس ، ازداد تقربا من صلاح الدين ؛ « وصار يناصحه » «[٦١]» ، وباين أهل ملته وبث السرايا فى بلادهم «[٦٢]» ، ولم يلبث أن استعان بصلاح الدين ضد لوزينان عندما أزمع هذا الأخير على محاربته ، « واتـمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون

---

(٦٠) السلوك ، ج ١ ص ٧٧ — سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ص ١٣٤

(٦١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٩٢

(٦٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٧١٥

بذلك ووعده النصرة «٦٣» وكان ذلك من حسن طالع المسلمين ومن أسباب نصرة الاسلام «٦٤» ، فان انقسام الصليبيين كان نذيرا بهزيمتهم الساحقة فى حطين .

ثم كانت هزيمة الصليبيين فى صفورية فى مايو سنة ١١٨٧ ، وهى الوقعة التى سقط فيها عدد كبير من أبطال الصليبيين وفى مقدمتهم مقدم الاسبتارية ، افاقة للصليبيين من سباتهم العميق ، وباعثا لهم على التكتل أمام الخطر الاسلامى الجديد ، فأسرع ريموند الثالث الى الدخول فى طاعة جى دى لوزينان ومصالحته ، وقد أشار العماد الأصفهانى الى هذه المصالحة فقال : « وقد كن بينهم حينئذ حلف منبعث ، وحلف منتكث ، ووقوع نفار بين الأنفار ، ووقود شرار بين الشرار ، ولما استدانوا حين حينهم ، سعوا فى اصلاح ذات بينهم ، ودخل الملك على القومص ليتقمص له بالود الأخلص ، ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه ، فاصطحبا بعد ما اصطلحا واصحبا بعد ما جمحا ، وتزاور الفرنج وتوازروا ، وتآمروا ما بينهم وتشاوروا » «٦٥» .

---

(٦٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث ٥٨٢
ويقول العماد الاصفهانى : « واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر » (الفتح القسى ، ص ٦٨ طبعة الدار القومية)

(٦٤) أبوشامة ، ج ص ٧٤ ، ٧٥ — ابن واصل ، ج ٢ ص ١٨٥ — ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث ٥٨٢

(٦٥) العماد الاصفهانى ، الفتح القسى ، ص ٦٥ — ابن واصل — ج٢ ص ١٨٩

وفى موضع آخر يقول : « جاء الملك الى القومصى بنفسه ، وفتح له ما وجده من وحشته وعدمه من أنسه ، وقال أصحاب القومصى له : ان لم ننصره فنحن ما نخذل الدين ، ولا نكون بأيدينا مسـلمين الى المسلمين ، ونست بينهم ليوم المصاف المصافاة ، وزالت المنافرة والمنافاة «٦٦» . وذكر أبو الفداء أن القومصى صاحب طرابلس « كان قد هادن السلطان ودخل فى طاعته ، فأرسلت الفرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة لسـلطان ويوبخونه ، فصار معهم ، واجتمـع الفرنج لملتقى السلطان «٦٧» .

ولم يكد صلاح الدين يعلم بزوال أسباب الخلاف القائم بين ريموند وجى ، ودخول ريموند فى طاعة الملك ، ونكثه بذلك الاتفاقية المبرمة بينه وبين صلاح الدين حتى زحف طبريه «٦٨» فى ٢١ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ (يوليو ١١٨٧ م) ، فهدم النقابون أحد أبراجها وهدموه ، ودخلها المسلمون «٦٩» ، ولكن قلعتها استعصت عليه ، وكانت بداخلها أشيفا زوجة ريموند ، فأقام على حصارها فرقة من جيشه ومضى هـو ليلتقى مع جيش الصليبيين الزاحف عليه . ومع شدة قلق ريموند الثالث على زوجته وبنيها ، فقد نصح الملك بالانتظار وترقب الاحداث ، وقال له : «هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد

---

(٦٦) العماد الأصفهانى ، المرجع السابق ، ص ٦٨

(٦٧) أبو الفداء ، ج ٥ ص ٩٥

(٦٨) كانت طبرية ملكا لأشيفا زوجة ريموند الثالث

(٦٩) العماد الأصفهانى ، ص ٧٦ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ٩٥

من السلاطين لتسلطه ، واقدامه على المخاوف وتورطه ، وان كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر ، وليس الا المراوغة والمغاورة والصبر • والصواب ألا نخالطه ولا نباسطه ، ولا نخالفه ، ونقبل شرائطه » «٧٠» • فاتهمه أرناط بالخوف من المسلمين والميل اليهم ، وقال له الملك : « أنت قدقلبتك الآفة ، وفى قلبك المخافة » ، ولم يسع ريموند الا الرضوخ مكرها أمام اجماع القادة والبارونات • والتقى الجمعان فى حطين ، وانتهت الوقعة بهزيمة شنعاء لم يشهد لها الصليبيون نظيرا من قبل ، وكان ريموند قد أدرك بحكم خبرته وتجاربه السابقة مع المسلمين عبث القتال ، ورأى المسلمون يحدقون بالفرنجة احاطة الدائرة بقطرها ، فأيقن بالهزيمة ، وتحايل على النجاة بنفسه ، ففتح له تقى الدين صاحب حماة ثغرة خرج منها ريموند مع نفر من رجاله «٧١» الى صور ، أما قلعة طبرية فقد استسلمت فى اليوم التالى ، وأخرج صلاح الدين زوجة ريموند من القلعة بالأمان هى ونساؤها ورجالها ، ومضت الى طرابلس قاعدة زوجها «٧٢» • وكان فرار

---

(٧٠) نفس المرجع ص ٦٦

(٧١) ابن شداد ، ص ٧٧ — العماد الأصفهانى ، ص ٧٩ — ابن الأثير ، الكامل ، حوادث ٥٨٣ — أبو الفداء ج ٥ ص ٩٥ — النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢ — سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٠٤ ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٩٤ •

(٧٢) العماد الأصفهانى ، ص ٨٥

ريموند الثالث أثناء القتال فى حطين سببا فى أن يتهم بالخيانة والتواطؤ مع عسكر صلاح الدين «[٧٣]» ، ويبدو أنه ندم على فراره من المعركة ، فقد توفى بعد حطين بثلاثة أشهر اما أسفا على هزيمة الصليبيين ، أو ندما على الفرار أو لمرضه بذات الجنب فى رجب سنة ٥٨٣ هـ (اكتوبر ١١٨٧) .

وأخذت المعاقل الصليبية الكبرى تتساقط فى أيدى المسلمين بعد حطين ، فسقطت عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفولة ومجدل يابا ويافا والطور وقلعة تبنين وصرفند وصيدا وهونين وزرعين وبيسان ونابلس واللجون وأريحا والبيرة وأرسوف وبيروت والداروم وغزة وعسقلان والرملة والقدس وغيرها «[٧٤]» . وتدفقت فلول الصليبيين وجموع الفارين من المدن التى دخلها المسلمون شمالا نحو طرابلس ، ولكن طرابلس التى كانت تجتاز محنتها وتجتر آلامها بعد وفاة ريموند الثالث وانتقال الحكم فيها الى البيت النورمانى بأنطاكية أغلقت أمامهم أبوابها ، ورأى صلاح الدين أن يستغل انتصاره فى حطين فى توجيه ضرباته لامارة أنطاكية — طرابلس فى نفس الوقت الذى يقوم فيه بتطهير الجيوب الصليبية فى فلسطين ففى الوقت الذى كان يحاصر فيه بيروت سقطت جبيل فى يدى المسلمين فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ«[٧٥]».

---

(٧٣) Stevenson, p. 246, Note 7

(٧٤) العماد الأصفهانى ، ص ٢٢٧

(٧٥) ابن شداد ، ص ٨٠ — ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٠٧ — العماد الأصفهانى ، ، ص ١٠٨ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ٩٦

ثم هاجم صلاح الدين حصن الأكراد المنيع فى أول ربيع الثانى سنة ٥٨٤هـ، وشن الغارات على البقيعة من أراضى كونتية طرابلس «٧٦» ، ولما استعصى عليه الحصن تركه الى أنطرطوس فى ٦ جمادى الأولى ، فألفاها خالية ما عدا القلعة ، فخرب عمرانها ، وأمر « بوضع النار فى البلد » «٧٧» ، وهاجم المسلمون صافيثا وعرقة والعريمة ، وافتتحوا حصن يحمور الواقع الى الشمال من العريمة «٧٨» ، ولكن السلطان لم يشأ أن يستنفذ جهده فى محاصرة حصون طرابلس وقلاعها لمناعتها ووفرة حامياتها ، واستعدادها للحصار الطويل «٧٩» فاكتفى بغاراته فى نواحى طرابلس ، وزحف الى امارة أنطاكية ، فهاجم بلنياس ، واستولى عليها ، ثم استولى على جبلة وحصن بكسرائيل واللاذقية وحصن صهيون وبلاطنس وبكاس ودربساك وبغراس ، وهكذا أصبحت امارة أنطاكية ـ طرابلس مقصوصة

---

(٧٦) ابن شداد ، ص ٨٦ ، ٨٧

(٧٧) ابن شداد ، ص ٨٨ ـ ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٥٧

(٧٨) العماد الأصفهانى ، ص ٢٢٧

(٧٩) قال قاضى جبلة للسلطان : « ان الاشتغال بطرابلس على احترازها واحتراسها وكثرة ناسها وتدرعها بلباس بأسها واستعدادها للحصار ، وتجنبها عن الاصحار ، يذهب الزمان ويفوت الامكان » (العماد الأصفهانى ، ص ٢٢٧ ـ ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٥٦)

الجناحين «٨٠» . وأخيرا عقد السلطان الهدنة لمدة ثمانية أشهر مع صاحب أنطاكية لشدة ضجر عسكره ومللهم من مواصلة الحرب والقتال على أن يطلق بوهمند جميع أسارى المسلمين .

**

ولما توفى صلاح الدين فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ (١١٩٣ م) تمزقت مملكته بين بنيه واخوته ، واشتد النزاع بينهم ، فانتهز الصليبيون الفرصة واستولوا على جبيل فى سنة ٥٩٠ هـ «٨١» ، ثم استولوا على بيروت وقلعتها فى سنة ٥٩٤ هـ «٨٢» ، وقيل فى سنة ٥٩٣ هـ «٨٣» ، وأعطاها الكونت هنرى شامبين الى چان دى ايبلن «٨٤» . وفى ٣ رمضان سنة ٥٩٩ اجتمع الصليبيون ، خيالتهم ورجالتهم ، من حصن الأكراد ومن طرابلس وماحولها من حصون ، وأغاروا على أراضى المسلمين فى بعرين ، فاضطر الملك المنصور صاحب حماة الى مقاتلتهم ، وهزمهم ، وأسر عددا من مقدميهم وخيالتهم «٨٥» . ولم يمض على هذه الغارة ١٨ يوما حتى خرج حشد هائل من فرسان

---

(٨٠) سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ص ٢١٣ — الحركة الصليبية ، ص ٨٣٠

(٨١) ابن واصل ، ج ٣ ص ٢٦ — السلوك ، ج ١ ص ١١٦

(٨٢) نفس المصدر ، ص ٧٤ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٢٢

(٨٣) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٣٨

(٨٤) ابراهيم نعوم كنعان ، بيروت فى التاريخ ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢٦

(٨٥) ابن واصل ج ٣ ص ١٤٣ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٣٤

الاسبتارية عدتهم أربعمائة فارس ، وألف ومائتين من الرجالة عدا التركبولية ، من حصنى الأكراد والمرقب ، وأغاروا على حصن بعرين ، وتسكن الملك المنصور فى هذه المرة أيضا من هزيمتهم ، وقتل منهم مقدم التركبلية وقومصى من البحرية «٨٦» . وأخيرا عقد معهم الهدنة فى سنة ٦٠٠ هـ «٨٧» . ولما انتهت الهدنة ، أغار الاسبتارية من جديد على حماة فى سنة ٦٠١ هـ ، فتجددت الهدنة بينه وبينهم «٨٨» . وفى ذى القعدة أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية ، وأكمنوا جماعة منهم بالقرب من جبلة ، فخرج أهل جبلة لمطاردة الفرنج فأحاط بهم الفرنج من الكمائن ، وقتلوا من المسلمين أعدادا هائلة «٨٩» .

وكان من الطبيعى ازاء هذه الغارات المتكررة التى كان يشنها الاسبتارية على اقليم حمص أن يعمل السلطان الملك العادل على تأديب الاسبتارية بحصن الأكراد وغيره من حصون طرابلس ، وارهابهم ، ففى سنة ٦٠٣ هـ نزل العادل على ضفاف بحيرة قدس (بحيرة حمص) واستدعى ملوك الشام من أهل بيته مع عساكرهم ، فقدم اليه الملك المنصور صاحب حماة ، والملك المجاهد صاحب حمص ونجدة بن الملك الظاهر صاحب حلب ،

---

(٨٦) ابن واصل ، ج ٣ ص ١٤٩ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ١٦١
(٨٧) نفس المصدر ، ص ١٥٤ — السلوك ، ج ١ ص ١٦٢
(٨٨) نفس المصدر ، ص ١٦٣
(٨٩) نفس المصدر ، ص ١٦٦ — السلوك ، ج ١ ص ١٦٤

والملك الأمجد صاحب بعلبك ، بالاضافة الى عسكر سنجار والموصل والجزيرة وآمد ، حتى بلغت عدة عساكر عشرة آلاف فارس ، فأعلن عن عزمه على قصد كونتية طرابلس ، ثم زحف الى حصن الأكراد ونازله ، وتمكن عسكره من افتتاح برج مجاور له يعرف ببرج أعناز ، فأسر من حاميته نحو خمسمائة وغنم غنائم كثيرة . ثم زحف الى قلعة قريبة من طرابلس ، نصب عليها المجانيق وحصرها فترة من الوقت حتى افتتحها ، ثم حاصر مدينة طرابلس نفسها حصارا شديدا ، ونصب عليها المجانيق وعاث عسكره فى قرى طرابلس وضياعها وبساتينها ، وانتسفوا المزارع والثمار ، وهدموا كل بناء قائم فى ظاهر طرابلس ، وقطعوا مياه العين التى تمدطرابلس بالمياه ، وخربوا طرقها.ويضيف ابن الأثير أن السلطان العادل استولى على حصن القليعات وهو حصن صغير يقع شمالى عرقة، ثم خربة «٩٠» ؛ واضطر بوهمند الرابع الى أن يسأله الموادعة، وأرسل اليه أموالا وهدايا، بالاضافة الى ثلثمائة من أسرى المسلمين ، وتم الصلح بينهما فى آخر ذى الحجة سنة ٦٠٣ هـ «٩١» .

---

(٩٠) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٦٠٤ هـ —

Recueil des Historiens des Croisades, t. II, Partie I ére, p. 106.

(٩١) ابن واصل ج ٣ ص ١٧٣ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص١٩٦ — أبوالفداء ، ج ٥ ص ١٤٠ — المقريزى ، السلوك ، ج١ ص١٦٦ ، ١٦٧ — جرجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٢٨٨ — سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٤٨

ولما أغار الفرنج على دمياط فى سنه ٦١٥ هـ أمر العادل ولده الملك الأشرف بالاغارة على كونتيه طرابلس . فهاجم الأشرف صافيثا ، وخرب ربضها ، ونهب رستاقها ، وهدم ما كان قائما حولها من حصون وقلاع ، ثم استولى على ربض حصن الأكراد ، وحاصر الحصن ولكنه لم يوفق فى الاستيلاء عليه «[٩٢]» .

ثم تبع ذلك فترة من الركود بالنسبة للمعسكرين الاسلامى والصليبى ، لم تنته الا والمغول على أبواب الشام .

---

(٩٢) ابن واصل ، ج ٣ ص ٢٦٥

(٢)

غزو بيبرس لأراضى الكونتة

١ ـ تجريد كونتيه طرابلس من حصونها ومعاقلها الامامية

أما من قبل كيف أحدث سقوط بغداد فى أيدى المغول فى ١٠ من محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٥ فبراير سنة ١٢٥٨ م) دويا هائلا فى سائر أنحاء العالم الاسلامى . ونبه المسلمين فى مصر والشام الى ضرورة العمل الموحد ونبذ الخلافات وأسباب الفرقة والنزاع أمام خطر المغول الجارف ، ولذلك السبب حرص الظاهر بيبرس على تأليف جبهة اسلامية متحدة تضم مصر والشام لمواجهة مؤامرات الصليبيين والمغول واحباطها ، والعمل على اخراج الصليبيين بصورة نهائية من الشام . ولم يكن بيبرس قد نسى بعد الدور الذى لعبه بوهمند السادس ومن حذا حذوه من الصليبيين لمساعدة المغول . وقد كان لذلك أعمق الأثر فى أن يعمل بيبرس على سحق الامارات الصليبية الباقية فى بلاد الشام فى أنطاكية وطرابلس وعكا «[١]» ، وأن يبدأ بتسديد أولى ضرباته الى امارة أنطاكية لمعاقبة أميرها بوهمند السادس على محالفته للمغول . فلقد كان بيبرس يرى فى بوهمند العدو الأعظم له من بين أمراء الفرنجة جميعا لأنه كان يتلقى النجدات من أوربا ، ويعين المغول

---

(١) سعيد عاشور . مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٥١ . العصر المماليكى فى مصر والشام . القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٩

فى غزوهم لبلاد الشام ويكثر من العيث وشن الغارات التخريبية على أراضى المسلمين . ولا شك أن بيبرس قد نهج نفس السبيل الذى كان قد انتهجه صلاح الدين صاحب الفضل الأعظم فى اخراج الصليبيين من بيت المقدس، بل اننا نراه يتقمص شخصية صلاح الدين ويقضى الشطر الأكبر من حياته مجاهدا مثاغرا بين الشام ومصر .

شرع بيبرس فى تحقيق خطتـه فى سنة ٦٦٠ هـ ، فوجه الأمير شمس الدين سنقر الرومى للاغارة على أنطاكية ، وقـد نجح الأمير المذكور فى خطته ، وأحرق ميناءها ، وعاد وبصحبته مايزيد على ثلثمائة أسير «٢» . ثم حرص بيبرس بعد ذلك على ضرب طرابلس نفسها ، فهاجمها مباشرة فى شعبان سنة ٦٦٤ هـ ، ولكنـها استعصت عليه ، فعمد الى احتلال القلاع المجاورة لها . وفى هـذه الغزوة سير بيبرس عسكره بقيادة جمال الدين أيدغرى الطريزى وعسكر آخر بقيادة الامير سيف الدين قلاوون الصالحى للاغارة على بلاد السـواحل ، فأغار عسـاكرهمـا على طرابلس وحصن الأكراد «٣» ، كما أغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس ، ونزلوا على حصن من عمل حصن الأكراد واستولوا عليه ، كما استولوا على قلعة حلبا

---

(٢) أبو الفداء ، ج ٦ ص ١٢٢ — السلوك ج ٢ ص ٤٧٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ح ٧ ص١٣٨ — منتخبات من كتاب عقد الجمان لبدر الدين العينى فى : R. H. C. t. II, Partie I ére, p. 221

والقليعات ، وخربوا قلعة عرقة «٤» • وكانت هـذه القلاع الثلاثة تؤلف ما يشبه المثلث الذى يحمى طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقى ، لاشرافها على المنفذ الموصل بين طرابلس وحمص «٥» ، فكان استيلاء الظاهر بيبرس عليها تهديدا مباشرا لطرابلس «٦» • ثم حاصر طرابلس ، فانحدر اليه الموارنة من قسم الجبال واضطر الى رفع الحصار عنها والرحيل «٧» •

وفى شعبان سنة ٦٦٦ هـ أعاد بيبرس الكرة ، فوجه عساكره الى اقليم طرابلس ، وشن الغارة عليها ، وقطع أشجارها وخرب قراها ، وغور أنهارها «٨» ، ورحل بعد ذلك الى حصن الأكراد ، ونزل بالمرج الذى يقع بأدنى الحصن «٩» • ولما تم له الاستيلاء على أنطاكية فى ٤ رمضان سنة ٦٦٦هـ ، كتب رسالة الى بوهمند الذى كان مقيما وقتئذ بطرابلس ،

---

(٤) أبو الفداء ، ح ٧ ص ٦ — ابن الفرات ، مجلد ٦ ، ح ١ ، بيروت ١٩٦١ ، تحقيق ميخائيل خورى تذييلا لرسالة الماجستير المقدمة الى جامعة بيروت الامريكية سنة ١٩٦١ ، ص ١٩٠

(٥) Claude Cahen, p. 715

(٦) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٤٧

(٧) جرجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٨٩

(٨) ابن الفرات مجلد ٦ ، ح ١ تحقيق ميخائيل خورى ، ص ١٩٠ — السلوك ، ح ١ قسم ٢ ص ٥٦٦ — النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٢

(٩) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٣ — Stevenson, p. 340

تتضمن عباراتها كثيرا من معانى السخرية والتهكم اللاذع ، ثم أغار بعد ذلك على المرقب وحصن الأكراد «١٠» . وفى ١٠ رجب سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) هاجم طرابلس . وانتزع صافيثا والمجدل من الداوية ، ثم ثم زحف عسكره الى حصن الأكراد فى ١٩ رجب ، ونصبوا المجانيق وأقاموا الستائر ونقبوا أسوارها الثلاثة فى ١٥ شعبان ، ودخل العسكر حصن الأكراد بالسيف «١١» ، وأطلق الظاهر بيبرس من كان فيه من الافرنج ، فتوجهوا الى طرابلس «١٢» .

وبفتح حصن الأكراد تفتحت المنافذ الى طرابلس نفسها ، وقام بيبرس بترميم بناء الحصن ، واتخذه قاعدة لعملياته الحربية ضد طرابلس «١٣» . ثم رحل الظاهر بيبرس عنه بعد أن عهد الى الأمير عزالدين أيبك الأفرم بعمارته ، وخاف صاحب أنطرطوس أن تلقى مدينته نفس المصير ، فبعث الى بيبرس يطلب المهادنة ، وأرسل اليه مفاتيح أنطرطوس ، فصالحه على نصف ما يتحصل من غلال بلده ، وجعل بانطرطوس نائبا عنه فيها ، ثم صالح بيبرس المرقب على المناصفة كذلك فى أول رمضان سنة ٦٦٩ هـ ، وعقد مع صاحبها هدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام «١٤» ،

---

(١٠) نفس المصدر ، ١٤٨

(١١) King, The Knights, p. 269 , 270

(١٢) النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ١٥٠ ، ١٥١

(١٣) King, op. cit. p. 271

(١٤) النجوم الزاهرة ، ح ٧ ، ص ١٥١

ولكن قوات بيبرس أصبحت تطبق على المرقب من الشمال والجنوب خاصة بعد أن افتتح المسلمون مرقية التى تقع جنوب المرقب . وفى رمضان سنة ٦٦٩ هـ حاصر بيبرس حصن عكار ، آخر حصون طرابلس الأمامية ، ويقع الى الشمال من طرابلس ، ونصب عليه المجانيق . وألقها ، فهدم جزءا من السور ، فطلب أهـل الحصن الأمان على أنفسهم وأن يأذن لهم بيبرس بالتوجه الى طرابلس ، فأجابهم«١٥» ، وبسقوط حصن عكار ينقطع الاتصال فى الساحل الافرنجى بين طرابلس واللاذقية «١٦» ، وأصبح فى امكان بيبرس بعد ذلك أن يحاصر طرابلس نفسها ، ويحقق حلمه بالاستيلاء عليها . ولكن الأنباء القائلة بوصول الحملة الصليبية السابعة أنقذت طرابلس من المصير الذى لاقته أنطاكية .

نزل بيبرس على طرابلس فى ٤ شوال من سنة ٦٦٩هـ ، فأرسل اليه بوهمند السادس يستعطفه ويسأله الصلح ، فبعث اليه الظاهر بيبرس فارس الدين الأتابك وسيف الدين بلبان الرومى الدوادار لمفاوضته فى أن يكون لبيبرس من أعمال طرابلس نصف بالسوية ، وأن يكون له فيها دار وكالة لجمع الزكاة ، وأن يعطيه بوهمند جبلة واللاذقية بخراجهما منذ

---

(١٥) أنور زقلمة ، المماليك فى مصر ، ص ٣٧ . وفى فتح عكار يقول محيى الدين بن عبد الظاهر مهنئا :

يا مليك الارض بشرا لك فقد نلت الارادة
ان عكار يقينا هو عكا وزيادة

(١٦) Claude Cahen, p. 715

أن خرجتا على الناصر صلاح الدين الى أيامه ، وأن يدفع له نفقـة عسكر المسلمين • ولكن بوهمند تردد فى قبول هـذه الشروط اذ وجد فى قبولها اذلالا له ولكرامته ، فآثر القتـال ، وأخذ يحصن طرابلس • وكان رد بيبرس على ذلك أن أمر بنصب المجانيق حول أسوار المدينة • غير أنه وجد نفسه مضطرا الى التساهل مع بوهمند أمام تهـديدات التتار ، وبسبب ما أشيع من نزول الحملة الصليبية السابعة على ساحل عكا • وتم الصلح بينه وبين بوهمند على ما يلى :

١ ـ أن تكون عرقة وجبيل وأعمالهما لبوهمند مع التأكيد بأن عرقة وأعمالها وهى ٥٦ قرية صدقة من الملك الظاهر عليه •

٢ ـ أن تؤول نصف غلات أنطرطوس والمرقب وبلنياس للسلطان ؛ والنصف الآخر للداوية والاسبتارية •

٣ ـ أن تؤول بعرين وحصن القديسة الى السلطان •

٤ ـ مدة الصلح عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام «[١٧]» •

---

(١٧) قطب الدين أبو الفتـح اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، مجلد ١ ، طبعة حيدر أباد ، ١٩٥٤ ص ٤٥٠ ـ ابن الفرات ، ج ٦ ، تحقيق ميخائيل نجم حوزى ، ص ١٩٨ ـ النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٢

Stevenson, p. 343

ثم توفى بوهمند السادس فى رمضان سنـــة ٦٧٣ هـ (١٠ مارس سنة ١٢٧٥ م) وخلفه ابنه بوهمند السابع ، فاقتضى الأمر تجديد معاهدة الصلح ، فسأل بوهمند السابع السلطان بيبرس أن يأذن بارسال سيف الدولة بلبان الدوادار رســوله الى طرابلس ليــوقع الاتفاق بالصلح ، فوافق بيبرس ودخلها سيف الدين بلبان فى ٨ من المحرم سنة ٦٧٤ هـ فى موكب من المماليك السلطانية ومماليـــكه وأجناده ، وتلقاه مقــدمو طرابلس ، واجتمع الأمير ببوهمند ، وسلم اليه كتاب السلطان ، وتم الصلح على أن يدفع بوهمند لبيبرس مبلغا قدره عشرون ألف دينار صورية كل سنة ، ويرد اليه عشرين أســيرا «١٨» .

ب ــ عوامل تاخير استرداد المسلمين لطرابلس :

لا شك أن الخلافات الداخلية القائمة فى المعسكر الصليبى ، والحروب الأهلية التى نشبت فى امارة طرابلس وأنطاكية على العرش ، والتفوق الحربى للمـــاليك كقوة عظمى ظهـــرت على مسرح الأحـــداث فى الشرق الأدنى الاسلامى كان لها الفضـــل الأعظم فى التغلب على قوى المغول والاطاحة بالحملات الصليبيـــة المتأخرة سواء على مصر أو على الشام ، فى الوقت الذى ارتبطت فيه مصر والشام فى وحدة شاملة فى عصر المماليك ، كل هذه أمور ساعدت على انجاح حـــركة الظاهر بيبرس . واذا كان عماد الدين زنكى قـــد استرد امارة الرها الصليبية ، وصلاح الدين قد استرجع بيت

---

(١٨) ابن الفرات ج ٧ ص ٤٠ ــ المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٦١٩

المقدس ، فان بيبرس نجح أيضا فى استرداد أنطاكية القاعدة الرئيسية للامارة الصليبية المتحدة «طرابلس انطاكية» ، وكان فى امكانه أن يسترد طرابلس وما يتبعها نهائيا بعد سلسلة الضربات المتواصلة التى سددها اليها فيما بين علمى ٦٦٤ هـ ، ٦٦٩ هـ ، لولا عدة عوامل أخرت حركة الاسترداد الاسلامى. وعوقت تقدم الجيوش المملوكية فى بلاد الشام نذكر منها عاملين رئيسيين هما : ١ — تعاون الباطنية والمردة فى الشام مع الصليبيين ٢ — تعدد جبهات القتال • أما عن المردة أو الموارنة وانضمامهم الى جانب الصليبيين فأمر أشرنا اليه عند تعرضنا لذكر الحملة الصليبية الأولى ، كما أشرنا الى الموارنة عند حديثنا عن عناصر السكان فى كونتية طرابلس • ولقد كان الموارنة العنصر المحلى الرئيسى الذى اعتمد عليه الصليبيون فى معاركهم ضد المسلمين ، فكثيرا ما كانوا يشركونهم معهم فى الغزوات ، وكثيرا ماكان الموارنة ينقضون من قراهم بأعالى الجبال ليقطعوا على جيوش المسلمين خط الرجعة ويفتكوا بهم • وقد ظهر تعاونهم مع الصليبيين واضحا فى غزوات بيبرس ، فعندما حاصر الظاهر بيبرس مدينة طرابلس فى سنة ٦٦٤ هـ انحدر اليه المردة من قمم الجبال وهزموا عساكره ، وفى سنة ٦٦٥هـ سار بيبرس لحصار طرابلس بعد أن افتتح تيرون فانسكب عليه المردة من قمم الجبال : واضطر الى الانسحاب الى حصن الأكراد «١٩» • ولم تتهيأ لبيبرس الفرصة لتأديب هؤلاء المردة ، وسيتولى هذه المهمة من بعده السلطان الملك المنصور قلاوون فى سنة ١٢٨٣ م •

---

(١٩) الشدياق ، ج ١ ص ٢٥١ — محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة ، ج ١ ص ٥٠٠

أما الاسماعيلية أو الحشيشية او الباطنيـة أصحاب قلاع الدعوة بالشام فقـد كانت لهم دويلة مستقلة تشـغل القسم الجنوبى من جبال النصـيرية المعروفة بجبال البهرة ، وهى جبال شاهقة الارتفاع ، لها قمم شديدة الانحدار ، وأودية وعرة المسالك، ودروب متشعبة ضيقة ، تنتصب بها القـلاع والحصـون ، وتتناثر فيها القرى والضياع . نشأت دويلة الاسماعيلية بادىء ذى بدء فى هذه المنطقة الجبلية المنيعة ، ثم اتسعت شيئا فشيئا ، فضمن حصن القـدموس سنة ٥٢٥ هـ ، وهو الحصن الذى باعه سيف الملك بن عمـرون للداعى أبى الفتح الاسـماعيلى بسبب الضغط الصليبى ، ثم احتلوا الخوابى والكهف فى سنـة ٥٣٢ هـ ، واستولوا على قلعة مصياف بعد أن قتلوا صاحبها فى سنة ٥٣٥ هـ ، وضموا حصن المنيقة سنة ٥٤٦ «(٢٠)» .

ولقد اعتمدت دويلة الاسماعيلية فى بقائها من ٥٣٥ هـ الى ٦٧٠ هـ على التوازن القائم بين قوتى المسلمين والصليبيين ، فلما رجحت كفة المسلمين فى أيام بيبرس ، فقدوا استقلالهم نهائيا «(٢١)» . كذلك اعتمد الاسماعيلية فى الدفاع عن أنفسهم من مطامع خصومهم على قلاع الدعوة ، وهى قلاع منيعة لا ترام ، كما اعتمدوا أيضا على الاغتيالات السياسية لافتقارهم الى جيش يتكافأ فى قوته مع جيوش خصومهم السلاجقة المسلمين ، وجيرانهم الصليبيين على السواء . وعلى هذا النحو اهتموا بتنظيم جماعة الفداوية

---

(٢٠) ميشيل لباد ، الاسماعيليون والدولة الاسماعيليـة بمصياف (٥٣٥ — ٦٧٠ هـ) بيروت ، ١٩٦٢ ص ٨٠ ، ٨١

(٢١) ميشيل لباد ، الاسماعيليون والدولة الاسماعيليـة ، ص٨٩

لتنفيذ خططهم فى اغتيال من شاءوا من زعماء المسلمين والصليبيين ، وبثوا العيون للتجسس والوقوف على نوايا المسلمين والصليبيين نحوهم.ووقف شيوخ الجبل ، وعلى الأخص راشد الدين سنان البصرى ، موقفا معاديا من سياسة نور الدين التوسعية ، وسعيه الى ضم مناطق نفوذ الاسماعيلية الى دولته «٢٢» ، كما وقفوا أيضا موقفا مضادا من صلاح الدين عندما شرع فى توحيد الجبهة الاسلامية تمهيدا للجهاد الأعظم ضد الصليبيين . ويمكننا أن نضيف الى هذا العامل السياسى عاملا مذهبيا ، فكل من نور الدين وصلاح الدين كان سنيا يعمل لهدم قواعد المذهب الاسماعيلى ، وعندئذ أشهر الاسماعيلية الحشيشية «٢٣» ، سلاحهم ضد زعماء السنة .

---

(٢٢) خاصة منذ أن انتزع شيزر من الاسماعيلية فى سنة ٥٦٤ هـ

(٢٣) الحشيشية أو الباطنية هم فرقة من الشيعة الاسماعيلية على مذهب النزارية ، أقاموا لهم دولة مستقلة مركزها قلعة الموت جنوبى بحر قزوين ، وقد عرفوا بالحشيشية اما لاستخدامهم الحشيش لتخدير جماعة الفداوية (فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ص ٢٤٦ — محمد عبدالله عنان ، تراجم اسلامية ، ص ٥٧) ، أو أنها مشتقة من لفظة Assassin التى أطلقها البروفنسيون فى طرابلس على الفداوية الذين فتكوا ببعض زعمائهم ، أو من لفظة عساسين لأن الاسماعيلية كانوا يقضون الليالى فى حراسة قلاعهم وحصونهم (راجع ميشيل لباد ، ص ٧٤).ويرى الدكتور جوزيف نسيم أن لفظة حشاشين مشتقة من مصدر « حش » أى قطع ، بمعنى أنهم كانوا يقطعون رقاب ضحاياهم ومنها انتقلت اللفظة الى اللغات الأوربية بمعنى القتلة ، وهو رأى يخالف رأى الاستاذ ميشيل لباد الذى عرضناه فيما سبق .

=

فقتلوا جناح الدولة حسين أتابك أمير حمص سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) «٢٤» ، وخلف بن ملاعب صاحب أفامية سنة ٤٩٩ هـ «٢٥» (١١٠٥م) ، والأمير شرف الدين مودود أتابك الموصل سنة ٥٠٧ هـ «٢٦» (١١١٣ م) وآقسنقر البرسقى سنة ٥٢٠ هـ «٢٧» (١٢٢٦ م) . وقد حاولوا قتل صلاح الدين ابن أيوب مرتين ، ولكنهم اخفقوا فى سعيهم على نحو ماذكرناه آنفا «٢٨» .

وكان من الطبيعى أن يتقرب الاسماعيلية الى الصليبيين لعدائهم الشديد لأهل السنة ، فقد سلم داعيتهم اسماعيل القائم بانياس هذه المدينة الى الصليبيين فى سنة ٥٢٣ هـ «٢٩» ، وعندما انتزع نور الدين محمود قلعة شيزر من الاسماعيلية ، عمد راشد الدين سنان شيخ الجبل الى الاتصال بعمورى ملك بيت المقدس ، فأرسل وفدا الى بيت المقدس ، رحب به عمورى ترحيبا بالغا «٣٠» ، كذلك زار هنرى

= (راجع : جوزيف نسيم يوسف ، لويس التاسع فى الشرق الاوسط ١٢٥٠ — ١٢٥٤ . القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٣١ حاشية رقم ١)

(٢٤) ابن القلانسى ، ص ١٤٢ .

(٢٥) ابن القلانسى ، ص ١٤٩

(٢٦) نفس المصدر ، ص ١٨٧

(٢٧) نفس المصدر ، ص ٢١٤

(٢٨) أبو الفداء ج ٥ ص٧٧ ، ٨٠ — المقريزى ج ١ ص ٦٢ — ابن تغرى بردى ، ج ٦ ص ٢٧

(٢٩) ابن القلانسى ، ص ٢٢٤

(٣٠) ميشيل لباد ، ص ١٠٧ — عبد الله عنان ، تراجم اسلامية ، ص ٥٨

دى شامبين شيخ الجبل فى مصياف زيارة ودية أثناء سيره الى أنطاكية «٣١»؛ ويتبادل شيخ الجبل فى مصياف مع لويس التاسع أثناء مقامه بعكا فى سنة ١٢٥٠ م ، بعد فشله فى حملته على مصر ، الرسل والوفود تحمل الهدايا والتحف ، لتوقيع معاهدة بين الطرفين «٣٢» .

وعلى الرغم من هذا الموقف العدائى الذى وقفه الاسماعيلية من زعماء الاسلام وانحيازهم الى الصليبيين فانهم لم يترددوا فى ضرب زعماء الصليبيين واغتيالهم عندما كانوا يحسون بخطورتهم عليهم ، فقد قتل جماعة من الباطنية الكونت ريموند الثانى أمير طرابلس فى سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، كما قتلوا المركيس صاحب صور (كونراد دى مونتفرات) فى بلدته «٣٣» . وفى سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) لقى ريموند الابن الأكبر لبوهمند الثالث مصرعه بكنيسة أنطرطوس على يدى فدائى من أتباع شيخ الجبل ، وذلك عندما شن هجومه على أملاك الاسماعيلية «٣٤» .

أما فى عصر المماليك ، فقد ضعفت جماعة الاسماعيلية ضعفا شديدا بسبب

---

(٣١) فيليب حتى ، تاريخ سوريا ، ج ٢ ص ٢٤٧ — ميشيل لباد ، ص ١٠٨

(٣٢) نفس المرجع ، ٢٤٧ — ميشيل لباد ، ص ١١٠ — چوزيف نسيم لويس التاسع ، ص ٢١١ ، ٢٢٦

(٣٣) ابن شداد ، ص ٢٠٨ — ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٨١ — أبو الفداء ، ج ٥ ص ١٠٨

(٣٤) ميشيل لباد ، ١٠٩

النزاع الداخلى المتواصل ، وانحازت هذه الجماعة الى جانب الصليبيين، ودخلت تحت حماية فرسان الاسبتارية ، وظلت تدفع لهم جزية سنوية «[٣٥]» حتى أيام الظاهر بيبرس . وفى سنة ٦٦٥هـ عرض الاسماعيليـة صداقتهم للظاهر بيبرس، وأرسلوا اليه الأموال التى كانوا يدفعونها للاسبتارية«[٣٦]». وانتهز بيبرس فرصة الصلح الذى عقـده مع الاسبتارية فى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧م) واشترط عليهم أن تحول الجزية التى كان الاسبتارية يفرضونها على الباطنية اليه «[٣٧]» . وفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩م) أرسل نجم الدين حسن بن الشعرانى صاحب قلاع الاسماعيليـة الى الظاهر بيبرس يطلب منه أن يخفف عن شعبه الجزية التى يدفعها لبيت المال ، وقدرها مائة ألف درهم «[٣٨]» ، فعزله الظاهر ونصب مكانه صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة على بلاد الدعوة كنائب عن السلطان فيها ، وهى قلاع الكهف، والخوابى ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس ، والرصـافة . أما مصياف، فقد انتزعها الظاهر بيبرس من بلاد الدعوة «[٣٩]» . وفى ١١ شوال من سنة

---

(٣٥) جمال سرور ، دولة الظـاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٩١

(٣٦) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧

(٣٧) King, The Knights hospitallers in Holy Land, p. 262 - Cahen, p. 715 — جمال سرور ، ص ٩١

(٣٨) ميشيل لباد ، ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٣٩) أبو الفداء ، ج ٧ ص ١٠ — السلوك ، ج ١ ص ٥٨٧ — سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٨٣

٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) انتزع الظاهر حصن العليقة من حصون الاسماعيلية «٤٠» ، وفى ٢٦ صفر سنة ٦٧٠ هـ ضرب بيبرس الاسماعيلية ضربته التالية، فقد أمر بالقبض على شمس الدين بن نجم الدين صاحب الدعوة وعلى أصحابه . وسيرهم الى مصر ، واستولى على حصن الخوابى «٤١» ، ثم استولى فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٦٧١ هـ على بقية قلاع الدعوة وهى المينقة والقدموس والكهف «٤٢» . وبذلك قضى الظاهر بيبرس على دويلة الاسماعيلية الحشيشية التى طالما عرقلت مشاريع زعماء الاسلام لتكوين الجبهة الاسلامية المتحدة باغتيالاتها السياسية ، وتآمرها مع الصليبيين ، كما أنها اعترضت سبيل الظاهر بيبرس فى حربه ضد الصليبيين «٤٣» ، وأخرت بذلك استرداد طرابلس .

أما فيما يختص بالعامل الثانى ، فمن المعروف أن أعداء بيبرس كانوا من الكثرة بحيث لم تخل سنة من سنوات حكمه من حملات يشنها فى الشام ضد الصليبيين ، وفى العراق ضد المغول ، وفى جنوب مصر ضد النوبيين ، ومن استعدادت حربية لغزو صليبى مرتقب على مصر ، فالخطر

---

(٤٠) أبو الفداء ، ج ٧ ص ١٠ — السلوك ، ج ١ ص ٥٩٣

(٤١) السلوك ، ج ١ ص ٥٩٩

(٤٢) أبو الفداء ، ج ٧ ص ١١ — السلوك ، ج ١ ص ٦٠٨

(٤٣) Nicola Ziadeh, op. cit. p. 8

المغولى لم يكن قد انحسر تماما عن الشام ومصر بعد ، وقوة الصليبيين فى الشام وقبرص . والأرمن فى آسيا الصغرى . رغم ما اعتراها من وهن واضمحلال بعد عين جالوت ، كانت لا يستهان بها . ولقد صرف بيبرس جهوده كلها لمحاربة أعدائه . وقضى فترة حكمه كلها فى جهاد متواصل فى كل ناحية من نواحى دولته «٤٤» : فالمغول بعد هزيمتهم فى ٦٥٨ فى عين جالوت ظلوا يشكلون خطرا على بلاد الشام ، بل أن خطرهم زاد زيادة واضحة فى عهد أبغا بن هولاكو الذى تزوج من ابنة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وحرص على أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية فى الشرق والغرب للانتقام من المماليك «٤٥» ، وواصل المغول عدوانهم على بلاد الشام . والصليبيون لم يرتدعوا من فشل تحالفهم مع المغول للقضاء على دولة المماليك ، فعاود المغول الاتصال بهم ، وواعدوهم واتفقوا معهم على القيام بهجوم مشترك على بلاد الشام ، ولكن بيبرس حاربهم حربا لا هوادة فيها ، انتهت بسقوط أنطاكية واقتطاع قسم كبير من أراضى طرابلس وفلسطين . وعلى الرغم من الصلح الذى عقده بوهمند السادس فى سنة ٦٦٩ هـ مع بيبرس ، فقد اتصل بأبغاخان عن طريق ممثله الدائم

---

(٤٤) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١ — جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، ٩٤ ، القاهرة ١٩٦٠

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٤٣ — جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس ص ٩٥

بارتلمي صاحب مرقية ، واستنصره على المسلمين «٢٦» ، ولكن أبغا لم يأبه لذلك ، بل عنفه على قدومه اليه لخوفه من أن يبث ذلك الذعر في قلوب عساكره «٤٧» . كذلك حاول بيبرس غزو قبرص التي لعبت دورا هاما في مساعدة الصليبيين وفي الاعتداء على سفن المسلمين في البحر المتوسط «٤٨» . وأما النوبيون ، فقد حرص بيبرس على تأديبهم للغارات التي كانوا يشنونها على حدود مصر ولشقهم عصا الطاعة عليه «٤٩» . وفي عهد بيبرس وصلت حملة صليبية صغيرة الى الشام ، ونزلت في عكا في سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١م) بقيادة الأمير ادورد الانجليزى ، كما أرجف بقرب وصول حملة صليبية أخرى بقيادة لويس التاسع على مصر ، وهي الحملة التي تحولت بعد ذلك الى تونس «٥٠» .

---

(٤٦) Claude Cahen, p. 719

(٤٧) مفضل بن أبي الفضائل ، كتاب النهج السديد والدر الفريد ، باريس ، ١٩١١ ، ص ١٩٥

(٤٨) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٤٧

(٤٩) جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ١١٥

(٥٠) السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٧٩

(٣)

سقوط طرابلس فى أيدى المسلمين

١ ـ وضع امارة طرابلس بعد وفاة بوهمند السادس :

توفى بوهمند السادس فى ٩ رمضان سنة ٦٧٣ هـ (مايو ١٢٧٥ م) ، وخلفه على امارة طرابلس ابنه القاصر بوهمند السابع (١٢٧٥ ــ ١٢٨٧ م) ، فكفلته أمه الكونتيسة سيبل الأرمنية ، وأعانها فى كفالته برتلميو أسقف أنطرطوس «١» ، ولكن الكونتية لوشيا أرملة بوهمند الخامس كانت تسعى هى الأخرى الظفر بالسلطان معتمدة فى ذلك على تأييد الجالية الايطالية بطرابلس بالاضافة الى أخيها بول أسقف طرابلس ، ثم تدخل جماعتا فرسان الداوية والاسبتارية فى هذا النزاع ، فأيد الاسبتارية الكونتيسة سيبل بينما أيد الداوية الكونتيسة لوشيا وحزبها الايطالى ، وانضم الى هذا الفريق أيضا أقوى بارونات الكونتية جى الثانى دى امبرياتشو المعروف فى المصادر العربية باسم سيركى صاحب جبيل ، وتبع ذلك قيام حرب أهلية مريرة كان من نتائجها اضمحلال العمران فى طرابلس وتخريب كثير من المنشآت «٢» .

---

(١) King, op. cit. p. 281

(٢) Ibid. p. 280

وكان سيركى أو جى الثانى صاحب جبيل يسعى للاستيلاء على طرابلس، فكاتب خيالة طرابلس كى ينضموا اليه ضد الأمير ، كما طلب من السلطان المنصور قلاوون ، الذى كان قد انتزع السلطنة المملوكية من أبناء بيبرس فى سنة ٦٧٨ هـ ، فى ذلك الشأن ، وعرض عليه أن يقتسم معه طرابلس ، فلم يسع قلاوون الا أن يقبل هذا العرض المغرى ،وأمد الأمير سيف الدين بلبان صاحب حصن الأكراد سيركى بجماعة من المسلمين عرفوا باسم الجبليين . وفى آخر شوال سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ركب صاحب جبيل سفنه مع أصحابه وجماعة من الجبليين ، ودخلوا ميناء طرابلس ليلا ، وكان بوهمند قد وصلته أنباء هذه المؤامرة ، فاتخذ عدته للايقاع بالمتآمرين، وأعد الكمائن ونصبها ، وأوقع بصاحب جبيل وأصحابه عندما قصدوا دار الديوية ، وقبض على جى وأودعه سجن طرابلس ، فظل سجينا حتى توفى . ثم استولى بوهمند على جبيل وأصبحت بذلك تابعة لامارة طرابلس «٣» . أما جماعة الجبليين المسلمين فقد سجنهم بوهمند فى برج منيع قائم على البحر فى مرقية ، وظلوا سجناء فى هذا البرج الى أن أفرج عنهم بوهمند بعد أن افتتح قلاوون حصن مرقية فى آخر سنة ٦٨١ «٤» .

وكان قلاوون قد حرص منذ توليه السلطنة على مهادنة الصليبيين حتى يتفرغ لدفع العدوان المغولى على الشام وحتى لا يفاجئه الصليبيون بالهجوم على أراضى المسلمين فى الوقت الذى يكون فيه مشتغلا بمقاتلة

---

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣١٦ ، حاشية رقم ٢

(٤) نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣١٥ ، ٣١٦

المغول «٥» . لذلك لم يتردد فى الموافقـة على تجديد الهـدنة بينه وبين فرسان الاسبتارية بعكا فى ٢٢ من المحرم سنة ٦٨٠ هـ (٣ مايو سنة ١٢٨١م)، وبينه وبين بوهمند السابع لمدة عشر سنوات كاملة تبدأ فى ٢٧ ربيع الاول سنـة ٦٨٠ هـ «٦» . وقد أورد كل من ابن الفرات والنـويرى وبيبرس الدوادار تفاصيل هذه الهدنة وقد جاء فى شروطها ما يلى :

١ ــ أن تعتمد الهدنة على جميع البلاد التابعة للسلطان وعلى ما كان مجاورا منها لطرابلس ، وعلى فتوحاته المستجدة والمستقبلة ، وعلى البلاد التابعة لبوهمند وما يدخل فيها .

٢ ــ أن يتخذ برج اللاذقية وميناؤها مقرا لنواب السلطان وصاحب طرابلس للاشراف على استخراج الجبـايات والغـلات مناصفة بينهما وفقا لشروط الهدنة التى كان قد عقدها بيبرس مع بوهمند السادس .

٣ ــ أن يقتسم المسلمون أملاك روجار دلالولاى (لعله Roger de la Colée سيد التليعات) مناصفة .

٤ ــ أن يسكن على جسر أرتوسيه ١٦ نفرا من غلمان السلطان لحفظ الحقوق (الرسوم) السلطانية على ألا يقوموا بايذاء رعية الأمير بوهمند .

---

(٥) جمال سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٣٢

(٦) السلوك ، ج ١ قسم ثالث ، ص ٦٨٥

٥ ـ ألا تدخل طرابلس غلة للأمير بوهمند ولا غيره دون أن يحصل عليها رسوم .

٦ ـ على صاحب طرابلس والسلطان قلاوون ألا يقيما أبنية حربية أو قلاعا فى البلاد التى ورد ذكرها فى الهدنة .

٧ ـ ألا تنقض الهدنة بموت أحد الطرفين المتعاقدين أو بتغييره«[٧]» .

ثم عقد قلاوون فى العام التالى الهدنة بينه وبين الفرير كليام ديباجوك Guillaume de Badjouk «[٨]» مقدم الداوية بعكا والساحل والاخوة الديوية بأنطرطوس لمدة عشر سنوات كاملة ، تبدأ من ٥ محرم سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) .

وما أن انتهى خطر المغول ، حتى ولى قلاوون وجهه شطر ما بقى من امارة أنطاكية البائدة ، ففاجأ حصن الاسبتارية فى المرقب بالهجوم فى محرم سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) ، بعد أن اتهم أصحاب هذا الحصن بأمور منهـا

---

(٧) ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ــ بيبرس الداودار ، زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة ، ج ص ١٢٤ ب وما يليها (مخطوط) ــ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ص ٢٧٨ وما يليها (مخطوط)

(٨) محيى الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٠ وما يليها ــ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٦

نتضهم للهدنة «٩» . ولا شك أن قلاوون كان ينوى فى أول هذا العـام انتزاع الحصن المـذكور من أصحابه الاسبتـارية ، ولكنه لم يفصح عن رغبته ، وآثر أن يفاجىء الحامية الصليبية بالهجوم حتى لا يقوم بوهسند السابع بنصرتها . وفى ذلك يقول ابن عبد الظاهر : « وجهز المجانيق من دمشق ولا يعلم أحد الى أين تسير ، ولا الى أين المصير ، والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدميهم وعـددهم ، وهى كثيرة لا تحصى كثرة ، ومن النـاس من يقول : ان العـزم الى قلعـة الروم ، ومنهم من يقـول غير ذلك ... » «١٠» .

وبعد أن افتتح المسلمون حصن المرقب ، أمر قلاوون بالابقاء عليـه لحصانته ومناعته ، ورتب فيه حاميـة قوية من المماليك ، وزوده بالمجانيق والآلات والنشاب والزردخاناه والنفط «١١» . ولم يكتف قلاوون بفتح هـذا الحصن ، وانما زحف بعد ذلك الى بارتلميو صاحب مرقية ، وكان الظاهر بيبرس قد افتتحها ، ثم استردها الصليبيون وعمروا قبالتها حصنا منيعا أعانهم على بنائه بوهسند صاحب طرابلس وزوده بطائفة من فرسان الاسبتارية . وكان نواب حصن الاكراد لما عاينوا بناءه وعجـزوا عن منع الصليبيين من بنيانه أقاموا بالقرب منه برجا بقرية ميعار «١٢» ، لايضاهيه

---

(٩) ابن الفرات ج٨ ص ١٧ — جمـال سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٢٣٧ وما يليها .

(١٠) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٧٧ ، ٧٨

(١١) نفس المصدر ص ٧٨ — King, the Knights, p. 285

(١٢) نفس المصدر ، ص ٨٨

فى المنـاعة . وعندما شاهد قلاوون مناعة حصن مرقبة ، عزم على هدمه ، واتفق حضور رسـل صاحب طرابلس لمهادنته وطلب مراضاته ، فاشترط عليهم هدم هذا البرج لأنه بنى تحت اشراف بوهمند نفسه ، كما اشترط أيضا اطلاق من كان مسجونا فيه من الجبليين المسلمين . فاستجاب بوهمند السابع لرغبة قلاوون ، وسلم الحصن لقلاوون بعد أن عوض صاحبه عن مالا وضياعا . وتم هـدم البرج تحت اشراف الأمير بدر الدين بكتـاش النجمى ، وبحضور مقـدم افرنجى بعثـة بوهمند على رأس جمـاعة من الحجارين «١٣» . وهكذا لم يبق امام قلاوون سوى مدينة طرابلس نفسها وبرج اللاذقية ، فأخذ يتحين الفرص للاستيلاء عليهما .

وعلى الرغم من استمرار العمل بالهدنة التى كان عقدها قلاوون مع بوهمند السابع لمدة عشر سنوات فقـد هاجم الأمير حسام الدين طرنطاى اللاذقية ، آخر ما تبقى من حصون امارة أنطاكية البائدة ، واستولى عليها فى صفر من سنة ٦٨٦ (أبريل سنة ١٢٨٧ م) ، وتفصيل ذلك أن المنصور قلاوون أمر حسام الدين طرنطاى بمنـازلة صهيون وانتزاعها من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الذى كان قد امتنع عن الحضور لفتح المرقب ، واستغل طرنطاى هـذه الفرصة ، وعمد الى مهاجمة اللاذقية والاستيلاء عليهـا ، اذ كان صاحبها يدين بالولاء لسنقر الأشقر ، فاعتبرها السلطان

---

(١٣) ابن عبدالظاهر ، ص ٨٩ ، ٩٠ — أبو المحاسن ، ج ٧ ص ٣١٧ —
King. p. 286

من أملاك سنقر أكثر من اعتباره لها من أمـلاك الصليبيين ، وساعـدته الظروف فى الاستيلاء عليها ، فقد اشتعلت نيران الحرب فى ايطاليا بين بيزا وجنوة ، وامتد لهيبها الى الشام ، وقدم أسطول جنوى فى ربيع ١٢٨٧، لمهاجمـة البيازنة ومستعمراتهم «١٤» كما أنه اتفق فى هذه الآونة وقوع زلزال عنيف هدم معظم برجها القائم فى البحر ويعرف ببرج البيزانية وكان يحمى المدخل الى الميناء «١٥» •

ولما توفى بوهمند السابع فى ١٩ أكتوبر سنة ١٢٨٧ ، كـانت وفاته نذيرا بنهاية امارة طرابلس الصليبية ، فقد مات بوهمند دون أن يعقب فى الوقت الذى كانت طرابلس فى أشـد الحاجة الى قائد قوى وزعيم يتولى قيادتها • وكان من الطبيعى أن ترثه أخته لوشيا زوجة نارجوت دى توسى أمير البحر فى نابلى ، ولكن الكونتيسة سيبـل الأرمنية سعت الى الظفر بالامارة معتمدة فى ذلك على شعبيتها ، وقام صراع بين المطالبتين بالسلطان انتهى بتغلب لوشيا على منافستها • الا أن أهل طرابلس لم يقبلوا هـذا الوضع ، واحتـالوا على استقدام برتلميو دى امبرياتشو مثل سيبـل الأرمنيـة ، فاستنجدت لوشيا بالاستبـارية حلفاء أخيها بوهمند فى حين استنجد الزعماء الشعبيون بجنوة ، وبفضلهم تمكنـوا من اقامة قومون

---

(١٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٧٠

(١٥) ابن عبد الظاهر ، ص ١٥٢ — أبو الفداء ج ٧ ص ٢٩ —
King. p. 287

برئاسة صاحب جبيل • ويذكر أبو المحاسن أن بارتلميو صاحب جبيل ورئيس القومون طلب من السلطان قلاوون أن يعينه على خصومه ، وفى مقابل ذلك تكون طرابلس مناصفة بينه وبين السلطان «١٦» •

كان وضع طرابلس على هذا الوضع مغريا بافتتاحها ، ولكن السلطان قلاوون لم يشأ التدخل فى سنة ١٢٨٨ م بسبب وفاة ابنه الصالح علاءالدين على ، بينما أسرعت جنوة بالتدخل فى النزاع تمكينا لمصالحها التجارية ، ولم يلبث بارتلميو أن عقد اتفاقا مع جنوة بمقتضاه أصبحت طرابلس تحت حمايتها • ولكن لوشيا أسرعت بالقدوم الى عكا ، فأقر أهل طرابلس سلطتها ، واعترفوا بها أميرة على طرابلس ، وخرج الأمر من يد بارتلميو ، ولعل هذا هو السبب فى لجوئه الى قلاوون وتحريضه له على فتح طرابلس • وبينما كان قلاوون يتردد فى نصرة بارتلميو ، تلقى من نائبه على الشام خبرا بأن بأن الصليبيين فى طرابلس نقضوا الهدنة وأسروا جماعة من التجار «١٧» ، وكان هذا الخبر كافيا لحمله على التدخل حربيا •

ب — معركة التحرير :

اكتظت طرابلس بمن وفد اليها من اللاجئين والمشردين من المدن الاخرى التى استولى عليها المسلمون ، ولكنها مع ذلك كانت تعوزها القوة

---

(١٦) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٣٢١ —
King, p. 288 — سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٧٢

(١٧) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨٠ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٤٦

اللازمة للوقوف أمام قلاوون ، وكانت الانقسامات الداخلية والفتن قد أوهنتها وجعلتها عرضة للوقوع فى أيدى المسلمين ، وحاولت لوشيا أن تنقذ ما يمكن انقاذه ، وتكتلت قوى الصليبيين للدفاع عنها أمام الغزو الاسلامى الوشيك ، فتولى هذه المهمة عمورى دى لوزنيان صاحب صور ، وهرع الفرسان الذين كان قد استبقاهم فى فلسطين الى طرابلس بقيادة جون دى جرابلى ، وشارك فى الدفاع عن المدينة قوة هائلة من فرسان الاسبتارية بقيادة مقدمهم ماتيو دى كليرمو ، كما أسهم الداوية ، وبعض سفن البنادقة والجنوية والبيازنة «١٨» . وذكر المقريزى أنه قدم لنجدة أهلها أربع شوانى بعثها صاحب قبرص «١٩» .

واستقر عزم قلاوون على حسم مسألة طرابلس بالاستيلاء عليها لنكث أهلها بشروط الهدنة ، فخيم السلطان بظاهر القاهرة فى ١٠ محرم سنة ٦٨٨ هـ تمهيدا لرحيله الى الشام ، وعند خروجه فى ١٥ محرم سنة ٦٨٨ هـ كتب الى جميع نوابه بالشام بتجهيز الجيوش الى طرابلس وارسال المجانيق وآلات الحصار «٢٠» . وفى ١٣ صفر وصل قلاوون الى دمشق فأقام بها أسبوعا لالتماس الراحة قبل المعركة ، وتجميع جيوش الشام ، ثم زحف فى ٢٠ من صفر متجها الى طرابلس على رأس ٣٣ ألفا من الرجالة

---

(١٨) King, p. 288 - Delaville le Roulx, p. 240

(١٩) المقريزى ، السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٧

(٢٠) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ — المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٧

وعشرة آلاف من الخيالة «٢١» ، وشرع فى احكام الحصار حولها فى مستهل ربيع الاول سنة ٦٨٨ هـ (١٧ مارس ١٢٨٩ م) «٢٢» ، ونصب عليها ١٩ منجنيقا من جهة الشرق ، وبدأ يرمى الأسوار بالمجانيق حتى نقبت وتثلمت، وبلغ عدد الحجارين والزراقين نحو ١٥٠٠ شخص • وظل قلاوون مقيما على حصاره لها مدة ٣٤ يوما «٢٣» تهدم خلالها برج الأسقف وبرج الاسبتارية الجديد مع السور الممتد بينهما • وأدرك المدافعون عبث الدفاع عن المدينة ففر عدد كبير منهم الى الميناء وركبوا السفن الراسية الى قبرص ، وكان من بينهم المقدم ماتيو دى كليرمو وعسورى دى لوزنيان وچون دى جرايلى «٢٤» •

ثم تدفقت جيوش قلاوون على السور المتهدم الى المدينة فى ٤ ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ (٢٦ أبريل سنة ١٢٨٩ م) • أما سكان طرابلس فقد فروا الى جزيرة تجاه طرابلس، قريبة من الساحل، بها كنيسة تسمى سنطماس «٢٥»؛

---

(٢١) King, p. 288

(٢٢) أبو المحاسن ، ج ٧ ص ٣٢١ — Delaville le Roulx, p. 241
King, p. 288

(٢٣) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ — المقريزى ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٧

(٢٤) Delaville, p. 241 — King, p. 288

(٢٥) أبو الفداء ، ج ٧ ص ٢٩

وتعرف هذه الجزيرة باسم جزيرة النخلة ، لايتوصل اليها الا فى السفن«[٢٦]» ، وبينما يسميها ميشو بجزيرة سان توماس أو سنطماس «[٢٧]» ، يسميها المؤرخ كنج بجزيرة سان نيكولاس «[٢٨]» . وأغلب الظن أن سنطماس وسان نيكولاس جزيرتان مختلفتان ، الاولى بها كنيسة هى التى ذكرها أبو الفداء ، ولعل سان نيكولاس هى التى يعنى بهـا ابن الفرات جزيرة النخلة . وحدث أن انحسرت مياه البحر عن طرابلس ، فظهرت مخاضات عبرها الفرسان الى هذه الجزيرة ، وقتلوا الفارين من أهل طرابلس ممن لاذوا بكنيسة الجزيرة . وقد شاهد أبو الفداء حصار طرابلس وفتحها ، ويذكر أنه ركب سفينة الى هـذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من نهبها ، فوجدها « ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيهـا من نتن القتلى » «[٢٩]» . وكان بعض أهـل طرابلس قد أسرع عنـد سقوط

---

(٢٦) ابن الفـرات ج ٨ ص ٨٠ . ذكر الأدريسى أن تجاه طرابلس رأبع جزر فى صف هى مما يلى البر : جزيرة النرجس وهى جزيرة صـغيرة خالية ، وجزيرة العبد ، وجزيرة الراهب ، ثم جزيرة أردقون (الادريسى ، ص ١٨) ويقع أمام طرابلس اليوم عدد من الجزر الصغيرة ، منهـا جزيرة تعرف اليوم بجزيرة النخلة وفيها منار لهداية السفن وحمايتها من الاصطدام برأس طرابلس ، ومنها جزيرة تسمى بجزيرة الأرانب (أنظر لويس لورتة ، مشاهدات فى لبنان من كتاب سـورية اليوم ، ترجمـة كرم البستانى ، بيروت ١٩٥١ ، ص ٢٠ ، حاشية رقم ٢) .

(٢٧) Michaud, vol IV, p. 657

(٢٨) King p. 288

(٢٩) أبو الفداء ، ج ٧ ص ٣٠

سورها بركوب سفينة فى البحر ، ولكن الريح قذفتهم الى الساحل ، فظفر الغلمان والأوقاشية بكثير منهم «٣٠» .

هلك من أهـل طرابلس بعـد سقوطها فى أيدى المماليك عدد كبير يقدره المؤرخون بنحو سبعة آلاف «٣١» ، كان منهم القتلى والغـرقى ، كما أسر من سكان طرابلس نحو ١٢٠٠ أسيرا «٣٢» . ولقد عانى المسلمون كثيرا أثناء حصار طرابلس من اعتداءات الموارنة أو المردة سكان الجبال المحيطة بطرابلس الذين خفوا لنجدتها ، وقتل بسببهم عدد كبير من قوات قلاوون ، واستشهد من الأمراء الكبار الأمير عزالدين معن ، والأمير ركن الدين منكورس بن عبدالله الفارقانى ، والأمير احمد بن الأشل «٣٣» ومن رجال وحدث الجبـة وكفر صارون وحصرون فى سـنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) ، الحلقة ٥٥ رجلا «٣٤» . وكان قلاوون قد هاجم معاقلهم فى بشرى واهدن

---

(٣٠) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ — المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٧٤٧ . والأوقاشية فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة (راجع القلقشندى ، ج ٥ ص ٤٥٤ — سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٣٩٤)

(٣١) Michaud, p. 448 — جورجى ينى ص ٣٩٣

(٣٢) ابن الفرات ، ص ٨٠

(٣٣) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٥

(٣٤) ابن الفرات ج ٨ ص ٨٠ — السلوك ، ص ٧٤٧

وخرب هذه القلاع «٣٥» . ففرت منهم جماعة يقدر عددها بالالوف الى قبرص «٣٦» .

ولما فتح قلاوون طرابلس تسكن عسكره من الاستيلاء على انفة ، فأمر بتخريب حصنها الذى كان يملكه الاسبتارية . ثم استولى على البترون وما جاورها من حصون «٣٧» ، ومنح قلاوون لوشيا أخت بوهمند قرنتين من مراكبها ، كما اعطى برتلميو دى امبرياتشو مدينة جبيـل فى مقابل جزية يقوم بدفعها للسلطان «٣٨» . ويذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى أن سير تلميه (برتلميو) صاحب جبيـل كان قـد اتفق مع قلاوون على أن يساعده نظير أن تكون طرابلس مناصفة ، فساعده الى أن تم له مراده ، ولما رأى سير تلميه أن الفرنج رفضوا اتفاقيته مع السلطان شرع فى التسويف والمماطلة . فلما علم السلطان بباطن أمره ، عزم على قتاله قبل أن يستفحل أمره «٣٩» . ولكن قول ابن تغرى بردى يتعارض مع الموقف الودى الذى

---

(٣٥) السندياق . ج ١ ص ٢٥١ — جورجى ينى ، ص ٣٩٠ — محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة ج ١ ص ٤٧٨ — فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ص ٣٩٧

(٣٦) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٧

(٣٧) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١ — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٢

(٣٨) ابن الفرات ، ٨١

(٣٩) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢١ — ويذكر صاحب النجوم أن السلطان كان يبغضه ويسعى لقتاله لتسويفه من جهة ، ولأنه كان من أصحاب مقدم حصن مرقية

وقفه السلطان نحو برتلميو بعد سقوط طرابلس ، اذ كافأه باقطاع جبيل مما يدل على أن السلطان لم يكن حانقا عليه ، بل يدل على أن قلاوون كان يقدره تقديرا خاصا ، يضاف الى ذلك أن برتلميو كان ابنا لجى الثانى (سيركى) الذى كان قد استنصر بقلاوون ووقع أسيرا فى يد بوهمند السابع فسجنه حتى مات .

وما أن دخل المسلمون مدينة طرابلس حتى أمر قلاوون بهدمها وتسويتها بالأرض ، وانشاء مدينة أخرى لطرابلس تقع بعيدا عن الساحل حتى يزيل بذلك آثار مدينة الصليبيين ، وحتى تتجنب المدينة الجديدة الأضرار الى قد تصيبها من غارات الفرنجة الذين تكتلوا بعد ذلك فى عكا وقبرص «٤٠» ، واختار لذلك الغرض الربض الواقع بأدنى قلعة صنجيل فى موقع يقال له وادى الكنائس ، أما الموضع الذى كانت تقوم عليه أطلال طرابلس القديمة فقد أقام عليه عددا من الأبراج على طول الساحل الشرقى والشمالى من شبه جزيرة المينا تمكينا للدفاع البحرى عنها .

**

أحدث سقوط طرابلس فى أيدى المسلمين دويا هائلا ، خفقت له قلوبهم فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، وكتبت البشائر الى الآفاق بهذا النصر المبين ، وزينت له المدن «٤١» وأقيمت الأفراح . ولكن سقوطها فى أيدى

---

(٤٠) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٦٢

(٤١) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣

المسلمين لم يكن له رد فعل عكسى فى العالم الأوربى ، فان ملكى أرغون وصقلية بادرا بعقد تحالف مع قلاوون بعد استيلائه عليها ، تعهدا فيه بمساعدته ضد أى حملة صليبية تخرج من الغرب ، وحتى ضد القوى الصليبية الباقية فى الشام فى حالة خرقها للهدنة . أما ملوك فرنسا وانجلترا وقشتالة وقطالونية فقد شغلوا بالمشاكل القائمة بين صقلية وأرغون »[٤٢] .

وفى فتح طرابلس يقول الشاعر شهاب الدين أبو الثناء محمود كاتب الدرج يمدح قلاوون :

علينا لمن أولاك نعمته الشكر .·. لأنك للاسلام يا سيفه ذخر
ومنا لك الاخلاص فى صالح الدعا .·. الى من له فى أمر نصرتك الأمر
ولله فى اعلاء ملكك فى الورى .·. مراد وفى التأييد يوم الوغى سر
ألا هكذا يا وارث الملك فليكن .·. جهاد العدا لا ما توالى به الدهر
نهضت الى عليا طرابلس التى .·. أقل عناها أن خندقها البحر »[٤٣]

كذلك مدحه الشاعر نجم الدين الخيمى بقصيدة جاء فيها :

هنيئا أيها الملك الهمام .·. بنصر لا يريم ولا يرام
نزلت على طرابلس بجيش .·. فدار لثغرها منه لثام

---

(٤٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٧٦

(٤٣) ابن تغرى بردى ، ج ٧ ص ٣٢٣

وكان الدوح خيم فى حماها .·. فزال وعرشت فيها الخيام
وثنا زال الحمام ينوح فيها .·. الى أن صار موضعه الحمام
وكانت قد علت وست فظنت .·. بأن النيل منها لا يسام
بدر قد أطل على الثريا .·. وصار مقصرا عنه الغمام
مرام فى السماك لها مرام .·. فما ان للسهام لها سهام
فمذ قابلتها سجدت وخرت .·. ولكن فاتها منك السلام
تعلقت الرجال بها الى أن .·. تعالى الجيش وانحط القتام
ولو علموا بأخذكها سريعا .·. لقاموا للفرار وما أقاموا
وظنوا أنهم فيها عظام .·. فهاهم فى جوانبها عظام
حسمت مواد أهل الشرك طرا .·. وقام بعون نصرتك الحسام «٤٤»

---

(٤٤) جورجى ينى ، ص ٣٩٣ — الشيخ كامل البابا ، مجلة الارشاد الاجتماعى بطرابلس ، العدد ٢٧ ، نيسان ١٩٦٢ ، ص ٨

الفصل السادس

طرابلس فى ظل المماليك

(١) نيابة طرابلس وأعمالها

أ ــ نيابات الشام فى عصر المماليك

ب ــ نائب السلطنة بطرابلس وكبار موظفى النيابة

ج ــ أعمال نيابة طرابلس

د ــ كشف بأسماء نواب السلطنة بطرابلس فى عصر المماليك

(٢) الأحداث الهامة فى نيابة طرابلس

أ ــ الفتن والقلاقل

ب ــ الفناء الكبير

ج ــ غارات القبارصة على طرابلس

د ــ غارات الجنوية على طرابلس

(٣) طرابلس فى بداية العصر العثمانى

أ ــ طرابلس بعد الفتح العثمانى

ب ــ طرابلس فى ظل بنى سيفا الأكراد .

الفصل السادس

طرابلس فى ظل المماليك

(١)

نيابة طرابلس واعمالها

ا ــ نيابات الشام فى عصر المماليك :

كانت بلاد الشام فى عصر الدولة الأموية تنقسم الى خمس وحدات ادارية تسمى أجناد هى : أجناد فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين «١» ، وهى على هذا النحو لا تختلف كثيرا عن التقسيمات الادارية البيزنطية . وكان جند دمشق يشتمل على المناطق الشرقية الواقعة على حافة البادية ، وهى المناطق التى بدأ العرب بفتحها والتى أحسوا بأنها لا تختلف عن بلادهم . أما جند فلسطين فكانت حدوده من رفح الى اللجون وكان يضم القدس وغزة وعسقلان ، بينما كان جند الاردن يضم كل منطقة الجليل . أما جندا حمص وقنسرين فكانا يشتملان على أقاليم الشام الشمالية «٢» حتى منطقة الثغور .

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٨٨ وما يليها
Gaudefroy - Demombynes, la Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris, 1923, p. 217 .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، دمشق ١٩٢٦ ، ج ٣ ص ٢٣٤

ولما تفككت أوصال الدولة العباسية ، انقسمت بلاد الشام الى امارات مستقلة ، وأصبحت طرابلس على هـذا النحو مركزا لامارة بنى عمـار الشيعية ، ثم نكبت بلاد الشام بالغزو الصليبى الذى ترتبت عليه نتيجتان هامتان : الأولى ، ازدياد أهميـة الولاية الرومانية القـديمة « البتراء » بحصونها المنيعة فى الكرك والشوبك ، وهو الاقليم الذى حرص الصليبيون على الاحتفاظ به ليتحكموا فى الطرق المؤدية من مصر الى الحجاز والى الشام، ويقطعوا على المسلمين طريق الاتصال بين الشام ومصر «(٣)» • والثانيـة ، ازدياد أهمية الساحل ، حيث تحصنت البقية الباقية من الصليبيين الى أن تمكن السلطان الأشرف خليل من تحريره بصفة نهائية • وقـد ظلت مدن الساحل وخاصة طرابلس وبيروت منـذ ذلك الحين هدفا لغزوات صليبية موجهة من قبرص فى عصر دولتى المماليك البحرية والشراكسة •

ولقد مر التقسيم الادارى للشام فى عصر المماليك بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : بعـد وقعة عين جالوت ، عندما نشأت نيابتا دمشق وحلب فى عهد الظاهر بيبرس •

---

(٣) أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الادارى لسورية فى العهـد العثمانى ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٢٨ ،

المرحلة الثانية : عندما أضيفت الى النيابتين السابقتين نيابتا الكرك سنة ٦٧١ هـ «٤» ؛ وصفد فى سنة ٦٦٥ «٥»

المرحله الثالثة : بعد قيام نيابة طرابلس فى سلطنة المنصور قلاوون ، وكان سيف الدين بلبان الطباخى المنصورى أول من تولى نيابة السلطنة بطرابلس «٦» .

ولم يستقر التقسيم الادارى للشام الا بعد عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) عندما توفى السلطان الملك المؤيد عماد الدين ابو الفداء اسماعيل آخر ملوك حماة من البيت الأيوبى «٧» ؛ ثم وليها بعده ابنه الأفضل محمد بعهد من الناصر محمد ؛ حتى أزاله الأمير قوصون أتابك العساكر فى سنة ٧٤١ هـ «٨» وأصبحت نيابة حماة بذلك سادسة النيابات المملوكية فى الشام . ويضيف غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (القرن الثامن الهجرى) الى هذه النيابات الست نيابة سابعة هى نيابة غزة التى يسميها المملكة

---

(٤) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٧٦

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧٤

(٦) المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٦٤ — السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، ص ٦٣

(٧) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ١٠٦ ؛ والعصر المماليكى ، ص ١٩٨

(٨) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٧٤ ، ٢٣٨

الغزاوية «٩» على نحو تسميته لنيابة طرابلس بالمملكة الطرابلسية ، ولنيابة صفد بالمملكة الصفدية . والظاهر أن غزة كانت نيابة صغرى تابعة لنيابة الشام أو نيابة دمشق ، شأنها فى ذلك شأن نيابة القدس ، ونيابة حمص ، ونيابة بعلبك ، ونيابة عجلون«١٠» . وهكذا كانت بلاد الشام تنقسم اداريا فى عصر المماليك الى ست نيابات رئيسية تتوزع من حيث الأهمية على الترتيب التالى :

١ — **نيابة الشام او دمشق** : كانت أجل نيابات الشام مقدارا وأرفعها رتبة «١١» ، وحتى أنها عرفت بنيابة الشام أو مملكة الشام ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام «١٢» ، وكان كافلها يحاكى السلطان فى الأبهة «١٣» ، بل كان يقوم فى دمشق مقام

---

(٩) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : نشره Paul Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ ص ١٣٤

(١٠) أحمد عزت عبد الكريم ، ص ١٢٩

(١١) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٨٤ وراجع أيضا النسخ بتقليد نيابة الشام ، ج ١٢ ص ٨ — ٢٣

(١٢) القلقشندى ، ج ١٢ ص ٧

(١٣) زبدة كشف الممالك ، ص ١٣١

السلطان فى أكثر الامور المتعلـقة بنيابته «١٤» ، ويعبر عنه فى المكاتبات السلطانية « بكافل السلطنـة الشريفة بالشام المحروس » «١٥» • وكانت تتبعها عـدة نيابات صغرى تنقسم بدورها الى أقسـام ادارية صغرى أو ولايات «١٦» •

٢ ـ **نيابة حلب** : هى نيابة جليلة تلى نيابة دمشق فى الرتبة «١٧» ، ولكن نائبها كان لا يلقب بكافل السلطنة ، كما كان الشأن بالنسبة لنائب دمشق ، وترجع أهميتها الى خطورة موقعها المتطرف فى الشمال ولاشرافها على الثغور الواقعة على الحدود الشمالية لدولة المماليك • وكانت تشتمل على نيابات صغرى كما كان الشأن فى نيابة دمشق •

٣ ـ **نيابة طرابلس** : تلى نيـابة حلب فى الأهمية ، وكان نائبها على نقيض نائب دمشق أو حلب ، يجمع بين نيـابة الاقليم ، ونيـابة القلعة • وكان يلقب بكافل المملكة الشريفة الطرابلسية •

٤ ـ **نيابة حماة** يلى نائبها نائب طرابلس فى المرتبـة ، ولا تتبعـها

---

(١٤) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٨٤
(١٥) المصدر السابق ص ١٨٤
(١٦) أحمد عزت عبد الكريم ، ص ١٢٩
(١٧) القلقشندى ، ج ٤ ص ٢١٧ ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٢

نيابات صغرى كما كان الشأن فى نيابات دمشق وحلب وطرابلس ، ولكنها كانت تضم عددا من الولايات من بينها عمل بعرين والمعرة «١٨» .

٥ — **نيابة صفد** : لم تكن تشتمل على نيابات صغرى ، ولكنها كانت تضم احدى عشر ولاية نخص بالذكر منها الناصرة وطبرية وتبنين وعثليث وعكا . ولأهميتها الحربية كان لقلعتها نائب مستقل يوليه السلطان وهى فى ذلك أشبه بنيابتى قلعة حلب وقلعة دمشق «١٩» .

٦ — **نيابة الكرك** : كانت هـــذه النيـــابة منـــذ دخولها فى فلك دولة المماليك فى عهد الظاهر بيبرس من أهم نيابات الشام لموقعها الاستراتيجى الهام بين الشام والحجاز ومصر وحصانة قلعتها ، وكان لا يتولى نيابة الكرك إلا أتابك للعساكر أو من فى مرتبته «٢٠» ، وكان يتولى قلعتها نائب مستقل . ويتبع نيابة الكرك أربع ولايات هى زغر ومعـــان «٢١» ، والشوبك وبر الكرك «٢٢» .

---

(١٨) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤١

(١٩) نفس المصدر ص ١٥٠

(٢٠) زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٢

(٢١) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٥٧

(٢٢) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٤٢

ب ـ نائب السلطنة بطرابلس وكبار موظفى النيابة :

لما تم للسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون افتتاح طرابلس فى ٦٨٩ هـ نزلها الأمير سيف الدين التقوى بعسكر يتألف من ستمائة من الفرسان،وكان هذا العسكر أول جيش مملوكى استخدم بها بعد أن استردها المسلمون «٢٣» ، ولم تلبث طرابلس أن تحولت منذ ذلك الحين الى نيابة سلطانية، فتولاها الأمير سيف الدين بلبان الطباخى ، نائب الفتوحات بعساكر الحصون وطرابلس «٢٤» ، وكان نائب السلطنة بطرابلس يلقب بالجناب العالى «٢٥» ؛ وكان يتولى منصبه بمرسوم سلطانى أورد القلقشندى نص نسخة منه ، نقتطف منه ما يلى : « .... وبعد ، فان أولى من تفتر الثغور باياالته ، عن شنب النصر ، وترمى الحصون بكفالته ، من شام من العدا برقها بشرر كالقصر ، وتقسم السواحل سهابته ، من جاور من أهل الكفر بحردا بين الحصد والحصر ، وتمنع عزماته شوانى العدا أن تدب عقاربها ، أو تركب اللجج بغير أيامه مراكبها ، أو ينتقل عن ظهر البحر الى غير سيوفه أو قيوده محاربها ، من لم يزل فى نصرة الدين لامعا كالبرق شهابه ، زاخرا كالبحر عبابه ، واصبا على الشرك عذابه ، ظاميا الى موارد الوريد سيفه ، ساريا الى قلوب أهل الكفر قبل جفونهم طيفه ، قائمة مقام شرف الحصون أسنة رماحه ، غنية بروج الثغور عن تصفيحها بالجلد بصفا صفاحه ، مع خبرة

---

(٢٣) تاريخ ابن الفرات ، ج٨ ص ٩٠ المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٥١

(٢٤) المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٦٤

(٢٥) القلقشندى ، ج ١٢ ص ١٧٦

يقدمه الجيوش تضاعف اقدامها ، وتثبت فى مواطن اللقاء أقدامها ، ويسدد الى مقاتل أهل الكفر سهامها . ويقرب عليها فى البر والبحر منالها، ويبعد مراميها على من رامها ، ومعدله للرعايا السكون فى مهاد أمنها ، والركون الى ربا اقبالها ووهاد يمنها . فسرب الرعايا مصون بعدله ، والعدل مكنون بين قوله وفعله ... » «٣٦» .

وكان نائب السلطنة فى طرابلس يفوق فى الرتبه والمقام كل من نائبى حماه وصفد. ولكنه كان مع ذلك أدنى مرتبه من نائبى دمشق وحلب. ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع الى أن طرابلس لم يكن يولى قلعتها نائب مستقل، وانما كان نائب السلطنة فيها هو المتصرف فى شؤون النيابه كلها «٢٧» ، بما فيها قلعه صحيل . وكان نائب طرابلس عادة من أكبر مقدمى الألوف، كذلك لم يكن لنيابه طرابلس وزير كالشأن فى نيابتى دمشق وحلب ، وانما كان بها « ناظر المملكه » وهى وظيفه من الوظائف الديوانية ، أقل مرتبة من الوزاره . ومع ذلك . فقد كان لنيابه طرابلس من أرباب الوظائف الديوانيه مثلما كان لصفد نذكر من بينهم ناظر المملكه ، وناظر الجيش ، وكاتب السر . (أو صاحب ديوان المكاتبات) . ويتولى السلطان تقليدهم لهذه المناصب ، ثم يليهم كتاب دست وكتاب درج . ويتولى نائب طرابلس أمر توليهم هذه المناصب «٢٨»

(٣٦) نفس المصدر ، ج ١٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨

(٣٧) القلقشندى ، ج ٢ ص ٢٣٣ — Nicola Ziadeh, Urban Life p. 17

(٣٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٤

ومن موظفى النيابة الكبار حجاب ثلاثة ، أكبرهم فى الرتبـة حاجب الحجاب ، من أمراء الطلبخاناه ، أما الحاجبـان الآخران فكل منهما أمير عشرة . ومن مناصبها الكبرى أيضا المهندارية ، ويتولاها المهندار الذى يتلقى الرسل ويستقبـل السفراء الوافـدين وينزلهم فى دور الضيافة ، وشد الدواوين ويتولاها شاد الدواوين أى الذى يتولى مراجعة الأموال الديوانية ، وشد الخاص أى النظر فى شؤون الأموال السلطانية ومراقبة الخزائن السلطانية ، وشد مراكز البريد ، وشد البحر بسينا طرابلس وشد الشوانى ، ونقابة النقباء ، وأميراخورية البريد ـ أى النظر فى خيل البريد ـ وشد دار الضرب ، وولاية المدينة ، وتقدمه التركمان ، وكلها وظائف يتولى نائب السلطنة أمر تدبير متوليهـا . ومن الوظائف الدينية ، وظيفة قاضى القضاة على المذاهب الأربعة ، وقاضيا عسكر شافعى وحنفى ، ومفتيا دار عدل ، ومحتسب ، ووكيل بيت المال «٢٩» .

وكان نائب السلطنة يقيم فى دار النيابة المعدة لنزوله ، وتعرف بدار السعادة ، وكانت تشغل جزءا من قلعة صنجيل ، حتى يتهيأ للنائب الاشراف منها على المدينة كلها «٣٠» . وكان يركب فى يومى الاثنين والخميس من

---

(٢٩) نفس المصدر ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٣

(٣٠) أنظر نص النويرى الذى أورده سوبرنهايم Sobernheim, Corpus Inscriptionum Arabicarum t. XXV, 1909 p. 46

دار النيابة ، ويخرج فى موكبه من الأمراء والأجناد حتى يصل الى ساحل البحر ، ثم يعود الى دار النيابة وبصحبته جميع الأمراء والأجناد ما عدا الأمير المقدم «٣١» ، فانه كان لايحضر معه الى دار النيابة • ثم يدخل النائب فى دار العدل ويجلس بصدر الايوان . ويجلس عن يمينه قاضيان أحدهما شافعى والآخر حنفى ، ويجلس عن يساره قاضيان مالكى وحنبلى • أما كاتب السر فيجلس أمامه منحرفا الى يساره ، بينما يجلس حاجب الحجاب أمامه منحرفا الى يمينه ، أما كتاب الدست فيجلسون خلفه • ثم تتولى الحجاب الصغار أخذ القصص ، وهى الشكايات أو المظالم ، فيوصلونها الى حاجب الحجاب الجالس أمام السلطان ، فيدفعها بدوره الى كاتب السر ، ويقوم النائب بعد ذلك بالفصل فى هذه الشكايات • فلما ينفض المجلس يمد السماط ، فيأكل النائب ومن يحضر معه ، وينصرف الجميع بعد ذلك «٣٢» •

وبالاضافة الى مهام نائب السلطنة العديدة الملقاة على عاتقه للمحافظة على الأمن وقمع الثورات وحسم مواد الفتن والقلاقل ، والدفاع عن حدود نيابته من الغزو البحرى ، كان يوصى ولاته ونوابه بأعمال طرابلس ، وكبار موظفيه بالكفاية والعدل والتيقظ والاحتراز وبذل غاية الجهد فى أداء

---

(٣١) كان بنيابة طرابلس بخلاف نائبها أمير واحد مقدم ألف

(٣٢) القلقشندى ، ج ٤ ص ٢٣٤

أعمالهم ، وملازمة التقوى ، والعمل على اتباع صحة العدل وابادة الظلم وتأمين الناس وعمارة البلاد وسد الخلل . وقد أورد القلقشندى نسخة مرسوم كتب به عن نائب المملكة الطرابلسية الى نائب حصن الأكراد فى سنة ٧١٧ هـ يأمره فيه بابطال ما أحدث بالحصن فيعهد اليه باراقة ما بها من الخمور وهدم مبانيها واحراق كل مخدر وازالة ما بحصن الأكراد من الفواحش ووجوه الفساد «٣٣» . وكانت مهمة نائب طرابلس دقيقة للغاية لأن نيابة طرابلس كان لها وضع خاص ، اذ كانت فى أطرافها الشمالية قلاع ومدن يسكنها النصيرية «٣٤» ، وكان هؤلاء يخالفون أحكام السنة : فهم يؤلهون على بن أبى طالب ويعتبرونه آخر مراحل التجسد الالهى وأهمها ، وهم الخمر «٣٥» ويرون أنها من النور ، فكان من مهام نائب طرابلس مراقبة هؤلاء النصيرية مراقبة دقيقة ، فيقوم بابطال بيع الخمور فى قراهم ، ويعمل على تعمير بلادهم وقراهم بالمساجد ، « فيقام فى كل قرية مسجد ويطلق لهذا

---

(٣٣) نفس المصدر ، ج ١٣ ص ٢٠ — ٢٢ — العمرى ، مسالك الأبصار ، مخطوطة مصورة ج ١٦ ص ٦٨٧

(٣٤) النصيرية ، فرع من الاسماعيلية ، ينتسبون الى محمد ابن نصير الكوفى ، وهم باطنية لأن مذهبهم باطنى التعليم (طالع ما كتبه الدكتور فيليب حتى فى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ص ٢٢٠)

(٣٥) راجع ما كتبه القلقشندى فيما يختص بالنصيرية فى صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥٠ ، ٢٥١

المسجد من أرض القرية رقعة أرض تقوم به وبمن يعمل فيه من القوام »
كما كان من مهـامه أيضا للعمـل على ردع النصـيرية وارجاعهم الى السنـة «٣٦» •

ج ـ اعمال نيابة طرابلس :

كانت نيابة طرابلس تشتمل بالاضافة الى الحاضرة طرابلس على ست نيابات كبرى وست ولايات صـغرى وست نيابات مستحدثة هى نيابات قلاع الدعوة أضيفت الى نيابة طرابلس •

اولا ـ الاعمال الكبرى :

١ ـ **عمل حصن الاكراد** : حصن الأكراد حصن منيع أقامه الصليبيون، كان مقرا للعساكر السلطانية قبل أن يفتتح المنصور قلاوون مدينة طرابلس، ثم أصبح عملا هاما من أعمالها «٣٧» •

٢ ـ **عمل حصن عكار** : هو حصن منيع اسلامى البناء ، أقيم فى واد تحيط به الجبال، وكانت المياه تصل اليه من ذيل من ذيول جبل لبنان «٣٨» •

---

(٣٦) القلقشندى ، ج ١٣ ص ٣٥ ـ Nicola Ziadeh, p. 106

(٣٧) نفس المصـدر ج ٤ ص ١٤٤ ـ نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢٠٨

(٣٨) نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٤٤

٣ ـ **عمل بلاطنس** : بلاطنس قلعة تقع غربى مدينة مصياف ، وهى قلعة حصنية للغاية لها أحد عشر بابا .

٤ ـ **عمل صهيون** : صهيون قلعة قديمة من بناء البيزنطيين غاية فى الحصانة والمنعة رممها الصليبيون وزودوها بالحصون «[٣٩]» ، تقوم على قمة جبل صعب المرتقى ، وتدور عليها خمسة أسوار «[٤٠]» ، ويقع حصن صهيون الى الجنوب الشرقى من اللاذقية ، وقد افتتحه السلطان قلاوون فى ٢٢ صفر سنة ٦٧٦ هـ «[٤١]» .

٥ ـ **عمل اللاذقية** : اللاذقية من أهم مدن الساحل وأكثرها عمرانا ؛ ولها ميناء يحيط به البحر من ثلاث جهات كالشأن فى ميناء طرابلس «[٤٢]» ؛ وهى من أعظم نيابات طرابلس «[٤٣]» .

---

(٣٩) عبد الرحمن زكى ، العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، ١٩٥٨ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٤٠) نخبة الدهر ، ص ٢٠٩

(٤١) محيى الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٥٠

(٤٢) نخبة الدهر ، ص ٢٠٩

(٤٣) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٥

٦ ـ **عمل المرقب** : المرقب قلعة حصينة قائمة على رأس مرتفع مطل على البحر ، أقيمت فى عهد الرشيد على أثر بناء قديم «[٤٤]» ، وقيل فى سنة ٤٥٤هـ «[٤٥]» ، ثم قام الاسبتارية بتحصينها حتى أصبحت بحق من أكثر قلاع الصليبيين مناعة ، وعندما هاجمها بيبرس استعصت عليه ، ولكنها افتتحت فى سلطنة المنصور قلاوون فى ١٧ ربيع الأول سنة ٦٨٦هـ ، فأبقى عليها لحصانتها وأمر بترميمها •

ثانيا ـ الولايات الصغرى :

١ ـ **عمل انطرطوس** : هى ثغر من ثغور الشام ، تقع الى شمال طرابلس فى منتصف المسافة بينها وبين اللاذقية ، وكانت انطرطوس عملا من أعمال دمشق ، ثم أصبحت فى زمن المماليك من أعمال طرابلس • وذكر أبوالقاسم الدمشقى أنها كانت مزودة ببرجين حصينين كالقلعتين «[٤٦]» •

٢ ـ **عمل جبة المنيظرة** : ورد ذكرها فى معجم البلدان على أنها قرية من أعمال طرابلس ينسب اليها أبو محمد عبد الله بن أبى الحسن الجبائى«[٤٧]» ، وتقع جبة المنيظرة بأعلى جبل لبنان عند منابع نهر ابراهيم،

---

(٤٤) نخبة الدهر ، ص ٢٠٩

(٤٥) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ٨٥

(٤٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٧٠

(٤٧) نفس المرجع ، مجلد ٢ ص ١٠٩

وهى منفذ يصل بين بعلبك فى اقليم البقاع وجبيل على الساحل ، وتعرف اليوم باسم المنيطرة «٤٨» .

٣ ـ **عمل الظنيين** : ذكر القلقشندى أنها كورة تقع بين مصياف وفامية «٤٩» ، واعلب الظن أنها نفس المنطقة المعروفة اليوم باسم الضنية ، وهى منطقة مرتفعة من أخصب مناطق لبنان وأكثرها انتاجا للتفاح والأجاص والعنب ، وتقع شمالى زغرتا «٥٠» . وكان يسكن الظنيين جماعة من النصيرية ، وقد تعرض هؤلاء السكان فى سنة ٧٠٥ هـ للقتل والأسر عندما اغار عليهم الأمير جمال الدين أقوش الأفرم بعسكر دمشق ، والأمير أسندمر كرجى بعسكر طرابلس ، والأمير شمس الدين سنقرجاه المنصورى بعساكر صفد ، فخربوا ديارهم ، وقتلوا منهم جملة كثيرة ، واستخدم أسندمر جماعة منهم فى طرابلس بجامكية «٥١» .

٤ ـ **عمل بشرية** . بشرية أو بشرى «٥٢» بلدة تقع على هضبة تحيط

---

(٤٨) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، نشره الدكتور فيليب حتى ، برنستون ، ١٩٣٠ ص ١٣٢

(٤٩) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٨

(٥٠) حليم أبو العز ، محافظة الشمال ، من كتاب لبنان فى محافظاته ، ص ٦٨

(٥١) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٥٠

(٥٢) تعرف أيضا فى بعض المصادر باسم « جومة بشرية » (نخبة الدهر ، ص ٢٠٨)

بها الجبال المرتفعة من كل ناحية ، قريبا من غابة الأرز ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ١٤٥٠ مترا وتشرف على أخدود وادى قاديشا «٥٣» .

٥ ـ عمل جبلة : بلدة صغيرة على ساحل البحر المتوسط ، بينهـا وبين اللاذقية اثنى عشر ميلا «٥٤» .

٦ ـ عمل انفة : يسميها الادريسى أنف الحجر «٥٥» ، وهى بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر جنوبى طرابلس فى الطريق المؤدى الى جبيل وبيروت ، افتتحها المنصور قلاوون بعد فتح طرابلس ، وأمر باخراب حصنها ، وكان حصنا منيعا ، وأبقى على قريتين من قراها لأخت البرنس صاحب طرابلس «٥٦» .

ثالثا ـ نيابات قلاع الدعوة :

سميت هذه القلاع كذلك لأنها كانت من أملاك الاسماعيلية الحشيشية أو الباطنية الذين ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق ويسمون أنفسهم

---

(٥٣) حليم أبو العز ، المرجع السابق ، ص ٥٠

(٥٤) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٨

(٥٥) الادريسى ، (Palaestina et Syria) ص ١٧

(٥٦) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١

أصحاب الدعوة الهادية . وكانت هذه القلاع سبعة لاترام فى غايةالحصانة والمنعة ، أضيفت كلها الى طرابلس بعد أن أصبحت نيابة ، ثم نقلت قلعة مصياف منها الى نيابة دمشـــق فأصبحت نيابات قلاع الدعوة ستا «٥٧» . وهناك ظاهرتان واضحتان فى قلاع الدعوة ، الظاهرة الأولى أنها متقاربة فيما بينها ، متجمعة على شـــكل دائرة «٥٨» حتى يســـهل الدفاع عنها . والظاهرة الثانية أنها قائمة بأعلى جبال البهرة بحيث تصبح متوعرةالمسالك منيعةلاترام ، ثم انها تتحكم فىالمنافذ الجبلية المؤدية الى بانياس وطرابلس

١ ــ **الرصافة** : قلعة منيعة بالقرب من مصياف على جبال البهرة

٢ ــ **الخوابى** : قلعة فى شمـــال طرابلس بين سهـــل القليعة وساحل البحر ، وكانت فى حوزة محمد بن على بن حامد فسلمها للصليبيين فى سنة ٤١١ هـ ، ثم أصبحت من أملاك الاسماعيلية «٥٩» .

٣ ــ **القدموس** : قلعة منيعة تقع جنـــوب غربى شيزر على مقربة من ثغر بانياس .

---

(٥٧) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٦

(٧٥) Lammens, la Syrie, p 221

(٥٩) النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط رقم ٥٤٩ بدار الكتب ، نسخة مصورة ج ٢٨ ص ٧٨

٤ — **الكهف** : قلعة قائمة على نشز مرتفع عند منابع نهر مرقية ، قريبا من القدموس .

٥ — **المينقة** : حصن فى جبل الرواديف ، « وبانيه رجل اسمه نصر بن شرف الروادى كان قد استولى على جميع المسلمين الساكنين بجبل الرواديف وما يليه » «٦٠» ، وتقع المنيقة بالقرب من الكهف .

٦ — **العليقة** :قلعة من أمنع حصون طرابلس كان يتولاها الرضى ثم ولده صارم الدين ، فجرت من صارم الدين أمور أوجبت اعتقاله بمصر ، ورسم للعسكر المقيم ببلاطنس بسنازلتها «٦١» ، والعليقة قريبة من المنيقة ، على نحو ساعة منها «٦٢» .

---

(٦٠) نفس المصدر ، ص ٧٨

(٦١) النويرى ، نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٧٧

(٦٢) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٧

د ـ كشف باسماء نواب السلطنة بطرابلس فى عصر المماليك

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
سيف الدين بلبان الطباخى المنصورى «٦٣»	٦٨٩ ـ ٦٩١	الأشرف خليل
سيف الدين طغريل الايغانى	آخر ٦٩١ ـ أول ٦٩٢	« «
عز الدين أيبك الخازندار المنصورى «٦٤»	٦٩٢ ـ ٦٩٤	الناصر محمد(الاولى)
عز الدين أيبك الموصلى المنصورى «٦٥»	٦٩٤ ـ ٦٩٨	زين الدين كتبغا
بكتمر	٦٩٨	حسام الدين لاشين
سيف الدين كرت الحاجب «٦٦»	٦٩٨	« «

(٦٣) ظل سيف الدين بلبان يمارس وظيفته الى أن رفعه الأشرف خليل الى نيابة حلب فى سنة ٦٩١ هـ (السلوك، ج١ قسم ٣ ، ص٧٦٤ ـ السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٦٣ ـ وطرابلس : تاريخها وآثارها الاسلامية ، من محاضرات الموسم الثقافى لجمعية مكارم الاخلاق الاسلامية ، طرابلس ١٩٦٤ ص ١٣٧)

(٦٤) استقر فى نيابة طرابلس والحصون عوضا عن طغريل الذىأعفاه الأشرف خليل ، ويبدو أنه لم يرض عن سلطنة العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦) فأمر كتبغا بالقبض عليه فاعتقل بالقاهرة (السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٨١٠) • وفى نيابة عز الدين أيبك الخازندار افتتح الجامع المنصورى الكبير بطرابلس •

=

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
سيف الدين أسندمر الكرجى «٦٧» (الاولى)	٦٩٨ — ٦٩٩	الناصر محمد (الثانية)
فارس الدين الألبكى الساقى	٦٩٩ — ٧٠٠	فى عهد خضوع طرابلس للمغول
سيف الدين قطلو بك	٧٠٠ — ٧٠٢	الناصر محمد
سيف الدين أسندمر الكرجى «٦٨» (الثانية)	٧٠٢ — ٧٠٩	» »
الحاج بهادر الحلبى «٦٩»	٧٠٩ — ٧١٠	» » (الثالثة)
جمال الدين أقوش الأفرم «٧٠»	٧١٠ — ٧١٢	» »
سيف الدين تمر الساقى المنصورى «٧١»	٧١٢ — ٧١٤	» »
سيف الدين كستاى الناصرى	٧١٤ — ٧١٦	» »
شهاب الدين قرطاى بن عبد الله الأشرفى الحاجب (الاولى)	٧١٦ — ٧٢٦	» »

= (٦٥) ينسب اليه حمام مازال قائما حتى اليوم يعرف بحمام عزالدين، وقد توفى عزالدين مسموما فى أول صفر سنة ٦٩٨ هـ (النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٨٣) .

(٦٦) اشترك الأمير كرت فى واقعة مجمع المروج فى وادى الخازندار التى وقعت بين غازان خان والناصر محمد ، وفيها قتل فى ١٨ ربيع الاول سنة ٦٩٩ (السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٨٨٦)

(٦٧) ولاه الناصر محمد نيابة طرابلس بعد أن استرجع عرشه فى سنة ٦٩٨ هـ مكافأة له على تآمره مع جماعة من مماليك لاجين على قتله واعادة الناصر الى السلطنة .
=

(٦٨) ساهم أسندمر أيام نيابته لطرابلس والفتوحات فى فتح جزيرة أرواد بالسيف عنوة مع الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصورى (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ج ٩ ، تحقيق هانز روبرت رويمر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٤١ — النجوم الزاهرة ، ج ص ١٥٦) والى سندمر ينسب عدد كبير من أبنية طرابلس فى عصر دولة المماليك البحرية . فقد أسس حماما وقيسارية وطاحونا ومساكن لمماليكه فى طرابلس كما أعاد بناء جزء كبير من قلعة صنجيل ؛ وشيد أبراجا بطرابلس راجع النص الذى أورده سوبرنهايم عن النويرى ص ٤٧)

(٦٩) أقامه الناصر محمد على نيابة طرابلس بعد أن رقى أسندمر الى نيابة حلب مكافأة له على اعادته الى العرش للمرة الثالثة (السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٧٥)

(٧٠) ابن أيبك الدوادارى ، الدر الفاخر ص ١٩٥ — السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٩٠ — النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤

(٧١) قبض عليه السلطان الناصر فى سنة ٧١٥ وحمل الى قلعة الجبل (ابن أيبك الداودارى ص ٨٣ — السلوك ج ٢ قسم ١ ص ١١٨ — النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٣٤)

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
سيف الدين طينال الحاجب «٧٢» (الاولى)	٧٢٦ ـ ٧٣٣	الناصر محمد
شهاب الدين قرطاى «٧٣» (الثانية)	٧٣٣ ـ ٧٣٤	» »
جمال الدين آقوش الأشرفى «٧٤»	٧٣٤ ـ ٧٣٥	» »
سيف الدين طينال «٧٥» (الثانية)	٧٣٥ ـ ٧٤١	» »
سيف الدين أرقطاى بن عبد الله المنصورى «٧٦»	٧٤١ ـ ٧٤٣	الاشرف علاء الدين كجك والناصر شهاب الدين احمد
سيف الدين طينال (الثالثة)	٧٤٣	الصالح اسماعيل بن الناصر
سيف الدين طرغاى الجاشنكير الناصرى	٧٤٣	» »
آق سنقر الناصرى	رمضان ٧٤٣-٧٤٦	الكامل شعبان
سيف الدين قسارى الاستادار	٧٤٦	» »
أسندمر العمرى (الاولى)	٧٤٦	حاجى
بيدمر العمرى	٧٤٦	» »
ركن الدين بيبرس بن عبد الله الاحمدى	٧٤٦	» »

---

(٧٢) تولى نيابة طرابلس بدلا من شهاب الدين قرطاى بحكم انتقال هذا الأخير الى دمشق نائبا للسلطنة ، وكان طينال مقربا للسلطان ، اذ عقد له على احدى بناته فى سنة ٧٢٦ هـ (السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٢٧٢)

(٧٣) عزل طينال وأقيم على نيابة غزة وذلك لشكوى الأمير تنكز نائب دمشق منه لترفعه عليه وخرق حرمته واعراضه عما يكاتبه فيه (السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٣٥٨)

(٧٤) كان نائبا على الكرك ثم ولاه الناصر على طرابلس بعد وفاة قرطاى ٠

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
أسندمر العمرى «٧٧» (الثانية)	١٣ محرم ٧٤٧ - أول محرم ٧٤٨	الناصر حسن (الاولى)
منكلى بغا الفخرى أمير جاندار	٧٤٨	» »
مسعود بن خطير (الأولى)	٧٤٨ — ٧٤٩	» »
الجيبغا المظفرى «٧٨»	٧٤٩ — ٧٥٠	» »
مسعود بن خطير (الثانية)	٧٥٠	» »

= (٧٥) نقل طينال الى نيابة طرابلس عوضا عن آقوش الذى اعتقل فى سنة ٧٣٥ هـ .

(٧٦) استقر سيف الدين أرقطاى فى نيابة طرابلس بدلا من طينال الذى رفع الى نيابة دمشق . ثم أمر السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بالقبض على أرقطاى وسجنه بالقلعة حيث توفى فى سنة ٧٥٠ هـ (النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٥٠)

(٧٧) انتقل من نيابة حماة الى طرابلس بعد أن اتسعت أعمال طرابلس وفاقت نيابة حماة

(٧٨) اشترك فى قتل سيف الدين أرغون شاه نائب دمشق فى سنة ٧٤٩ هـ (راجع النجوم ج ١٠ ص ٢١٣ — ٢١٥) ثم مضى الى طرابلس وأعلن فيها العصيان ، فأمر السلطان بالقبض عليه مع جملة من مماليكه وتم القبض عليه ووسط تحت قلعة دمشق فى ٧٥٠ هـ (صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٢١٢)

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
بيلبشن السلاحدار أمير شكار	٧٥٠ — ٧٥٢	الصالح صلاح الدين
أيتمش الناصرى	٧٥٢ — ٧٥٥	الناصر حسن (الثانية)
منجك اليوسفى (الاولى)	٧٥٥ — — ؟	« «
أشقتمر الماردينى (الاولى)	شوال ٧٦٢ — ٧٦٤	المنصور أبو المعالى محمد بن حاجى
أيدمر الخازن	٧٦٤ — ٧٦٦	الاشرف زين الدين شعبان بن حسين
قشتمر المنصورى	٧٦٦ — ٧٦٧	« «
اشقتمر الماردينى (الثانية)	أول ٧٦٧	« «
منجك اليوسفى (الثانية)	٧٦٧ — ٧٦٨	« «
جرجى الادريسى	٧٦٨	« «
اشقتمر الماردينى (الثالثة)	٧٦٨	« «
اسندمر الزين	آخر ٧٦٨ — ٧٦٩	« «
منجك اليوسفى (الثالثة)	٧٦٩	« «
سيف الدين أيدمر الأنوكى الناصرى	٧٦٩ — ٧٧٥	المنصور علاء الدين على بن شعبان
يعقوب شاه	٧٧٥ (آخر صفر)	« «
آقتمر عبد الغنى	٧٧٥ (ربيع آخر)	« «
منكلى بغا الاحمدى البلدى (الاولى)	أول ٧٧٦ — ٧٧٨	« «
أرغون الاسعردى	٧٧٨	« «
منكلى بغا الاحمدى (الثانية)	٧٧٨ — ٧٨٠	« «
يلبغا الناصرى	٧٨٠ — ٧٨١	« «
منكلى بغا الاحمدى (الثالثة)	٧٨١ — ٧٨٢	« «
اينال اليوسفى	٧٨٢ — ٧٨٣	« «
كمشبغا الحموى اليلبغاوى (الاولى)	٧٨٣ — ٧٨٤	الصالح أمير حاج
مأمور القلمطاوى	صفر ٧٨٤ — ٧٨٦	الظاهر برقوق (الأولى)

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
كمشبغا الحموى اليلبغاوى (الثانية)	٧٨٦ — ٧٩٠	الظاهر برقوق
اسندمر المحمدى	٧٩٠ — ٧٩١	» »
ملغاى تمر القبلائى	٧٩١	الصالح ثم المنصور حاجى
سنجق الحسنى	٧٩١ — ٧٩٢	المنصور حاجى
قرا دمرداش الاحمدى	٧٩٢	الظاهر برقوق (الثانية)
اينال من خجا	٧٩٢ — ٧٩٣	» »
فخر الدين اياس الجرجاوى	٧٩٣ — ٧٩٥	» »
دمرداش المحمدى الظاهرى (الاولى)	٧٩٥ — ٧٩٦	» »
ارغون شاه الابراهيمى الظاهرى	٧٩٦ — ٧٩٨	» »
منجك اليوسفى	٧٩٨ — ٨٠٠	» »
اقبغا الجمالى الظاهرى الاطروش	٨٠٠ — ٨٠١	» »
يونس الظاهرى بلبلا	٨٠١ — ٨٠٢	» »
شيخ المحمودى المؤيد «٧٩» (الاولى)	٨٠٢ — ٨٠٣	الناصر فرج
أقبغا الجمالى الظاهرى الاطروش		» »
(الثانية)	٨٠٣	» »
شيخ المحمودى (الثانية)	٨٠٣ — ٨٠٤	» »
دمرداش المحمدى الظاهرى (الثانية)	٨٠٤ — ٨٠٦	» »
شيخ السليمانى	٨٠٦ — ؟	» »
سودون بقجه	٨١١ — ؟	» »
سودون من عبد الرحمن	٨١٧ — ؟	المؤيد شيخ
يشبك شاد الشراب خاناه	٨١٨ — ؟	» »

(٧٩) أسر شيخ فى موقعة جيلان خارج حلب فى ٩ ربيع الاول سنة ٨٠٣ هـ (النجوم ج ١٢ ص ٢١٠)

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
بردي بك رأس نوبة	٨٢٠ — ؟	المؤيد شيخ
تاني بك البجاسي	٨٢٤ — ٨٢٥	» »
إينال النوروزي	٨٢٥ — ٨٢٦	الاشرف برسباى
قصروه أميراخور كبير	٨٢٦ — ؟	» »
برسباى بن عبد الله حمزه الناصرى	٨٤٩ — ٨٥١	إينـــال
اينبك بن عبد الله من جانى بك	٨٥١ — ٨٥٣	» »
محمد بن مبارك	٨٧٠	خشقـــدم
قانصوه اليحياوى	٨٧٣ — ٨٧٤	الاشرف قايتباى
يشبك البجاسى	٨٧٤ — ٨٨٠	» »
أزدمر من مزيد الأشرفى	٨٨٠ — ٨٨٤	» »
بردبك المعمار السيفى جرباش كرد	٨٨٤ — ٨٨٥	» »
اينال السلحدار (الاولى)	٨٨٦ — ٨٨٩	» »
بيبرس الرجبى	٨٨٩ — ٨٩٠	» »
اينال السلحدار (الثانية)	٨٩٠ — ؟	» »
اينال باى الابراهيمى	٩٠٣ — ٩٠٤	الناصر أبو السعادات محمد
آقبردى الدوادار	٩٠٤	» »
دولات باى من أركماس (الاولى)	٩٠٤	» »
يلباى المؤيدى	٩٠٤ — ٩٠٥	» »
قيت الرجبى	٩٠٥ — ٩٠٦	جانبـــلاط
برد بك الطويل	٩٠٦ — ٩٠٨	العادل طومان باى وقانصوه الغورى
دولات باى من أركماس (الثانية)	٩٠٨	الاشرف قانصوه الغورى
أركماس من طراباى	؟	الغـــورى

اسم النائب	مدة نيابته	اسم السلطان المعاصر
يخشباى من عبد الكريم	؟	الغـــورى
سودون من يشبك الدواداری	٩١٥ — ؟	» »
آبرك مملوك	٩١٨ — ٩١٩	» »
جانم من ولى الدين	٩١٩ — ٩٢٠	» »
الماس دوادار	٩٢٠ — ٩٢١	» »
تمراز الأشرفى	٩٢١	

(٢)

الأحداث الهامة فى نيابة طرابلس

١ — الفتن والقلاقل :

(١) فى عهد الناصر محمد بن قلاوون : شهدت طرابلس فى عصر المماليك اضطرابات خطيرة اما بسبب محاولة بعض نواب السلطنة فى الشام الخروج على السلطان المملوكى، أو بسبب خلاف شخصى بين نائب طرابلس وأحد أمرائها ، أو نتيجة نزاع بين نائب طرابلس وأهلها . وقد كان أمر هذه الفتن يمتد فى بعض الأحيان ؛ فلا تحسم الا بتدخل السلطان ، وقد تنتهى فترة الاضطراب فى أمد قصير بتدخل النائب الكافل فى دمشق أو فى القاهرة .

ومن الفتن التى قامت فى طرابلس ، الفتنة التى وقعت بين الأمير سيف الدين أسندمر الكرجى نائب طرابلس والأمير بالوج الحسامى من أمرائها ، وكان سببها أن أسندمر استخدم فى ديوانه كاتبا سامريا يقال له أبو السرور ، وأطلق يده فى أمور النيابة ، فاستبد السامرى وزاد تحكمه ، وكان يستغل مركزه فى الاتجار لمخدومه ، وركب الخيول المسومة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ، وأساء التصرف فى سائر الأمور بطرابلس حتى كثرت لديه الأموال ، وأثرى ثراء فاحشا ، وزاد على الناس ضرره ؛

فشكوه لنائب طرابلس ، فلم يعبأ بهذه الشكايات ولم يعمل على الحد من سلطات السامرى ، فاضطر الأمير بالوج الحسامى من أمراء طرابلس الكبار الى الاتفاق مع أمراء طرابلس الآخرين على كف يد السامرى ، ووعدهم بالوقوف معهم ثم انه قابل أسندمر نائب طرابلس، وواجهه بما ارتكبه السامرى فى حق أهل طرابلس وذكر له ما أصاب الناس على يديه من أضرار . فاتهمه أسندمر بالكذب والتلفيق وأساء اليه وأغلظ عليه فى القول ، وكان هذا التصرف كفيلا باثارة غضب الأمير بالوج عليه ، فقابل بالوج تحدى أسندمر بتحد مماثل ، وأقسم له بأنه لن يتحول عن قتل السامرى . وكان من الطبيعى أن يعمل أسندمر على ازاحة بالوج من طريقه ، ثم تتحول القضية الى نزاع شخصى بينه وبين بالوج ، فكتب بالوج يشكوه عند النائب الكافل شكوى عريضة أدت الى اصدار الأمر بالقبض على بالوج وحبسه . وعلى أثر ذلك بغى السامرى وطغى ، واشتدت وطأته على أهل طرابلس ، واستبد بهم . فلم يسكتوا على ذلك ، وأخذوا يكتبون فيه « محاضر بقوادح حفظت عنه ، وأثبتوها بدمشق ، فكتب الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام فيه ، فقام الأمير بيبرس الجاشنكير فى ذلك وكتب بحمل السامرى الى دمشق وتسليمه للقاضى المالكى والافراج عن بالوج ، فأفرج عنه ، وأنعم عليه ، وقيد السامرى ، وسلمه للبريد ، فسار به الى حمص ، فاتفق قتله بها ، واتهم أسندمر أنه دس عليه من ضرب عنقه حتى لا يتمكن منه ، فحملت رأسه الى دمشق » [1] .

ولما خلع الناصر محمد بن قلاوون نفسه من السلطنة فى شوال

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ قسم ١ ص ٤

سنة ٧٠٨ هـ بعد أن ضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار كفيلا الممالك الشريفة ، ونصب بيبرس الجاشنكير نفسه سلطانا ، أرسل بيبرس الى نواب الشام رسلا من قبله ليحلفوا هؤلاء النواب على الولاء له ، ويرسلوا له نسخة الايمان ، فتوجه الى طرابلس الأميران عز الدين أيدمر اليونسى وأقطاى الجمدار «٢» . وعلى الرغم من وقوف جمال الدين آقوش الأفرم نائب دمشق الى جانب بيبرس الجاشنكير بحكم كونه خشداشا له، وموافقة أمراء دمشق على الحلف لبيبرس ، وعمل له آقوش الأفرم الضغط على قراسنقر نائب حلب وقبجق المنصورى نائب حماة وأسندمر نائب طرابلس حتى يحلفوا لبيبرس ، فقد رفض الأمراء الثلاثة سلطنة بيبرس ، ورد أسندمر نائب طرابلس لرسول الأفرم اليه بقوله : « اذهب لأستاذك وقل له : يابعيد الذهن وقليل العلم ، بعد أن دبرت أمرا فما الحاجة الى مشاورتنا ، فوالله ليكونن عليك أشأم التدبير ، وسيعود وباله عليك » «٣» . ونتج عن عصيان نواب طرابلس وحماة وحلب اضطراب الأمور فى هذه النيابات ، فاجتمع النواب الثلاثة فى حلب وأقسموا أن يعيدوا الناصر محمد الى السلطنة ولو تعرضوا فى سبيل ذلك للموت . وحاول بيبرس ارضاء هؤلاء النواب المعارضين حتى يعترفوا له بالسلطنة ، فأرسل الى كل منهم تقليدا بنيابته مع الاحتفاظ لأنفسهم بما يتحصل منها من أموال ، وخلع على كل منهم خلعة بألف دينار وفرشا قماشه بألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، فتظاهر النواب المذكورون بالموافقة على سلطنة بيبرس وحلفوا له،

---

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٣٦

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٨ .

ولكنهم لعبوا دورا هاما بعد ذلك فى اعادة الناصر محمد الى السلطنة فى سنة ٧٠٩ هـ ، ولذلك كافأهم الناصر محمد بأن ولى أسندمر نيابة حماة عوضا عن قبجق الذى تولى نيابة حلب . أما طرابلس فتولى نيابتها الحاج سيف الدين بهادر الحلبى «٤» .

(٢) **فى عهد الظاهر برقوق** : ثار يلبغا الناصرى نائب حلب على السلطان فى محرم سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) وقبض على حاجب حجاب حلب وعلى أولاد المهمندار ، ثم استولى على القلعة ، واستدعى التركمان والعربان ، وكتب الى تمر بغا الأفضلى الأشرفى المعروف بمنطاش نائب ملطية وزعيم الأشرفية يستميله الى حركته ، ونجح فى ذلك على نحو لم يكن فى الحسبان ، وتعاضد الأشرفية واليلبغاوية «٥» ، ثم أحدثوا انقلابا فى طرابلس فى فى ٢٤ صفر من نفس السنة ، فقد تمكن الأمير قرابغا فرج الله والأمير بزلار العسرى الناصرى والأمير دمرداش اليوسفى ، والأمير كمشبغا الخاصكى الأشرفى والأمير آقبغا قبجق مع طائفة كبيرة من أمراء المماليك المنفيين بطرابلس من الوثوب على نائبها الأمير أسندمر المحمدى والقبض عليه وقتله مع طائفة من أمراء طرابلس ، نخص بالذكر منهم الأمير صلاح الدين خليل بن سنجر وابنه ، وأعلن الثوار دخولهم فى طاعة يلبغا

---

(٤) نفس المصدر ج ٩ ص ١١

(٥) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٥٩

الناصرى «٦» ، وأقام بزلار نفسه نائبا على طرابلس «٧» . وتبع ذلك دخول حماة وبعلبك والكرك وحلب وغيرها من البلاد الشامية فى طاعة الناصرى. ولما أرسل الظاهر برقوق جيشا لمحاربة يلبغا انهزم جيشه هزيمة مخزية ، وانتهى الأمر بدخول يلبغا الناصرى فى دمشق فى ٢١ ربيع الآخر من سنة ٧٩١ هـ

ولم يلبث منطاش أن تنازع مع يلبغا الناصرى فى مصر بعد أن نجح الاثنان فى عزل برقوق ونفيه بالكرك ، واستطاع منطاش أن يظفر بالأتابكية فى مصر بعد انتصاره على يلبغا الناصرى ، وانتهز برقوق فرصة هذا الخلاف القائم بين يلبغا ومنطاش ، وأعلن نفسه سلطانا ، فبايعه أهل الكرك فى سنة ٧٩١ ، والتف حوله الجراكسة من الشام ومصر ، فكون منهم جيشا زحف به نحو دمشق «٨» ، وبادر منطاش بالخروج الى الشام لمواجهة برقوق ، وفى هذه الآونة ثار أهل طرابلس على منطاش واستقلوا بمدينتهم ، فاضطر منطاش الى النزول على طرابلس فى عسكر كثيف من التركمان والعرب والمماليك وغيرهم بقصد استرجاع المدينة ، فخرج أهل

---

(٦) محمد بن محمد بن صصرى ، الدرة المضيئة فى الدولة الظاهرية، نشره وليم م. برينر ، مجلد ٢ ، (النص العربى) ، لوس انجليس ، ١٩٦٣ ص ٥ — النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص ٢٥٩

(٧) ابن صصرى ، ص ٥

(٨) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ص ١٥٦

طرابلس لمهاجمة عسكر منطاش . وتسكنوا من هزيمتهم ، فأعد لهم منطاش كمينا ، وتظاهر بالانهزام ، فطارده أهل طرابلس ، فخرج عليهم الكمين ، فقتلوا منهم جموعا هائلة «٩» . ثم التقى منطاش بعد ذلك بعسكر برقوق فى موقعة دارت بالقرب من دمشق ، انتهت بهزيمة منطاش . أما طرابلس فقد تولى نيابتها الامير اياس الجرجاوى . وكان يميل الى النصارى ويقربهم اليه ، وقد حاول فى نيابته أن يحول جامع طرابلس الكبير الى كنيسة للنصارى ، فثار عليه القضاة وأعيان طرابلس والعامة . وأرادوا أن يرجموه فى سنة ٧٩٥ هـ ، فتدخل السلطان فى هذه المشكلة ؛ وعزله ثم أرسله الى دمشق «١٠» .

(٣) فى عهد الناصر فرج بن برقوق :

استغل كبار أمراء المماليك فى مصر والشام صغر السلطان فرج بن برقوق «١١» وأعلنوا الثورة عليه ، ففى دمشق خرج عليه نائبها تنم

---

(٩) ابن صصرى ، ص ٦٥

(١٠) النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢

(١١) لم يكن السلطان فرج بن برقوق يتجاوز من العمر الثالثة عشرة سنة عندما تولى السلطنة ، وكانت ظروف توليه لها غير مواتية ، فالفوضى كانت ضاربة أطنابها فى الشام ومصر والأخطار الخارجية كانت تتهدد حدود الدولة .

واستمال اليه يونس بلطا الظاهرى نائب طرابلس ، فأمره تنم بتجهيز شينى فى البحر الى ثغر دمياط ليحمل فيـه الأمير نوروز الحافظى وغيره من الأمراء بثغر دمياط ، فبادر ناصر الدين محمد بهادر المؤمنى بالاستيلاء على برج الأمير أيتمش البجاسى بطرابلس وركب البحر الى دمياط «١٢» للحصول على ملطفات من السلطان تأمينا لأهل طرابلس .

ولكن أهل طرابلس الذين تمسكوا بالولاء للناصر فرج ، ولم يعترفوا بأصحاب الانقلاب ، ثاروا على اتباع تنم فى سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) عندما عاد محمد بن بهادر المؤمنى الى طرابلس ومعه الملطفات المذكورة ، فتصدى له نائب غيبـة يونس بلطا فى ٣٠٠ من أجناد طرابلس وقاتله هو ورجاله ، فانهزم نائب الغيبة ورجاله وتقهقر الى برج أيتمش الذى كان فى حوزة ابن بهادر ، وحاصره العامة وقاتلوه ، فاضطر الى الهرب الى حماة . فغضب الأمير تنم لذلك وسير عسكرا ضخما لقتال أهل طرابلس بقيادة الأمير صرق ، واشتبك صرق مع أهل طرابلس فى قتال عنيف دام تسعة أيام ، لم يؤد الى نتيجة ، ولما ألفى تنم عجز صرق أمام مقاومة أهل طرابلس عن دخولها ، أرسل اليها نائبها يونس بلطا فى طائفة كبيرة من العسكر ، فزحف اليها يونس ونجح فى ايقاع الهزيمة بابن المؤمنى ، وتمكن من دخول طرابلس فى ١٥ ربيع الأول سنة ٨٠٢ هـ . فركب ابن المؤمنى البحر بمن معه ، وبرفقته القاضى شرف الدين مسعود قاضى القضاة الشافعية بطرابلس ، بقصد الالتجاء الى القاهرة .

---

(١٢) النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٨١

وتهيأت ليونس بلطا فرصة الانتقام من أهل طرابلس ففعل «في طرابلس وأهلها ما لا تفعله الكفرة ، وقتل نحو العشرين رجلا من أعيان طرابلس وقضاتها وعلمائها ، منهم الشيخ العالم المفتى جمال الدين بن النابلسى الشافعى ، والخطيب شرف الدين محمود ، والقاضى المحدث شهاب الدين أحمد الأذرعى المالكى ، والقاضى موفق الدين الحنبلى ، وقتل من عامة طرابلس مايقارب الألف ، وصادر الناس مصادرات كثيرة ، وأخذ أموالهم ، وسبى حريمهم . فكانت هذه الكائنة من أقبح الحوادث » «(١٣)» . ولكن السلطان فرج تمكن أخيرا من اخماد ثورة تنم وأنصاره وهم نواب صفد وطرابلس وحماة وحلب ، وانتهى الأمر بقتل كل من تنم ويونس بلطا فى رمضان سنة ٨٠٢ هـ «(١٤)» .

(٤) فى عهد الناصر ابو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباى وقانصوه الغورى :

كان محمد بن قايتباى من الضعف بحيث استبد الأمير قصروه من اينال نائب الشام فى عهده بأمور الشام استبدادا مطلقا ، وكان قد خرج على طاعة السلطان فى ربيع الآخر سنة ٩٠٥ ، فلم يؤاخذه السلطان على فعلته ، وأقره على نيابة دمشق ؛ ولكن قصروه لم يكتف بذلك بل استولى فى شعبان سنة ٩٠٥ هـ على طرابلس ، وقبض على نائبها يلباى المؤيدى

---

(١٣) النجوم الزاهرة : ج ١٢ ص ١٩١ ، ١٩٢

(١٤) نفس المصدر ص ٢٠٦

وسجنه بقلعة دمشق «١٥» ، ومع ذلك فقد أقام السلطان الأمير قيت الرجبى جاجب الحجاب على نيابة طرابلس عوضا عن يلبـاى المؤيدى ولم يجسر على معاقبة قصروه ، ولـكن قيت لم يلبث أن أعيـد فى سلطنة الأشرف جانبلاط من يشبك الأشرفى الى حجوبية الحجاب • أما طرابلس فأقيم على نيابتها الأمير برد بك الطويل بدلا من قيت الرجبى «١٦» • وفى ذى القعدة من سنة ٩١٥ هـ وقع خلاف كبير بين الأمير سودون من يشبك الدوادارى نائب طرابلس وبين أهلها ، فاضطر السلطان الى استدعائه الى مصر «١٧» ، ليتجنب بذلك ما قد يسببه بقاؤه فى نيابة طرابلس على غير رغبة أهلها من قلاقل واضطرابات ، وأقام مكانه نائبا آخر للسلطنة هو الأمير أبرك مملوك •

ب — الفنـاء الكبير :

نكب العالم كله فى الفترة ما بين عامى ٧٤٣ هـ ، ٧٥١ هـ بوباء خطير اجتاح أقطاره من المشرق الى المغرب وأدى الى فنـاء ملايين الأنفس حتى عرف فى الرواية الأوربية باسم الفناء الكبير ، وفى مصادر التاريخ الأوربى الوسيط باسم الموت الاسود Black death «١٨» • وقد انتشر هذا

---

(١٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٣ ص ٤٣٣

(١٦) نفس المصدر ص ٤٤٥

(١٧) نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٦٨

(١٨) المقريزى ، كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة ، تحقيق الدكتور - -

الوباء فى بلاد الشرق الأدنى والمغرب الاسلامى وأوربا من الشرق الأقصى عبر الطرق التجارية المارة بغرب آسيا والشام والأناضول ومصر ، فابتدأ ظهوره فى بلاد مغول القبائل الذهبية سنة ٧٤٢ ، أى فى المنطقة الواقعة شمالى البحر الاسود وبحر قزوين ، ثم انتشر فى بلاد غياث الدين محمد ازبك وامتد بعد ذلك الى انطاكية والشام والعراق وأرمينية ثم مصر وبلاد الفرنج . ويرجح الاستاذ محمد عبد الله عنان أنه حل بايطاليا قبل أن يحل بمصر «١٩» باعتبار أنه ظهر بفلورنسة حسب رواية معاصره بوكاشيو فى شهر مارس سنة ١٣٤٨ (ذو الحجه سنة ٧٤٨ هـ) بعد ظهوره فى جنوب ايطاليا . ولكن المقريزى يذكر أن هذا « الوباء الذى لم يعهد فى الاسلام مثله ابتدأ بأرض مصر آخر أيام التخضير وذلك فى فصل الخريف فى أثناء سنة ثمان وأربعين ، وما أهل محرم سنة تسع وأربعين حتى انتشر الوباء فى الاقليم بأسره ، واشتد بديار مصر فى شعبان ورمضان وشوال ، وارتفع فى نصف ذى القعدة » «٢٠» .

= جمال الدين الشيال والدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٠ . تعليق رقم ٣

(١٩) محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ص ٩١ ، ٩٢

(٢٠) السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٧٧٢ — النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٩٥

ويبدو أن هذا الطاعون قد انتقل من آسيا الصغرى الى قبرص عن طريق السفن ، فانتشر فى قبرص بدليـل أن أول أخبار الطاعون وردت فيما ذكره المقـريزى اذ يقول : « وفيه (أى فى عـام ٧٤٩) قدم الخبر من طرابلس بأن قبرص وقع بها فنـاء عظيم هلك فيه خلق كثـير » «[٢١]» .

ونستنتج من ذلك أن الوباء ظهـر فى قبرص قبل أن يظهر فى الشام . ثم عم بعد ذلك فى أرض مصر . وكان أول ظهوره فى حلب فى أول جمادى الأولى سنة ٧٤٨ هـ ، ثم عم « جميع بلاد الشـام وبلاد ماردين وجبالها ، وباد أهل الغور وسـواحل عكا وصفد وبلاد القـدس ونابلس والكرك وعربان البوادى وسكان الجبال والضياع » «[٢٢]» . ثم امتـد الوباء الى طرابلس لدرجة مخيفة فى الوقت الذى خف فيه فى دمشق «[٢٣]» . وكتب نائب حلب بأن بعض أكابر الصـلحاء بحلب رأى النبى صلى الله عليـه وسلم فى نومه ، وشكا اليه ما نزل بالناس من الوباء ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالتوبة وقراءة الدعاء التالى : « اللهم سكن هيبة صدمة

---

(٢١) السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٥٩

(٢٢) السـلوك ، ج٢ قسم ٣ ص ٧٧٤ — النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٧

(٢٣) السـلوك ، ج ٢ قسم ٣ ص ٧٧٩ — ويذكر أبو المحاسن أن الوباء فى دمشق (كان بها آخر ماكان بطرابلس وحماة وحلب ، ج ١٠ ، ص ٢٠٣ ، وصحتها « أخف »

بي مان الحروب بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت حتى تتشبث بأذيال لطفك ، ونعتصم بك من انزال قهرك ياذا القوة والعظمة الشاملة . والقدرة الكاملة ، ياذا الجلال والاكرام) . فرأى المسؤولون فى مصر أن يبعثوا بنسخ من هذا الدعاء الى حماة وطرابلس ودمشق «٢٤» . ولم تخف وطأة الوباء الا فى المحرم سنة ٧٥٠ هـ بعد أن قضى على عدد كبير من سكان طرابلس .

ج ـ غارات القبارصة على طرابلس :

لم ينته الصراع بين الصليبيين والمسلمين نهائيا بعد سقوط عكا فى أيدى المماليك فى مايو سنة ١٢٩١م ، فقد اتخذ الصليبيون من قبرص وأرواد قاعدة العدوان يوجهون منها الغارات على سواحل مصر والشام «٢٥» .

---

(٢٤) السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٧٨٠ ـ النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤

(٢٥) حاول الفرنجة فى شعبان سنة ٦٩٨ هـ مهاجمة سواحل الشام ، فوصلت الى بيروت نحو ثلاثين بطسة تحمل كل منها سبعمائة مقاتل ، ولكن هذه الغزوة فشلت تماما بسبب تعرض السفن لرياح عنيفة أغرقت معظمها (راجع صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٤٨) . وفى العشر الآخر من جمادى الأولى سنة ٧٠٤ هـ جاز على بيروت أسطول افرنجى توجه الى ساحل صيدا ودخلها الفرنج فقتلوا وأسروا عددا كبيرا من سكانها ونهبوها (تاريخ بيروت ، ص ٥١)

وكانت طرابلس أكثر مدن الساحل تعرضا لهذه الغارات الانتقامية ، فمنذ عام ٦٩٨ هـ تعرضت هذه المدينة لغارات الاسبتارية فى أرواد «[٢٦]» ، فرسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون للوزير بانشاء أربعة شوان حربية بدار الصناعة فى المحرم سنة ٧٠٢ هـ لفتح جزيرة أرواد ، فأعدت الشوانى وشحنت بالمقاتلة وآلات الحرب ، وأبحرت الى طرابلس بقيادة الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصورى ، وساهم الأمير أسندمر كرجى نائب طرابلس والفتوحات الساحلية فى هذه الغزوة . وتمكن أسطول المماليك من فتح جزيرة أرواد بالسيف عنوة «[٢٧]» ، وقتلوا ما يقرب من ألف شخص من سكانها ، وغنموا غنائم كثيرة «[٢٨]» .

---

(٢٦) هى جزيرة تقابل أنطرطوس كان قد اجتمع فيها أعداد هائلة من الفرنج وسكنوها وسوروها وأقاموا بها الحصون ، وكانت مركزا لعدوان الفرنج على ساحل طرابلس (النويرى ج ٣٠ ص ٤)

(٢٧) اشترك الأمير سيف الدين أسندمر فى هذه الغزوة بمركب حمل فيه جماعة من الجند بينما نزل هو قبالة الجزيرة بالبر الشرقى ، أما الشوانى فتوجهت بالعسكر اليها ، ففتحت الجزيرة فى ٢ صفر ٧٠٢ هـ

(وفى فتح هذه الجزيرة راجع : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ٤ — ابن أيبك الدوادارى ، الدر الفاخر ، ص ٤١ — أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ج ٧ ص ٥٧ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٥٦)

(٢٨) ذكر النويرى أن عدد القتلى بلغ نحو ألفين ، والأسرى نحو خمسمائة (النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ٤)

وعلى الرغم من وقوع أرواد فى أيدى المسلمين ، فقد واصل الصليبيون غزواتهم على الساحل الشامى والمصرى ، متخذين قبرص مركزا للاعتداءات على سواحل المسلمين ، وكان موقع قبرص الرائع فى البحر المتوسط قبالة الساحل الشامى يؤهلها للقيام بأعمال القرصنة والاعتداء المتواصل على الموانىء المصرية والشامية «٢٩» . وكان هنرى الثانى دى لوزنيان (١٢٨٥ — ١٣٢٤ م) يتولى حكم هذه الجزيرة فى الوقت الذى سقطت فيه عكا ؛ فانتقل الى جزيرته جماعة فرسان الاسبتارية الذين كانوا يتولون الدفاع عن عكا ؛ فأنزلهم فى ليماسول ، وتمكن الاسبتارية فى عام ١٣١٠ م من الاستيلاء على جزيرة رودس واتخذوها قاعدة لهم للاعتداءات على سواحل المسلمين بغية استرجاع الأراضى المقدسة «٣٠» ، وأصبح القيام بحرب صليبية ذريعة لتبرير ابتزاز أموال من الكنيسة ، ولهذا فان فيليب الرابع ملك فرنسا نذر نفسه للحرب المقدسة منذ أن تمكن من السيطرة على البابا بعد انتقال كرسى البابوية الى أفنيون فى سنة ١٣٠٥ ، وقوبل ذلك بترحيب بالغ من رجالات الطبقات المختلفة فى مجتمع العصور الوسطى الذين نظروا الى موضوع الحرب المقدسة على أنه أمر جدى ،

---

(٢٩) سعيد عشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٠٦

(٣٠) Aziz Surial Atiya, The Crusade in the later Middle ages, p. 288

وعرضت على البابا وملك فرنسا والمجلس الكنسى المنعقد فى ڤينا سنة ١٣١١ /١٣١٢ م العروض المختلفة والمشروعات الهامة من رجال قضوا سنين عديدة فى الشرق وآخرين لم يخرجوا قط الى ما وراء البحر «[٣١]».

وأنعشت فكرة القيام بحرب صليبية أدب الدعاية للحرب المقدسة ، فاقترح بيير ديبوا فى كتاباته استرجاع الأراضى المقدسة ، واستعادة أملاك الامبراطورية البيزنطية ، وغزو مصر ، كما اقترح وليم دى نوجاريت صديق ملك فرنسا المخلص الحد من قوة المماليك الذين يساندهم كاثوليك مزيفون ، اذ يزودونهم بالأخشاب وآلات الحرب ، ويبيعون لهم الأطفال الذين ينشئهم المماليك فى الطباق أو المدارس العسكرية نشأة حربية (الجلبان أو الأجلاب) «[٣٢]» .

وبينما كان المجلس الكنسى منعقدا فى ڤينا سنة ١٣١١ للنظر فى مشروع القيام بحملة صليبية كتب فولك دى فياريه مقدم فرسان الاسبتارية برودس الى فيليب الرابع المعروف بالجميل معبرا عن رغبته فى

---

(٣١) Ibid. p. 48 - محمد جمال الدين سرور ؛ دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٤٤

(٣٢) Aziz Suria, p. 54 • وفى المماليك الجلبان راجع : عبدالمنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ج ١ القاهرة ١٩٦٤، ص ١٥ وما يليها .

الاشتراك فى الحملة ، وأنهى اليـه بأنه ــ مبالغة منه فى اثبات جديته ــ قد أمر بانشـاء سبع بطسات فى قطالونيـة ، وثلاث فى أربونة ، و١٦ فى مرسيليا . و١٢ فى جنوة بالاضافة الى سفن أخرى كبيرة منها : راسيـة فى بيزه وستة فى البندقية ؛ كذلك جهز الاسبتارية خمس سفن فى جنـوة واثنتين فى البندقية بمختلف الأسلحة والامدادات بحيث أصبحت جميعـا تحت أهبة الاستعداد للابحار قبل أن يحل ربيع ١٣١١ م «٣٣» . وفى أثناء ذلك بعث هنرى الثانى دى لوزنيان ملك قبرص رسولين الى البابا كليمنت الخامس والمجلس الكنسى لعرض وجهة نظره عن الحملة ، وهدفها اضعاف قوى المماليك الحربية بحصار بحرى يقوم به الصليبيون ضد مصر والشام، ومنع الخونة النصارى الذين يزودون قـوى المماليك بعناصر جديدة ، ويمدون عسكرهم بمواد الحرب والسلاح ، ولضمان انجاح هذا الحصار لابد أن تنفذ هـذه المهمة دون اشتراك قومونيات البندقية وبيزة وجنوة وغيرها من الجمهـوريات الايطاليـة التى يتشكك فى اخلاصـها للحركة الصليبية بسبب ارتباط مصالحها بالاسـلام ، فاذا ما نجح الصليبيون فى تطبيق هـذا الحصار لمدة سنتين أو ثلاث فان ذلك سيقضى حتما على قوة البحـرية المصرية ومواردها «٣٤» . وينصح هنرى دى لوزنيـان باتخاذ قبرص قاعدة للحملة المزمع تسييرها ، حتى اذا ما جاءت اللحظة المناسبة

---

(٣٣) Aziz Surial, p. 57

(٣٤) Ibid. p. 58

يتهيأ للحملة أن تنفذ خطتها فى مهاجمة مصر أولا باعتبارها المصدر الرئيسى لجميع الكوارث التى لحقت بالصليبيين ، ثم الشام بعد ذلك «٣٥» . وعلى الرغم من أن البابا لم يعمل بهذه الخطة التى رسمها هنرى دى لوزنيان فان بطرس الأول دى لوزنيان حفيد هنرى سينفذها فى غزوته للاسكندرية سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥ م) «٣٦» .

ثم كان اعتلاء بطرس الأول دى لوزنيان بن هيو الرابع عرش قبرص فى سنة ١٣٥٩ م فاتحة عهد جديد فى تاريخ الحركة الصليبية المتأخرة التى بلغت ذروة نشاطها فى سنة ١٣٦٥ بغزوة القبارصة للاسكندرية ، وكان بطرس هذا من أشد ملوك الصليبيين عداء للاسلام ، اذ كان شديد التحمس للقضية الصليبية . وكان موقع قبرص الاستراتيجى قد أتاح لملوكها أن يظهروا فى صورة الأبطال الحقيقيين للمسيحية ؛ وعلى الرغم من أن بطرس قد وضع كل ثروات جزيرته تحت تصرف الصليبيين ، فان حاجته الى مزيد من الرجال والأموال لضمان انجاح خطته كان واضحا ، وهذا يفسر رحلاته الطويلة الى بلاطات أوربا استجداء لمساعدة ملوكها له بالمال والعتاد «٣٧» . ومنذ بداية حكمه صمم بطرس على نذر نفسه للحرب

---

(٣٥) Aziz Surial, p. 60

(٣٦) Ibid. — جمال سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٢٤٦ — سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٤ ، ٥٥

(٣٧) Aziz Surial, p. 322

المقدسة ، أملا فى تحطيم قوة الاسلام المثلة فى آسيا الصغرى ومصر والشام . ويعتبر استيلاؤه على الاسكندرية فى سنة ١٣٦٥ ونهبها خلال اربعة أيام «٣٨» ، أعظم حدث وقع فى تاريخ الحركة الصليبية فى القرن الرابع عشر . وقد مهد بطرس لحملته على الاسكندرية بغزوة تمهيدية لسواحل الشام لايهام المماليك بنيته فى مهاجمة الشام لاسترجاع بيت المقدس ، واشترك فى هذه الحملة فرسان رودس والبنادقة ، ونجح فى دخول طرابلس فى نيابة منجك اليوسفى فى أول سنة ٧٦٧ هـ ، وأضرم

---

(٣٨) راجع غزوة القبارصة فى الكتب الآتية : النويرى ، الالمام بالاعلام ، مخطوطة ج ١ ورقة ٣٢٦ — ٣٣٥ ، والمقريزى ، السلوك ، ج ٧ ورقة ٤٧ — النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٩ ، ٣٠ —

Et, Combe, le texte de Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre de Lusignan, Farouk I University, Bulletin of the Faculty of Arts, Vol, III, 1946, p. 99 - 110 Aziz Surial, op. cit, p. 345 - 378

جمال الدين الشيال ، الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى بمجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ١٩٤٩ ص ١٠٠ —
الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٤٩ ص ٢٣٥ — محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٢٤٦ — ٢٥٢ — سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٧٤ ، ٧٥ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، ص ٨٥ — ٨٧ .

النـيران فى آبنيتها ، كما هاجم اللاذقيـة وأنطرطوس بعـد ذلك «٣٩» . ويبدو أن بعض نصارى طرابلس أتباع البطريرك جبرائيل الحجولاوى قدموا المساعدات للغزاة ، فما ان انسحب القبارصة من طرابلس حتى أمر الأمير منجك اليوسفى بالقبض عليـه وحرقه خارج طرابلس عند جامع طينـال «٤٠» .

وكان من الطبيعى أن يحتاط أمراء المماليك فى الشـام من غزوات قبرصية مماثلة لغزوتهم للاسكندرية فى سـنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، فأمر الأمير منجك اليوسفى نائب طرابلس للمرة الثانية (٧٦٧ — ٧٦٨ هـ) بأن يحترز الناس من صاحب قبرص على السواحل ، وعهد منجك لأصحـاب الدرك بالسواحل بمراقبة البحر ، كما ألزم بنى بحتر أمراء الغرب بالسكنى فى بيروت ، والركوب ليلا ونهارا . كذلك عزم يلبغا الخاصكى الذى كان يقوم مقام السلطان على غـزو قبرص وافتتاحها ، فرسم للأمير بيـدمر الخوارزمى بعمارة الشوانى والحمالات «٤١» ، لهذا الغرض فى دار الصناعة ببيروت «٤٢» ، فاستخدم بيدمر فى انشائها عـددا كبيرا من الصـناع ،

---

(٣٩) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٩٥

(٤٠) نفس المرجع ص ٣٩٦

(٤١) هى سفن مخصصة لحمل ذخائر الأسطول (عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٧٥)

(٤٢) أمر يلبغا بتجنيد جميع النجارين فى الشام لقطع أخشاب شجر الصنوبر والقرو وغيرها من جبل شغلان الواقع بالقرب من أنطاكية ونشرها لصناعة السفن فى مصر (راجع النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣٠)

وأمر العسكر بمراقبة الساحل خـوفا من قدوم سفن صاحب قبرص على حين غفلة فتدمر ما تم انشاؤه • ولكن مهمة انشاء هذا الأسطول الشامى لم تتحقق ، اذ توفى يلبغـا الخاصـكى فى ١٠ ربيع الآخر سنـة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) فتوقف العمل «٤٣» فى انشاء بقية السفن • وكان يلبغا قـد أمر أيضا بتجنيـد البحارة والنفاطة للسـفر فى المراكب التى تنتجها دار الصناعة بمصر بعـد خروج القبارصة من الاسكندرية ، ويذكر المقريزى أنه اهتم « بعمل الشوانى البحرية لغزو الفرنج ، فجمع من الأخشاب والحديد والآلات ما يجل وصفه ، وشرع النجارون فى عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى (تقع بين الروضة وبولاق) وتولى عملها الوزير فخرالدين ماجدين ••• فقام فى ذلك أتم قيام ، وبذل همته واستفرغ وسعه ، وتصدى له ليلا ونهارا ، واستقر شاد العمل الأمير علاء الدين طيبغا العلائى استادار الأمير يلبغا ناظر العمل بهاء الدين بن المفسر ، فقدم العمل ماية شينى ما بين غراب وطريدة برسم حمل الخيـل ، وكان أمرا مهولا ، ونودى بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد فى سبيـل الله الى بيت الأمير يلبغا الأتابك للعرض وأخذ النفقة للسفر فى المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر ، وكتبت أسماؤهم ، وقررت لهم المعاليم ، وأقيمت لهم نقباء ، وقاموا فى مساعدة صناع المراكب • وكتب الى طرابلس وغيرها

---

(٤٣) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٢١٣

من بلاد الساحل بانشاء مراكب حربية ، وجمع رجالها ، وكان عملا جليلا » «٤٤» .

وحاول الفرنجة — بعد أن اتضحت نية السلطان فى القيام بعمل انتقامى — أن يهادنوه ، فأرسلوا وفدا للمفاوضة فى تجديد الصلح وفتح كنيسة القيامة ببيت المقدس «٤٥» ، ولكن يلبغا رفض مطالبهم ، وأصر

---

(٤٤) المقريزى ، السلوك ، ج ٧ ص ٤٩

(٤٥) يروى المقريزى خبر وصول رسل الفرنج الى الاسكندرية فيقول : « وفى أول شهر رجب قدم الخبر بوصول رسل الفرنج الى ميناء الاسكندرية ، وأنهم طلبوا رهائن عندهم حتى ينزلوا من مراكبهم ويؤدوا رسالتهم ، فلم تؤمن مكيدتهم ، واقتضى الحال اجابتهم ، فأخرج من سجن الوالى المعروف بخزانة شمايل جماعة وجب قتلهم ، وغسلوا بالحمام ، وألبسوا ثيابا جميلة وسافروا الى الاسكندرية ، فأكرمهم النائب ، وأشاع أنهم من رؤساء الثغر ، وبعث بهم الى الفرنج ، وشيع خلفهم نساء وصبيانا يصيحون ويبكون كأنهم عيالهم ، وهم يخافون الفرنج عليهم ، فمشى ذلك على الفرنج وعلى أهل الثغر لانتظام حال المملكة وملاك أمرها وجودة تدبيرها ، فتسلم الفرنج الجماعة ، ونزلت رسلهم من المراكب وقدموا الى قلعة الجبل ، ... فحملوا الى هناك وجلس الأمير يلبغا الأتابك ، وقام الأمراء والحجاب بين يديه ، وأدخلوا عليه ، فهالهم مجلسه ، وظنوا أنه السلطان ، فقيل لهم هذا مملوك السلطان ، فكشفوا عن رؤوسهم ، وخروا على وجوههم يقبلون الأرض ، ثم قاموا ، ودنوا اليه ، وناولوه كتاب ملكهم وقدموا هديته اليه ، ففرق ذلك بحضرتهم فيمن بين يديه واختار منه طشتا وأبريقا من ذهب وصندوقا لم يعرف ما فيه .وتضمنت رسالتهم =

على أن يبدأ ملك قبرص بطلب الصلح ، فلم يسع بطرس الا أن يرسل رسله الى القاهرة للمفاوضة فى الصلح «٤٦» ، واشترط السلطان عليهم أن يعيد بطرس أسرى المسلمين ، فأجابه الى رغبته ، ويسجل عودة الأسرى نهاية المرحلة الأولى من المفاوضات ، وتبدأ المرحلة الثانية بعد ذلك ؛ وهى مرحلة استمرت ما يقرب من أربع سنوات كانت تتخللها بين الحين والحين غارات قبرصية على سواحل الشام ومصر ، للضغط على السلطان المملوكى ، وارغامه على قبول الصلح مع القبارصة «٤٧» . ولكن السلطان لم يغفر للقبارصة تجرأهم على مهاجمة الاسكندرية وسواحل الشام ، ولذلك كان يتحرق للانتقام منهم ، ولم يكن قد قبل بعد مبدأ التفاوض معهم الا تظاهرا وانما كان يعمل على التسويف والمماطلة فى عقد الصلح حتى يتم خلال ذلك انشاء الأسطول الذى كان يلبغا الخاصكى قد أمر بانشائه فى بيروت والقاهرة ، وعندئذ لم يجد بطرس بدا من تشديد الضغط على مصر بمهاجمة سواحل الشام من جديد ، ففى أوائل المحرم

أنهم فى طاعة السلطان ومساعدوه على تملك قبرص حتى ترد الأسرى التى أخذت من الاسكندرية ، ويعوض المال ، وسألوا تجديد الصلح ، وأن يسكن تجارهم من قدوم الثغر وأن يفتح كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت قد غلقت بعد واقعة الاسكندرية ، فأجابهم بأنه لا بد من غزو قبرص وتخريبها .. » (السلوك ، ج ٧ ص ٥١)

(٤٦) أرسل ثلاث رسل قطلان يشاورنه فى بلاط السلطان هم چان دلفونسو ، وجورج ستيكا ، وبول دى بيلونيا (راجع Aziz Surial, p. 371)

(٤٧) Ibid. p. 372

سنة ٧٦٨ هـ (نوفمبر ١٣٦٦) جهز بطرس أسطولا ضخما يتألف من١١٦ سفينة ما بين شوانى وبطسات للاغارة على ساحل الشام ، ولكن عاصفة عاتية فصلت وحدات هذا الاسطول بعضها عن بعض ، فلم يصل منه الى طرابلس سوى ١٥ سفينة بقيادة فلوريسونت دى لسبار ، أطلق رجالها يد النهب فى المدينة ، ثم عادوا الى قبرص «٤٨» . ومع ذلك فقد تجددت محاولات بطرس لطلب الصلح فى يونيو سنة ١٣٦٧ م ، ولكن سفارته التى كان يرأسها جاك دى نورس التركبولى عادت الى الماغوصة (فماجوستا) بدون نتيجة . وعلى أثر ذلك عاد القبارصة يغيرون من جديد على طرابلس فى سبتمبر من نفس العام ، (أول عام ٧٦٩ هـ) ، واشترك فى هذه الغزوة مقاتلون من البنادقة والجنوية والقبارصة والخرايطة (الكريتيين) والروادسة والفرنسيين والهنكر (الهنغاريين) ، بلغ عددهم ١٦ ألف مقاتل ، فى ١٣٠ سفينة ما بين شينى وقرقورة وغراب وطريدة وشختورة ، منهم ألف فارس والبقية رجالة ، فقدم البنادقة فى ثلاثين غرابا والجنوية فى عشرين والروادسة فى عشرة ، والأغراب فى خمسة عشر والبقية من قبرص «٤٩» .

---

(٤٨) Aziz Surial, p. 373

(٤٩) النويرى السكندرى ، الالمام بالاعلام ج ٢ مخطوط رقم ١٩٣٤ بدار الكتب المصرية ص ٧٠ (نسخة محمود حمدى منقولة عن النسخة رقم ١٤٤٩) . ويذكر المقريزى أن مراكب القبارصة بلغ عددها ١٣٠ مركبا (السلوك ج ٧ ص ٦٠ — وتاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط رقم ٨٥٥٤ ح بدار الكتب ص ٢٤ و)

وكان بطرس نفسه مشتركا فى هذه الغزوة هو وصاحب رودس. وصلت سفن القبارصة سليمة الى ميناء طرابلس ، وكان نائبها ومعظم عسكرها غائبين عنها فى ذلك اليوم «٥٠» فاغتنم القبارصة الفرصة، ونزلوا من سفنهم الى ساحل البلدة . ويبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الفرنج لكثرة طروق القبارصة لمدينتهم وعيثهم على سواحل الشام ، فتصدى لهم جماعة من أهل طرابلس ومن بقى من عسكرها ، وترامى الفريقان بالسهام ، ثم اشتبك المسلمون معهم فى قتال شديد ، فتقهقر المسلمون ودخل المدينة طائفة من المغيرين ، فنهبوا بعض الأسواق ، ولكن المسلمين تتابعوا من كل ناحية لطلب الجهاد ومغازاة القبارصة ، ووقعت بينهم وبين المغيرين عدة وقائع استشهد فيها من المسلمين نحو الأربعين ، بينما قتل من الفرنج نحو الألف حسب رواية أبى المحاسن «٥١» وقيل قتل من المسلمين واحد وعشرون حسب رواية النويرى السكندرى ، وقيل أربعة أنفس بينما قتل من الفرنج ثمانمائة «٥٢» . ثم انسحب القبارصة منهزمين الى سفنهم ؛ وحاولوا النزول فى جبلة ولكن ريحا عاصفا فرق سفنهم فى البحر وصرفهم عن

---

(٥٠) السلوك ، ج ٧ ص ٧٠ . تاريخ الملك الاشرف قايتباى ؛ (مخطوط) ورقة ٢٤ و

(٥١) أبو المحاسن ج ١١ ص ٥٢ . ٥٣ السلوك ، ج ٧ ص ٦٠

(٥٢) النويرى السكندرى ، المخطوط السابق ص ٦٨

الاغارة على جبلة ، ثم اتجه أسطول بطرس الى اللاذقية فاستعصت عليه المدينة لمناعة التحصينات ووجود سلسلة فى الميناء كسرت عددا من سفنهم وهياج البحر ، ثم أغار بطرس ببقيـة سفنه على بانياس وأحرقها وأحرق ما كان بها من السفن الراسية ، وأخيرا أغار على بلدة اياس «٥٣» .

واستمر التوتر بين مصر وقبرص قائما الى أن لقى بطرس دى لوزنيان مصرعه على أيدى جماعة من النبلاء فى ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م)، ولم يؤثر موته فى تخفيف حدة التوتر فى العلاقات بين قبرص ومصر ، فقد واصل القبارصة غاراتهم المدمرة على سواحل مصر والشام فى بداية عهد خلفه بطرس الثانى (١٣٦٩ — ١٣٨٢) ، ففى العام الاول من حكمه خرج القبارصة فى أربع بطسات بقيـادة چان دى مورف أغار بهـا على سواحل صيدا والبترون الواقعة جنوبى طرابلس ، وأنطرطوس واللاذقية «٥٤» . ولم يكد يمضى شهر واحد على هذه الغارة المدمرة حتى هاجم القبارصة مدينة الاسكندرية للمرة الثانية فى وضح النهـار . ويذكر المقريزى أن الفرنج عندما رست سفنهم فى مياه الاسكندرية بعثوا الى نائبها يسألونه ما اذا كان السلطان يرغب فى الاتفاق معهم أم لا ، فلما أجيب عليهم بالنفى اتجهوا بسفنهم الى رشيـد وحاولوا النزول الى بر المدينـة ، ولكنهم أخفقوا بسبب الرياح

---

(٥٣) راجع الملحق الخاص بغزوة طرابلس المنويرى فى نهاية الكتاب

(٥٤) Aziz Surial, p. 374

العاصفة ، فأبحروا من رشيد الى صيدا وأغاروا عليها ثم رجعوا الى جزيرتهم خائبين «٥٥» .

ولم يجد السلطان المملوكى بدا من عقد الصلح مع ملك قبرص بعد كثرة ماعاناه أهل السواحل الشامية والمصرية لكثرة مباغتة الفرنج لبلادهم مما سبب كسادا فى تجارة مصر مع الممالك المسيحية ، وتم الصلح فى سنة ٧٧٢ هـ (أكتوبر ١٣٧٠ م) .

د ـ غارات الجنوية على طرابلس :

أدى التنافس التجارى بين البندقية وجنوة فى القرن الثامن الهجرى الى احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجارى فى البحر المتوسط ، ولكن الجنوية لم يرضوا عن هذا الوضع ، فأخذوا يغيرون على سواحل الشام ومصر ، واشترك معهم فى هذه الغارات بعض القراصنة من القطلان والروادسةوالقبارصة «٥٦» . ففى سنة ٧٨٠ هـ خرج بيدمر الخوارزمى نائب الشام عن طاعة السلطان ، فسير اليه السلطان فرقة من عسكر مصر ردته عن غرضه ، وحاول الهرب الى بلاد التركمان فلم يفلح ، وألقى القبض

---

(٥٥) المقريزى ، السلوك ، ج ٧ ورقة ٦٧ ، ٦٨

(٥٦) احمد دراج ، المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٦١ ص ٩ ـ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ص ٢٦٨

عليه ، فأرسل الى مصر وهنـاك أعلن توبته ، فأعيد الى منصبه • وانتهز الجنوية فرصة عصيـان بيدمر واضطـراب أمور الشام فى هذه الفترة ، وأغاروا على جهات ساحل طرابلس ، ولكنهم ردوا عنها خائبين «٥٧» • وفى جمادى الآخرة سنة ٧٨٤ (١٣٨٢ م) أغلوت سفن الجنوية على ثغر صيدا ونزلوا فى البر ودخلوا المدينة ، وعاثوا فيها ، ثم توجهت سفنهم بعد ذلك الى بيروت ، فسبقتها العساكر الشامية اليها ، فأحجم الجنوية عن النزول الى برها ، وعادت سفنهم الى الماغوصة من قبرص «٥٨» • ثم مضت أيام على ذلك وعاد أسطول الجنـوية للاغارة على بيروت فى ١٢ غرابا كبيرا ودخلت هذه السفن ميناء بيروت ، وكانت به قرقورتان للبنادقة فاستولى الجنوية عليهما ، وشـحنوهما بالرجال وقدموها حتى تمكن الرماة منهم بالجروخ والحجارة من صـواريها على برج بيروت الصغـير ، فانسحب المسلمون وتحصنوا بالأسـوار ، ونزل الجنوية ، ولكن فرقة من المسلمين بقيادة سيف الدين يحيى من آل بحتر أصحاب الغرب تمكنت من قهرهم ، وانهزم من كان قد نزل من الجنوية على البر وقتل منهم عدد كبير «٥٩» •

وعلى الرغم من مبـادرة الجنوية الى مصالحة السـلطان فى ٧٨٨ هـ

---

(٥٧) محمد أسعد طلس ، تاريخ الأمة العربية ، « عصر الانحدار » بيروت ١٩٦٣ ص ٦٦

(٥٨) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٥٣

(٥٩) نفس المرجع ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٢٣٠

(١٣٨٦ م) فقـد عادوا الى الاعتداء على سفن المسلمين فى البحر ، وأغار بعض قراصنتهم على طرابلس فى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) فى سلطنة الناصر فرج بن برقوق ، واستـولوا على سفينتين محملتين بكسـيات كبيرة من البضـائع ، كانتا تتأهبـان للاقلاع الى مصر «٦٠» . وفى سنـة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) خرج الجنـوية فى سفنهم الى ثغر العلايا بآسيـا الصغرى ، فاستعصى عليهم ، فأبحروا منـه الى طـرابلس فى نيابة الأمير دمرداش المحمدى ، فنزلوا الى البر ، ولكن المسـلمين تكاثروا عليهم ومنعوهم من دخولها ، فرجع الجنوية منهزمين الى مراكبهم «٦١» . كذلك أغار الجنوية على ثغر بيروت فى ٢٠ محرم سـنة ٨٠٦ هـ ، ثم نزلوا على طرابلس فزحف اليهم الأمير شيـخ الخاصكى نائب طرابلس «٦٢» وأرغمهم على ركوب سفنهم .

ثم تحولت غارات غارات الجنوية على الموانىء المصرية الشامية الى غارات يقوم بها القطلان والقبارصة خلال النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادى مما اضطر برسـباى الى غزو قبرص سنة ١٤٢٦ باعتبارها وكرا من أوكار القراصنة «٦٣» .

---

(٦٠) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٢٦٩

(٦١) صالح بن يحيى ، ص ٥٦ ــ أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٢٢

(٦٢) نفس المرجع ، ٥٧

(٦٣) أحمد دراج ، ص ٣٣

(٣)

طرابلس فى بداية العصر العثمانى

ا ـ طرابلس بعد الفتح العثمانى :

أخذت العلاقات بين مصر المملوكية وبين الدولة العثمانية تضطرب منذ أن افتتح السلطان محمد الثانى القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ م فى عهد معاصره السلطان المملوكى الأشرف اينال (١٤٥٣ ــ ١٤٦٠) ، وأصبحت الدولة العثمانية منذ ذلك الحين فى نظر سلاطين المماليك منافسا خطيرا لدولتهم «١» ، ثم ازداد توتر العلاقات بين الدولتين فى عهد السلطان الأشرف قايتباى (١٤٦٨ ــ ١٤٩٦ م) الذى كان يشاهد بعين الريبة والحذر ازدياد قوة العثمانيين نموا وتضخما ، وكانت علاقات الود المتبادلة بينه وبين السلطان العثمانى محمد الثانى قناعا زائفا يخفى وراءه حقيقة هذه العلاقات من تغاير وتحاسد وتربص كل من الدولتين بالأخرى «٢» ، فقد كانت فتوحات العثمانيين فى أوربا قد توقفت ، وبدأ سلاطين آل عثمان يتطلعون الى ناحية المشرق الاسلامى الذى تسيطرعليه قوتان كبيرتان هما الدولة الصفوية والدولة المملوكية . كان قايتباى يدرك

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٩٧

(٢) أحمد السيد دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩ ص ٢٠٣

تماما ما يجول فى خاطر العثمانيين وما اتجهت اليه نيتهم ، وكان واثقا من تربصهم بدولته وانتظارهم لفرصة مواتية يشبون فيها على بلاده عاجلا كان ذلك أم آجلا ، ولهذا السبب حرص على تحصين ثغوره المعرضة للغزو العثمانى من جهة البحر مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط وطرابلس الشام واللاذقية . فلما تولى بايزيد الثانى العرش بعد أبيه محمد الفاتح (١٤٨١ — ١٥١٢ م) ظهر العداء سافرا بين الدولتين خاصة بعد أن تنازع بايزيد مع أخيه جم من أجل العرش ، والتجأ جم الى قايتباى الذى احتفل بقدومه فى شعبان سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١ م) احتفالا عظيما ، وزوده بالمال اللازم والجند لاستعادة حقه فى العرش بحد السيف «٣» ، وكان هذا التصرف من جانبه سببا فى تحول الحرب الباردة الى مصادمات مسلحة .

ولما توفى قايتباى فى عام ١٤٩٦ تعاقب بعده على السلطنة عدد من السلاطين الضعاف سادت فى عهودهم الفوضى وعم الاضطراب فى الفترة التى امتد فيها حكمهم (١٤٩٦ — ١٥٠١ م)، ثم تولى السلطنة الأشرف قانصوه الغورى، وفى عهده ساءت العلاقات بين دولة المماليك الشراكسة والدولة العثمانية الى درجة كبيرة بسبب انتصار العثمانيين على الصفويين فى موقعة تشالدران سنة ١٥١٤ واستيلائهم على الجزيرة والموصل وديار بكر ، واقترابهم من أملاك المماليك من جهة ، مما أدى الى قيام الغورى

---

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٩٧

بمحالفة الشاه الصفوى ضد السلطان سليم ، وبسبب ايواء الغورى للأمير قاسم أحد أبناء الامير أحمد الذى قتله سليم ، واتخاذ الغورى من قاسم أداة لتهديد العثمانيين . وفى هذا الوقت الذى توترت فيه العلاقات بين الدولتين الى درجة تنذر بحرب وشيكة الوقوع كان الغورى يعانى أزمة ماليـــة مستحكمة بسبب افلاس الخزانة السلطانية نتيجة للتدهور الذى أصاب الاقتصاد المملوكى على أثر اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، وتدمير البرتغاليين للبحـــرية المملوكية فى خليج ديو فى ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ ، وتحكمهم فى الطريق التجارى الى الهنـــد عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ونشاط الفرسان الاسبتـــارية فى مياه البحر المتوسط الشرقية «٤» .

وكان لزاما على الغورى لانعاش الخزانة السلطانية الخاوية اصطناع سياسة تعسفية فى جمع الأموال ، فأحدث من المظالم ما لم يحدث من قبل فى سائر الدول ، من ذلك أن حسين نائب جدة فى أيامه كان يأخذ العشر من تجار الهند عشرة أمثال ، فامتنع التجار من دخول بندر جدة وآل أمره الى الخراب «٥» كذلك أخرب بنـــدر الاسكندرية وبندر دميـــاط وامتنع تجار الفرنج من دخول هـــذه البنادر ، ومنها أنه فرض ضرائب على بيع الغلال والفاكهة والملح ، وأكثر من مصادرة أموال التجـــار والأعيـــان ،

---

(٤) راجع : المماليك والفرنج ص ١٣٧ — ١٤٤

(٥) ابن اياس ، ج ٥ ص ٨٨

ومنها أنه « كان يولى النواب على أعمال البلاد الشامية ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف » ، فكان كل واحد من الناس يتمنى الهجرة من بلاده الى غيرها بسبب الظلم الذى كان يصيبهم على آيدى نواب السلطنة «٦» . ولم يكتف الغورى بذلك بل تلاعب فى عملات الذهب والفضة فزيفها بادخال النحاس والرصاص فى سكها حتى تستفيد الخزانة مما يقتصده من الذهب «٧» .

وعانى أهل الشام وخاصة سكان طرابلس من جور السلطان اذ كان يرسل اليهم القباض ليجمعوا الأموال التى كان يفرضها عليهم بسبب المشاة العربان الذين يخرجون أمام العسكر فى التجريدة «٨» ولعل ذلك كان من أسباب تحامل أهل الشام عامة وأهل طرابلس خاصة على المماليك، وقد بدا ذلك واضحا عند هزيمة المماليك فى مرج دابق ، فانقلب عليهم أهل حلب وفتحت مدن الشام الأخرى أبوابها للعثمانيين . وفى هذا الوقت الذى كانت تغلى فيه نفوس أهل الشام سخطا على المماليك بسبب تعسف نواب السلطنة معهم ، كان السلطان العثمانى سليم يحرز انتصارات ساحقة على الصفويين ويستولى على امارة دلغادر التركمانية التى كان المماليك يشملونها بحمايتهم ، ويتأهب لدخول الشام . وأوهم بعض الخونة من

---

(٦) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٩٠ ، ٩١

(٧) نفس المصدر ص ٨٩

(٨) نفس المصدر ص ٩

النواب السلطان الغورى بأن السلطان سليم لا ينوى مهاجمة الشام وانما يعد العدة للقضاء نهائيا على دولة الصفويين .

ولم تكن قوات العثمانيين فى حاجة الى أكثر من معركة واحدة لفتح الشام ، فلقد نجحوا فى موقعة مرج دابق (رجب ٩٢٢ هـ) فى هزيمةجيوش المماليك بقيادة الغورى نفسه ، وساعد على هذا انحياز أهل الشام وخاصة العصبيات المحلية التى كانت تتحامل على المماليك الى جانب العثمانيين ، كما ساعد أيضا علىهزيمة المماليك بعض الخونة من الأمراء أمثال خاير بك وجان بردى الغزالى وتمكن العثمانيون بعد انتصارهم فى مرج دابق من الاستيلاء على حلب وقلعتها بدون حصار ، ثم استولوا على دمشق وحماة وحمص وبعلبك بالأمان . ومن بعلبك زحفوا الى طرابلس ليتخذوا بعد ذلك الطريق الى مصر ، فدخلوا طرابلس بغير حرب «٩» ، وأقام السلطان سليم على ولايتهـا قائدا عثمانيا سلمها لمحمد آغا شعيب . وكانت تتبع طرابلس جبيل والبترون وجبة بشرى والكورة والزاوية والضنية «١٠» .

ثم كوفىء جان بردى الغزالى على خيانته بنيابة الشام «١١» وأضيف الى نيابته القدس وصفد وغزة والكرك. ولما استتب الأمر فى نيابة طرابلس

---

(٩) ابن اياس ، ج ٥ ص ١٥٢

(١٠) محمـد عزة دروزة ، العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجرى ، ج ١ دمشق ١٩٥٩ ص ٢٨٢

(١١) ابن اياس ، ج ٥ ص ٣٨٤

لتسلمها محمد آغا شعيب احتفظ لنفسه بالحاضرة بينما أقطع ما يتبعها من ولايات للامير قيقبـاى بن عساف التركمانى «١٢» فيما بين عامى ٩٢٤ الى ٩٣٠ هـ (١٥٨١ ــ ١٥٢٣) • ثم خلف قيقبـاى أخوه الأمير منصور ابن عساف الذى تنازع مع محمد آغا شعيب لتحزب منصور مع بنى سيفا الأكراد ، وأخذ محمد آغا منذ ذلك الحين يتشدد فى استيفاء الأموال المترتبة عليه ، وكان من الطبيعى أن يثور منصور على محمد آغا ، وينتهى النزاع بينهما بمقتل محمـد آغا بايعاز من منصور «١٣» الذى أصبح نطاق حكمه يمتد الى عكار «١٤» فى الشمال •

---

(١٢) ظهر التركمان فى طرابلس فى عهـد الناصر محمـد بن قلاوون الذى استقدمهم من شمال الشـام ، وقد عهـد الناصر محمد الى تركمان الكورة بطرابلس بالنزول الى سـاحل كسروان وأوكل اليهم حراسـة الساحل ابتداء من أنطلياس الى جسر المعاملتين (أحمد عزت عبدالكريم ، ص ١٣٤ ــ محمد عزة دروزة ، ص ٢٧٩) • وعنـدما خرج منطاش على السلطان برقوق تواثق بنو عساف التركمانيون معه ضد السلطان ، فلما أخمد برقوق حركة منطاش انتزع كسروان من التركمـان ، ولكنهم ظلوا مع ذلك حرسا على السواحل بين بيروت وطرابلس • كذلك انحاز عساف الى العثمانيين فكافأه السلطان سليم بولاية كسروان وجبيل •

(١٣) أرسل له الأمير منصـور عبد المنعم وولدى حبيش : الشيخ يوسف والشيخ سليمان ونحو ٥٠٠ مقاتل ، فكمنوا له فى حارة الحصارنة، وعندما دخل عبد المنعم وولدا حبيش للمحاسبة فى جامع طيلان أمام القاضى وثب عبـد المنعم ورفاقه على محمـد أغا وقتلوه مع ابنه (جورجى ينى، ص ٣٩٨)

(١٤) محمد عزة دروزة ، ص ٢٨٢

ب ـ طرابلس فى ظل بنى سيفا :

ظل جان بردى نائب الشام على ولائه للسلطان العثمانى سليم ، فقد قام بقمع الحركات المعادية للعثمانيين فسجن البحتريين الموالين للمماليك ، وقتل ابن الحرفوش وابن الحنش ، وأرسل رأسيهما الى القسطنطينية مع رؤوس الخارجين على السلطان «١٥» . فلما توفى السلطان سليم فى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ م) ، وخلفه ابنه سليمان القانونى ، استضعفه جان بردى لصغر سنه ، وشق عليه عصا الطاعة ، وأعلن نفسه حاكما مستقلا على دمشق وتلقب بالسلطان الملك الأشرف أبى الفتوحات وخطب باسمه فى الجامع الأموى بدمشق ، وسكت العملة باسمه ، ثم استولى على بيروت وطرابلس واتجه الى حلب لمحاصرتها ، ثم كتب الى خاير بك والى مصر يحرضه على الخروج عن طاعة السلطان العثمانى ، ويمنيه فى نظير ذلك بالوعود الخلابة. ولكن خاير بك أفشى سره للسلطان ، ورفض الانضمام اليه . وأخفق جان بردى فى الاستيلاء على حلب ، الأمر الذى مكن السلطان سليمان من ايقاع الهزيمة به فى ظاهر دمشق ، وانتهى مصير جان بردى بالقتل فى ٢٧ يناير سنة ١٥٢١ «١٦» (٢٢ صفر سنة ٩٢٧ هـ) . وبعد أن انهزم جان بردى

---

(١٥) Lammens, La Syrie, p. 56

(١٦) ابن اياس ، ج ٥ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

وقبل أقر السلطان سليمان الأمير اياس فى نيابة الشام عوضا عن الغزالى ، وفرحات بك (فرهاد) فى ايالة طرابلس «١٧» .

ولم يطل لبث فرهاد بك فى طرابلس اذ استدعاه السلطان للاشراف على بلاد الأناضول أثناء غيابه فى غزوة رودس «١٨» . وظل الأمير منصور ابن عساف يحكم طرابلس حتى سنة ١٥٧٢ م ، وفى هذه السنة أصدر السلطان العثمانى سليم الثانى أمره بأن تكون ولاية منصور من نهرالكلب شمالى بيروت الى حماة ، غير أن الوشايات ضده أخذت تعمل عملها عند السلطان مراد الثالث ، ففى سنة ١٥٧٩ قدمت ضده الشكايات بسبب جوره وظلمه وحبه لسفك الدماء ، فاضطر السلطان الى اصدار الأمر بانتزاع طرابلس من حكمه ، واقامة وزير فيها يكسر شوكته وتعيين يوسف باشا سيفا الكردى من آل سيفا الأكراد حكام عكار الاقطاعيين على طرابلس «١٩»

ولم يكد يوسف سيفا يتولى طرابلس حتى توفى الأمير منصور ابن عساف فى سنة ١٥٨٠ ، فخلفه ابنه محمد الذى قتل غيلة فى كمين نصبه

---

(١٧) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٣٩١ — أحمد عزت عبد الكريم : ص ١٤٠

(١٨) Lammens, la Syrie, p, 59

(١٩) محمد عزة دروزة ، ص ٢٨٤

له يوسف سيفا فى ١٥٩٠ بين البترون والمسيلحة «٢٠» ، وانقرضت بذلك أسرة بنى عساف .

وقد عظم نفوذ آل سيفا فى طرابلس فى عهد زعيمهم يوسف باشا سيفا (١٥٧٩ — ١٦٢٤ م) حتى حجب نفوذه نفوذ الباشا العثمانى نفسه فى طرابلس ، وامتد سلطان آل سيفا فى الشام حتى وصل الى حماة وحمص «٢١» . وكان نطاق حكمهم يتسع أحيانا فيشمل طرابلس وعكار وجبلة والمرقب والحصن وجبة بشرى وجبيل ، وينكمش أحيانا حتى ينحصر فى عكار كما حدث فى عهد الأمير فخر الدين المعنى الثانى «٢٢» . وفى عهد يوسف سيفا تشدد مع التجار الأجانب وتعسف معهم فى تحصيل الرسوم مما دعا الجاليات الاجنبية فى طرابلس الى الخروج عنها فى سنة ١٦١٢ الى الاسكندرونة فرارا من استبداده . ولما توفى يوسف سيفا فى ٢٠ يوليو سنة ١٦٢٤ خلفه ابنه حسن ، الذى عمل على مسايرة فخر الدين ، ولكن صلات العداء لم تلبث أن استؤنفت من جديد ، واستمر العداء قائما بينه وبين فخر الدين المعنى الى أن دخلت طرابلس فى فلك امارة فخر الدين وبذلك أصبحت تابعة لجبل لبنان فى عهده ، الى أن قتل الأمير المذكور هو وأولاده بأمر السلطان العثمانى فى أبريل سنة ١٦٣٥ .

---

(٢٠) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٢٧١

(٢١) أحمد عزت عبد الكريم ، ص ١٧١

(٢٢) محمد عزة دروزة ، ص ٢٨٦

الباب الثانى

الحضـــــارة

الفصل السابع

بعض مظاهر الحضارة فى طرابلس فى العصر الاسلامى

(١) مدينـة طرابلس

أ ــ المدينـة العتيقة

ب ــ المدينـة المحدثة

(٢) الحياة الاقتصادية والعلمية فى طرابلس الاسلامية

أ ــ الزراعة والصناعة

ب ــ التجـارة

ج ــ الحيـاة العلمية

(٣) الدفاع البرى والبحرى

الفصل السابع

بعض مظاهر الحضارة فى طرابلس فى العصر الاسلامى

(١)

مدينة طرابلس

ا ـ المدينة العتيقة :

طرابلس مدينة قديمة البناء ، فينيقية النشأة على الرغم من أن اسمها الذى تعرف به يونانى الأصل ، وكانت طرابلس تشغل الموضع الذى تقوم عليه اليوم طرابلس الميناء . ولقد شهدت طرابلس منذ أن افتتحها العرب ، وخاصة فى الفترة التى أصبحت فيها قاعدة لامارة بنى عمار ، ازدهارا اقتصاديا لم تشهده من قبل ، انعكست آثاره على عمرانها فى هذا العصر .

وكانت طرابلس العتيقة ، قبل أن تخربها جيوش قلاوون وتدك مبانيها وتسويها بالأرض ، من أجل مدن الشام وأبهجها ، ومن أكثرها رياضا وغياضا ، فكانت تحفها البساتين وتكثر فيها المياه والثمار وكان أكثر دورها مبيضة بالكلس الأبيض ، وقد أجمل ابن مامية الرومى هذه الصفات فى قوله :

بأربعة سادت وساد مقامها .·. على سائر الأمصار فى البحر والبر
بأبيض ثلج واحمرار كثيبها .·. وخضرة مرج قد جلا زرقة البحر »(١)

ولقد امتدح المؤرخون العرب طرابلس القديمة ، فذكروا أنها من أحسن المدن وأطيبها ، بينما ذموا مناخ المدينة المحدثة فوصفوا مكانها برداءة هوائه بسبب ما يحدثه من الوخم «(٢)» . تألقت طرابلس القديمة فى العصر الفاطمى ونما عمرانها واتسعت مرافقها اتساعا تشهد به أقوال الرحالة الذين زاروها فى أواخر القرن الرابع الهجرى وفى النصف الأول من القرن الخامس ، فقد أشار المقدسى الى أن طرابلس مدينة حصينة ، وأنها أجل من مدينتى صيدا وبيروت «(٣)» كذلك وصفها الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى شعبان سنة ٤٣٨ هـ (فبراير ١٠٤٧ م) أعظم وصف ، ووصف بساتينها ومزارعها ، واجتذبت تحصيناتها اهتمامه فأشاد بها ووصفها بقوله : «وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر ، وكان عسل السكر يجمع حينذاك . ومدينة طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر

---

(١) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٧٢

(٢) العمرى ، مسالك الأبصار ، الجزء الثانى ، القسم الثالث مخطوط رقم ٢٥٦٨ (نسخة مصورة) ص ٤٤٩ — القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٣ — ابن الشحنة ، ص ٢٦٣ — ابن تغرى بردى ، ج ٧ ص ٣٢٢

(٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ص ١٦٠

فاذا ماج علت أمواجه السور «٤» ، أما الجانب المطل على اليابس فبه خندق عظيم عليه باب حديدى محكم . وفى الجانب الشرقى من المدينه قلعة من الحجر المصقول «٥» عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه ، وعلى قسمتها عرادات لوقايتها من الروم ، فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن » . ويصف ناصر خسرو بيوتها المرتفعة وشوارعها وأسواقها فيقول : « وأربطتها أربع أو خمس طبقات ، ومنها ما هو ست طبقات أيضا ، وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين ، وقد رأيت بطرابلس ما رأيت فى بلاد العجم من الأطعمة والفواكه بل أحسن منها مائة مرة » ، وينتقل بعد ذلك الى وصف الجامع الأعظم الذى تخرب فى جملة ما تخرب من أبنية طرابلس بعد تهديمها على أيدى المماليك ، فيقول : « وفى وسط المدينة جامع عظيم نظيف ، جميل النقش حصين ، وفى ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام ، فى وسطه فوارة من النحاس الأصفر » ، ويشير ناصر خسرو الى سقاية فى سوق طرابلس كانت تمد الناس بما يلزمهم من مياه ، ويذكر فى جملة حديثه عن اقتصادها جودة ورقها الذى يفوق ورق سمرقند ، والمكوس التى يتحصل عليها فى

---

(٤) أشار المقريزى فى السلوك الى أن سورها كان من السمك بحيث كان يتسع لمرور ثلاثة فرسان بخيولهم عليه (السلوك ج ١ قسم ٣ ص٧٤٧)

(٥) لعلها برج ضخم مهمته الاشراف على مرج طرابلس المطل على نهر قاديشا وتلة الحجاج

ميناء طرابلس من السفن القادمة من بلاد الروم والافرنج والمغرب والأندلس ، فكانت بمقدار العشر ، ثم يختتم حديثه عن طرابلس بذكر سكانها ، فيشير الى أنهم كلهم على المذهب الشيعى وأن جملة عددهم عشرون ألفا وأن لهم مساجد حسنة المظهر «(٦)» .

واذا كانت طرابلس العتيقة قد ازدهرت فى عصر الفاطميين — فى زمن المستنصر بالله — فان ازدهارها الذى أصابته فى زمن بنى عمار كان أكثر وأعم ، ففى هذا العصر عمرت المدينة عمرانا لم تشهده فى عصورها السابقة أو اللاحقة ، وكثرت ثرواتها ، وتألقت الحياة العلمية فيها الى حد أصبحت فيه كعبة الوافدين للدرس والتحصيل ، ويشهد بهذا التألق عظم الثروات التى غنمها الصليبيون عند افتتاحهم لها ، فقد « حصل فى أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها وما كان منها فى خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصر فيذكر » «(٧)» .

ولم تتأثر عظمة طرابلس واقتصادها النامى بالغزو الصليبى ، فقد اتسعت المدينة عمرانيا وأصبحت أرباضها تمتد من البحر حتى تلة الحجاج

---

(٦) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣

(٧) ابن القلانسى ، ص ١٦٣

حيث تقوم قلعة صنجيل «٨» . وقد أشرنا من قبل الى التقدم الذىأحرزته طرابلس فى المجالين الاقتصادى والعلمى فى العصر الصليبى .

ب — المدينة المحدثة :

لما فرغ السلطان قلاوون من فتح طرابلس فى ٤ جمادى الآخـرة سنة ٦٨٩ هـ أمر بأن تهدم المدينـة « بما فيها من العمـائر والدور والأسوار الحصينة التى كانت عليها » «٩» ، واقامة مدينة أخرى لطرابلس على ضفتى نهر طرابلس المعروف بنهر أبى على «١٠» ، على بعد نحو ميل من المدينة القديمة المخربة «١١» ، وذلك حتى تندرج ذكرى المدينة الصليبية فى طى النسيان، وحتى تتجنب المدينة المحدثة ما قد يصيبها من غارات الفرنجة الذين تكتلوا

---

(٨) السيد عبـد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، ص ٥٧

(٩) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية فى التاريخ ، ج ١٣ ، طبعة مصر ، ص ٣١٣

(١٠) السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص٧٤٨ — ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١

(١١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، تحقيق رينو والبارون دى سلان، باريس ١٨٤٠ ص٢٥٣ — ابن كثـير الدمشقى ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣١٣

ويذكر ابن بطوطة أن البحر على ميلين من المدينة (رحلة ابن بطوطة، طبعة بيروت ص ٦٤) وما ذكره ابن بطوطة أقرب الى الصحة

فى عكا وقبرص • وبادر الناس بالبناء ، واستخدم فى بنـاء دورها الحجر والكلس الأبيض ، بحيث أصبحت مبـانيها كلها مبيضـة ظاهرا وباطنا ، كذلك استخدمت فى المنشآت الجديدة بقايا أبنية المدينة الخربة ، وما زلنا نرى بقايا الأبنية الصليبية مستخدمة من جـديد فى العقود والحنايا التى تعلو الدروب ، وفى عقد مدخل حسام عزالدين أيبك الموصلى ، نائب طرابلس فيما بين عامى ٦٩٤ ، ٦٩٨ هـ ، وفى عقـد المدخل الى الجامع المنصـورى الكبير ، وفى غير ذلك من آثار طرابلس ، بل ان مئذنة جامع طرابلس الكبير تحمل طابع الأبنية الايطالية فى العصر الوسيط «[١٢]» ، ويغلب هذا الطابع الايطالى أيضا على شوارع المدينة «[١٣]» • ولم يكن لهـذه المدينة المحدثة سور يحميها «[١٤]» ، اكتفاء بالأبراج الضخمة التى أخذ المماليك يقيمونها بحذاء ساحل شبه جزيرة المينا لتمكين الدفاع عن طرابلس من جهة الساحل • وكانت المياه تأتيها من جبل لبنان عن طريق جسر للمياه قديم لعله من عمل الصليبيين بدليل أنه يحمل حتى اليوم اسم قناطر البرنس ، وتتوزع ميـاه الجسر المـذكور فى شوارع المدينـة وتدخل دورها وتصـل الى طبقاتها المرتفعـة «[١٥]» •

---

(١٢) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٦٣

(١٣) Van Berchem, Voyage en Syrie, p. 116

(١٤) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٢

(١٥) ابن الشحنة ص ٢١٣ — جورجى ينى ص ٣٧٢

كان موضع طرابلس المحدثة معسكرا لقوات صنجيل «١٦» بأدنى القلعة الموسومة بهذا الاسم ، يقال له وادى الكنائس، ولكن هذا الموضع كان معروفا بركود ريحه وكثرة مستنقعاته ، فقد ذكر ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ أنه « لما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة، ذميمة المسكن ، فلما طالت مدة سكنها ، وكثر بها الناس والدواب ، وصرفت المياه الأجنة التى كانت حولها نقايع ، وعملت بساتين ، ونصب بها المنصوب والغراس ، فخف ثقلها وقل وخمها » «١٧» ، وكان أسندمر الكرجى عندما تولى نيابتها دائم الاحساس بالوخم والرطوبة ، فشكا ذلك الى الحكيم أمين الدين سليمان بن داود المتطبب ، فأشار عليه بأن يستكثر فيها من الابل وسائر الدواب ، ففعل ذلك ، فخف وخمها «١٨» ، وقد وصفها العمرى ومن نقل عنه أمثال ابن الشحنة والقلقشندى وصفا رائعا وأشاد بما طرأ عليها من توسع عمرانى سريع ، فذكر أنها فى زمنه « مدينة ممتدة «١٩» كثير الزحام ، ذات بيمارستانين «٢٠» ومساجدومدارس

---

(١٦) أبو الفداء ، المختصر ج ٤ ص ١٣٨

(١٧) العمرى، مسالك الأبصار ج ٢ قسم ٣ ص٤٤٩ — القلقشندى، ج ٤ ص ١٤٣ — ابن الشحنة ، ص ٢٦٣

(١٨) نفس المرجع

(١٩) فى نص ابن الشحنة « مدينة متسدينة »

(٢٠) أحدهذين البيمارستانين أنشأه الأمير بدرالدين محمدبن الحاج أبى بكر المتوفى بحلب فى سنة ٧٤٢ هـ (أبو الفداء ، ج ٧ ص ١٥٩)

وزوايا «(٢١)» وأسواق جليلة وحمامات حسان موصوفة ، وجميع أبنيتها بالحجر والكلس مبيضا ظاهرا وباطنا ، تحيط بها غوطتها ، وتحيط بغوطتها مواضع مزدرعاتها بديعة المشترف ، تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها ... » «(٢٢)» ويصف نهرها فيذكر أنه يحكم على ديارها وطبقاتها ، وتصل مياهه الى المواضع المرتفعة من دورها التى لايرقى اليها الا بالدرج العالية ، ثم يشير الى ثروتها الزراعية ويعدد محصولاتها فيذكر منها الجوز والموز وقصب السكر والبلح والكروم ، ويذكر أيضا شهرتها فى صناعة السكر ، ومايصل اليها من السفن القادمة من مختلف أنحاء البلاد «(٢٣)» ، فهى لذلك بلد زراعى تجارى فى آن واحد «(٢٤)» .

وزارها الرحالة ابن بطوطة فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، وكان نائبها وقت زيارته الأمير سيف الدين طينال الحاجب الذى ولى نيابتها فى المرة الأولى من ٧٢٦ هـ الى ٧٣٣ هـ ، فيصفها بقوله : «ثم وصلت الى مدينة طرابلس ، وهى احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام ، تخترقها الأنهار ، وتحفها البساتين والأشجار ، ويكتنفها البحر بمرافقه العميمة والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسواق العجيبة ، والمسارح الخصيبة ، والبحر على ميلين منها ، وهى حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة

---

(٢١) ذكر القلقشندى أن بها بيمارستان واحد

(٢٢) راجع نص العمرى فى الملحق

(٢٣) العمرى ، ج ٢ قسم ٣ ص ٤٤٨

(٢٤) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٣ — ابن الشحنة ، ص٢٦٣ ، ٢٦٤

البحر ، وتملكها الروم زمانا ، فلما استرجعها الملك الظاهر «٢٥» خربت ، واتخذت هذه الحديثة . وبهــذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرها طيلان «٢٦» الحاجب المعروف بملك الأمراء ، ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار الســعادة «٢٧» ، ومن عوائده أن يركب فى كــل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج الى ظاهر المدينة ، فاذا عاد اليها ، وقارب الوصــول الى منزله ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون ... » . ويختتم ابن بطوطه وصفه لطرابلس بذكر حماماتها فيقول : « وبهذه المدينة حمامات حسان ، منها حمام القاضي القرمى ، وحمام سندمور ، وكان سندمور أمير هــذه المدينة ، ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات » «٢٨» .

---

(٢٥) صحتها الملك المنصور قلاوون

(٢٦) عرف عند العامة خطئا بهذا الاسم ، والاسم محرف من طينال، وطينال هــو الأمير سيف الدين طينال الأشرفى الناصرى الحاجب ، تولى نيابة طرابلس فى جمادى الآخرة سنــة ٧٢٦ هـ ثم نقل فى ربيع الاول سنة ٧٣٣ الى نيابة غزة ، ثم أعيد الى نيابة طرابلس فى سنة٧٣٥ ، وعمربظاهرها مسجدا جامعا ، ثم عزل فى المحرم سنــة ٧٤١ ، وأعيد الى نيابة طرابلس للمرة الثالثة فى سنة ٧٤٣ ، وتوفى فى هذا العام

(٢٧) كانت تتم مداخل قلعة صنجيل بأعلى تلة الحجاج الصليبيــة ، وتعرف بدار النيابة ، ومن هذا الموضع المرتفع كان يتهيأ للنائب الاشراف على المدينة . (راجع ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١)

(٢٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٥

ولقد بلغت طرابلس فى منتصف القرن الثامن الهجرى ذروة عظمتهـــا ونموها العمرانى واتسعت أعمالها حتى فاقت فى أهميتها نيابة حماة ، وتهمم نواب السلـــطنة فيهـــا بالبناء والتشييد ، وبتوسيع نطاقها ، فشمـــلوها برعايتهم ، وأولوها جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم ، وجملوها بالمبانى الفخمة التى ما تزال قائمة حتى يومنا هـــذا . وبالاضافة الى هذه الحركة العمرانية والمعمارية الزاهرة ، استعادت طرابلس رخاءها الاقتصـــادى ، فكثرت أسواقها ، واتسعت مرافقها ، ونمت تجاراتها ، وكثرت خاناتها ، وتعددت حماماتها ، وازداد عدد مساجدها ومدارسها ، ونشطت أسواقها التجارية بسبب الصادرات والواردات بحيث أصبحت طرابلس فى هـــذا العصر المملوكى بمآذنها العديدة التى تشق عنان السماء وتكسر بسموقها الأفقية السائدة فى أبنيتها ، وبقبابها ذات الخوذات المتكورة أو المضلعة ، وبمداخلها وبواباتها العظيمـــة التى تنتهى من أعلى بجوفات مقربصة ، وبجدران آثارها التى تمتـــد بطولها كتابات نسخيـــة منقوشة ، وتزدان بصفوف من الحجارة التى يتناوب فيها اللونان الابيض والاسود ، أصبحت هذه المدينة بكل هذه العناصر صورة مصغرة من قاهرة المماليك .

وقد لاحظ غرس الدين خليل بن شاهين الظـــاهرى مدى التشابه الكبير بينها وبين مدن مصر فقـــال : « وهى مدينـــة حسنة ، بها جوامع ومدارس وحمامات وعمائر حسنـــة ، وهى على شاطىء البحر المحيط ، ويقال انها شامية مصرية لحسن هيئتهـــا » «[٢٩]» ونقل ابن الشحنة وصفا

---

(٢٩) زبدة كشف الممالك ، ص ٤٨

لطرابلس عن الشيخ بدر الدين بن حبيب استعرض فيه محاسنها وجمعها بين المزيتين الشامية والمصرية جاء فيه : « ولعمرى انها بلدة لطيفة ومدينة أمطارها خفيفة ، ملاتها جديدة ، ومحاسنها عديدة ، وماؤها دافق ، ومرعاها موافق ، وأزهارها باسمة ، ومناظرها لمادة الاسار حاسمة ، وهى برية بحرية ، شامية مصرية ، يجلب اليها هدية النوتى والفلاح ، وتسمع بأوطانها تغريد الحاوى والملاح ، تعلو بواديها ، وتسمو بندى ناديها ، وتزهو أنسها ، وتفخر بنيأة اسعتها وقناة ابرنسها ، وتظهر العز بقبة نصرها ، وتبهر من ماثلها بلسان رأس نهرها . » «٣٠» ، وفى هذا النص اشارة الى مواضع من طرابلس مثل حى القبة المرتفع الذى كانت تصل المياه الى دوره بقساطل «٣١» ، وقناة الابرنس وهو جسر للمياه ما زالت آثاره قائمة حتى اليوم على ضفتى نهر أبى على ، ومنطقة رأس النهر وهى المنطقة التى يصب فيها نهر أبى على فى البحر .

وحظيت طرابلس فى عصر دولة المماليك الشراكسة بعناية خاصة فزودها نواب السلطة بكثير من المنشآت الفخمة من مدارس ومساجد وأضرحة ، وعمل بعض السلاطين كالمؤيد شيخ على ابطال المظالم المحدثة على أهل طرابلس فى سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) وكالظاهر برقوق الذى أبطل ما كان يؤخذ فى طرابلس عند قدوم النائب اليها من قضاة البر وولاة الأعمال عن كل واحد خمسمائة درهم «٣٢» ، وكالظاهر جقمق اذ أبطل

---

(٣٠) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤

(٣١) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٨١

بعض الرسوم المفروضة على الأموال وخراج الكروم سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢م) وكالأشرف قايتبـاى الذى ألغى الرسوم المفروضـة على مذبح طرابلس سنة ٨٧٢ هـ «٣٣» .

واحتفظت طرابلس بازدهارها الاقتصادى فى القرن السادس عشر، ثم تدهور هـذا الاقتصاد بالتدريج بسبب سوء الادارة العثمانية وبسبب الخلافات الداخلية بين الباشوات الأتراك ، ولم تلبث طرابلس أن تنازلت عن مكانتها الأولى لمدينة بيروت التى أصبحت العاصمـة الفعلية للبنـان عقب الاستقلال «٣٤» .

---

(٣٢) النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٩١

(٣٣) سجلت هذه المراسيم على جدران المدرسة القرطائية والجامع المنصورى الكبير

(٣٤) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، ص ٦٦

(٢)

الحياة الاقتصادية والعلمية فى طرابلس الاسلامية

١ ــ الزراعة والصناعة :

كان لنشأة طرابلس فى السهل الواقع على مصب نهر أبى على أثر كبير فى قيام طائفة من سكانها بالاشتغال بالزراعة ، وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة بها ، وتعرف أحيانا بالمرج ، وانما كانت تمتد على ضفتى نهر أبى على ، وعلى سفوح الجبال القريبة منها فى اهدن وزغرتا والضنية والكورة .

ولقد اشتهرت طرابلس قبل الغزو الصليبى بالجمع بين الثمار المصرية والشامية «[١]» ففيها قامت زراعة قصب السكر والنخيل «[٢]» ، وقصب السكر من الزراعات التى اختصت بها مصر الاسلامية ، كذلك اشتهرت طرابلس بجودة فواكهها ، فقد كان يحمل من طرابلس الى مصر فى زمن

---

(١) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣١٣

(٢) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١ ــ ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ١٣ ــ
Heyd, Histoire du Commerce, t. II, p. 459

الحاكم بأمر الله الفواكه اليابسة والرطبة «٣» أمثال النارنج والترنج والموز والليمون والتمر «٤» .

ويصف الشريف الادريسى محاصيلها الزراعيـة فى عصره بقـوله : « ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة ، وبهـا من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشىء الكثير » «٥» ، أما الزيتون فكانت أشجاره تغطى سفوح جبالها والمناطق السهلة والمرتفعة المحيطة بها فتتحول هـذه الجبال الى منـاطق خضراء لا يقطع تواصل اخضرارها سوى ضيعات متناثرة على سفوح الجبال دورها مبيضة بالكلس ناصعة البياض . ومن المعروف أن سهول الزيتون تبدأ بالكورة وتتصـل بالزاوية والضنية ثم عكار ، وهى من أعظم سهـول الزيتون فى العالم . أما العنب فتقوم زراعته فى منطقة الضنية ، فى حين تقوم زراعة قصب السكر والفواكه الأخرى كالكروم والحمضيات فى المروج المحيطة بطرابلس .

ونثلت طرابلس فى عصر دولتى المماليك البحـرية والشراكسة أشهر

---

(٣) يحيى بن سعيد الانطاكى ، ص ٢٠٠

(٤) ناصر خسرو ، ص ٨

(٥) الادريسى ، ص ١٧

مدن الشام فى زراعة قصب السكر الذى يعد من أهم ثروتها الزراعية «٦»، وفى زراعة الكروم والجوز والنخيل والموز «٧» .

وقد ترتب على ثروة طرابلس الزراعية قيام عدة صناعات اختصت بها طرابلس فى العصر الاسلامى ، فمن الزيتون كان يستخرج الزيت فى المعاصر والمساكب بالمناطق الجبليـة منها «٨» ، ومن الزيوت التى تنتجها طرابلس والمناطق التابعة لها تقوم صناعة الصابون التى اشتهرت بها طرابلس «٩» ، ولذلك كان الصابون من أهم الموارد الاقتصـادية الرئيسية فى طرابلس اذ كانت تقوم بتصديره ، وقد أقيم لهذا الغرض خان يعرف بخان الصابون ما زال قائما حتى اليوم .

ومن قصب السكر كان يصنع السكر الطرابلسى الذى ذاعت شهرته فى العصور الوسطى ، فقد أشار الاصطخرى فى النصف الثانى من القرن

(٦) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٥٣ — ابن فضل الله العمرى ، مخطوط ، ج ٢ قسم ٣ ص ٤٤٩ — ابن الشحنة ، ص ٢٦٣ — القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٣

(٧) ابن فضل الله العمرى ، نفس الصفحة .

(٨) راجع نص الوقفية المسجلة بمدرسة الخيرية أحمد بطرابلس

(٩) جورجى ينى ص ٣٧٢ . طالع نص النقش الكتابى المسجل على عقب عقـد الباب الشرقى من الجامع المنصـورى المؤدى الى الصحن ، ففيه ذكر باعفاء طرابلس من « طرح الصابون والزيت والبلس »
(Sobernheim, p. 59)

الرابع الهجرى الى قيـام زراعة قصب السـكر ، كما أكد ناصر خسرو والادريسى وأبو الفداء شهرتها فى هـذا النوع من الزراعة • أما العمرى فقد ذكر فى جملة ما ذكره عن طرابلس صناعه السكر «١٠» مما يدل على استمرار هذه الصناعة «١١» بها •

وفى أواخر العصر الوسيط كانت طرابلس تزود أوربا بالسكر الذى يتخذ أشكالا مختلفة فهو اما فى صورة رزائق أو ناعم كالدقيق أو فى شكل حلوى«١٢»• ويذكر النويرى السكندرى عند تعرضه لذكر غزوةالقبارصة لطرابلس فى سنة ٧٦٩ هـ ، أن الفرنج لما دخلوا طرابلس دخـل بعضهم فى دار الحاج محمد بن بهادر التاجر وكان يحفظ فيها كميات كبيرة من السكر فى جفان ، فحاصر المسلـمون الدار ولم يجد الفـرنج ما يدافعون به عن أنفسهم سوى هـذه الجفان وهى مملوءة بالسكر فكانوا يقذفون بهـا المسلمين عوضا عن الحجارة «١٣» •

والى جانب صناعة السكر فاقت طرابلس غيرها من مدن الشام فى صناعة الورق، فقد ذكر ناصر خسرو أنه كان « يصنع بطرابلس الورق الجميل مثل

---

(١٠) العمرى ، مسالك الأبصار ص ٤٤٩

(١١) Nicola Ziadeh, Urban life, p. 132

(١٢) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٤١٤

(١٣) النويرى . الالمام بالاعلام ، مخطوط رقم ١٤٤٩ ص ١٥٥

الورق السمرقندى بل أحسن منه » «١٤» ، كذلك اشتهرت طرابلس بصناعة المنسوجات الحريرية ، فالمقريزى يذكر فى السلوك أن بطرابلس القديمة « أربعة آلاف نول قزازة » «١٥» ، وكان يعمل فى صناعة المنسوجات الحريرية ، وفقا لما ذكره هايد نقلا عن بورخارد الذى زار طرابلس فى سنة ١٢٣٢ ، أربعة آلاف عامل «١٦» ؛ وذكر چون بولونر الذى زار طرابلس فى سنة ١٤٢٢ م أن بطرابلس ١٢٠٠ حائك يصنعون الثياب الحريرية والمخملية «١٧» • وظلت طرابلس حتى العصر الحديث مركزا هاما لهذه الصناعة ، فقد ذكر لويس لورته فى رحلته بلبنان فيما بين ١٨٧٥ — ١٨٨٠ أن الحرير أهم ما تنتجه طرابلس وتصدره «١٨» • واليوم تشتهر طرابلس بصناعة نسج الحرير المعروف بالغبانى «١٩» ، ولاشك أن هذه الشهرة ترجع الى تقاليد قديمة •

---

(١٤) ناصر خسرو ، ص ١٣

(١٥) السلوك ج ١ قسم ٣ ص٧٤٨ • والمقصود بقزازة نسج الاقشة الصوفية والحريرية والقطنية

(١٦) Heyd, op. cit. t. I, p. 179

(١٧) فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ، ص ٤١٣

(١٨) لويس لورتة ، مشاهدات فى لبنان ، ترجمة كرم البستانى ص ٣٥

(١٩) حليم أبو العز ، محافظة الشمال ، ص ٥٩

ب ـ التجـارة :

كان من الطبيعى أن تصبح طرابلس فى العصر الاسـلامى مركـزا تجاريا هاما فى الشام لسببين : الأول أن لها ميناء واسعا يمكن أن يتسع لعدد كبير من السفن ، والسبب الثانى قيام حرفتى الزراعة والصناعة بها وبأعمالها مما يترتب عليه ضرورة تصريف منتجاتها الى الخارج •

ولقد ظهرت طرابلس منذ أن خضعت لمصر الفاطمية كمدينـة تجارية هامة ، وهـو أمر تؤيده أقوال الرحالة والمؤرخين العرب ، فناصر خسرو يشيـد بذكر أسـواقها وخاناتها ويمتـدح صنـاعة الورق فيها ويعظم ثروتها الزراعيـة ، كما أنه يشـير الى اتخاذها قاعـدة تجارية فى البحر المتوسط تصل اليها السفن من مختلف الأقطار للتجارة «٢٠» • والادريسى يؤكد أنها « مدينة عظيمـة والوارد والصادر اليها كثير » كما يذكر أنها « معقل من معاقل الشام مقصود اليها بالأمتعة وضروب الأحوال وصنوف التجارات » «٢١» ، ومنـذ أن تلاشى أمر عكا وصـور وأنطاكية وجبيل والبترون كقواعد تجارية للصليبيين تركزت النشاطات التجارية فى الشام فى عصر المماليك فى ثلاثة مدن ساحلية هى بيروت وطرابلس واللاذقية «٢٢» •

---

(٢٠) ناصر خسرو ، ص ١٣

(٢١) الادريسى ، ص ١٧.

(٢٢) Nicola Ziadeh. op. cit. p. 134

غير أن نجاح المماليك فى القضاء على بقايا الصليبيين فى الشام أدى بطبيعة الحال الى امتداد فترة من الركود المؤقت للعلاقات التجارية التى تربطها بأوربا نتيجة لمحاولات البابوية ايقاف التجارة الأوربية مع مصر المملوكية.

ومع ذلك فان الدول الأوربية والجمهوريات الايطالية التى كان يتعامل معها المماليك فى مصر والشام لم تكن تستطع أن تستغنى عن حاصلات الشرق التى ترد عن طرق التجارة التى يسيطر عليها المماليك ، ولهذا حرص البنادقة وغيرهم على الابقاء على صلات الود مع المماليك «٢٣». وكان قيام طرابلس المحدثة فى سنة ٦٨٩ هـ عاملا من عوامل ظهورها كمركز تجارى هام فى الشام ، وسوق رئيسية للتصريف والاستيراد فى آن واحد ، وأصبحت على الرغم من غارات القبارصة والجنوية والقطلان وتهديد القراصنة للسفن التى تحمل التجارة المملوكية فى البحر المتوسط ، أعظم موانىء الشام نشاطا فى التجارة ، يؤكد ذلك ما ذكره ابن بطوطة وابن فضل الله العمرى والقلقشندى وابن الشحنة فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى . فابن بطوطة يشيد بأسواق هذه المدينة ، ويذكر أن البر يكنفها بمرافقه العسيسة والبر بخيراته المقيسة «٢٤» ، والعمرى يعظم تجارتها ويشير الى اتخاذها مرسى للسفن الوافدة اليها «٢٥» ، والقلقشندى يمتدح ميناءها

---

(٢٣) Nicola Ziadeh, p. 139

(٢٤) ابن بطوطة ، ص ٦٤

(٢٥) العمرى ، ص ٤٤٩

ويذكر أنها مركز للمراكب التجارية تباع بها بضائعهم ، وأنها « بلدة متجر وزرع كثيرة الفائدة » «[٢٦]» . وابن الشحنة يذكر نصا نقله الشيخ بدرالدين بن حبيب جاء فيه : « وترد اليها تجار الفرنج بأنواع البضائع ويحملون منها القطن الكثير وأمتعة الهند المختلفة ، وهى بندر عظيم» «[٢٧]» .

وينعكس الازدهار التجارى فى طرابلس المملوكية فيما أقيم بها من من خانات وفنادق وأسواق وقياسر ، وهو أمر أجمع عليه المؤرخون والرحالة ، عربا كانوا أم عجما . ولكن هذا الازدهار لم يلبث أن تلاشى بالتدريج فى اواخر عصر المماليك وذلك بعد أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٢ وما ترتب على ذلك من تحول قوافل التوابل الى أسواق لشبونة بدلا من جدة وطرابلس والاسكندرية ، وندرة ما كان يصل الى طرابلس من التوابل الهندية ، مما أدى الى خراب بنادر الاسكندرية وجدة ودمياط وطرابلس .

ج ــ الحياة العلمية :

شهدت طرابلس فى عصر بنى عمار ازدهارا علميا لم تشهد نظيرا له فى عصورها السابقة أو اللاحقة ، وأصبحت بحق مركزا علميا جليلا يقصده طلاب المعرفة للدرس والتحصيل ، فقد أسس فيها القاضى جلال الملك

---

(٢٦) القلقشندى ، ج ٤ ص ١٤٣

(٢٧) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤

ابن عمار دارا للعلم فى سنة ٤٧٢ هـ على غرار دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله فى القاهرة ، لتكون مركزا من مراكز التشيع «٢٨» . وكانت خزائن الكتب فى دار العلم بطرابلس تضم من الكتب ما يتجاوز المائة ألف مجلد جمعها القاضى أبو الحسن بن عمار ، طوال مدة حكمه لطرابلس ، وكان يبعث رسلا الى الأقطار المختلفة للبحث عن الكتب النادرة مهما بلغ ثمنها «٢٩» . وقد تعرضت هذه المكتبة كلها للتدمير والحرق بعد أن افتتحت جيوش الصليبيين مدينة طرابلس فى سنة ٥٠٣ هـ «٣٠»، ودخلت مكتبة بنى عمار بذلك فى جملة المكتبات التاريخية التى لاقت نفس المصير ، وبددتها الوقائع والحروب مثل مكتبة الخليفة الناصر العباسى بن المستضىء الشهيرة التى أغرقها التتار عند دخولهم بغداد ، ومكتبة الحكم المستنصر فى قرطبة التى أحرق معظمها فى زمن ابن أبى عامر وضاعت البقية الباقية منها فى غمار الفتنة «٣١» .

وذكر اسامة بن منقذ أن متولى دار العلم بطرابلس قبل سقوطها

---

(٢٨) محمد كردعلى ، خطط الشام ج ٤ ص ٣٨

(٢٩) جورجى ينى ، تاريخ سوريا ، ص ٣٨٤

(٣٠) ابن القلانسى ، ص ١٦٣ — Runciman, op. cit, vol. II, p. 69

(٣١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ـ ١٩٦٣ ص ٣١٤ : حاشيه رقم ٥

فى أيدى الفرنجة هو العالم أبو عبد الله الطليطلى النحوى «٣٢» ، ونستدل من اسمه على أنه أندلسى من مدينة طليطلة ، ولعله رحل من الأندلس بعد سقوط مدينة طليطلة فى أيدى القشتاليين فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، فنزل بطرابلس الشام واستقر بها ، فقد كانت دار العلم بطرابلس تجتذب العلماء والطلاب ، وكانت مركزا علميا هاما يقصده شيوخ العلم والادب ، ومن جملة من قصدها أبو العلاء المعرى «٣٣» ، كما قصد طرابلس فى عهد بنى عمار أبو الفتح نصر بن الحسن الشاشى الذى توفى بها فى سنة ٤٧١ هـ «٣٤» .

ولقد ظهر من شعراء طرابلس الكبار الأديب أحمد بن الحسين ابن حيدرة المعروف بابن خراسان الطرابلسى «٣٥» ، وكان شاعرا مجيدا ،

---

(٣٢) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، تحقيق الدكتور فيليب حتى ، برنستون ١٩٣٠ ص ٢٠٨

(٣٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٣

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، ج ٢ ، مدريد، ١٨٨٣ ، ص ٥٧٩

(٣٥) يبدو أن أسرة حيدرة الطرابلسية كانت من الأسرات التى اشتغل أفرادها بالعلم والأدب ، ولقد أورد ابن الفرضى اسم أحد علمائها وهو خيثمة بن سليمان بن حيدرة الاطرابلسى الذى أخذ عليه كثير من علماء الاندلس (ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، مجلد ١ ، مدريد ١٨٩١ ص ٥٢ ، ٣٨٥)

هجا فخر الملك بن‌عمار ، قاضى طرابلس وصاحبها ، كما هجا أخا فخر الملك ، فأمر به قاضى طرابلس ، فضرب حتى مات فى سنة ٤٩٧ هـ «٣٦» . وذكر صاحب مرآة الزمان أن لابن حيدرة هذا أبيات فى بركة له بطرابلس ملأها خمرا فى بستان له ، منها :

سقى الله أرضا نهرها البحر طاميا .·. وأرجاؤها من كل ناحية خضرة

جواد بها خمر ومسك ترابها .·. وأشجارها البيض الرعابيب والسمرة

أرجى اصطبارا عن هواها وطيبها .·. وأرجو ولكن ما يطاوعنى صبره

ومن شعره أيضا :

أحبابنا عذرونا فى محبتكم .·. كونى بحمص وأنتم فى طرابلس «٣٧»

وممن أنجبتهم طرابلس فى هذا العصر من شعرائها وكتابها الكبار أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد المعروف بالرفاء «٣٨» ، وكان بارعا فى اللغة والأدب «٣٩» ، والشاعر عبدالله بن أحمد بن الحسين بن أحمد الحميرى المعروف بابن النقار الكاتب «٤٠» ، الذى انتقل من طرابلس بعد أن استولى

---

(٣٦) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦ — النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٨

(٣٧) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦

(٣٨) ولد بطرابلس فى سنة ٤٧٣ هـ وتوفى فى سنة ٥٤٥ هـ

(٣٩) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٤٥

(٤٠) ولد بطرابلس فى سنة ٤٧٩ ، وتوفى فى سنة ٥٦٧ هـ

عليها الفرنج ، واستقر بدمشق «٤١» . ومن علمائها فى الفقه ابن أبى كامل الذى أخذ عليه كثير من أهل العلم «٤٢» .

ولم تفقد طرابلس مكانتها العلمية فى عصر تبعيتها للصليبيين ، ففيها ازدهرت مدرسة اليعاقبة فى الطب والفلسفة والتاريخ : وبرز من مؤرخيها أبو الفرج بن العبرى صاحب التاريخ المعروف ، كما تعلم فيها كثير من المحاربين والمقدمين الفرنج اللغة العربية «٤٣» .

وفى القرن الثامن الهجرى بدأت طرابلس تسترد مركزها العلمى القديم ، فنبغ فيها جملة من العلماء فى الأدب واللغة والفقه أمثال الكاتب المجدد محمد بن بكتوت الظاهرى القلندرى الحنفى المتوفى سنة ٧٣٥هـ «٤٤» ، وعماد الدين محمد بن صفى الدين النويرى صاحب ديوان طرابلس ، المتوفى سنة ٧١٧ هـ «٤٥» والقاضى تاج الدين أبو عبد الله محمد البارنبارى المصرى كاتب سر طرابلس المتوفى فى سنة ٧٥٦هـ «٤٦» والقاضى شمس الدين

---

(٤١) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٥

(٤٢) ابن الأبار ، كتاب التكملة لكتاب الصلة ، مجلد ، مدريد ١٨٨٩ ص ٥٩٩

(٤٣) محمد كرد على ، خطط الشام ج ٤ ص ٣٩

(٤٤) السلوك ، ج ٢ قسم ١ ص ١٨٠ ـــ النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٠٧

(٤٥) السلوك ج ٢ قسم ١ ص ١٨٠

(٤٦) النجوم ، ج ١٠ ص ٣٢

أبو عبد الله محمد بن الشيخ تقى الدين عبد الله الدمشقى ، وكان عالما دينا مجاهدا مرابطا ، يلبس السلاح فى سبيل الله ويغزو ، وسمع الكثير وألف وأفتى ، وتوفى فى سنة ٧٦٩ هـ «٤٧» .

وفى القرن التاسع نبغ الفقيه على بن خليل الطرابلسى المتوفى سنة ٨٤٤ هـ وقد ألف كتابا بعنوان « معين الحكام » «٤٨» . ولكن الحياة العلمية فى طرابلس أخذت فى الركود عند النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى ، ولم تلبث حركة الآداب والعلوم فى طرابلس أن خفتت عند الفتح العثمانى .

---

(٤٧) نفس المصدر ، ج ١١ ص ١٠٠

(٤٨) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٤ ص ٥٧

(٣)

الدفاع البرى والبحرى

كان أمر الدفاع عن طرابلس قبل الغزو الصليبى يعتمد على أسوارها الحصينة ، فقد كانت طرابلس العتيقة مدينة مزودة بسور منيع من الحجر، ويدور البحر بها من ثلاثة أوجه «١» ، بينما كانت تقوم فى الجهة الشرقيـة البرية قلعة حصينة «٢» من الحجر المصقـول ، مزودة بشرفات ومقاتلات حجرية ، وبأعلاها عرادات لتيسير مهمة الدفاع عنها من البر «٣» . ويحيط بهذا السور الشرقى خنـدق عظيم باعتبـاره أكثر جهات السور تعرضا للهجوم من البر ، بينما لم تكن للأسوار الأخرى المطلة على البحر خندق يدور بها على أساس أن البحر خندق طبيعى . وكان للخندق الشرقى باب محكم من الحديد «٤» . وكانت الأسوار التى تدور بطرابلس من الجهات البحرية ملاصقة لرمال الشاطىء الى حـد أن مياه البحر كانت تضرب فى السور وتعلوه اذا علت أمواجه «٥» .

---

(١) الادريسى ، ص ١٧

(٢) العمرى ، مخطوط ، ج ١٦ قسم ٣ حوادث ٦٨٨

(٣) ناصر خسرو ، ص ١٣

(٤) نفس المصدر

(٥) نفس المصدر

كانت أسوار طرابلس القديمة من المناعة والوثاقة ما جعلها تستعصى على الغزاة البيزنطيين والصليبيين بعد ذلك ، وفى ذلك يقول ابن القلانسى: « وثغر طرابلس برى بحرى متين القوة والحصانة ، شديد الامتناع على منازلة ، أقام عليه بسيل نيفا وأربعين يوما يحاول افتتاحه أو وجود فرصة فى تملكه ، فلم يتم له فيه أمر ولا مراد ، فرحل عنه قافلا الى بلادالروم«٦» . كذلك استعصت طرابلس على الصليبيين بعد ذلك ، فلم تستسلم لهم الا بعد عشر سنوات من الدفاع والمقاومة على الرغم من قيامهم بانشاء حصن يشرف عليها ويواصل منه الفرنجة الهجوم عليها ، وعلى الرغم من اشتراك الأسطول الجنوى مع العسكر البرى فى احكام الحصار عليها .

فلما تهدمت طرابلس العتيقة فى سنة ٦٨٩ هـ ، خصص السلطان قلاوون للدفاع عن طرابلس فرقة من الفرسان تتألف من ستمائة فارس بقيادة الأمير سيف الدين التقوى ، وهو أول جيش استخدم بطرابلس بعد فتحها «٧» ، وقد كان عسكر هذا الجيش يقيم فى أبراج القلعة الصليبية . وفى الأبراج المقامة على ساحل المينا ، وكان يشرف على القلعة نائب طرابلس نفسه اذ كان يجمع بين وظيفته كنائب للسلطنة ووظيفة نائب القلعة . وكان يتولى أيضا عبء الدفاع عن طرابلس والسواحل بالاضافة الى حاميتها

---

(٦) ابن القلانسى ، ص ٤٤

(٧) السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٥١ — ابن الفرات . ج ٨ ص ٩٠

درق محلية من العربان الخيالة والنجابة ، والتركمان والأكراد الذين استقروا ببعض أعمالها الشمالية ، وقد لعب بنو بحتر أصحاب الغرب الذين يرتفع نسبهم الى بنى النعمان بن المنذر بن ماء السماء «٨» فى الدفاع عن ساحل الشام من طرابلس حتى بيروت من غارات القبارصة فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

وكان لطرابلس فى العصر الفاطمى أسطول حربى يدافع عنها من البحر، وقد تمكن هذا الأسطول بقيادة على بن حيدرة من التغلب على أسطول بيزنطى كان فى طريقه الى صور لمساعدة ثوارها بزعامة العلاقة على الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٣٨٧ ھ ، وكان لهذا الأسطول الطرابلسى الفضل الأعظم فى القضاء على ثورة العلاقة «٩» . ولما استقل بنو عمار بطرابلس اهتموا اهتماما خاصا بتعزيز أسطول طرابلس ، وقد لعب هذا الأسطول دورا هاما فى فترة الحصار الصليبى على طرابلس ، ويذكر ابن الأثير أن الامبراطور البيزنطى أمر أتباعه فى اللاذقية بارسال الميرة الى الفرنج المحاصرين لطرابلس ، فحملوها فى البحر « فأخرج اليهم فخر الملك بن عمار أسطولا ، فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد ، فظفر المسلمون بقطعة من الروم ، فأخذوها ، وأسروا من كان بها وعادوا » «١٠» .

---

(٨) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٦٥

(٩) ابن القلانسى ، ص ٥٠

(١٠) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣٥

ويبدو أن هــذا الأسطول الطرابلسى تعرض لخسائر جسيمة عندما تدخل الجنوية فى حصار طرابلس ، فغرقت معظم قطعه ، وأصبحت السفن الباقيــة عاجزة عن مقاومة الحصار الصليبى . غير أن بعض هذه السفن تمكن من اختراق هذا الحصار البحرى واتجه الى مصر لالتماس معونتهــا والدخول فى طاعتها ، فسير اليهم الأفضل شاهنشاه واليا « يصل اليهم فى البحر ومعه الغلة والميرة فى المراكب لتسلم اليه البلد ، فوصل اليهم شرف الدولة بن أبى الطيب واليا من قبل الأفضل ومعه الغلة ، فلما وصل اليها قبض على جماعة أهل فخر الملك بن عمار وأصحابه وذخائره وآلاته وأثاثه، وحمل الجميع الى مصر فى البحر » «(١١)» . ونستدل من هــذا النص أن الاتصال البحرى بين مصر وطرابلس لم يكن عسيرا فى تلك الآونة ، فقد كان لمصر أسطولها البحرى العظيم الذى لعب دورا هاما فى تمييز السواحل الشامية وقت الغزو الصليبى بالعدد والسلاح والأقوات ، وكانت السفن المصرية تخرج من تنيس«(١٢)» ومن الاسكندرية الى طرابلس الشام وصور.

ولكن طرابلس لم يعد لها أسطولها الخاص فى عصر المماليك ، وذلك لاهتمام المماليك بالجيش أكثر من اهتمامهم بالأسطول «(١٧)» ، وان كانوا

---

(١١) ابن القلانسى ، ص ١٦١

(١٢) ابن العديم ، ج ١ ص ٢٢٢

(١٢) منذ أن استرد المماليك المدن التى كانت فى أيدى الصليبيين لم-

يقومون بانشاء ما يلزمهم من سفن عنـد الضرورة ، ومع ذلك فقد كان لطرابلس بعد أن استرجعها المسلمون بعض القطع الراسيـة فى مينائها . وقد اشتركت سفينة من سفن طرابلس فى فتح أرواد فى سنة ٧٠٢ هـ «[١٤]»، ثم نشطت دار الصناعة بطرابلس بعد غزو القبارصة للاسكندرية فى انشاء السفن الحربية سنة ٧٦٧ هـ «[١٥]» .

واقتصرت ميناء طرابلس فى عصر المماليك على استقبال السفن التجارية المختلفة ، اذ كانت طرابلس بندرا تصل اليه السفن من سائرأقطار البحر المتوسط شأنها فى ذلك شأن بندر جدة فى البحر المتوسط ، ولكنها لم تبلغ من الناحيـة الحربية الدرجـة التى بلغتها الاسكندرية فى مصر واللاذقية وعكا فى الشام فان هـذه الموانىء كانت مزودة بسلاسل تحمى السفن الراسية فى الميناء وتمنع دخـول السفن غير المرغوب فى دخولها . وقد كان ميناء طرابلس دائم التعرض لغزو القبارصة ، بينما استعصى على

= بعودوا يهتمون باقامة أسـطول ثابت ، فبيبرس نفسه مؤسس أسطول المماليك ، كتب فى احدى رسائله الى ملك قبرص يقول : « أنتم خيلكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيل » النويرى ، نهاية الأرب (مخطوط) ج٢٨ ص ٥٥ ــ السلوك للمقريزى ، ج ١ قسم ٢ ص ٥٩٤ حاشية رقم ٣

(١٤) أبو الفـداء ، المختصر ج ٧ ص ٥٧ ــ النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٥٦

(١٥) السلوك ج ٧ ص ٤٩

القبارصة غزو اللاذقية مثلا اذ أن « يميناها سلسلة متينة ، فنطط (بطرس صاحب قبرص)ثلاث شوانى عليها حصلت داخل المينا ، فتبادر المسلمون ورفعوا سلسلتهـا بدولابها لم يكن للقبرصى ذلك فى حساب ، فقبض المسلمون على شينى منها ، فقتلوا من فيه من الرجال والأعلاج ، وانكسر الاثنان لثقلهما على السلسلة وعملها فيهما » «١٦» .

وكانت السفن التجارية الاسلامية والفرنجية تصل ما بين مصر والشام عن طريق ميناء طرابلس ، وذلك منذ العصر الفاطمى ، فقد أمر العزيز بالله بارسال الميرة من غلات مصر لنجدة منجوتكين فوصلت الى طرابلس ومنها علىظهور الابل الى أفامية «١٧» . كذلك كانت السفن تبحر من طرابلس حتى العصر الذى خضعت فيه طرابلس للصليبيين وتصل الى مصر ، ففى سنة ٦٣٩ هـ قدم جمال الدين بن مطروح من طرابلس فى البحر الى القاهرة ، وكثر قصاد المظفر صاحب حماة الى مصر «١٨» .

وكان لابد لنواب السلطنة فى طرابلس من الاهتمام بتحصين ميناء طرابلس بسلسلة من الأبراج الدفاعية الضخمة ، ومن المعروف أنه كان

---

(١٦) النويرى السكندرى : الالمام بالاعلام ص ١٣٤

(١٧) ابن القلانسى ، ص ٤٢

(١٨) السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٨

يتوزع على شاطىء طرابلس الميناء عدد من الأبراج تبـدأ من رأس النهر وتنتهى عند قرية البحصاص الواقعة الى الجنوب من طرابلس على بعـد نحو كيلومترين منها ، وكل أبراج مستحدثة أقيست فى زمن المماليك . كما أبقى المماليك على بعض القلاع الصليبية الساحلية التى تقع الى الجنوب من طرابلس لحماية الساحل الممتد من طرابلس الى بيروت مثل حصن أنف الحجر (أنفة) وحصن القالمون ، وحصن أبى العدس وحصن أرطوسية ، وهى حصون ذكرها الادريسى «[١٩]» . وقد وصلت الينا آثار هذه القلاع والحصون ممتدة على الساحل من طرابلس الى جبيل .

---

(١٩) الادريسى ، ص ١٧ ، ١٨

الفصل الثامن

الآثار الباقية

(١) المساجد :

الجامع المنصوري الكبير ـ مسجد عبد الواحد المكناسي ـ مسجد الأمير طينال ـ مسجد العطار ـ مسجد الدباغين ـ زاوية أرغون شاه ـ مسجد الأويسي .

(٢) المدارس والخانقاه :

المدرسة القرطائية ـ المدارس المحيطة بالجامع الكبير ـ جامع ومدرسة البرطاسي ـ المدرسة الزريقية ـ المدرسة السقرقية ـ المدرسة الخاتونية ـ المدرسة الظاهرية ـ المدرسة الطويشية ـ المدرسة العجمية ـ الخانقاه .

(٣) التحصينات البرية والبحرية :

قلعة صنجيل ـ أبراج الميناء .

(٤) المنشآت المدنية :

الحمامات ـ الخانات والأسواق ـ جسر نهر قاديشا ـ سبيل التينة .

الفصل الثامن

الآثار الباقية

(١)

المساجد

١ ـ الجامع المنصورى الكبير :

اقيم فى مدينة طرابلس المحدثة على الضفة اليسرى من نهر أبى على ، وهو من أعظم المساجد الجامعة بطرابلس أقامه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل فى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) ، وكان موضع هذا الجامع كنيسة أقيمت فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى تعرف باسم سان جان ، فى الوقت الذى كان ريموند دى سان جيل يحاصر مدينة طرابلس القديمة من حصن صنجيل القائم على تلة الحجاج ، وقد تهدمت هذه الكنيسة فى جملة ما تهدم من أبنيتها عقب الزلزال العنيف الذى حدث سنة ١١٧٠ وشاهد بنيامين التطيلى آثاره المدمرة عند زيارته لتلك المدينة «١» ، وذلك

---

(١) أشار بنيامين التطيلى الذى زار طرابلس فى سنة ١١٧١ هـ • الى هذا الزلزال بقوله : « وحدث منذ وقت مضى زلزال فى طرابلس قتل بسببه عدد كبير من الناس واليهود ، اذ وقعت عليهم الدور والجدران وسبب تخريبا مريعا » • Viajes de Benjamin de Tudela, trad. espagnole. par Ignacio Gonzalez LLubera, Madrid, 1918, p. 67

بعد سقوط البيت الطولوشى وقيام الأسرة الأنطاكية بسنوات . وقد عمل بوهمند على ترميم الكنيسة الفرنجية الخربة ، وترك مهندسوه الايطاليون طابع بلادهم فى البرج اللومباردى القائم حاليا بأعلى المدخل الشمالى للجامع . ويبدو أن هذه الكنيسة تأثرت كذلك بزلزال سنة ١٢٨٧ م الذى أحدث فيها أضرارا جسيمة ، ثم تهدمت على أثر دخول جيوش المماليك الظافرة فى مدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ ، وبقيت منه أجزاء استغلها مهندس الجامع فى بنائه ، ولا نستبعد أن يكون المنصور قلاوون قد قنع ببناء بيت للصلاة فى نطاق جدران الكنيسة الخارجية حتى يفيد من برجها اللومباردى فيتخذها مئذنة للجامع ، ولعله استغل جدران الكنيسة القديمة وبابها الرئيسى وبرجها بعد أن انتزع منه النواقيس . غير أن ابنه وخليفته السلطان الملك الأشرف خليل حول البوابة القوطية الطراز التى تتوسط جدار الجامع الشمالى الى باب اسلامى الأسلوب «٢» . والبوابة بصورتها الحالية على شكل عقد مدبب ، سنجاته يتناوب فيها اللونان الأبيض

---

(٢) Sobernheim, C. I. A., t. XXV, p. 51

ومن المحتمل أن تكون هذه البوابة قد انتزعت من الكنيسة القديمة، ووضعت فى مدخل الجامع المنصورى لتكون شاهدا ماثلا يسجل انتصار المسلمين على الصليبيين ، كما فعل الأشرف خليل بعد ذلك ببوابة كنيسة سان چان بعكا ، التى انتزعها الأمير علم الدين الدواداري متولى تخريب عكا وصور وعثليث وغيرها من قلاع الصليبيين التى فتحها الأشرف خليل ، وحملها الى القاهرة حيث نصبها العادل زين الدين كتبغا فى المدرسة التى نسبت فيما بعد الى الناصر محمد بن قلاوون فى شارع بين القصرين بالنحاسين (السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٥١)

والأسود ، ويحتضن العقد صفان من زخرفة هندسية منسوجة من دالات متصلة على شكل « زجزاج » ، ويبرز من أعلى هذين الصفين عن الآخر ، وأغلب الظن أنهما اسلاميان وذلك لشيوع هـذا النوع من الزخرفة فى آثار طرابلس الاسلامية • ويعلو الصف العلوى من هذين الصفين أفاريز منبعجة بارزة عددها ثلاثة . تستند على افريز أفقى يمتد على شكل رف ، تحت صفى الدالات من كلا جانبيهـا • ويقوم هذا الافريز على عمودين صغيرين ، تاجاهما من الطراز القوطى «٣» ؛

هـذا الاطار البارز ذو الطابع اللاتينى يحيط بباب اسلامى الطابع ؛ فان عقده المدبب يمتد جانباه الى أدنى البـوابة بحيث يؤلفان عضادتى البوابة ، ويستمر تناوب اللونين الأسود والأبيض فى صفوف أحجاره • أما عتبه ، وهو قطعة واحدة من الحجر ، فيستند على مسندين محدبين ؛ وطبلة العقد صماء يكسوها ملاط خشن المظهر ، تتوسطه زخرفة نباتيـة من العصر العثمانى مكتوب تحتها عبارة : «لا اله الا الله محمد رسول الله» • أما النقش التاريخى فمسجل على لوحة من الخشب ، مثبتـة على عتب الباب ، مساحتها ٢٦٠×٣٩ سم٢ • ويتألف النقش من ثلاثة أسـطر من الخط النسخى ، يفصل بين كل منهما شريط ، ويرجع هذا النقش الكتابى بناء الجامع الى الأشرف خليل فى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) أى بعد سقوط طرابلس فى يد أبيه المنصور قلاوون بأربع سنوات «٤» • ونقرأ فى هـذا

---

(٣) Van Berchem, Voyage en Syrie, p, 118 - Soberheim, p. 51

(٤) M. Van Berchem, et Edmond Fatio, Voyage en Syrie, p. 118

النقش النص التالى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بانشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الأعظم ، سيدملوك العرب والعجم ، فاتح الأمصار ، ومبيد الكفار ، الملك الأشرف ، صلاح الدنيا والدين خليـــل ، قسيم أمير المؤمنين ، ابن مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى ، خلد الله ملكه ، فى نيابة المقر العالى الأميرى الكبيرى العزى عز الدين أيبك الخزندار الاشرفى المنصـــورى نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة ، عفا الله عنه ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة؛ والحمد لله وحده) «٥» • وبأعلى العضادة اليسرى للباب ، وتحت نهـــاية النص السابق ، نقش تاريخى بالخط النسخى الصغير ، ومن نفس الأسلوب نصه . (تولا عمارة هـــذا الجامع المبارك العبد الفقير لله «٦» تعالى سالم الصهيونى ، ابن ناصر الدين العجمى عفا الله عنه) •

والجامع بناء اسلامى لا أثر فيه للتأثيرات المسيحية مما يدل على أنه بنى بناء جديدا . وأنه لم يبن داخل كنيسة ، وتخطيط الجامع يتبع النظام القـــديم للمساجد الجامعة ، فيشتمـــل على ثلاث مجنبات تحيط بصحن مستطيل ، وعلى بيت للصـــلاة • وتعلو هذه المجنبات قبوات متعارضة ، وتطل المجنبات على الصحن بعقود منكسرة مثلثة الرؤوس ، تقـــوم على دعائم ضخمة مربعة القاعدة • وتتألف المجنبة الشمالية من سبعة عقود ،

---

(٥) Combe, Sauvaget, wiet; Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe, tome XIII le Caire 1944. p, 122 -Sob ernheim, op. cit. p. 52

(٦) وردت فى نص سوبرنهايم « الى الله » والقراءة الصحيحة «لله»

أما كل من المجنبتين الشرقية والغربية فمن خمسة عقود أكثر اتساعا من عقود المجنبة الشمالية . ومجنبات الصحن أقيمت فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) فى نيابة المقر السيفى كستاى الناصرى (٧١٤ — ٧١٦ هـ) ، وعهد بأعمال البناء الى أحمد بن حسن البعلبكى . وقد سجل ذلك كله فى لوحة مندمجة فى الجدار الشمالى المطل على الصحن ، ونص الكتابة ما يلى : (بسم الله الرحمن الرحيم . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . أمر بانشاء هذه الرواقات تكملة الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المظفر المنصور ناصر الدنيا والدين محمد ابن قلاوون خلد الله ملكه فى نيابة المقر الشريف العالى السيفى كستاى الناصرى كافل المملكة الشريفة الطرابلسية أعز الله أنصاره باشارة المقر العالى البدرى محمد ابن أبى بكر شاد الدواوين المعمورة أدام الله نعمته . وكان الفراغ منه فى شهور سنة خمس عشر وسبعمائة . وصلى الله على سيدنا محمد . ولى عمارته العبد الفقير الى الله تعالى أحمد ابن حسن البعلبكى) «(٧)» .

وواجهة بيت الصلاة تطل على الصحن بسبعة عقود أكثر اتساعا من عقود المجنبة الشمالية ، ويشتمل بيت الصلاة على بلاطين موازيين لجدار

---

(٧) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, t. XIV, p. 101 - Sobernheim, op. cit, p. 53

القبله ، ينقسمان الى١٤ أسطوان . ويعلو كل أسطوان منها قبوة متعارضه فيما عدا أسطوان المحراب فتعلوه قبـة قائمة على مقرنصات مقوسة . ويفصل البلاطين صف من الدعائم الضخمة عددها ستة ، ويستند العقد الأخير من الجهة الغربية على دعيمة ملتصقة بالجدار الغربى .

والى يمين المحراب منبر من الخشب يزدان بزخارف ملونة ، أقامه نائب طرابلس الأمير سيف الدين قرطاى بن عبـد الله المنصورى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ . ويعلو مصراعى باب المنبر تحت صف المقرنصات الأعلى مباشرة نقش كتابى بالخط النسخى نصه : (أمر بانشاء هذا المنبر المبارك العبد الفقير الى الله تعالى قرطاى بن عبد الله الناصرى أثابه الله ، فأقام به من ماله بكتوان بن عبـد الله الشهابى ، تقبـل الله منه ، وذلك فى شهر ذو القعدة سنة ست وعشرين وسبعمية) «٨» .

والمظهر العام للجامع لا يدل على عناية ببنائه ، فجدران الجامع كلها مغطاة بطبـقة بيضاء من الجير ، والمسجـد كله عاطل من الزخرفة «٩» . ويتوسط الصحن بناء يتكون من أسطوانين : الشمـالى منهما تتوسطه نافورة للوضوء ، بأعلاها قبة ، والجنوبى ينتهى بمحراب عليه لوحةرخامية

---

(٨) Rep. Ch. E A., t. XIV, p. 225 - Sobernheim, p. 55

(٩) Van Berchem, op. cit, p. 118

نقش عليها النص التالى : (أمر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى ازدمر الأشرفى ، كافل المملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة أعز الله أنصاره ، فى أيام مولانا وسيدنا قاضى القضاة الشافعى الامام فى مستهل ربيع الآخرة سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة بمباشرة محمد الشاد) «١٠» .

ويعلو المدخل الجنوبى الشرقى للمسجد لوحة عليها النص التالى : (الحمد لله رسم بالأمر العالى السلطانى الملكى المؤيدى أبى النصر شيخ أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه بابطال المظالم المحدثات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والطرح وغير ذلك بحيث لا يعود ويبطل ذلك جميعه فى هذه الأيام الزاهرة ، خلد الله سلطانها ، وأدام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الأول سنة سبعة عشر وثمانمائة و الحمد لله) «١١» .

وعلى عتب العقد نصف الدائرى بالباب الشرقى للمسجد المؤدى الى الصحن نقش كتابى نصه (برسم الدخان وما يستأديه من يكون متكلما فى ديوان الحجوبية الكبرى واستادارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذالك «١٢» وباعفائها من ذلك جميعه ومن طرح الصابون والزيت

---

(١٠) Sobernheim, p. 57

(١١) Ibid. p. 56

(١٢) خطأ فى الكتابة

والبلس ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها من جميع الكلف والمخادم الجارية بها العادة قديما والحادثة مستقبلا ومنع خازندار الكافلي من التعرض الى ذالك ، وأخذ شيء منه ، واستقرارها في حماية سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على حكم المربع الشريف ، وأخذ ينقش ذلك في رخام جامع الكبير بطرابلس بأمر الكافلي المشار اليه بالمملكة الشريفة ، وأن يسطر ذلك بتاريخ ثاني شهر الله الحرام سنت «[١٣]» ثمان وتسعمائة والحمد لله) «[٢٤]» .

ومئذنة الجامع هي البرج اللومباردي الذي أشرنا اليه ، وهي مئذنة تنفتح في أوجهها نوافذ مزدوجة ذات طرر ، تقوم عقودها على أعمدة صغيرة .

٢ — مسجد عبد الواحد المكناسي :

يعتبر هذا المسجد من أقدم مساجد طرابلس في عصر دولة المماليك البحرية ، وهو مسجد صغير يقع خلف سوق الصاغة ، بناه الشيخ عبد الواحد المكناسي ، أحد الأولياء الذين نزلوا مدينة طرابلس بعد أن حررها قلاوون من الصليبيين ، وكان مشهورا بالفضل والتقوى والزهد ، ويتميز هذا المسجد ببساطته التامة ، وعقود بيت الصلاة فيه تقوم على دعائم ضخمة مربعة الشكل ، وهي أقرب الى عقود مساجد المغرب

---

(١٣) خطأ في الكتابة

(١٤) Sobernheim, p. 59

الاســـلامى منها الى عقود المساجد الســـورية • ويتوسط صحن الجامع نافورة صغيرة يحيط بها حوض نقش بأعلاه النص التالى : (أنشأ هـــذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى عبد الواحد المكناسى غفر الله له ولـــوالديه ولمن كان السبب فيـــه وذلك فى تاريـــخ ســنـــة خمس وسبعمائة) «(١٥)» •

وبيت الصلاة يتألف من أسكوبين تخترقهما ثلاث بلاطات ، ويعلو الأسكوب الشـــالى قبوات متعارضة تقوم على دعائم ضـــخمة • ويحيط بصحن المســـجد ثلاث مجنبات تعلوها أسقف مائلة من الآجـــر على نحو النظام الشائع فى مساجد المغرب ، وتستند هذه الأسقف على أعمدة وأوتار خشبية • وقبة المسجد مضلعة من الخارج ، وترتكز على رقبة من طابقين، الأدنى منهما تنفتح فيه أربع نوافذ معقودة ، والأعلى مزود بثمان نوافذ• أما من الداخل فالقبة مفصصة تشتمل على ١٦ فصا ، وترتكز هذه الخوذة المفصصة على طابق مثمن فى أركانه الثمانية جوفات مقوسة• وتذكرنا هذه القبة بصفة عامة بالقباب التونسية •

أما المئذنة فطابعها يختلف عن بقية مآذن طرابلس اذ تتكـــون من ساق مثمنة الشكل تنتهى من أعلى بقبة نصف كروية ، وينفتح فى جدران المئذنة من أعلى ثمان نوافذ •

---

(١٥) Rép. Chr. E. A., t, XIII, p. 263 - Sobernheim p. 85

٣ — مسجد الأمير طينال .

تسميه العامة حاليا مسجد الأمير طيلان «١٦» ، وهو تحريف واضح من اسم طينال . ويعتبر هذا المسجد أهم مساجد طرابلس وأجملها على الاطلاق بعد الجامع المنصورى الكبير . وتذكرنا زخارفه وعناصره المعمارية بمساجد القاهرة أكثر مما تذكرنا بآثار دمشق . ويقع هذا الجامع بظاهر مدينة طرابلس ، وسط البساتين التى تحيط بالمدينة بالقرب من باب طيلان . وكانت تقوم فى موضع هذا المسجد قديما كنيسة مهدمة من عصر الصليبيين . هجرت زمنا طويلا بعد أن استولى قلاوون على طرابلس ، ثم استخدمها الأمير سيف الدين طينال الأشرفى الناصرى نائب طرابلس فى اقامة هـذا المسجد سنة ٧٣٦ هـ . وتاريخ انشاء هذا المسجد مسجل فى النقش الكتابى الذى يعلو باب المسجد ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هـذا الجامع المبارك المقر الأشرفى العالى المولوى الأميرى النـاصرى نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة اتماما ، فى أيام الملك الناصر فى شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة) «١٧» . وهنـاك نقش كتابى آخر بالقرب من النقش السابق ، عبارة عن وقفية سجل فيها اسم نائب السلطنة . ثم حدود الوقفية . (أنظر الملاحق)

---

(١٦) وقع ابن بطوطة فى نفس هـذا الخطأ اذ سمى الأمير طينـال بطيـلان

(١٧) Rép. Ch. E. A. t. XV, p. 59 - Sobernheim, p 87

والمسجد يتألف من قسمين منفصلين : الشـــمالى منهما بيت للصلاة يشتمل على ثلاثة بلاطات ، الأوسط أفسح من البلاطين الجانبيين ، وينقسم هــذا البلاط الأوسط الى اسطوانين تعلوهمــا قبتان . واحدى هاتين القبتين نصف كروية على مقرنصات مثلثــة ، يتناوب فى عنقهــا ١٢ عقدا ونافذة ، والقبة الثانية مشابهة لها تقوم على مقرنصات مقوسة .

أما القسم الجنوبى من المسجد فضريح دفن فيه طينال يشتمــل على تسعة أساطين ، ويتوسط هذا الضريح قبة كبرى تقوم على رقبة مثمنة ، ويكتنف الضريح شرقا سلم وفى الجزء الشمالى قاعة جنائزية تحتوى على قبرين «١٨» .

ونلاحظ أن بالمسجد عمودين مركزيين ، يقوم عليهما عقــدان من النوع الرابط الشائع فى العمائر قوطية الطراز . ويغلب على الظن أنهذين العمودين وتاجيهما من الكنيسة القــديمة ، ويعتقد الاستاذ ڤان برشم أنه لو صحذلك، أىأنه لو ثبت انتماءهذهالآثار الىالكنيسة لجاز تحديدالرواق الأوسطوالرواقينالجانبيين لهذه الكنيسة ، وعندئذ تكونرأسالكنيسة فى مكان الضريح «١٩».أما الاستاذ بروس كندى فيرى أن هذين العمودين والعمــودين الآخرين اللذين تقوم عليهما القبة الجنوبية بالمسجد ، كانت

---

(١٨) Van Berchem, op. cit, p. 120

(١٩) Ibid. p. 120

مركز الكنيسة الكرملية القديمة ، لأن مجاز هذه الكنيسة كان يتجه من الشرق الى الغرب أى بعكس اتجاه البلاط الأوسط فى المسجد ، كمايرى احتمال كون الأسطوان الذى تعلوه القبة الشمالية بالمسجد جزءا من الرواق الشمالي للكنيسة ، بينما يرجح تهديم المهندس للرواق الجنوبى تمكينا لاقامة البوابة الضخمة المؤدية الى ضريح سيف الدين طينال «٢٠» .

أما هذه البوابة الملتصقة بقاعدة القبة القبلية بالمسجد ، والمؤدية الى ضريح طينال ، فتعتبر من أجمل البوابات المملوكية ، وهى قطاع مستطيل الشكل مجوف ينتهى من أعلى بعقد منكسر ، ويشغل ركنى القطاع مقرنصان ينتهيان من أعلى — بعد أربع حطات متراكبة — بجوفة نصف كروية يحيط بها العقد المذكور . وتزدان واجهة البوابة بزخرفة تقوم على تناوب صفوف الحجارة البيضاء مع الصفوف السوداء ، ويحوط البوابة من أعلى ومن الجانبين افريز من الدالات المتصلة على شكل «زجزاج» . ويعلو مدخل الباب عقد مخفف للضغط به سنجات متعاشقة يتناوب فيهما اللونان الأبيض والأسود .

وأرضية المسجد تكسوها زخرفة من الفسيفساء الملون فى غاية الروعة والجمال ، أسلوبها اسلامى خالص «٢١» . أما المئذنة فمربعة الشكل ،

---

(٢٠) Bruce Condé Tripoli of Lebanon, p. 48

(٢١) Van Berchem, op cit. p 121

تزدان جوانبها بعقود صماء ذات وسائد ، وتمتاز هذه المئذنة باشتمالها على درج مزدوج فى الداخل«٢٢» أحدهما يؤدى الى خارج المسجد والآخر يفضى الى الداخل «٢٣» . وتنتهى المئذنة من أعلى بشرفة بارزة عن الجدار تنفتح فى كل وجه منها نافذة مستطيلة الشكل ، ويعلو الشرفة جوسق مستدير . ويعتقد بعض الأثريين أن هذه المئذنة كانت فى الأصل برج الأجراس التابع للكنيسة الكرملية «٢٤» ، ومجموع القباب التى يضمها المسجد والضريح أربعة ، أصغرها قبة المحراب ، وهى قبة صغيرة متعددة الفصوص (٢٤ فصا) تقوم على قاعدة مربعة فى أركانها جوفات مقوسة تؤلف حطة أولى من المقرنصات ، وتعلو هذه الجوفات حطة ثانية ثم تعلوها بدورها حطة ثالثة من المقرنصات المسطحة على شكل عقود متصلة تتخللها نوافذ .

وللضريح منبر بأعلاه لوحة من الخشب نقش عليها بالخط النسخى النص الآتى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى

---

(٢٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٦ ، دمشق ١٩٢٨ ص ٥٣

(٢٣) تشبه فى ذلك مئذنة عبد الرحمن الناصر بالمسجد الجامع بقرطبة ، وهى مئذنة كانت مزودة بمطلعين مفصول بينهما بالبناء وأحد هذين المطلعين يؤدى الى صحن الجامع والثانى يؤدى الى خارج المسجد . (راجع : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للمؤلف ، ص ٣٩٠)

(٢٤) Bruce Condé, op. cit. p. 50

أولا:ائك «٢٥» أن يكونوا من المهتدين ، تكمل هـذه منبر فى شهر ذى القعدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة) «٢٦» • وفى أدنى المنبر بأعلى الباب سطر من الكتابة النسخية نصه : (عمل المعلم محمد الصفدى رحم الله من نرحم عليه) «٢٧» •

٤ ــ مسجد العطار :

يقع هذا المسجد فى قلب مدينة طرابلس على الضفة اليسرى من نهر أبى على ، بالقرب من خان المصريين وخان الخياطين ، فى شـارع سـوق الصاغة أهم شوارع المدينـة • ويعتبر هذا المسجد ثالث مساجد طرابلس أهمية ، أسسه بدر الدين بن العطار أحـد العطارين الأثرياء بطرابلس فى سنة ٧٥٩ هـ على نفقته الخاصة ، ولذلك نسب اليه «٢٨» ، وجعل له أربع صفف ، « كل صفة لها مدرس له معلوم يتناوله من وقف الجامع » «٢٩» •

---

(٢٥) هكذا نقشت كلمة أولئك

(٢٦) Rép. Ch. E. A., t. XV, p. 60 - Sobernheim, op. cit. p. 93

(٢٧) تمتاز آثار طرابلس بتسجيل أسـماء الصناع والعرفاء عليها ، وهو أمر لا يتوفر فى كثير من الآثار الاسلامية فى مصر •

(٢٨) الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٣٩١

(٢٩) عبدالغنى النابلسى ، الرحلةالطرابلسية ، عن سوبرنهايمص ١٠٤

وتاريخ انشاء هـــذا الجامع مسجل بأعلى عتب المدخل فى لوحة نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم . هـــذا الباب المبارك والمنبر عمل المعلم محمد بن ابراهيم المهندس سنة أحد وخمسين وسبعمائة) «٣٠» . ويذكر الاستاذ محمد كرد على أن هذا الجامع كان كنيسة فى زمن الصليبيين ، ثم تحول الى جامع «٣١» .

وبوابة هـــذا المسجد تشـــبه فى زخارفها بوابة المدرســـة القرطائية المجاورة للجامع الكبير ، فهى عبـــارة عن قطاع مفرغ مستطيل الشكل ، تعلوه حنية نصف كروية قائمة على أربع حطات من المقرنصات الشائعة فى مبانى المماليك . ويتوســط الواجهـــة فيما بين عتب الباب والمقرنصات تربيعة من الفسيفساء تتوسطها جامة تحتشد حولها تكوينات هندسية من فروع متقاطعة ومجدولة تتخللها زهرة الزنبق . وعتب البـــاب مؤلف من سنجات متعاشقة على شكل زهرة الزنبق ، يتناوب فيهـــا اللونان الأبيض والأسود ، على مثال سنجات سائر الآثار المملوكية بطرابلس . أما المئذنة فتعتبر من أفخم مآذن طرابلس فى عصر المماليك ، فهى برج مربع الشكل يدور حوله عند منتصفه افريز أفقى بارز ومسطح ، وتنتهى المئذنة من أعلى بشرفة مكعبة الشكل بارزة عن بناء برج المئذنة ، وترتكز هذه الشرفة على صف من المقرنصات الجميلة ، القائســـة على أربعة أعمـــدة فى الأركان ، تيجانها من النوع الاسلامى المقرنص ، ويتوسط كل وجه من وجوه الشرفة

---

(٣٠) Sobernheim, p. 105

(٣١) محمد كرد على ، ج ٦ ص ٥٤

العليـا نافذة مزدوجة يقوم عقداها على عمود مركزى مشترك • ويتوج هـذا الطابق جوسق مثمن الشكل يكتنفه فى الأركان الأربعـة قبيبات زخرفية جميلة ، وينتهى الجوسق من أعلاه بغطاء مخروطى •

وعلى الجدار الواقع الى يمين فتحة الباب نقش كتابى مسجل فيـه مرسوم أصدره السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢١ هـ •

٥ — مسجد الدباغين :

هو مسجد صغير يقع على الضفة اليسرى من نهـر أبى على بجوار الجسر الجديد ، ويتميز هذا المسجد بمئذنته المثمنة التى تنتهى من أعلى بالطابق المربع البارز ، وبقبته المضلعة • ويعلو مدخل هذا المسجد لوحتان من الحجر عليهما نقش كتابى عبارة عن مرسوم صادر من السلطان الملك الأشرف قايتبـاى فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٨٨٢ هـ ، وذلك عند زيارته لمدينة طرابلس قادما من بعلبك ، يأمر فيـه بابطال المكوس المفروضة على جماعة الدباغين «٣٢» ولقد جدد بناء هذا المسجد فى سنة ٩١٢ هـ على يد ابن يوسف شيخ الدباغين بطرابلس فى سلطنة الأشرف قانصوه الغورى •

٦ — زاوية ارغون شـاه :

يطلق عليهـا أهـل طرابلس زاوية الغنشا ، وتقع قريبا من المدرسة

---

(٣٢) Sobernheim, p. 131

السقرقية والخاتونية فى الطرف الغربى من طرابلس ، على الطريق المؤدية الى جبانة باب الرمل «٣٣» . ولا نعرف تاريخ بناء هذا المسجد على وجه الدقة ، ولكن أسلوب البنـاء يدل على أنه أقيم قرب نهـاية عصر دولة المماليك الشراكسة ، أى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ونلاحظ فى مئذنة هـذا المسجد بدء ظهور التأثيرات التركية ، فهى مئذنة أسطوانية الشكل تنتهى فى أعلاها بست حطات من المقرنصات تحمل شرفة ذات عشرة ضلوع تزدان بزخارف هندسية وتوريقات رائعة ، وتختلف كل حشوة عن غيرها فى هـذه الضلوع العشرة للشرفة . وعلى مدخـل هذا المسجد نقش كتابى يتضمن مرسوما صـادرا من السلطان قايتباى فى ١٥ جمـادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ (١١ أكتوبر سنة ١٤٧٥ م) فى نيابة أزدمر الأشرفى يأمر فيه بحماية زراع أراضى الوقف للمسجد المذكور وتسليمها الى السيد نور الدين الأدهمى الحسينى . وقد جدد بناء هذا المسجد بعد أن تهدم الجانب الجنوبى منه ، ولكن هـذا التجديد لم يمس الواجهـة الشرقية على الاطلاق .

٧ — مسجد الاويسة

يقع بالقرب من مسجد عبـد الواحد المـكناسى ، بناه وفقا لوقفية

---

(٣٣) محمد كرد على ج ٦ ص ٥٣

الجـامع محيي الدين الأويسي في سنة ٨٦٥ «٣٤» هـ ، ويتميز هذا الجامع بقبته الوسطى الكبرى التي تمهـد لظهور القباب التركية • وبأعلى مئذنة هذا المسجد نقش كتابي نستدل منه على أن المسجد المذكور جدد في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني في سنة ٩٤١ هـ على يدي رجل يدعى حيدرة «٣٥» •

(٣٤) محمد كرد علي ، ج ٦ ص ٥٤

(٣٥) الى جانب المساجد المذكورة يوجد عدد كبير من المساجد التي أقيمت في أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة ، وأهمها مسـجد التوبة الملاصق للجسر الجديد القائم على نهر أبي علي ، وقد أقيم هذا المسجد في عصر دولة المماليك ، اذ أن نظام بنائه يشبه نظام بناء جامع طرابلس الكبير وقد تهدم بناء هذا المسجد على أثر الفيضان العظيم في ١٦ ذي القعدة سنة ١٠٢٠ هـ ، فجدد في عهـد السلطان العثماني أحمد الأول في سنة ١٠٢١ هـ ، ويمتاز مسجد التوبة بقبته المفصصة وبكتاباته الأثرية التي ترجع الى عهـد المؤيد شيخ المحمودي • ومن مساجد طرابلس أيضا مسجد الطحام الذي أقيم في محلة بوابة الحـدادين في سنـة ٩٦٧ هـ على يدي محمود بن لطفي الزعيم ، في سلطنة سليمان القانوني

(٢)

المــــدارس والخــانقاه

١ ــ المدرسة القرطائية :

تعتبر مدينة طرابلس المدينة الوحيدة فى لبنان التى تحتفظ بعدد هائل من آثار المدارس المملوكية ، وقد وصل الينا الكثير منها فى حالة ممتــازة من الحفظ ولكن بعضها قــد تخرب وتهدمت أجزاء منها . ونقتصر هنا على دراسة أمثلة من هذه المدارس .

يحيط بالجامع المنصورى الكبير عدد من المدارس لا يقل عن ست، أهمها وأجملهــا على الاطلاق المدرسة القرطائيـــة ، أما الخمسة الاخرى فمجتمعة حول البوابة الشمالية للجامع المذكور باستثناء المدرسة النورية التى تقع على مسافة قصيرة شرقى الجامع .

وتعتبر المدرســـة القرطائية أجمــل آثار طرابلس وأفخمها جميعا ، وتقع لصق الجامع الكبير من الجهــة الجنوبية الشرقية ، وينسب بناؤها الى الأمير سيف الدين قرطاى بن عبــد الله النــاصرى ، الذى أقام منبر الجامع الكبير فى سنة ٧٢٦ هـ على الرغم من اختفاء الكتابة التاريخية التى كانت محفورة على جدارها القبلى «(١)» . وينكر الاستاذ سوبرنهايم وجود

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٦ ص ١٢٨

آثار لهذه المدرسة الوقت الحاضر فيقول :

«(٢) (L'école qu'il y a fondée n'existe plus) ، ويسمى البناء القائم لصق الجدار الشرقى المجامع المنصورى بالمدرسة الشمسية«(٣)»، ويخلط بين هـذه المدرسة والمدرسة القرطائية ، اذ ينسب الى المدرسة الشمسية المنشورات والمراسيم المنقوشة على الجدار القبلى للمدرسة القرطائيـة .

والواقع أن المدرسة المسماة بالشمسية هى التى تقع الى يسار الداخل الى المسجد الكبير ، وتعتبر من ملحقات هذا الجامع ، وان كانت قد أقيمت ضريحا لمنشئها شمس الدين المولوى ، سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٩م) تقريبا ، ولهذه المدرسة منظرة تطل على المدخل الى الجامع المنصورى الكبير ، يعلوها عقد ذو وسائد متصلة ، وقد رأينا مثل هذا العقد فى مئذنة جامع سيف الدين طينال بطرابلس ، وفى مصر نماذج من هذه العقود نراها ممثلة فى أحد عقود بوابة الفتوح بالقاهرة وفى عقد مدخل مسجد الظاهر بيبرس وفى عقد مدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير وفى نافذة مئذنة سنجر الجاولى كما نجدها أيضا فى أحد العقود المنسوبة الى الظاهر بيبرس بقلعة

---

(٢) Sobernheim, op. cit. p. 55

(٣) Ibid. p. 61 - 62

صيدا البحرية • وهناك من الأثريين من يرجع هـذا النوع من العقود الى الصليبيين «٤» ، وهو افتراء واضح •

ومدخل هـذه المدرسة الشمسية سد بالبناء واتخذت فيها مخازن ومرافق اخرى ، ولم يتبق من واجهتها سوى النافذة المعقودة ذات الوسائد التى تحدثنا عنها •

ونعود مرة ثانية الى الحديث عن المدرسة القرطائية ، وبوابتها تعتبر من أروع أمثلة البوابات المملوكيـة ، اذ تنطق خطوطها بما تتميز به من جمال ودقة لا نظير لهما ، فهى حلقة متصلة متزنة الأجزاء ، وتعبر عن ايقاع وتوازن • ويتوسط عتب الباب لوحة عليهـا تقش كتابى نصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، ان المتقين فى جنات وعيون ، أدخلوها بسـلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) «٥» •

ويعلو هذا الباب عقد مخفف للضغط تتعاشق فيه سنجات من الرخام سوداء وبيضاء على التعاقب • ويعلو هـذا العقد تربيعة من الفسيفساء تتوسطها جامة سوداء تخرج منها أشرطة أربعة مجدولة ، تمتد حول التربيعة

---

(٤) تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ص ١٥ ، Bruce Condé op. cit. p. 34 , 49

(٥) لم يرد هذا النص بين النصوص التى نشرها سوبرنهايم فى كتابه عن نقوش طرابلس •

ثم يعلو ذلك ثلاثة طوابق من المقرنصــات ، تنتهى من أعلى بجوفة نصف كروية عقــدها منكسر ، يحيط بها عقد بارز يدور به صفان من دالات متصلة على شكل زجزاج . وعلى جانبى المدخل عســودان يعتقد الأستاذ بروس كندى أنهما من النوع "الأفرنجى "(٦) . وينفتح فى الجدار الشمالى للمدرسة نوافذ ، تكسوها زخارف متشابكة . أما محراب المدرسة فينطق بوضوح عن الفكرة الزخرفية والهندسية التى طبقها المهندس ، اذ يعبر عن تناسق تام فى تكوين العناصر الزخرفــة بما يحتويه من فسيفساء ملونة . ويكسو النصف الأدنى من جدار المحراب وزرات من الرخــام الملون ، وأرضية المدرسة من الفسيفساء الملون تؤلف تكوينات هندسيــة رائعة تشبه الى حد كبير الفسيفساء التى تكســو صحن جامع السلطان حسن بالقاهرة وغيره من المساجد والمدارس المملوكية .

وتنقسم المدرسة من حيث التصميم الى قسمين : الرواق الشــمالى وأرضيته أقل ارتفاعا من أرضية المصلى . ويتوسط هذا الرواق الشمالى حوض مربع ، يقابل مدخل المدرسة ، بداخله نافورة . ويحيط بالحوض قناة تجرى فيها المياه الجارية من الحوض ، وبأعلى هــذا الحوض قبة . أما الرواق الآخر فتعلوه أمام المحراب قبة قائمة على مقرنصات مثلثة ، وتنفتح فى الجدار القبلى أربع نوافذ مشبكة ، عتب كل منها من الخارج يحتوى

---

(٦) Bruce Condé, op cir. p. 38

على ثلاث لوحات . تحتشد فيهـا زخارف هندسية بارزة بروزا طفيفا ، ويعلو الأعتاب عقود مخففه للضغط سنجاتها متعاشقة سوداء وبيضاء على التعاقب ، وطبلات هده العقود تزخر بالكتابات القرآنية • وتتصل المدرسة القرطائية بالجامع الكبير عن طريق قنطرة سقفها معقود بقبوات متعارضة . ويعلو مدخل الباب المؤدى للجامع نافذتان مرتفعتان وظيفتهـما ادخال الضوء الى الطريق الضيق الواقع خلف المدرسة • ويزدان الجدار القبلى للمدرسة بمراسيم سلطانية محفورة فى لوحات مرصعة فى الجدران ، أولها نقش كتابى يقع بين النافذة الاولى والثانية من هذا الجدار ، وهو عبارة عن مرسوم أصدره الأشرف برسباى فى مستهل رمضان سنة ٨٢٦ هـ يأمر فيه بابطال المكوس الخاصة بخيل البريد • والمنشور الثانى منقوش على لوح حجرى يرصع جدار بيت حديث البناء ، قبالة مدخل الجامع من الجهة الشرقية ، وهو مرسوم صادر من ديوان الجيوش بتاريخ مستهل شعبان ٨٥١ هـ ، بابطال الضرائب المفروضة على الثياب والدخان • وهنـاك غير هذين النقشين نقوش أخـرى كثيرة يكتظ بهـا الجدار القبلى للمدرسة القرطائية ، نشرها الأستاذ سوبرنهايم «٧» •

٢ — المدارس المحيطة بالجامع :

ذكرنا فيما سبق أنه يحيط بالجامع المنصورى ست مدارس ، وقـد

---

(٧) Sobernheim op. cit. p. 62 69

تحدثنا عن مدرستين احداهما القرطائيه والثانية الشمسية • والمدرســة الثالثة تقع الى يمين الداخل الى الجامع المنصــورى من جهــة الشمال ، وهى مدرسه مجهولة الاسم ولكن أسلوب بنائها يبين أنهــا من مدارس عصر دولة المســاليك الشراكسة ، وواجهة المدخل عبارة عن قطاع فسيح مجوف على شكل مستطيل ينتهى من اعلى بجوفه مقوسة مكسوة بالفسيفساء الرخاميــة الملونة ، وتزدان بزخرفة هندسيــة أساسها نجمــة ذات عشرة رؤوس ، تتشعع من رؤوسها خطوط متقاطعة فيما بينهــا ، وهذه الجوفة تشبه الجوفات التى تعلو محاريب المساجد المملوكيه • وتقوم هده الجوفة على مقرنصات غاية فى الروعة والجمال ، ويعلو البــوابة افريز أفقى من دالات متصلة على شكل زجزاج بارز يحيط بها من أعلى ، ثم يدور على جانبى البوابة الى أن يصل الى الارض • ويسود الواجهــة مظهر زخرفى بسيط ناشىء من تناوب المداميك السوداء مع المداميك البيضاء «[٨]» •

ومن بين المدارس الثلاثة الاخرى المحيطة بالجامع الـكبير مدرستان تقعان قبالة الباب الشمالى للجامع المنصورى على الصف الأيسر من الطريق، الشرقية منهما هى المدرسة الناصرية ، وهى مدرسة صغيرة نسبيا ، وبوابتها قطاع مستطيل مفرغ فى الجدار ، ينتهى من أعلى بجوفة مقوســة نصف كروية عاطلة من الزخرفة ، تقوم على صف من المقرنصــات ، تحته دائرة

---

(٨) Bruce Condé, op. cit p. 44

مستديرة بداخلها نقش كتابى نصه (عز لمولانا السلطان الملك الناصر) ، وتزدان الواجهـة بافريز بارز من الدالات المتصـلة كما تزدان بالمداميك الملونه وتاريخ بنـاء هـذه المدرسـة يتراوح بين عامى ٦٩٣ و ٧٤١ هـ (١٢٩٣ — ١٣٤٠ م) •

أما المدرسـة المجاورة لها من الغرب فهى المعروفة بمدرسة الخيرية حسن ، وقد أخطأ سوبرنهايم فى تحديد موقعها على خريطته «(٩)» • ويرجع تاريخ بنائها الى أوائل القرن الثامن الهجرى (بعد سنة ٧٠٩ هـ) • وبوابتها عبارة عن قطاع مستطيل الشـكل مجوف ، ينتهى من أعلى بعقد منكسر يتناوب فى سنجاته المتعاشقة اللون الأبيض والأسود • ويحيط بالبوابةمن أعلى ومن الجانبين حتى مستوى الأرض افريز من الزخرفة على شـكل مقرنصـات مسطحة متصلة ، ويتوسط كل من الجدار الأيمن والأيسر للبوابة نافذتان ، عقـداهما نصف دائريان ، يتناوب فى سنجاتهما اللونان التقليديان الأبيض والأسود، ويتوسط البوابة ، بين العقد والباب ، لوحة مربعة مسجل عليها وقفية نصها (بسم الله الرحمن الرحيم ، وقفت جهـة المرحوم قطلو المصبنة والمعصرة والربع فوق المعصرة وخمس قراريطوربع بطاحون الداودية والسندمرية ، بأرض كفر قاهل ، والبستان ظاهرطرابلس وثلاث قراريط ونصف بسوق أسندمر ، وثلث الدير يعرف بأرض أصنون،

---

(٩) Sobernheim, op cit, p 37

ومسكبة زيتون والقاعة والبحرة والطبقة جوار المدرسة ونصف طاحون الجديدة بعردات ، وكرم زيتون فى بطرام ، وطبقـة ومخزن بقيسـارية الأفرنج) «(١٠)» .

أما المدرسة السادسة من مجمـوعة مدارس الجامع فهى المدرسـة النورية ، وتقع شرقى المدرسة الناصرية على الناصية الأخرى من الشارع المؤدى الى السـوق الرئيسى بطرابلس ، أسسـها نائب طرابلس الأمير نور الدين سنة ٧٣٣ هـ وبوابة هذه المدرسة من أجمل بوابات المدارس المسلوكية فى طرابلس .

٣ ـ جامع ومدرسة البرطاسى :

تقع على الضفة اليسرى من نهر أبى على بالقرب من الجسر العتيق ، واسم منشىء هذه المدرسة مسجل على شريط من الكتابة النسخية يقطع واجهـة المدرسة أفقيا ، على ارتفاع ثلاثة أمتـار ونصف . ويمتد هذا الشريط فى مدماك قائم بذاته من يمين القطاع المجوف للبوابة الى يساره . ونقرأ فى هذا الشريط النص الآتى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسى عفا الله عنه ، على المشتغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشـافعى ، واقامة

---

(١٠) المرجع السابق ص ١٣٦

الجمع والصلوات المكتوبة . وشرط أن لايرسم فيها على أحد ولا يسكنه من لا له الحق فى ذلك) »[١١] . وأما تاريخ الانشاء فلم يرد ذكره ، ويظهر من أسلوب بنائها وزخارفها أنها أقيمت فى أواخر عصر دولة المماليك البحريه .

وأهم ما يميز به هذا الجامع واجهته المبنية بحجارة داكنة اللون ، والجوفة العليا القائمة على المقرنصات والتى تعد من أجمل ما أبدعه الفنانون فى عصر المماليك . ونلاحظ التشابه الكبير بين هذه الواجهة وواجهة المدرسة القرطائية . ويعلو العتب أربع حشوات من الزخرفة الهندسية القائمة على الخطوط المتقاطعة فى زوايا قائمه . ويبدو أن المدرسة كانت قد تعرضت لأضرار جسيمة بسبب سيل جارف حدث فى سنة ١٩٥٥ وطغى على طابقها الثانى : وقد قامت ادارة الآثار اللبنانية بترميمها تحت اشراف الأمير موريس شهاب . وتمتاز المدرسة بقبابها الثلاثة نصف الكروية ، وأهمها القبة الوسطى القائمة على جوفات مثلثة تغطيها ست حطات من المقرنصات . ويغلب على الظن أن هذه القبة أضيفت فى أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة لشبهها الكبير بالقباب العثمانية . ومحراب الجامع يعتبر أجمل محاريب المدارس المملوكية فى لبنان على الاطلاق ، اذ تكسوه فسيفساء مذهبة قائمة على تكوينات زخرفية من العناصر

---

(١١) نفس المرجع ص ١٣٨

النباتية والهندسية ذات لون فيروزى على أرضية مذهبة «١٢» تمثل كأسا تنبت منه فروع نباتية ، والمئذنة مربعة الشكل شأنها فى ذلك شأن المآذن الطرابلسية التى ترجع الى عصر المماليك • وتزدان واجهتها الغربية بنافذة توأمية ذات عقدين متجاوزين منكسرين عند الرأس ، يستند جانبهما المشترك على منكب قائم على عمود صغير ، وتتناوب فى هذين العقدين السنجات البيضاء والسوداء ، ويذكرنا هذان العقدان بالعقود الخلافية بقرطبة وطليطلة • ويحيط بالعقدين اطار مستطيل يحصر النافذة فى نطاق غائر • ويغلب على الظن أن مهندس هذه المئذنة أندلسى الأصل ، هاجر من مسقط رأسه الى طرابلس وساهم فى بناء آثارها ، وسجل أصله الأندلسى المغربى على زخرفة هذين العقدين التوأمين ، اذ جمع فيهما بين التقاليد الأموية الأندلسية الشائعة فى الأندلس وهى العقود المتجاوزة التى تشبه حدوة الفرس والتى تتناوب فيها السنجات الملونة ، وبين التقاليد المغربية الشائعة فى الطراز الموحدى ، وقوامها العقود المتجاوزة المنكسرة والنوافذ التوءمية التى تحيط بها طرز مستطيلة غائرة فى البناء • والواقع أن عصر المماليك هو العصر الذى تسربت فيه التأثيرات الأندلسية الى مصر والشام ذلك لأنه العصر الذى توثقت فيه عرى الصداقة بين دولة المماليك فى مصر ودول أسبانيا المسيحية ، على أثر انتصار المماليك على التتار فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، وانتصار الاشرف خليل على بقايا الصليبيين فى الشام وطرده لهم منها الى قبرص ورودس ، وقد أكسب هذان

---

(١٢) Bruce Condé, op. cit. p. 124

الانتصاران سلاطين مصر هيبة دول أوربا واسبانيا بالذات ، وهنا بدأت الصداقة بين مصر وأسبانيا تعمل عملها ، فقد تبادلت الدولتان السفارات والرسائل الودية والهدايا السنية . كذلك كانت العلاقة طيبة بين ملوك بنى الأحمر بغرناطة وسلاطين مصر ، وكان من نتائج ذلك أن زار بلاد الشام ومصر عدد كبير من أهل غرناطة سواء للتعلم أو للتدريس ، وقد أقام فيها من طابت له الاقامة ، ومن أمثال هؤلاء عبد الواحد المكناسى الذى أقام مسجدا بطرابلس (*)، وسيدى أحمد بن عمر أبو العباس المرسى نزيل الاسكندرية وغيرهما . وكان لهذه العلاقات أثرها الكبير فى نفاذ التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية والشامية فى عصر المماليك «[13]». وسنرى فى طرابلس تأثيرا أندلسيا ثالثا فى المدرسة المعروفة بالطويشية .

ويتألف الجامع فى الداخل من اسكوبين ممتدين بحذاء جدار القبلة ينقسمان الى ثلاثة بلاطات عمودية على هذا الجدار ، البلاط الاوسط منها أكثر اتساعا . وينقسم هذا البلاط الاوسط الى قسمين مربعين : الشمالى

(*) راجع ترجمة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عمر أبو العباس المرسى فى البحث الممتاز الذى كتبه المؤرخ الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيال فى كتاب « أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى » القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٩١ — ٢١٣

(١٣) أنظر مقالى : بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٨٨ — ٩٩ وكتابى : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٩-٣١

تشغله نافورة مثمنة مفصصة تعلوها قبة على مقرنصات مثلثة ذات حطات ستة، يعلوها صف مثمن من عقود نصف دائرية مدببة ولها نافذتان توءمتان بأعلاهما فتحة مستديرة ثم عنق من ١٦ نافذة . أما القبة الجنوبية فأمام المحراب وهي أصغر نوعا ما من القبة الأولى . وتقوم على جوفات مقوسة نصف كروية . أما المحراب فيعلوه منور مستدير .

٤ — المدرسة الزريقية :

تقع على الضفة اليمنى من نهر قاديشا ، في محلة السويقة داخل طرابلس ، وتعتبر أقدم مدارس طرابلس اذ انشأها الأمير عز الدين أيبك الموصلى لتكون مسجدا سنة ٦٩٧ هـ (١٢٨٨ م) وتاريخ الانشاء مسجل على لوحة في جدار المدرسة الواقع على يمين المدخل ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا المسجد المبارك ، الفقير الى الله أيبك الموصلى . عفا الله عنه في تاريخ عشرين جمادى الآخر سنة سبع وتسعين وستمائة) . وأيبك «١٤» المذكور تولى نيابة طرابلس من ٦٩٤ هـ الى تاريخ وفاته سنة ٦٩٨ هـ . ثم أضيف الى هذا المسجد مصلى صغير المساحة سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٨ م) أسسه سيف الدين كرتاى وسجل هذا الانشاء على طبلة عقد المدخل بأعلى عتب الباب مباشرة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه الزاوية المباركة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين كرتاى السيفى ، وذلك في تاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة)، ونلاحظ أن عتب الباب

---

(١٤) Sobernheim, op cit. p. 83

يزدان بثلاث حشوات مكسوة بتكوينات هندسية ، الحشــوة الوسطى أصغر من الحشوتين الأخرتين، وبوابة المدرسة الزريقية قطاع مستطيل مجوف ينتهى من أعلى بجوفة نصف كروية قائمة على مقرنصين مثلثين ، وعقــد البوابة يندمج منبتاه فى مداميك عضادتى البــوابة ، وهى عاطلة تماما من الزخرفة باستثنــاء زخرفة عتب الباب • ويزعم الأستاذ بروس كندى أن

هذه البوابة صليبية الطراز «(١٥)» •

٥ ــ المدرسة السقرقية :

وتقع فى طرف المدينة الجنوبى الغربى المؤدى الى جبانة باب الرمل بالقرب من مسجد أرغون شاه بنــاها الأمير سيف الدين أقطرق ، حاجب نيابة طرابلس لتكون مسجدا وضريحا سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) • وتاريخ انشاء المدرسة مسجل على جــدار واجهتها الجنوبية الشرقية فى شريط يمتد على كل من جانبى البــوابة ويتضمن هــذا الشريط الكتابى تاريخ البناء ، والعقارات الموقوفة عليها ، ونلاحظ أنه يتوسط كل زوج من نوافذ الواجهة تحت صف الكتابة مباشرة رنك المنشىء وهو عبــارة عن دائرة يتوسطها حزام أفقى بداخله سيف يتجه من أعلى الجانب الأيسر الى أدنى الجانب الأيمن • وتكسو عتبات النوافذ زخارف هندسية من النوع الشائع فى العصر التركى • ويعلو الضريح قبة مضلعة غاية فى الجمال ، تقوم على رقبة مثمنة قائمة بدورها على قاعة مربعة فى أركانها جوفات مقوسة مزينة بزخارف نباتية قوامها المراوح النخيلية ، ويتدلى تحت كل جوفة مقرنصات من ثلاث حطات •

---

(١٥) Bruce Conde op. cit. p. 118

٦ ـ المدرسة الخاتونية :

تقع وجهــا لوجه أمام المدرســة السقرقية ، بنتــها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين أيدمر الأشرفى نائب طرابلس سنة ٧٧٥ هـ«[١٦]» . وتاريخ انشاء هذه المدرسة وأسماء العقارات الموقوفة وشروط السيــدة الواقفة مسجلة جميعــا بأعلى المدخل ، ونص النقش ما يلى : (بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد أنشأ هذا المكان المبارك مولانا المقر الأشرفى العالى المولوى المخدومى الكافلى العزى أيدمر الأشرفى ملك الأمراء أعز الله أنصاره فى شركة آدره الكريمة الجهة ، المصونة ، أرغون تغمدها الله برحمته حسب وصيتها المتقدمة ..) ويلى ذلك الوقفية وتاريخها ٢٣ شعبان سنة ٧٧٣ ثم اسم متولى البنــاء الأمير جمــال الدين يوسف بن العزى غزان السيفى ، ثم تاريخ الفــراغ من البناء سنة ٧٧٥ هـ «[١٧]» وعز الدين أيدمر المذكور هو أيدمر بن عبدالله الأنوكى الداوادار نائب طرابلس فيما بين ٧٧٣ هـ ، ٧٧٦ هـ . وعلى الرغم من تآكل كسوة جدران المدرسة فاننا نشاهد رنك الكأس على جانبى عتب النافذة .

٧ ـ المدرسة الظاهرية :

هى مدرسة صغيرة بباب الحديد جنوب غربى المدرسة البرطاسية ، وسميت بالظــاهرية لأن الذى بنــاها هو الأمير سيف الدين تغرى برمش

---

(١٦) خطط الشام ج ٦ ص ١٢٩

(١٧) Sobernheim, p. 116

الظاهرى بن أحمد البهنسى التركمانى الأمير آخور الكبير فى عهد السلطان الظاهر برقوق لدفن ولديه سنة ٧٧٩ هـ (١٣٩٦ م) • ومدخل المدرسة مسدود اليوم ، ولكن الواجهة بكتابتها النسخية ماتزال ظاهرة • وتاريخ انشاء المدرسة مسجل على عتب المدخل فى خمسة أسطر من الكتابة النسخية ، ونص الكتابة ما يلى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا • قوله الحق وله الملك • عمر هذا المكان المبارك المقر السيفى تغرى برمش الظاهرى أعز الله أنصاره مسجدا لله تعالى وتربة لدفن ولديه الأخوين الشقيقين السعيدين الشهيدين سيدى الأمير قانتمر وسيدى أمير تغرى بردى الطفلين المنغصين «١٨» على الدنيا ، المتحابين فى دار الدنيا ، والمجاور«١٩» والمجاورين فى دار الآخرة تغمدهما الله برحمته ، وأسكنهما فسيح جنته ، وجمع بينهما وبين والديهما فى دار كرامة ، وذلك فى ثالث شهر الله المحرم سنة تسع وتسعين وسبعمائة • رحم الله من ترحم عليهما) «٢٠» ونلاحظ فى أول السطر الخامس نقش يمثل رنك الساقى وهو عبارة عن صورة كأسين محفورين فى ثلثى الرنك •

وبالمدرسة محراب ، الجزء الأدنى من جوفته مغطى بأشرطة رأسية

---

(١٨) قرأها سوبرنهايم « المتعصبين » •

(١٩) كلمة زائدة لم يكملها الخطاط لانتهاء السطر فأعاد كتابتها فى السطر الجديد •

(٢٠) Sobernheim, op. cit p. 122

من الرخام الملون بينما تكسو الحنية العليا زخرفة من الفسيفساء قوامهـا الفروع المتداخلة •

ويمكننا أن نميز فيها اللون الأحمر والأبيض والفيروزى والأسـود ويقوم عقد المحراب على عمودين ، يزدان بدناهما بقنوات معصورة •

٨ ـ المدرسة الطويشية :

تقع بالقرب من منطقة الجامع الكبير ، وتشتمل على ضريح مؤسسها الأمير سيف الدين الطويشى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧١ م) • وتمتاز هذه المدرسة بظاهرتين :

١ ـ البوابة الرائعة التى تعرض مثالا من أروع أمثلة المقرنصـات المملوكية ، وبأعلاها جوفة نصف كروية على شكل محارة تحتشد فيهـا زخرفة مشععة فى أربع مجموعات • وعقـد البوابة من النوع المفصص بفصوص نصف دائرية وأخرى مثلثة صغيرة على التعاقب ، على النحو الذى نشاهده فى العقود الأندلسية المغربية فى عصر الموحدين ، مما يجعلنا نرجح تسلل بعض التأثيرات المغربية الاندلسية الى عمائر المماليك فى بلاد الشـام •

ويحيط بالبوابة اطار بارز على شكل مستطيل يتوج أعلى العقد ، ثم يمتد طرفاه أفقيا بطول جدار الواجهة يمينا ويسارا •

٢ ـ النافذة ذات العقد المزدوج بالطابق الثانى (على يسار الواجهة) ، فعقدا هـذه النافذة مفصصان ينتهيان من أعلى بجوفتين نصف كرويتين تكسوهما زخرفة على شكل محارة ، ويحيط بهما اطار مستطيل الشكل . ويرتكز العقدان من الجانبين على عمودين بهما قنوات معصورة ويذكرنا العقدان بالعقود الأندلسية .

أما قبة الضريح فهى مفصصة (متعددة الفصوص) ، يتناوب فى محيط قاعدتها الفصوص نصف الدائرية والفصوص المثلثة .

٩ ـ المدرسة العجمية :

تقع بالقرب من قلعة صنجيل ، أسسها هى والتربة الملحقة بها الحاج شمس الدين محمد السكر فى رمضان سنة ٧٦٦ هـ . واسم هذا الرجل نراه مسجلا على منبر بمدينة دمياط سنة ٧٧١ هـ . وتاريخ المدرسة العجمية مسجل على عتب مدخلها ، ونصه : (أمر بانشاء هذه التربة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى محمد السكر عفا الله عنه . وكان الفراغ منها فى مستهل رمضان سنة ست وستين وسبعمائة) .

وهناك مدارس أخرى فى طرابلس عديده ، بعضها مجهول الاسم والتاريخ وبعضها الآخر متخرب والبعض منها من عصور متأخرة ، نخص بالذكر منها : المدرسة القادرية والمدرسة الرفاعية والمدرسة العمرية ومدرسة الشيخ الوطار الى آخر ذلك .

١٠ — الخانقاه :

ويمكننا أن نضيف الى هذه المدارس خانقاه من عصر دولة المماليك الشراكسة يرجع تاريخ بنائها الى سنة ١٤٦٧ م • ومن المعروف أن عصر المماليك هو العصر الذى سادت فيه روح الجهاد ضد الصليبيين سواء فى الشام قبل أن يطردهم الأشرف خليل نهائيا منها وفى قبرص ورودس بعد ذلك ، وكانت الخانقاوات أبنية تجمع بين الناحية الدينية والحربية ، فهى نوع من الأربطة أقيمت للمتصوفين أو الشيوخ المحاربين يقيمون فيها قبل أن يسهموا فى الجهاد ، وقد كثرت الخانقاوات فى مصر المملوكية فمنها خانقاه قوصون التى أقيمت فى سنة ٧٣٦ هـ وخانقاه طوغاى المنشأة سنة ٧٤٩ هـ ، وخانقاه نظام الدين المقامة سنة ٧٥٧ هـ ؛ ولكن تخلف من هذه الخوانق ثلاث هى خانقاه بيبرس الجاشنكير (٧٠٦ — ٧٠٩ هـ) وخانقاه شيخو (٥٧٦ هـ) وخانقاه فرج بن برقوق بالصحراء • ونظام بناء الخانقاه يشبه نظام بناء المدرسة ؛ وخانقاه طرابلس التى أشرنا اليها وصلت الينا فى حالة سيئة من التشويه ، فقد تحولت اليوم قاعاتها وغرفها الى بيوت للاجئين ، ولم يتبق على حالته الأصلية منها سوى بعض جدرانها ومدخل الايوان القبلى ، وينفتح هذا الايوان على الصحن بعقد كبير نصف دائرى مطول تتناوب فى سنجاته قطع حجرية سوداء وبيضاء ، ويقوم العقد على منكبين يعتمدان على عمودين من الجرانيت تاجاهما اتخذا من بقايا الكنائس الصليبية المخربة • ويدور بالعقد من أعلى افريز بارز مسطح على شكل عقد مماثل •

(٣)

التحصينات البرية والبحرية

عندما استولى السلطان المنصور قلاوون على طرابلس المينا ، هدم أسوارها المنيعة وسواها بالأرض ، ونقل موضع طرابلس الى المحلة اللاتينية المسورة التى تبتدىء من جامع التوبة قرب جسر اللحامة ، وتضم سوق الحراج والملاحة وسوق البزركان وسوق الصاغة وسوق العطارين ثم ساحة الجامع الكبير بمدارسه ومحلة قبوة الطرطوسى تجاه بوابة الحدادين «[١]»

وكان يحيط بهذه المحلة سور من بناء الصليبيين يمتد محيطه من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، بامتداد نهر أبى على ، وكان ينفتح فيه أبواب : منها باب بيروت والباب الأحمر فى الجنوب الغربى من المدينة وباب المسلح بجوار الجسر العتيق ، ويبدو أن سور هذه المحلة أصيب بأضرار جسيمة أو تهدم بتأثير الزلازل أو بسبب حصار القوات المملوكية لطرابلس ، لأن ابن تغرى بردى يؤكد أن مدينة طرابلس التى أقامها

---

(١) الشيخ كامل البابا ، من آثار التاريخ الطرابلسى ، حديث بمجلة الارشاد الاجتماعى ، ص ٨.

قلاوون كانت بغير سور«٢» •ولعل قلاوون اكتفى بقلعة صنجيل وبالأبراج القائمة على الميناء للدفاع عن مدينته • ويذكر الشيخ كامل البابا أنه لم يتبق من سور طرابلس وأبوابها الا بقايا باب المسلخ فى سوق الحراج«٣» •

وأهم آثار طرابلس الحربية الباقية ، القلعة المعروفة بقلعة صنجيل، وأربع أبراج على الميناء •

١ ـ قلعة صنجيل :

تقع بأعلى تلة الحجاج ، حيث تشرف على طرابلس المملوكية الممتدة على نهر أبى على وطرابلس الميناء فى آن واحد ، وهو موقع رائع اختاره ريموند دى سان جيل لاقامة قاعدته العسكرية التى يشن منها هجومه المتواصل على طرابلس الميناء ، أو ليحاصر منها مدينة بنى عمار • وفى هذا المكان أقام حصنا تتحصن فيه قواته المعسكرة على التل ، وسخر سان جيل فى بناء هذه القلعة الأسرى المسلمين من أهل البلاد ، وكان من جملتهم الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى • وفى سنة ١١٠٩ م تسكن خلفه برترام دى طولوشة من التغلب على طرابلس بفضل مساعده الأسطول الجنوى وملك بيت المقدس •

---

(٢) ابن تغرى بردى ، ج ٧ ، ص ٣٢٢

(٣) الشيخ كامل البابا ، المرجع السابق ص ٩

وعندما سقطت طرابلس فى أيدى المماليك اكتسحها سيل من التخريب والتدمير ، فلم يبق من قلعة صنجيل سوى أسسها القديمة وبوابتها الخارجية والأنصاف السفلى من معظم سورها الشرقى المطل على نهر أبى على ، بأبراجه وبقايا الكنيسة الصليبية فيها ، وأصبحت القلعة مجرد خرائب وجدران دارسة . فلما شيدت مدينة طرابلس الجديدة فى المحلة اللاتينية ، لم يكن فى برنامج نواب السلطنة بطرابلس اقامة سور حولها اكتفاء ببقايا السور القديم ولوقوع طرابلس الجديدة بعيدة عن الغزو البحرى أدنى قلعة صنجيل . وهنا أصبح من الضرورى ترميم القلعة التعسة ، واعادة بنائها حتى تكون حصنا يحمى المدينة من جهة الجنوب فى فى الوقت الذى تركزت فيه بقايا القوى الصليبية فى رودس وقبرص ، وأصبحت تؤلف خطرا متواصلا يتهدد سواحل الشام ومصر .

ويبدو أن مهمة تجديد بناء القلعة ألقيت على عاتق الأمير سيف الدين أسندمر كرجى المنصورى نائب السلطنة بطرابلس فيما بين عامى ٧٠٠ ، ٧٠٩ هـ (١٣٠١ — ١٣٠٩ م) فقد ذكر النويرى أنه عمر فيما عمره بطرابلس « بعض القلعة ، وأقام أبراجا » «٤» ، واليه تنسب بوابة القلعة الحالية بعقدها الذى يتناوب فى سنجاته اللونان الأسود والأبيض على التعاقب ، كما ينسب اليه كثير من أسوارها وأبراجها «٥» . كذلك يشير المقريزى الى

---

(٤) نص النويرى عن Sobernheim ص ٤٧

(٥) Bruce Condé, op. cit. p. 22

أعمال أسندمر فيقول : « وفى سنة ٧٠٧ بنى الأمير أسندمر نائب طرابلس قلعـة مكان حصن صنجيل » «٦» • وقـد وصفها ابن الشحنة بقوله : « ولها قلعة ذات اشراف وحسن منظر ، يسكن فيها النائب •••• » «٧»•

ومدخل القلعة على شكل مرفق يصل الى باب ثان ، تعلوه لوحـة تذكارية سجل عليها بالخط النسخى منشور عسكرى صادر من السلطان الأشرف شعبان بن النـاصر محمد بتاريخ ٧٤٦ هـ يتضمن بيانا بالميزانية الحربية • ويبدو أن جانبا كبيرا من القلعة قد تخرب فى عصر دولة المماليك الشراكسة ، فرممت فى سـنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) بأمر السلطان سليمان القانونى بعـد زيارته للشام ، ثم عمرت بعض أجزاء منها بعد ذلك بنحو قرن فى عهد يوسف باشا سيفا ، ثم رممت أخيرا على يدى مصطفى آغا بربر الذى كان متسلما لطرابلس فى أيام الأمير الشهابى «٨» •

وبناء القلعة خليط من أساليب مختلفة منها الصليبى ومنها المملوكى ومنهـا العثمانى ، على أن الأجزاء الاسـلامية يمكن تمييزها بسهولة عن الأجزاء المسيحية ، ونلاحظ أن أغلب أبراج الجانب الشرقى يرجع الى عصر

---

(٦) السلوك ، ج ٢ قسم ١ ص ٤٠
(٧) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤
(٨) لورتة ، مشاهدات فى لبنان ، ص ١٣

الصليبيين ، وما زالت الحفائر تجرى اليوم — تحت اشراف بعثة أمريكية — بأرض القلعة لدراسة نظام بنائها دراسة علمية منظمة •

٢ — **أبراج المينـا :**

رأى نواب السلطنة بطرابلس فى عصر دولة المماليك البحرية ضرورة تحصين ميناء طرابلس وذلك بانشاء أبراج تمتـد على ساحل شبه جزيرة المينا ، لتأليف خط دفاعى قوى أمام أى اعتداء صليبى موجه من جزيرتى قبرص ورودس ، فى الوقت الذى لم يكن لطرابلس أسـطول ثابت يدفع عنها غارات القبارصة والروادسة • وكان تحصين مينـاء طرابلس الذى خربته عساكر المماليك وسوت مبانيه بالأرض يعنى انشاء مراكز دفاعية على الميناء على أبعاد متفاوتة ، ولم تكن هذه المراكز تزيد عن كونها أبراجا حصينة مزودة بالجند ومشحونة بالسلاح وآلات الحرب • ولا نعرف على وجـه الدقة تاريخ انشاء كل من هذه الأبراج ، وكل ما نعرفه فى هـذا السبيل أن طرابلس زودت بسبـعة أبراج لم يبق منها فى الوقت الحاضر سوى برجان فى حالة متوسطة وآثار برجين آخرين مهدمين ، ويمكننا مع ذلك تحديد مواقع هذه الأبراج السبعة على خريطة لطرابلس ، فقد كانت تمتد من مصب نهر أبى على شرقا الى رأس جزيرة المينا غربا ، ويمكننا أن نذكرها مرتبة كما يلى : برج الشيخ عفان ، وبرج السبـاع ، وبرج رأس

النهر ، وبرج المغاربة الذى يقال له أيضا برج عزالدين «٩» ، وبرج السراى او برج الديوان ، وقد سمى بالسراى لأنه أقيمت عليه سراى الديوان الجركى بطرابلس ، وبرج المشتى وبرج أبى العدس «١٠» • ولم يبق من هذه الأبراج السبعة سوى أبراج السباع ورأس النهر والشيخ عفان والسراى •

والى جنوب طرابلس ، وعلى بعد نحو كيلو مترين منها موضع يعرف بالبحصاص كان يقوم فيه برج يسمى ببرج البحصاص «١١» • وذكر السخاوى فى الضوء اللامع برجا فى طرابلس هو برج أيتمش البجاسى الشركسى أتابك العساكر فى أيام السلطان الملك الظاهر برقوق على ساحل طرابلس «١٢» ، ولعله هو نفس برج السباع الحالى أو برج طرابلس الذى هاجمه القبارصة ، وسنستعرض فيما يلى آثار الأبراج الباقية •

---

(٩) نفس المرجع ص ١٩ • ولعله أنشىء فى نيابة عز الدين أيبك الموصلى

(١٠) لعله حصن أبى العدس الذى ذكره الادريسى من بين أعمال طرابلس الصليبية • (الادريسى ص ١٧)

(١١) العمرى ، مخطوط ج ٢ قسم ٣ ، ص ٤٥٠ — ابن الشحنة ، ص ٢٦٦

(١٢) السخاوى ، (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٣٥ هـ ج ٢ ، ص ٣٢٤ — ابن تغرى بردى ، ج ١٢ ص ١٨١

برج السباع : هو أهم هــذه الأبراج جميعا ، لأنه ما يزال يحتفظ بصورته الأولى، كماأنه يعتبر من أجمل الأبنية الحربية التى وصلت الينا ، ويقع بين برج السراى وبرج رأس النهر • وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ بنائه ، فڤان برشم يميل الى جعل هذا التاريخ فى حدود سنة ١٤٠٠م (٨٠٢ هـ) على أساس أن عمارته وزخرفته يجمعان بين الحصانة والوثاقة اللتين تتجليان فى عــائر أسرة قلاوون ، وبين الرشــاقة والأناقة اللتين تنعكسان على آثار قايتبــاى ، وهو لذلك ينسب بنــاء البرج الى الأمير أيتمش البجاسى أتابك العساكر فى سلطنة الظاهر برقوق • ويعتمد ڤان برشم فيما ذهب اليه على نص لأبى المحاسن فى المنهــل ، وآخر للسخاوى فى الضوء ، فالأول يقول: « وعمر بطرابلس برجا على الساحل الملح لأجــل المرابطين ، ووضع فيه جملة مستكثرة من السلاح ، ووقف عليه أوقافا » • والثانى يقــول : « وهــو صــاحب البرج الذى بطرابلس على ســاحل البحــر » «[١٣]» •

أما سوڤاچيه فيرجح نسبــة برج السبــاع الى السلطان قايتبــاى لتشابهه الــكبير لقاعة استقبال السلطان قايتباى بأعلى قلعــة حلب التى ترجع الى سنة ١٤٧٥ م «[١٤]» • ويرى بروس كندى أن هذا البرج أقيم

---

(١٣) Van Berchem, p. 122

(١٤) J. Sauvaget, Notes sur la defense de la marine de Tripoli, dans Bulletin de la Musée de Beyrouth, Paris, Decembre 1938 .

فى أواخر القرن الثالث عشر أو بداية القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم جدد فى أواخر القرن الخامس عشر فى أيام قايتباى لمواجهة أى غزو قد يقوم به العثمانيون «١٥» . ويضيف الشيخ كامل البابا ، مؤرخ طرابلس الكبير، وأعظم خبرائها فى الحجج والوقفيات القديمة ، أن هذا البرج بنى فيما بين عامى ١٤٤١ ، ١٤٤٢ فى عهد الأمير جلبان نائب طرابلس ، على أنقاض برج قديم كان يعرف ببرج الصلاحى وأن الأمير جلبان وقف على مصالحه وعماراته والمرابطين فيه خمسة قرى منها : نصف قرية علما ونصف قرية كفرفو التابعة اليوم لزغرتا ، ونصف قرية بينو ، ونصف قرية الحصين من قضاء العلويين اليوم ، ونصف قرية القطين «١٦» .

ونعتقد أن برج السباع أنشىء فى طليعة القرن الرابع عشر الميلادى للتشابه الكبير بين بوابة البرج بعقدها وسنجاتها التى يتعاقب فيها اللونان الأبيض والأسود وبين بوابة قلعة صنجيل من جهة وبوابة مدرسة الخيرية حسن من جهة ثانية وكلتاهما من أوائل القرن الرابع عشر ، وقد ذكرنا فيما سبق أن بوابة قلعة صنجيل أقيمت فى سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧ م)

---

(١٥) Bruce Condé, op. cit. p. 137

(١٦) اكتشف الشيخ كامل البابا مخطوطة من عصر المماليك ترجع بناء هذا البرج كلية فى خلال العامين اللذين أشرنا اليهما . راجع الشيخ كامل البابا ، من آثار التاريخ الطرابلسى ، ص ٩

وأن الذى أمر ببنائها الأمير أسندمر كرجى نائب السلطنة بطرابلس ، أما مدرسة الخيرية حسن فقد أقيت هى الأخرى فى نفس هذا العام .

ولا نستبعد أن يكون أسندمر كرجى هـو منشىء برج السباع ، اذ نعتمد فى ذلك على نص ذكره سوبرنهايم نقلا عن النويرى جاء فيه : «فوضت نيابة السلطنة الى الأمير سيف الدين أسندمر كرجى المنصورى فاستمـر بها الى سنة تسع وسبعمائة ، وعمر بهـا حماما عظيما أجمع التجار ممن يجوب البلاد أنه ما عمر مثله فى بلد من البلدان ، وعمر قيسارية وطاحونا ... وعمر أيضا بعض القلعة ، وأقام أبراجا » «(١٧)» .

كل ذلك يساعدنا على ارجاع بناء برج السباع الى أسندمر كرجى، وهو أمر تؤكده ضرورة اقامة أبراج ضخمة على الساحل بعد تهديم طرابلس العتيقة . وليس من المعقـول أن تظل منطقة المينا بطرابلس بدون أبراج دفاعية حتى عصر قايتباى . ولعله كان يسمى يومئذ ببرج الصلاحى نسبة لصلاح الدين خليل . ونعتقد أن برج السباع وبرج أيتمش شىء واحد ، فبرج أيتمش البجاسى الناصرى الذى لعب دورا هاما فى الصراع القـائم بين الأمير ناصر الدين محمـد بهادر المؤمنى يشايعه أهل طرابلس وبين يونس بلطا الظاهرى نائب طرابلس ، الخارج على السلطان فرج برقوق فى

---

(١٧) نص النويرى عن سوبرنهايم ص ٤٧

سنة ٨٠٢ هـ ، والذى كان فى سيطرة ابن بهـادر ، لا نشك فى أنه كان أكبر أبراج المنطقة حتى يتخذ حصنا لأنصار ابن بهادر يتحصنون فيه الى حين عودته من مصر ومعه الملطفات ، ولا نشك أيضا فى أن برج أيتمش كان قائما قبل قيام هذه الفتنة بأمـد طويل حتى يصبح فى سنة ٨٠٢ هـ مسرحا للأحـداث التى أشرنا اليها ، وأما نسبته الى أيتمش البجاسى فأمر قـد يكون مرجعه أنه اتخذه مقرا له أو أنه قام فيـه بعمرة أو أضاف اليـه اضـافة .

ثم رمم البرج ترميما تاما فى عهد الأمير جلبان ، ونحن فى ذلك نؤيد الرأى الذى أبداه الشيخ كامل البابا .

وننتقل الآن الى وصف البرج : فهو عبارة عن برج ضخم مكعب الشكل على أساس مستطيل طوله ٢٨٫٥٠ مترا ، وعرضة ٢٠٫٥٠ مترا ، مشيد بالاحجار المسنمة بطريقة منسقة ، ويندمج فى سمك البناء أبدان من الأعمدة تظهر على سطح الجدران الخارجية بارزة بروزا طفيفا عن البناء ، ومدخل البرج فى الواجهة الغربية ، ونلاحظ أن البـوابة بعقدها ومدخلها تبرز قليلا عن بقية جدار الواجهة «١٨» . وتتميز البوابة بعقدها المنكسر الذى يتناوب فى سنجاته اللونان الأبيض والأسود ، ويمتد تناوب الألوان فى عضادتى العقد ، ثم يستمر فى داخـل القطاع المستطيل المجوف للبوابة

(١٨) Sauvaget, op. cit. p. 4

حتى فتحة الباب ، ويدور حول السنجات الملونة افريز بارز ، يلتقى مع الطرة المستطيلة العليا عند منبتى العقد • ويعلو الأطار المستطيل فوق رأسى العقدمباشرة جوفة مستطيلة يبدو أنها كانت تحدد موضع اللوحة الانشائية. وقد ضاعت هذه اللوحة فى الوقت الحاضر • ويعلو الباب عتب كبير عبارة عن لوحة واحدة سميكة من الحجر يعلوها عقد مخفف للضغط سنجاته متعاشقة •

وهناك ظاهرة نلاحظها فى هذا البرج كما نلاحظها فى أبراج قلعة صنجيل ، وهى ميل الجدران فى الجزء الأدنى من السور نحو الخارج ميلا واضحا ، ولهذا الميل وظيفة نفعية ، فهو يساعد على دفع الأحجار المتساقطة من أعلى الشرفات البارزة فى عنف نحو الأعداء • ويعلو بوابة البرج قرب سور المشى كوابيل كانت تدعم شرفات بارزة عددها خمسة • ومدخل البرج يؤدى الى قاعة واسعة يعلوها ست قبوات متعارضة ، تتكىء فى الوسط على دعيمتين مركزيتين تقعان فى نفس محور المدخل«[١٩]» ، ثم تتكىء فى الجوانب على دعائم ملتصقة بالجدران • وسقف القاعة قليل الارتفاع ، ونلاحظ أن جدار المدخل مزود على جانبى الباب بفتحتين صغيرتين ، احداهما تنتهى بمنفذين للسهام ، الأيمن منحرف ، والأيسر معتدل ، والفتحة الثانية تؤدى الى منفذ واحد للسهام ، وجدار الفتحة القبلى محفور على شكل محراب • ونلاحظ أيضا أن الجدار الشمالى به

---

(١٩) Ibid.

أربع منافذ للسهام ، والجدار الشرقى به أربعة ، أما الجدار الجنوبى فبه ستة .

ويتوسط القاعة بين الدعيستين فوهة بئر تتجمع فيه مياه الأمطار التى تصل اليه من السقف عن طريق قنوات فخارية بداخل البناء . وكانت هذه القاعة تزدان فيما مضى بحلية ملونة ، فان الافريز البارز الممتد ما بين الباب والدعيسة المقابلة له ، ما زال يحتفظ فى سنجاته بالمظهر الزخرفى البسيط الناشىء من تناوب اللونين الأبيض والأسود . وعلى الجدار القبلى للقاعة رنك مملوكى بين زخارف هندسية ، وهو رنك الكأس ، وعلى الجدار الغربى الذى ينفتح فيه الباب خمسة رنوك تمثل الكأس بعضها مرسوم باللون الأسود ، والبعض بألوان أخرى .

أما الدرج فيدور فى سمك جدار الواجهة الغربية ، ويؤدى الى الطابق العلوى ، ويذكرنا نظام هذا البرج بالنظام المعمارى المتبع فى سورية ، ويتألف الطابق العلوى من قاعة أكثر تعقيدا من القاعة السفلية ، فهى فسيحة متسقة تنفتح فى جدرانها ثمان جوفات عميقة تعلوها قبوات نصف اسطوانية ، وللبرج مسجد صغير به محراب ونافذتين ومنور علوى وخزانة لحفظ المصاحف .

وبرج السباع يعتبر من أهم الآثار الاسلامية بطرابلس ، وأجمل مثال لفن العمارة الحربية ، بما يتضمنه من عناصر معمارية وزخرفية متنوعة وموزعة جميعا فى ايقاع وتصميم متناسق .

برج الشيخ عفان : يلى برج السباع من ناحية الغرب ، وقد جدد هذا البرج تجديدا شوه معالمه الأثرية .

برج السراى او الديوان : أدمج هذا البرج فى مجموعة أبنية حكومية خاصة بالدرك اللبنانى ، الا أن هذه الأبنية نسفت فى حوادث ثورة ١٩٥٨ «٢٠» ، فعاد البرج الى الظهور من جديد ، وهو برج مربع الشكل ، يدعم جدرانه أبدان مندمجة فى داخل البناء على النحو الذى شاهدناه فى برج السباع ، ولم يتبق من هذا البرج سوى الطابق الأدنى ، وقاعته الداخلية تعلوها قبوات متعارضة تقوم على دعائم ملتصقة فى الجدران .

برج رأس النهر : يقع على بعد ١٢٠٠ مترا شرقى برج السباع على مقربة من مصب نهر أبى على ، وهذا البرج أصغر حجما بكثير من برج السباع وأقل ارتفاعا منه ، اذ يتألف من طابق واحد ، وهو على شكل مربع طول ضلعه ١٦ مترا ، ويختلف هذا البرج فى بنائه عن الأبراج الاخرى الواقعة على الساحل اذ يقوم فى أركانه الأربعة ركائز أسطوانية مندمجة فى البناء أشبه بأبراج صغيرة ملتصقة بزوايا البرج الكبير على نحو ما نشاهده فى قلعة حصن الأكراد ، وبالذات فى قلعة قايتباى بالاسكندرية . وجميع جدران البرج كسيت بحجارة مصقولة ، سطوحها ناعمة ، ولكن هذه الكسوة الرقيقة انتزعت من أجزاء كثيرة من هذا البرج ، خاصة من الركائز الركنية ومن الواجهتين الجنوبية والشرقية . ومدخل البرج باب منخفض

---

(٢٠) Bruce Condé, op. cit, p. 143

صغير ، ينفتح فى الواجهة الجنوبية ، وقد جرد تماما من عناصره الزخرفية، ويتعاقب فى مداميك هذا الباب اللونان الاسود والأبيض،ويؤدى الباب الى قاعة تعلوها أربع قبوات متعارضة ترتكز عند تلاقيها على دعيمة وسطى، بينما ترتكز فى الجوانب الاخرى على الجدران ، وتشبه قبوات برج رأس النهر نظائرها فى برج السباع • وفى الجدار القبلى من البرج جوفة صغيرة لمحراب ، وفى داخل سمك الجدار الشرقى درج يؤدى الى سطح البرج «٢١» •

أما تاريخ بناء هذا البرج فيرجع فيما يظهر الى عصر السلطان الاشرف قايتباى وذلك للتشابه الكبير بين هذا البرج المربع بركائزه الاسطوانية فى الأركان وبرج قايتباى الذى بناه فى الاسكندرية سنة ٨٨٢ هـ «٢٢» ويرجع سبب اهتمام قايتباى بتحصين طرابلس وغيرها من ثغور الساحل الشامى والساحل المصرى «٢٣» الى اضطراب العلاقات وتوترها بين دولة

---

(٢١) كان يعلو هـذا البرج بأعلى الممشى شرفات بارزة ، على نحو ما نشاهده فى برج قايتباى •

(٢٢) راجع كتابى تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصرالاسلامى ص ٩٢ — ٩٧ ؛ تخطيط الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى ص ١٠٧ — ١١٠

(٢٣) زود قايتباى الاسكندرية بطابية ، وأقام فى نفس العام طابية أخرى فى رشيد

المماليك والدولة العثمانية «٢٤» لدرجة حدوث مصادمات مسلحة بين الطرفين ، وأغلب الظن أن قايتباى أسس هذا البرج عند زيارته لمدينة طرابلس فى سنة ٨٨٢ هـ فى رحلته المشهورة الى بلاد الشام وأطراف دولة المماليك «٢٥» .

---

(٢٤) أحمد السيد دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، ص ٢٠٣ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ٩٧

(٢٥) ذكر ابن اياس أن السلطان قايتباى خرج فى جمادى الأولى سنة ٨٨٢ فى غفلة الى بلاد الشام ليتفقد تحصيناتها ويكشف على أمر النواب والقلاع بنفسه ، وقبل أن يصل الى حلب عرج فى طريقه الى طرابلس حيث أشرف على تحصيناتها . (ابن اياس ج ٣ ص ١٣٥) . ويعلو مدخل مسجد الدباغين بطرابلس لوحة منقوش عليها مرسوم صادر من قايتباى فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٨٨٢ عند زيارته لطرابلس قادما من بعلبك .

(٤)

المنشآت المدنيـة

ا ـ الحمـامات :

لم يتبق من بين الحمامات الكثيرة التى كانت تزخر بهـا طرابلس فى عصر المسـاليك سوى ثلاث حمامات هى حمام النورى ، وحمام عز الدين وحمام الحاجب .

أما الحمام النورى فيقع بالقرب من الجامع المنصـورى الـكبير ، وما زال هذا الحمام يؤدى وظيفته فى الوقت الحاضر ، أقيم فى سنة٧٣٣هـ ، فى نفس الوقت الذى أنشئت فيه المدرسة النورية ، ويتكون هـذا الحمام من غرف تعلوها قبوات وقبيبات تنفتح فيها مضاوى (أى فتحات صغيرة لادخال الضوء) مسدودة بقيعان القنانى الزجاجية الملونة ، فى احكام صنعة وأجمل ترتيب ، وأكبر هذه الغرف الغرفة المعروفة بالبيت الساخن ، وتحيط بها مجمـوعة من المخادع الخاصة ، تسمى الخلوات ، ومضـاوى البيت الساخن تؤلف تكوينا زخرفيا رائعا ، يقوم على عقود دائرية متقاطعة فيما بينها ، تحيط بأطراف القبة ، ويشغل الفراغ المركزى زخرفة نجمية الشكل . وأغلب قبيبات هذا الحمام من النوع المفصص القائم على جوفات مقوسة فى أركانه .

أما حمام عز الدين فيقع بين الجامع المنصورى الكبير ونهر أبى على ، وقـد أقام هـذا الحمام الأمير عز الدين أيبك الموصلى فى سنة ٦٩٤ هـ . وكان نائبا للسلطنة فى طرابلس والفتوحات على السـاحل فيما بين عامى

٦٩٤هـ ، ٦٩٨ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها • وقد دفن هذا الأمير فى تربته التى أنشأها لصق حمامه ، ومازالت نافذة هذه التربة تحمل نقشا تاريخيا يسجل تاريخ وفاته ، ونقش تحته رنك الأمير ، ونطالع فى هذا النقش النص التالى : (بسم الله الرحمن الرحيم هذه تربة العبد الفقير الى رحمة الله تعالى أيبك ابن عبد الله الموصلى نائب السلطنة الشريفة بالفتوحات المحروسة رحمه الله تعالى المتوفى فى خامس شهر صفر من سنة ثمان وتسعين وستمائة من الهجرة النبوية) • وقد استغل عزالدين أيبك بقايا كنيسة صليبية فى بناء حمامه ، فاستخدم نقوشها ورخامها وأحواضها لذلك الغرض ، ومدخل الحمام ينفتح على الشارع بعقد مدبب . على رأسه قطعة من افريز بارز مزدوج ، جوانبه تعبر عن أصله اللاتينى ، وعلى رأس العقد كتابة لاتينية نصها « CS JACO U »[١] • وأغلب الظن أن هذا الجزء من البوابة من بقايا كنيسة سان جاك التى كانت تقوم فى نفس هذا المكان أو قريبا منه ، وفى نهاية البوابة ينفتح باب عقده نصف دائرى منكسر انكسارا طفيفا ، وعلى عتب هذا العقد نحتت صورة « حمل فصحى » بين وردتين ، ويعلو هذه الصورة النقش الكتابى الآتى: ECCE AGNUSDEI

ويتميز الحمام من الداخل بقبواته ذات المضاوى وغرفه الثلاثة المعروفة بالبرانى (وهى غرفة الثياب) والوسطانى (وهى الغرفة الدافئة ، وترتفع درجة حرارتها قليلا عن الغرفة السابقة) ، والحامى (وهى البيت الساخن)•

أما حمام الحاجب ، فقد بناه الأمير سيف الدين أسندمر كرجى

---

(١) Van Berchem, p. 119

المنصورى سنة ٧٠١ هـ بجوار المدرسة الزريقية التى بنيت قبل ذلك بأربع سنوات فقط • ويذكر النويرى أنه « عمر بها حماما عظيما أجمع التجار ممن يجوب البلاد أنه ما عمر مثله فى البلدان » ؛ وما زال هـذا الحمام يؤدى وظيفته حتى اليوم منذ أكثر من ٦٥٠ سنة مضت «(٢)»•وعلى عكس ما يزعمه مؤلفو الكتاب الذى أصدره اليونسكو من أن هذا الحمام قد اندثر ولم يتبق منه الا بقايا قليلة ، «(٣)» ، فان هـذا الحمام يعتبر أول الحمامات الثلاثة من حيث احتفاظه بعناصره المعمارية ، فهو يشتمل على أكثر من ١٢ قبيبة ، كلها مخرمة بضاوى مزججة سليمة ، لا أثر فيها لهدم أو لتشويه • وتتدرج فى تخطيطه الغرفة الباردة فالدافئة فالساخنة ، بينما تتوزع حولها الخلوات الخاصة •

ب ـ الخانات والاسواق :

يحتل المركز العمرانى الاقتصادى قلب مدينة طرابلس . ويتمثل هذا المركز فى الخانات والأسواق ، أما الخانات فكانت تقع عادة بجوار الحمامات والأسواق ، وأهمها خان المنزل وخان الخياطين وخان المصريين وخان العسكر ، وخان الصابون •

ويعتبر خان المنزل أجمل خانات طرابلس وأهمها ، فقد بناه الأمير سيف أسندمر كرجى فيما بين عامى ٧٠٠ ، ٧٠٩ هـ ، وواجهة هـذا الخان

---

(٢) Bruce Condé, p. 120

(٣) تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ، ص ١٥

غريبة الشكل ، اذ يحف بباطن عقد البوابة المنكسر قطاعات مثلثة الأطراف تؤلف نوعا من الدالات المتصلة البارزة ، وتعتبر هـذه الزخرفة تطورا لزخرفة الدالات الشائعة فى زخرفة بوابات المساجد والمدارس المملوكية بطرابلس • ويحتل طبلة العقـد جامة كبيرة حفرت فيها توريقات كثيفة ، أما الظاهرة الغريبة فى هـذا الخان فهى أن عقوده مفصصة بفصوص من زهرة الزنبق ، تمثل تطورا فـريدا فى تاريخ عمـارة المماليك • ويعـلو الواجهة افريز بارز يزدان بصف من المقرنصات الزخرفيـة المسطحة على شكل ورقة نبات متكررة •

أما خان الخياطين فقد بناه الأمير بدر الدين قبل سنة ٧٤٠ هـ ، وتتصل عمارته بعمارة حمام عز الدين وخان المصريين ، وتؤلف جميعا جانبا هاما من المدينـة التجارية • وخان الخياطين أشـبه بدرب مقفـل طوله نحو خمسين مترا ، ويتميز بوجود صفين من العقود الجانبية ، ويقطع الدرب من أعلى عشرة عقود عرضية أشبه بالقناطر ، ولا يغطى هذه العقود سقف، وفى هذا الخان الذى يقوم فى نفس الوقت بوظيفة المصنع والسوق ، كانت تحاك الثياب وتباع بالجملة على التجار «[٤]» لتوزيعها •

أما خان المصريين الذى ما يزال يستخدم حتى اليوم مخزنا ، فقـد أقيم فيها بين عامى ٧٠٩ هـ و ٧٥٦ هـ • وتدور غرفه حـول صحن مركزى مستطيل الشـكل ، ويعلو الغرف قبوات نصف أسـطوانية عمودية على الصحن •

---

(٤) Bruce Condé, p. 87

وخان العسكر يرجع تاريخ بنائه الى أواخر عصر دولة المماليك البحرية ، وقد استخدمه المماليك ثكنة عسكرية ، فسمى بذلك الاسم • ويتكون الخان من مجموعتين من البناء تدور كل منهما حول صحن مستطيل بداخله حوض للسقاية ، وتنفتح على الصحن أبواب معقودة ، عقودها منكسرة من النوع الشائع فى عمارة المماليك • وأهم العناصر المعمارية بالخان بواباته بعقودها المدببة ذات السنجات الزنبقية •

وأهم أسواق طرابلس المملوكية سوق الحراج ، ويقع الى الجنوب الشرقى من شارع الصاغة ، وهو سوق تعلوه قبوات متعارضة ترتكز على ١٤ عمودا جرانيتية ضخمة ، لا تيجان لها • ويرجع بعض المؤرخين تاريخ انشاء هذا السوق الى عصر المماليك ، بينما ينسبه الآخرون الى العصر الصليبى • ويغلب على الظن أن هذا السوق أقيم فى مكان كانت تشغله كنيسة ، واستخدمت بعض أعمدتها وعقودها فى اقامة هذا السوق •

ومن أسواق طرابلس المملوكية أيضا سوق السلاح الذى ورد ذكره فى وقفية للأمير طينال وكان يقع بجوار حمام أسندمر ، وسوق الحلاويين الواقع بالقرب من المدرسة السقرقية ، وسوق العطارين •

ج ـ جسر نهر قاديشا :

يعرف عند العامة باسم قناة الابرنس «٥» ، وتشير التقاليد المحلية أنه

---

(٥) ابن الشحنة ، ص ٢٦٤

أقيم فى زمن الصليبيين فيما يقرب من سنة ١١٨٧ ، أى فى بداية العصر الذى أصبحت طرابلس تابعة لامارة انطاكية . وهو عبارة عن جسر من الحجر يخترق نهر أبى على على جدار سمكه نحو مترين ويمتد ٩١ مترا ، وتخترقه ٣ عقود . وقد تهدم الجدار فى فيضان سنة ١٩٥٥ تاركا قطعة طولها ٨ مترا على الضفة اليمنى (الشرقية) ونحو ٣ أمتار على الضفة اليسرى (الغربية) . وكان هذا الجسر يمد الحصن والمنطقة المرتفعة من طرابلس بالمياه .

والى الشمال من الجسر يمكننا رؤية آثار قنطرة اسلامية لا أثر عليها للكتابات «٦» .

د — سبيل التينة :

يقع على الضفة اليسرى من نهر أبى على فى المدينة العليا تجاه المسجد المعلق ، أسسه محمد بن زين الدين مباركشاه العلاى فى سنة ٨١٦ هـ . وفى أركان اللوحة الانشائية أربع رنوك تمثل الدواة «٧» .

---

(٦) Van Berchem, p. 121 - Bruce Condé, p. 25 .

(٧) Sobernheim, op. cit. p. 121

ملاحق الكتاب

(ملحق رقم ١)

الأقـوال فى واقعـة طرابلس الشام

من كتاب «الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمـور المقضيـة فى واقعـة الاسكندرية» للنويرى السكندرى «١»

« لما قصد غزو الشام أتى اليهم من الجزيرة «٢» فى مراكب كثيرة ، وغالبها قوارب الصيادين ليخيف برؤيتها المسلمين ، فأوهم بها أهل البلد ، فهربوا منه ، فدخل البلد ، وبها عربد ، وقـد اختلفت الأقوال فى دخوله طرابلس ، وسـأذكر تلك الأقوال التى نقلتـها ألسـنة الرجال ان شـاء الله تعالى :

فمنهم من قال : لما أتى القبرسى اللعين الى ميناء طرابلس لقتال من بها من المسلمين ، نزلت فرسانه ورجاله من الأسطول الى الساحل ، وزحفوا الى البلد ودخلوه ، فصار أهـل البلد يرمونهم بالحجار من أعلى الديار ؛ فرأوا فى أنفسهم العبر من كثرة رمى الحجار ، وقاطع عليهم جيش المسلمين من جهة الساحل ما بين فارس وراجل ، فسمعت الفرنج بقطع المسلمين عليهم الطريق ، فنشف فى فم كل واحد منهم الريق ، وضربتهم المسلمون بالسيوف

---

(١) الالمام بالاعلام ، (مخطوط) نسخة محمود حمدى رقم ٤١٩٣ بدار الكتب المصرية ص٦٧ـ١٥٥ ، والمقصود بواقعة طرابلس ، الغزوة التى قام بها القبارصة فى سنة ٧٦٩ هـ ودخولهم طرابلس

(٢) يقصد بطرس دى لوزنيان ملك قبرص الذى أغار بنفسه على طرابلس

صاروا صرعى على الأنوف . هـذا ما بين الساحل والبلد ، وأما من كان منهم داخل البلد فقاتلوا من قاتلهم من المسلمين الى أن قتلت النصارى أجمعين ، ولم يقتل من المسلمين بطرابلس سوى أحدى وعشرين ومنهم من قال لم يقتل من المسلمين بطرابلس سوى أربعة أنفس وهم مغربياز وتركمانى ورجل من أهلها ، وقتل خارج البلد من الافرنج نحو ثمانمائة علج ، فصارت آكاديشهم «٣» على البر غائرة بالكر والفر ، قائلة بلسان حالها صرنا من مراكب المسلمين واسترحنا من حملنا للفرنج الكافرين؛ ومنهم من قال قتل من الفرنج أربعمائة علج ، ومنهم من قال هدم المسلمون قنطرة بين طرابلس والبحر كان المسلمون يمرون عليها ويروحون ، فلما هدمها المسلمون تخلفت الفرنج عن المسر «٤» لهدمها فقتلهم المسلمون عن آخرهم .

ومنهم من قال : تحصنت جماعة من الفرنج بدار بطرابلس معهم أسلحتهم لما تيقنوا نصرة المسلمين عليهم ، فما جسر أحد من المسلمين اليهم؛ فرمى المسلمون النار بالدار ، فاحترقت الدار والكفار .

ومنهم من قال : ان أهل طرابلس طافوا حول الدار بالنار ، ورمت الفرنج عليهم من أعلاها الحجار ، فصار الدخان صاعدا اليهم ، فلما أضر بهم الدخان سلموا أنفسهم ، فقبض المسلمون عليهم ، وأتوا بهم الى نائب

---

(٣) الأكاديش جمع اكديش وهو الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الآلات والعدد والمقصود بها هنا الخيل التى يركبها الفرنج

(٤) يقصد المرور عليها أو عبورها

السلطان ، فقال يكونون عندنا أسارى ، نفرت المسلمون وقالوا لا والله لانريد الا قتلهم . فقال اتركوا لى منهم اثنين دونكم والبقيـة فاقتلوهم ، فقتلوهم وتركوا له اثنين ليستخبرهما عن حال القبرسى . فقال لأحدهما : أخبرنى كم أتى معكم من جنس . فقال العلج الغير مسئـول للذى هو مسئول : اسكت ولا تخبر بشيء ، ما هو الا الموت . فقال المسئول : بل أخبره وأسلم بعد اخبارى له . فقال له صاحبه : أترضى لنفسك بلعن أهل ملتك ؟ مت على دين آبائك وأجدادك . فقال له : مت على دينك ، وأنا قد طابت نفسى للاسلام . ثم أشار الى نائب السلطان وقال : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . ثم قال : أخبرك أيها الامير الكبير أن طوائف الفرنج الذين أتوا مع القبرسى جنوية وبندقية وخرايطة «٥» وروادسـة وفرنسيسية وهنكر «٦» وأغراب ، وجملتهم ستة عشر ألف علج ، منهم ألف فارس ، والبقية رجالة ، فأتت البنادقة فى ثلاثين غرابا «٧» ، والجنوية فى عشرين ، والروادسة فى عشرة ، والأغراب فى خمسة عشر ، والبقية من قبرس . فحينئذ أحسن اليه نائب السلطان بسبب اسلامه واخباره بمـا أخبر ، وجعله من جملة أجناده . وأما العلج الآخر فعرض عليه الاسـلام

---

(٥) من جزيرة كريت

(٦) أى من بلاد هنغاريا أو المجر

(٧) الغراب (جمعها أغربة وغربان) مراكب حربية شديدة البأس ، وقد سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التى على شكل رأس غراب (راجع : عبـد المنعم ماجد : نظم المماليك ورسومهم فى مصر ، ج ١ ص ١٩٢)

فأباه ، فأمر بقتله فقتل • ثم ان طرابلس انتنت من قتلى الأفرنج ، فأحرقوا بالنار لزوال رائحتهم •

ومنهم من قال : كان وصول الافرنج الى طرابلس يوم الأحد فى خمسة وخمسين غرابا ، وطريدة «٨» واحدة ، وعشرة قراقر «٩» • فلما عاينهم المسلمون حبسوا ستة من الافرنج كانوا تجارا بطرابلس ، أحدهم شاب جميل الصورة محتشم ، قيل انه كان ابن صاحب جنوة ، وقيل انه كان ابن أخت القبرسى ، وأن أحد نصارى الذميين دس له سيفا ، فقتل به ستة من المسلمين المسجونين ، فلما علم المسلمون ما فعل ذلك العلج بالمسلمين المسجونين ، هجموا عليه ذبحوه ، وذبحوا من كان معه من العلوج ، فلما دخل جند القبرسى البلد تسارعوا الى السجن ليخلصوه ، فوجدوه مذبوحا هو ورفقته الأعلاج ، فصرخوا صرخة واحدة • وقيل ان المسلمين قتلوا الذى دس للعلج السيف حتى قتل به المسلمين المسجونين •

ومنهم من قال : ان القبرسى لما تقدم الى طرابلس أتى فى احدى وسبعين ومائة مركب ، فأنزل منها يوم الأحد سبعة صفوف بالأتراس والسيوف ، وخلفهم الرماة بالقسى ، فزحفوا الى أن دخلوا البلد وذلك بعد هرب أهلها منها الى قنة الجبل ، فنهبت الفرنج منها تسع حارات ،

---

(٨) الطريدة (جمعها طرائد) سفن لنقل الخيل (ماجد ، نفس نفس المرجع ص١٩٣)

(٩) مفردها قرقورة وهى سفينة كبيرة لنقل المؤن والأقوات وامداد الأسطول بكل ما يلزمه

أخذوا منها ما قدروا عليه من المال والأثاث ، فأتى القاضى شمس الدين ، قاضى بلد عرقة ، راكبا على فرس أصيل ، قد تبعه نحو سبعين فارسا من التركمان ، فقال لهم القاضى : معشر الاخوان من أراد سكنى الجنة والنقلة من دار المحنة والفتنة فليطلق على الكفار الأعنة ، ويقوّم نحوهم أطراف الأسنة ، فقالوا بأجمعهم : كلنـا نريد سكناها ونختـار مأواها ، ونروم مأداها لنستريح من التعب فى الدنيا بسكنى جنة المأدى ، فقال: اذا سمعتم تكبيرى فاحملوا أيها الاخوان نبيت الليلة فى فردوس الجنان ونصير غدا من جملة الشهداء القاطنين فى الجنة ، كذا جاء فى السنة ، وقد أيد الله أهل السنة بحجج أمضى من الأسنة، فقالوا : أنت دليلنا عليها ، فسر بنا اليها، فكبر حينئـذ القاضى وكبر القـوم فى ذلك اليوم ، وحملوا على الفرنج بالسيوف ، اذاقوهم الحتوف ، فانهزم بقيتهم طالبين البحر ، وأوداج القتلى تشخب من النحر ، فكان عدة من قتل منهم القاضى وأصحابه مائتين وثلاثين علجا ، فكومهم المسلمون كيمانا ، وألقوا عليهم خشبا وعيدانا ، وأحرقوهم شيوخا وكهولا وشبانا ، فصعد دخانهم الى الجو ألوانا ، وكل من بالمراكب من الكفار ينظرون لاحراقهم بالنـار ، فرجعوا من حيث أتوا خاسرين ، وعلى أصحابهم المقتولين المحروقين نادمين ، وصار المسلمون يفتشون على من بقى منهم بالساحل واحل ، فبينمـا هم كذلك واذا بجمـاعة منهم فى ساقية قصب هلكى من الخوف والعطب ولم يجدوا منهم حيـا غير علج واحد ، فجعل حين رأى المسلمين قصدوه يقرأ آية الكرسى ، فأتوا به الى الأمير صارم الدين بن الهدبانى ، قالوا له : انا وجدنا هـذا العلج بساقية القصب وهو يتلو آية الكرسى ، وصار يتلوها وهو واقف بين يديه ، فقال: لو كانت على رأسك قتلتك ، فانك لو كنت مسلما ما أتيت مع الكافرين

تقاتل المسلمين ، وضربه بطبر «١٠» كان بيده قتله ، وقال هذا زنديق يسر الكفر ويظهر الايمان ، فالنار أولى به الآن • ثم تراجع الناس من الجبال فقتلت من الفرنج المسجونين نحو العشرين فيهم ابن أخت صاحب قبرس • وقتلت امرأة من أعلى سطح دارها علجين برميها الحجارة عليهما ، وقاتل الأمير جرجى «١١» وولده قتالا شديدا فى تلك الوقعة ، وحصل للقاضى شمس الدين قاضى عرقة وأصحابه التركمان الأجر وبياض الوجه بما أنكوه فى الفرنج • قال بعض أسارى الفرنج : لما أتى القاضى وأصحابه التركسان لقتالنا رأينا الارض كلها امتلأت خلقا معها أسلحتها تقتل فينا • وقيل أن القاضى جعل قاضى قضاة طرابلس لاباتته عن شجاعته وحمايته فكان فعله ذلك كفعل الصالح القاضى وجيه الدين عبد الرحمن النويرى الشهير بالناطق قاضى باب النويرة بالصعيد الأدنى من مصر ، لما تجهز لقتال الفرنج حين أتوا فى سنة ست عشرة وستمائة فى أرض مصر كما تقدم ذكر الوقعة المذكورة وكيفيتها فى هذا الكتاب •••

ومنهم من قال : ان القبرصى لما أتى بمراكبه الى مدينة طرابلس الشام

---

(١٠) الطبر فأس يستخدمها المقاتلة أحيانا فى الحرب والنزال ، وحامل الطبر يسمى الطبردار وهو الذى يحمل فأس السلطان عند ركوبه فى المواكب (راجع القلقشندى ، ج ٥ ص ٤٥٨ وما يليها — سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٣١)

(١١) هو الأمير جرجى الادريسى ، كان نائبا للسلطنة بطرابلس فى سنة ٧٦٨

يريد غزو المسلمين بها ، فلما أرسى بأفروطته «١٢» ورأى جيوش المسلمين قد اقبلت بعد أن أنزل منها بعض رجال دخلوها وغنموا منها بعض الغنائم، فظفر بهم المسلمون فقتلوهم ، فأرسل الملعون يقول : انما أنزلت من مراكبى بعض رجالى لأجسكم ، ولو آتيتكم بنفسى وجميع رجالى لصارت طرابلس فى ساعة واحدة كوما من الكيمان ، فجاوبه بعض مقدمى جيوش المسلمين ، فقال : انزل الآن بجيشك ، وقاتل وخذ البلاد ، لأنك تزعم أنك سلطان ونحن مماليك، والسلطان بالضرورة يغلب المماليك : فلم يجد الملعون له جوابا يجيبهم به ، فلو أتى بجيشه لصار هو وجيشه على الصعيد كالحصيد ، ثم ان المسلمين سبوه سبا قبيحا ، وقالوا له : ان أهل جزيرتك قزازون «١٣» ، وأنت معلم القزازين الأرذلين ، ولو كنت سلطانا لنزلت من مراكبك وقاتلت المسلمين ، ولكنت حين ظفرت بالاسكندرية أقمت بها ولا هربت ، فلو أقمت فيها يا كلب النصارى لرأيت العجب من سوء المنقلب ، ولكن ما وسعك الا الهرب كاللصوص اذا سرقوا هربوا قبل أن يعثر عليهم فيقطعوا ويصلبوا ، فلم يجد له جوابا يذكره ، فرجع بحسرته .

ومنهم من قال : لم ينزل من مراكب الفرنج الى الساحل سوى ألف وخمسمائة رجل بين فارس وراجل ، فهربت جماعة من أجناد البلد الى الجبل ، فحينئذ صادفت الفرنج ثلاثة من المسلمين بالساحل فقبضوهم ،

---

(١٢) معناها الأسطول

(١٣) قزازون من قزازة والقزازة نسج الاقمشة الحريرية بوجه خاص، والقزاز هو الحائك.(السلوك، ج ١ قسم ٣ ص ٧٨٤ حاشيةرقم١)

واستخبروهم عن البلد ومن فيه من الجند ، فقالوا لهم خرجوا للقاء الأمير منجك «١٤» ، لكن الآن تحضر النجدة ، فقال بعضهم أذبحوهم فانهم لم يخبروا بالصدق . فقالوا : ليس فى ذبحكم لنا فائدة لكم ، فانا لله صادقون فى مقالتنا لكم ، فتركوهم وزحفوا دخلوا البلد ، واذا بابن مالك مقدم التركمان ظهرت غبرة خيله قد أتى فى جماعة من التركمان ، ثم ظهرت أيضا غبرة خيل ابن صخر وقد أتى فى العشير ، فلما رأتهم العلوج الكلاب من المراكب رجعوا بها الى داخل البحر ، وضرب النفير بالمراكب ، فسمعت الفرنج التى بالبلد حس النفير ، فرمى كل واحد ما نهبه وطلب النجاة لنفسه ، فقتلهم المسلمون عن آخرهم ، ووجد المسلمون بطرابلس العتيقه الخراب نحو مائة من الفرنج ، فذبحوهم عن آخرهم ، وتتابعت جيوش المسلمين من كل ناحية ومكان أتت تطلب الجهاد لتغازى أهل الكفر والعناد، فلما رأى القبرسى الجيوش قد أقبلت اليه من كل جهة ومكان ارتحل الملعون بأسطوله الى جزيرة رواد المقابلة لطرابلس ، فبينما الناس كذلك واذا بثلاث مراكب قدمت الى ساحل السويدية من أرض الشام بريح العدة لم يظهر بها أحد من الفرنج ، فمضى المسلمون اليها فى القوارب ، فوجدوا بها الأسلحة والزاد والقتلى والجرحى من الفرنج ، فسألوا الجرحى عن أمرهم ، فقالوا : ان الجنوية قاتلت القبرسى بسبب ابن صاحب جنوة الذى قتله المسلمون بسجن طرابلس ، كما تقدم ذكر قتلهم له ، وبسبب قتل المسلمين أيضا لجماعة الجنوية الذين أنزلهم القبرسى من أسطوله حتى قتلوا

---

(١٤) هو الأمير منجك اليوسفى نائب السلطنة بطرابلس للمرة الثالثة وقت نزول القبارصة على ساحل طرابلس

بسيوف المسلمين ، فقتلت الجنوية من كان فى هـذه المراكب من أصحاب القبرسى ، وهؤلاء القتلى ونحن الجرحى ، فصـارت المراكب خالية ممن يرأسها ، فقطعت الجنوية سرياقات مراسيها ، حتى رمى الريح اليـكم ، فعند ذلك غنمها المسلمون ...

ومنهم من قال : ان الأمير جرجى وقف على ساحل طرابلس ومعـه الجيوش الاسلامية ، فأرسل القبرسى من مراكبه وهى بالميناء مرسية قاربا، فغرز من فيه رمحا فى البحر فيه ورقة ، ورجع الى المراكب ، فخرج قارب المسلمين من الساحل أخـذها وأتى بهـا الى الأمير جرجى ، واذا فيهـا « أما بعد ، فان مراسيمنا الشريفة برزت بعدم احراق طرابلس ، لو اقتضت مراسيمنـا الشريفة ذلك فعلـناه ، ولـكن البـلاد بلادنا ، والقـدس مدينتنـا ، فان مكنتمـونا من بـلادنا فنحن واياكم على العهـد والصلح وان لم لم تسكنونا فبيننا وبينـكم السيف ، ومع ذلك يعطى الله النصر لمن يشاء من عباده » . فكتب اليه الأمير جرجى يقول فى الجواب : « أما قولك برزت مراسيمنا الشريفة فهذا الكلام لا يصدر الا عن سلطان ذى رأى ، وأما أنت فلص من لصوص النصـارى ولست بسلطان ، فلو كنت سلطانا أقمت بالاسكندرية وناضلت عنها حين ظفرت بها بل هربت بسرعة والهروب من شأن اللصوص ، بل حـوصلت وطرت . وأما قولك البلاد بلادنا ، فالأمر غير ذلك لأن البلاد بلاد الله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين ، وأما قولك القدس قدسنا فحاشا لله أن يكون القـدس لك ، لأنك رجس نجس ، والقدس طاهر مطهر ، وما ينبغى للرجس النجس الكافر المشرك أن يكون مجاورا للطهر المطهر . وأما قولك السيف بيننـا وبينكم فتفقد عسـكرك كم خرج منه قتيـل وجريح ورهين ، ولم يكن

بطرابلس الآن مقاتل لك غيرى ، وأنا أقل مماليك السلطان ، فأنزل وقاتلنى بما معك ومعى » وطوى الكتاب ورده فى القارب الى الرمح تربط فيه ورجع . فأتى قارب القبرسى أخذه ، فلما وقف الملعون على هذا الجواب المسكت حصل له الفرق ، وغص بريقه وانخنق ، ولم يجد لما سمعه جوابا ولا اتجه عنه خطابا ، فالأجوبة المسكتة مبهتة ، يعجز عن رد جوابها المنطيق لعجزه عما لا يطيق .

ومنهم من قال : ان صاحب قبرس جرح عدة جروح من المسلمين فى وقعة طرابلس الشام عدة جروح ، فحصل له الزائد ، وكان الذى جرحه عند هروبه وهو طالب مركبه رجل مسلم ، رمى نفسه عليه فى البحر وهو يضربه بالسيف على جوشنه «١٥» ، فتقرب منه الغراب فرفعه منه جماعة ، وجماعة منه قطعت المسلم بالسيوف قطعا ، فصار القبرسى فى ألم من جراحاته تلك ، فارتحل أسطوله من ساعته قاصدا بلده . فقال لسان حاله عند ارتحاله قد تعكست وحق المسيح أحوالى بسبب قتل رجالى ، فان رجعت طالبا الجزيرة سمعت بها الجنائز الكثيرة ، فلابد لى من غزوة قوية ليتحصل لى من أموال المسلمين ما اقترضته من القسيسين ، فلو رجعت اليهم بغير ر٦ د السلف ، غضب على كل قسيس وانحرف ، وتكرهنى الرهابين ، ويحرم على جماعة القسيسين ، فتنتفى منى عامة النصرانية ، ويمتنع عن مخاطبتى جميع أهل ماء المعمودية ، فأصير بالطرد آيس من دخول الكنائس ، وتقول طوائف النصارى قد داخل هذا المجروح العكس وعاد نجمه بعد

---

(١٥) الجوشن درع يلبس على الصدر بغير ظهر بعكس الزرد الذى يغطى الجسم كله

استقامته فى نحس . وذلك للصوصيته بالاسكندرية . وفعلته الغير مرضية، وما رزق بها النصر الا لعدم مقابلته لجيوش مصر ، بل صال على العوام وقال أنا ربير الملك الهمام ، ظفرت بالاسكندرية التى عجز عنها جميع ملوك النصرانية ، وتقول النصارى قتل المسلمون بطرابلس رجاله المشاة منهم والخيالة ، فيقيمون على القيامة ، ويقولون قد امتنعت النصارى بسببه من زيارة كنيسة القمامة ، فياليتنى اصطلحت مع المسلمين لما جاءنى رسولهم ناصر الدين ، وكنت أرسلت لهم الأسارى ، وبقيت بحرمتى ونفاذ كلمتى ، وصرت فى انشراح ، وسلمت من الجراح • ولكن ما بقى بعد ذلك الا القتال ، والحرب والنزال ، فداووا جراحى ليحصل بغنائم المسلمون سرورى وأفراحى ، وسار بأفروطته فاجتاز ببلدة جبلة التى هى مقبورا بها الشيخ الصالح ابراهيم بن أدهم ، فلقى به عند محاذاتها الغم والهم ، وذلك أن أهل جبلة لما عاينوا أسطوله قادما عليهم دخلوا ضريح الشيخ ابراهيم وهم يستغيثون قائلون : يا ابراهيم ان كان لك سريرة عند ربك فهو يدفع عنا هذا العدو الذى لاطاقة لنا به • وساروا يدعون الله تعالى فى دفعه عنهم ، واذا ريح عاصف خرجت من خزائن القدرة الربانية فرقت المراكب فى البحر يمينا وشمالا ، فصرف الله بها العدو عن أهل جبلة •••

فلم يتعظ الملعون بما جرى له فصبر الى أن اجتمعت له مراكبه ، فسار بها الى اللاذقية وبسباها سلسلة متينة ، فنطط ثلاث شوانى عليها حصلت داخل المينا ، فتبادر المسلمون ورفعوا سلسلتها بدولابها بما لم يكن للقبرسى ذلك فى حساب ، فقبض المسلمون على شينى منها ، فقتلوا من فيه من الرجال والأعلاج ، وانكسر الاثنان لثقلهما على السلسلة ، وعملها

فيهما . قال المؤلف غفر الله له ولوالديه وللأقربين اليه ولجميع المسلمين ، حدثني محمد بن بهادر الكركرى بثغر الاسكندرية المحروس قال : كنت باللاذقية عند اتيان القبرسى بأفروطته اليها فهاج عليه ريح عاصف فانكسر له ثلاث شوانى ، وأتى منهم الى البر دون العشرين علجا بالعوم ، وقذف البحر الى الساحل عشرة أفراس موتى ، وجلس فى قاع البحر شينى صار طرف صاريه ظاهرا فوق الماء ، فغطس الغطاسون عليه ، فوجدوه جلس بقاع البحر بين جبلين صغيرين ، فلم يقدروا على اخراجه من بينهما ، ولا قدروا على النزول اليه ليعلموا ما فيه ، وحصــل لهم أيضا ثلاث مراكب رمتهم الريح اليهم ، ووجد فيها الجواشن والخود والزرديات ، وحصل لهم أيضا مركب آخر وجدوا فيه رؤوس خيل بعددها ، ووجدوا فيها أزواد كثــيرة وبعض أثاث مما حصل لهم بطرابلس ...

ومنهم من قال : أن عمر الحلوانى ذكر أنه كان حاضرا بوقعة طرابلس ووقعة اياس فقيل له حدثنا بما رأيت فيهما ، قال : لما أتت الفرنج الى مينا طرابلس ونزلوا البر زحفوا الى أن دخلوا البلد ، فأتى المسلمون لهم من جهــة الساحل جازوا بينهم وبين البحر فقتلوا منهم ما يزيد على ثلاثمائة علج ، وقتلت امرأة علجا فارسا من أكابرهم ، وذلك أنها رمت عليه ستارة حائط سطحها ، كان واقفا تحتها ، فوقعت عليه فقتلته هــو وفرسه ، فأمر نائب السلطان بطرابلس لما بلغه ذلك أن يعطى لها سلبه ، فقيل له ان قيمة سلبه عشرة آلاف درهم تعطى بعضه ، فقال بل تعطى جميعه .

وقال المؤلف .. حدثنى الشيخ الصالح أبو محمد اسماعيل بن سليمان الحلبى بالاسكندرية وكان اذ ذاك مقيما بها قال : لما دخلت الافرنج طرابلس الشام فى أوائل سنة تسع وستين وسبعمائة دخل منهم دار الحاج محمــد

ابن بهادر الناجر اثنا عشر علجا . وكان له بها جفان سكر كثيرة ، فأحاط المسلمون بالدار فصارت الفرنج تكسر تلك الجفان السكر وترمى بهـا على المسلمين عوضا عن الحجارة التى عجزوا عن قلعها لقوة عمارة الدار ، ولعدم الفوس ليست معهم يقلعون بها الحجار اذ ليس معهم غير سيوفهم ، فأتى اليهم الأمير جرجى برجاله عمـل عليهم الحيلة حتى قبضهم منـها ، وقررهم «[١٦]» ، فقالوا : ان نصارى أهل الذمة التى بسواحلكم يكاتبون القبرسى يعرفونه عن أحوالكم ، ويحرضونه على غزوكم ، فهم الذين كانوا السبب فى اتيان القبرسى اليكم ، فكتب الأمير جرجى بذلك الى السلطان والأمير يلبغا الخاسـكى ، فمنعوا اذ ذاك من التوجـه الى قبرس بسبب متاجرهم التى بها والتى يستصحبونها معهم اليها ، فضاعت متاجرهم التى بقبرس وبادت متاجرهم التى جهزوها اليها ، وحفظت السواحل بالتركيز والقبض على المتجسسين ، وقتل النصارى المخبرين . انتهى . ثم قال أيضا : ولما لم يقض القبرسى أربه من طرابلس سار بأفروطتـه الى أنطرطوس ، أقام بها يوما وليلة ، فأحرقها جميعها لما لم يجد فيها أهلها ، وذلك لهروبهم منها عند معاينتهم لأفروطته الآتية اليهم . ثم ان الملعون توجه بأفروطته الى مرقية ، أحرق منها ثلاثة بيوت ، فأدركه ابن قنقر التركمانى بمن معـه من التركمان ، فهرب منه الملعون فتوجه الى بانياس تحت المرقب ، فأقام بهـا يوما وليلة ، وكان أهلها لما عاينوه تركوا له البلد وهربوا منه ، فأحرقهـا وأحرق أشجارها ، فأدركه جيش المسـلمين ، فهـربت الفرنج منهم الى المراكب ، فلم يقبض المسلمون من علوج القبرسى غير علج واحد ، فأتى به الى نائب المرقب . »

---

(١٦) أرغمهم على الاعتراف له بسبب غزوتهم لساحل طرابلس

(ملحق رقم ٢)

وصف مدينة طرابلس الشام

من كتاب مسالك الابصار فى ممالك الامصار
لشهاب الدين بن فضل الله العمرى «١»

« بنيت عند الفتح عوض اطرابلس العتيقة ، وكانت تسمى قديما بدار العلم ، وتداولها ملوك بنى عمار ، وكانوا فى الأول لهم القضاء بها ، ولما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة ، ذميمة المسكن ، فلما طالت مدة سكنها ، وكثر بها الناس والدواب ، وصرفت المياه الأجنة التى كانت حولها نقايع ، وعملت بساتين ، ونصب بها المنصوب والغراس ، فخف ثقلها ، وقل وخمها . وقد كان بها اسندمر الكرجى نايبا ، وبقى لايستقل من لوثة وخم ، فشكا الى الحكيم الفاضل أمين الدين سليمان بن داود المتطبب وخامتها ، وسأله عما يخفف بعض ذلك ، فأشار عليه أن يستكثر بها من الجمال وبقية الدواب ، ففعل ذلك ، وأمر به الأمراء والجند ، فخف مابها ، وكان الأمر كما أشار به الحكيم ، وسألت عن تعليل هذا كثيرا من الأطباء ، فقال أنه لا يعرفه ، وفوق كل ذى علم عليم ، وأما ما قاله لى الصدر بهاء الدين أبو بكر بن غانم رحمه الله ، فقال : ان السبب فيما يعرض الأجسام بها أنها لمجاورة البحر وعرة حارة فتكون فى أول الليل كذلك ، فلا يقبل فيها تقبل الغطاء ، فاذا نام النايم قليلا الدثار ، يفاجيه البرد الشديد فى آخر الليل من قبل الجبال المجاورة لها فيجيء

---

(١) نسخة مصورة للمخطوطة ، رقم ٢٥٦٨ تاريخ ، بدار الكتب المصرية ، القسم الثالث من الجزء الثانى ص ٤٤٨ — ٤٥٠

البرد عقيب الحر . والمسام مفتحة ، والنايم فى غفلته ، فيحدث له مايحدث .
ولها نهر يحكم على ديارها وسُبقاتها ، ينخرق المساء فى مواضع من أعالى بيوتها التى لا يرقى اليها الا بالدرج العلية ، وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء ، خفيفة الماء ، ذوات أشجار وكروم ومروج وأغنام ومعز ، ومجتمع بها الجوز واللوز وقصب السكر والبلح ، ويعمل بها السكر ، ويهوى اليها وفود البحر ، وترسى بها مراكبهم ، موضع زرع وضرع ، وهى الآن مدينة ممتدة كثيرة الزحام ، ذات مارستانين ومساجد ومدارس وزوايا وأسواق جليلة وحمامات حسان موصوفة ، وجميع أبنيتها بالحجر والكلس ، مبيضا ظاهرا وباطنا ، تحيط بها غوطتها ، ويحيط بغوطتها مواضع مزدرعاتها ، بديعة المشرف ، تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها . وهى مسلكة ذات جيش وتركمان وخاصة ، لأهل الجبال بها يد فى الرمى على القوس الثقيل بالنشاب الخارق ، ولها حصون وقلاع تجاورها قلاع الدعوة المعروفة ، وقاعدتها مصياف ، ومن جملتها قلعة القدموس ، وبها حمام يخرج بها أنواع حيات كثيرة لا تحصى ، حتى ان القاعد فى داخلها ليغتسل والحياة طافرة من الأنبوب مع الماء حتى أن الخارج من الحمام ليرفع قماشه من الأرض ليلبسه والحيات تتساقط منه ، ولكنها لا تؤذى أحدا ، ولا عرف هذا عنها فى وقت من الأوقات . وبالقرب من هذه القلعة قلعة الخوابى ، حدثنى الأديب بدر الدين حسن الغزى أن فى سورها أعنى قلعة الخوابى مكانا اذا لدغت أفعى أو حية أحدا وحمل لكى يشاهد ذلك الموضع من سور الخوابى بعينه أو كان الملدوغ عاجزا ، فأرسل رسولا له الى ذلك الموضع ، فأتى اليه وشاهده بعينه ، قيل أن عطب السليم الملدوغ نجا السليم وكانت عاقبته الى سلامة . وهذا من عجائب ما يحدث

به فى الآفاق ، فما أدرى أهذا الطلسم هناك أو الخاصية فى ذلك الحجر . وعلى كل الحالين هــذا أمر عجيب غريب ، واغرب ما فيــه هذا يفيد نفع الذيع برؤية رسوله له اذا لم يره هــو بنفســه ، فسبحان من له الحكم واليه مرجع الأمر كله . ووادى الفوار قريب حصن الأكراد غربا بشمال على الطريق السالكة ، صفته هناك صفة بير قايمة فى الأرض ، وفى أسفل البير سرداب ممتد الى الشمال يفور فى كل أسبوع يوما واحدا لا غير ، فيسقى به أرض ومزدرعات ، وينزل عليه التركمان ويردوه ، وبقية الأيام يابس لاماء فيه ، ويسمع له دوى كالرعد قبــل فورانه ، والسرداب خلفه البناء . وذكر من دخل السرداب أن فى نهايته نهرا كبيرا آخذا من الغرب الى الشرق تحت الأرض ، وله جــريان معــين وبه موج وريح عاصف ولا نعرف أين يجرى ولا من أى جهــة يجىء . وداخــل البحر الشامى بطرابلس عند برج الحصاص بقدر رمية حجر فوارة ماء حلو عذب يطلع على وجه المــاء علو ذراع أو أكثر ، يبين ذلك عنــد سكون البحر لكل أحــد » .

(ملحق رقم ٣)

نص وقفيــة جامع طينـــال

(بسم الله الرحمن الرحيم امر بانشاء هــذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا المقــر الأشرف العــالى المولوى الــكافلى السيدى المالكو المخدومى السيفى طينال المالكى الناصرى ، كافل الممالك الشريفة الطرابلسية بلغه الله آماله ، وتقبل فى الصالحات أعماله ووقف عليه لمصالحه المعينة فى كتاب وقفه جميع البستان المعروف بالحمــوى بظاهر طرابلس وجميــع الحانوتين الملاصقين لبابه وجميع البستان المعروف قديما بالطنطاش بسقى طرابلس وجميع الحانوتين الملاصقين لسوق السلاح بجوار الحمام المعروف بأسندمر وهى الآن ملك الواقف وجميع ثلث الخان المعروف بدار الوكالة القديمة وجميــع القرية المعروفة بازرونــية من عمل عرقا بجون طرابلس وشرط أنه مهما فضل من ريع هــذا الوقف عن أرباب وظائفه ومصالحه المعينة فى كتاب يصرف للفقراء والمساكين المقيمين بطرابلس والواردين اليها حسب ما يراه الناظر فى ذلك من غير أن يرتب لأحد مرتبا فى كل شهر أو كل يوم ، ومن غير ذلك أو بدله أو رتب شيــئا مستمرا كانت عليــه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) «(١)» .

نص وقفيــة تــربة طينـــال

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هــذه التربة المباركة رحم الله

---

(١) Répertoire Ch. E. A. t. XV, p. 60

ساكنهامولانا ملك الأمراء المشار اليه أثابه الله وتقبل منه وجزاه خيرا ورضى عنه ووقف على مصالحها وأرباب وظائفها المعينة فى كتابها جميع الطبقة المجاورة لها من الشرق وتعرف بالخطيب وجميع القيسارية المستجدة المجاورة لمسجد الأرزنى من الغرب بسكن الخلعيين وعدة حوانيتها ست عشرة وطباقها ست عشرة وجميع الحانوتين بطرف سوق الحدادين من الصف الغربى المعروف قديما بأبى ربه وجميع الحوانيت والطباق انشاء الواقف بالعرصة القديمة وجميع الست حوانيت المستجدة انشاء الواقف وتعرف قديما بمظفر بسويقة القاضى والثلث طباق الراكبة عليه وجميع الحاكورة المجاورة لهذا الجامع من القبلة وشرط أنه مهما فضل من ريع هذا الوقف عن أرباب وظائفه ومصالحه المعينة فى كتاب الوقف يصرف للفقراء والمساكين المقيمين والواردين كما شرط فى وقف الجامع من غير ترتيب ومن رتب لأحد مرتبا مستمرا أو جدد لأحد شيئا على سبيل الراتب كان الله محاربه ومحاسبه ومكافيه وحشره مع الأخسرين) «٢» .

---

(٢) Repertoire, Ibid. p. 62

(ملحق رقم ٤)

مرسوم اصدره السلطان قايتباى
(منقوش باعلى مدخل مسجد الدباغين)

(الحمد لله لما كان بتاريخ ثالث عشرين جمادى الآخرة من شهور سنة اثنين وسنة اثنين وثمانين وثمانمائة برز المرسوم الشريف المولوى السلطانى الملكى الأشرفى أبو النصر قائتباى خلد الله ملكه الشريف عند حلول ركابه بطرابلس المحروسة بابطال ما على جماعة الدباغين بطرابلس من المكس المقرر لديوان المواقف الشريفة وأن لا يكلفوا الى الدرهم الفرد وأن ينقش ذلك فى بلاطة على المسلخ بطرابلس لتسطر هذه المثوبة فى الصحائف الشريفة وملعون ابن ملعون من يجدد ذلك أو يغيره »(١)) .

مرسوم اصدره السلطان قايتباى
(منقوش على عتب باب مسجد ارغون شاه)

(الحمد لله لما كان بتاريخ خامس عشر جمادى الآخرة سنة ثمانين وثمانمائة ورد مرسوم شريف مربع جيشى من الأبواب الشريفة السلطان الملك الأشرف قائتباى خلد الله ملكه بأن جهات وقف المرحوم أرغون شاه بالسقى بطرابلس المحروسة لا تؤجر لا لمتجوه ولا ذى شوكة واجهار الندا لزراع الأراضى بالحماية والرعاية ومنع من يعارضهم حسب ما شرط

(١) Scheruheim, op. cit. p. 131

به الواقف فى كتابه وتسليم الأراضى للسيد الحسيب النسيب السيد نور الدين محمود الحسينى الأدهمى الناظر والشيخ بها بالزاوية المذكورة فأشار به المقر الأشرف العالى المولوى السيفى أزدمر الأشرفى مولانا ملك الأمراء كافل المملكة الطرابلسية أعز الله أنصاره ورسم بنقش ذلك على باب المدرسة حسب ما شرط به الواقف فى كتابه وملعون من يغير ذلك ويسعى فى تجديده «[٢]») .

---

(٢) Ibid. p. 129 - 130

(ملحق رقم ٥)

نص اللوحة الانشائية ووقفية جامع ومدرسة السقرقية

(بسم الله الرحمن الرحيم وقف الجناب الكريم السيفى أقطرق الحاجب هذا المكان المبارك مسجدا لله تعالى وتربة للدفن ووقف على مصالحه وعمارة أثاثه وتطاويقه جميع المزرعتين من عمل حصن الأكراد : وهما مرج السلطان وقميرة وجميع البستانين المتلاصقين بقرية رشعين من عمل طرابلس أحدهما يعرف بمسعود والآخر بابن الأفرمى ، وجميع الحوانيت الأربعة المتلاصقات بالصف الشرقى من سوق الحلاويين بطرابلس وجميع الدار الملاصقة للمسجد وجميع الأود الثلاث المتلاصقات بخان المصريين بطرابلس وجميع الحصة الشائعة وقدرها والنصف والربع من جميع الدار شمالى خان المهندس بالجسر العتيق وجميع الفرز المعروف بكرخولد للمسجد المذكور وقفا شرعيا يبدأ من ريعه بعمارته واصلاحه ويصرف منه فى كل شهر أربعون درهما للامام بالمسجد المذكور وخمسون درهما الى مؤذنين بالنوبة يؤذنان بمأذنة المسجد المذكور وثلاثون درهما الى قيم المسجد والتربة ، وخمسون درهما الى خمسة أنفار يقرؤون بالمكان المذكور حزبا كاملا فرادى ومجتمعون وخمسة عشر درهما فى ثمن زيت وقناديل وآلة الكنس والاستسقاء ، ويصرف فى يوم الاثنين من كل أسبوع ثلاثة دراهم فى ثمن خبز يفرق بباب التربة ودرهم واحد فى ثمن ماء وثلج ، وكذلك يصرف فى يوم الخميس من كل أسبوع ويصرف فى كل شهر احدى عشر درهما فى ثمن كسوة من قميص ولباس

رفيع وغير ذلك للأيتام والأرامل والفقــراء المسلمين وما فضل بعد ذلك يصرف الى من كان فقيرا محتاجا من أولاد الواقف وأنساله ، ومن عتقائه بالسوية ، فان لم يكن فيهم محتاج صرف الى الفقراء المسلمين فى باب التربة وشرط الواقف النظر لنفسه ثم للأرشد من أولاده وأنساله والى من كان أمير حاجب كبيرا بطرابلس ، وشرط الواقف أن لا يؤجر وقفه بأكثر من ثلاث سنين وليصرف هذا ولا تقدر عليه مظالم ولا مكوس حسبما تضمن ذلك كتاب الوقف المؤرخ بمنتصف القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وسبعمائة الثابت المحكوم به بمجلس الحكم العزيز بطرابلس المحروسة ونقش ذلك فى ربيع الاول سنة ستون وولاء لهذا المسجد من المـاء بحق واجب نصف وربع اصبع من قناة طرابلس «[1]») .

(١) Sobernheim, p. 109 , 110

المراجع

أولا : المصادر العربية

١ — الادريسى (الشريف محمد بن العزيز) : وصف فلسطين والشام من كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» ، نشره جوانيس جيلدميستر (Joannes Gildemeister) بعنوان Palaestina et Syria, Bonnensis, 1885

٢ — أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر الكنانى الشيزرى) : كتاب الاعتبار ، تحقيق الدكتور فيليب حتى ، برنستون ، ١٩٣٠

٣ — الاصطخرى (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ، ١٩٦١

٤ — الأنطاكى (يحيى بن سعيد) : صلة كتاب سعيد بن بطريق ، نشرة الأب لويس شيخو ، بيروت ، ١٩٠٩

٥ — ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق دون فرنشسكو كوديره ، مدريد ١٨٨٩

٦ — ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) : كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشره وحققه تورنبرج ، أبساله ١٨٤٣

٧ — ابن أبى طالب الأنصارى الدمشقى (شمس الدين أبى عبدالله محمد) : كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، نشره مهرن ، ليبزج ، ١٩٢٣

٨ — ابن أبى الفضائل (مفضل) : كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ، ١٩١١

٩ — ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم) : **الكامل فى التاريخ ،** **طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ**

١٠ — .... **التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق الاستاذ** عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣

١١ — ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد) : **بدائع الزهور فى وقائع** الدهور ، نشره الأساتذة باول كاله ومحمد مصطفى وسوبرنهايم ، الاجزاء الثالث والرابع والخامس ، اسطنبول ١٩٦٠—١٩٦٣

١٢ — ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله) : **الدر الفاخر فى سيرة** **الملك الناصر ، ج ٩ ، تحقيق هانز روبرت رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠**

١٣ — ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : **كتاب الصلة فى** **تاريخ علماء الأندلس ،** نشره دون فرنشسكو كوديره Don Francisco Copera ، مدريد ١٨٨٣

١٤ — ابن بطريق (سعيد المعروف بأوتيخا) : **كتاب التاريخ المجموع على** **التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥**

١٥ — ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد) **رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٦٠**

١٦ — ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) : **النجوم** **الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزءا ، طبعة دار الكتب المصرية** القاهرة ، ١٩٣٨

١٧ ــ ابن جبير (أبو الحسين محمد بن احمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق
وليم رايت William Wright ، ليدن ، ١٩٠٧

١٨ ــ ابن الجوزى (أبو المظفر شمس الدين يوسف بن فيزوغلى السبط)
كتاب مرآة الزمان ، ج ٨ طبعة شيكاغو ١٩٠٧ ، وحيدر أباد
١٩٥١ ، ١٩٥٢

١٩ ــ ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) : زبدة كشف الممالك
وبيان الطرق والمسالك ، نشره پول راڤيس Paul Ravaisse
باريس ١٨٩٤

٢٠ ــ ابن الشحنة (أبو الوليد مجد الدين محمد الحلبى) : كتاب الدر
المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، نشره الأستاذ يوسف سركيس ،
بيروت ١٩٠٩ .

٢١ ــ ابن شداد (القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين ،
تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤

٢٢ ــ ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن على الحلبى) : الأعلاق
الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، نشره الدكتور سامى الدهان
المعهد الفرنسى بدمشق ، دمشق ، ١٩٦٢

٢٣ ــ ابن صصرى (محمد) : الدرة المضيئة فى الدولة الظاهرية ، نشره
وليم م. برينر المجلد الثانى (النص العربى) ، لوس انجليس ، ١٩٦٣

٢٤ ــ ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) فتوح مصر والمغرب ، تحقيق
الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١

٢٥ — ابن عبد الظاهر (محيى الدين) تشريف الأيام والعصور فى سيرة المنصور . تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١

٢٦ — ابن العديم الحلبى (كمال الدين أبو القاسم عمر) : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشره الدكتور سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١

٢٧ — ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين) : كتاب مسالك الأبصار فى مسالك الأمصار ، مخطوطة (نسخة مصورة) محفوظة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٦٨ تاريخ ، القسم الثالث من الجزء الثانى .

٢٨ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) : تاريخ ابن الفرات تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، (الأجزاء السابع والثامن والتاسع) بيروت ، ١٩٣٩

٢٩ — ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدى) : تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق دون فرنشسكو كوديرة ، مدريد ، ١٨٩١

٣٠ — ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق . بيروت ، ١٩٠٨

٣١ — ابن كثير الدمشقى (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر) البداية والنهاية فى التاريخ ، ج ١٣ طبعة مصر ، ١٩٣٢

٣٢ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، ٣ أجزاء . القاهرة ١٩٦٠

٣٣ — أبو شامة (عماد الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل) : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦

٣٤ ــ أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر ، صيدا ١٩٥٩

٣٥ ــ البيذق (أبو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ؛ تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٨

٣٦ ــ الجزناءى (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الآس فى بناء مدينةفاس نشره الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢

٣٦ ــ الحلبى (كامل حسين بن محمد البالى) : نهر الذهب فى تاريخحلب، حلب ، ١٩٢٦

٣٧ ــ الدوادار (بيبرس) : زبدة الفكر فىتاريخ الهجرة ، مخطوطمحفوظ بمكتبة جامعة القاهرة (نسخة مصورة) رقم ٢٤٠٢٨

٣٨ ــ الذهبى (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد) : العبر فى خبر من غبر ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٣٠

٣٩ ــ الروذراورى (أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين) : ذيل كتاب تجارب الأمم ، ج ٣ ، طبعة مصر ، ١٩١٦

٤٠ ــ الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر) : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق الاستاذ السيد الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٤٦

٤١ ــ صالح بن يحيى : تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحتريين من بنى الغرب ، نشرة الأب لويس شيخو اليسوعى ، بيروت ، ١٨٩٨

٤٢ ــ علوى (ناصرى خسرو) : سفرنامة ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥

٤٣ ـــ العمــاد الأصفهانى (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين) : الفتح القسى فى الفتح القــدسى ، نشره الاستاذ محمــد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥

٤٤ ـــ غلبون الطرابلسى (أبو عبدالله محمد بن خليل) : تاريخ طرابلس الغرب المسمى «التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار»، نشره الاستاذ الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ١٣٤٩ هـ

٤٥ ـــ القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزء القاهرة ، ١٩١٣ ـــ ١٩١٥

٤٦ ـــ مجهول : مدونة من عهد الخليفة عبــد الرحمن الناصر لدين الله ، نشرها الاستاذان ليڤى پروڤنسال Lévi Provençal وغرسيه غومث Garcia Gomez ، مدريد ١٩٥٠.

٤٧ ـــ مجهول : تاريخ الملك الأشرف قايتبــاى ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٥٥٤

٤٨ ـــ المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمــد) : أحسن التقاسيم فى فى معرفة الأقاليم ، طبعة ، ر خوية ، ليدن ، ١٩٠٦

٤٩ ـــ المقريزى (تقى الدين أحمــد بن على) : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٥٠ ـــ .... السلوك لمعرفة دول الملوك ، الأجزاء المطبوعة ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، والجزء السابع مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية

٥١ ــ المقريزى : كتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال والدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٧

٥٢ ــ النويرى (شهاب الدين أحمد) : نهـاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية ، الاجزاء من ١٩ الى ٣١ تحت رقم ٥٤٩

٥٣ ــ النويرى (محمد بن قاسم السـكندرى) : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحـكام والأمور المقضيـة فى واقعة الاسكندرية ، مخطوط ، نسخة محمود حمـدى رقم ٤١٩٣ محفوظة بدار الكتب المصرية

٥٤ ــ ياقوت (شهاب الدين أبو عبـد الله الحموى) : معجم البلدان ، خمس مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

٥٥ ــ ... المشترك وضعا والمفترق صقعا ، نشره وستنفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٦

٥٦ ــ اليعقوبى (أحمـد بن أبى يعقوب بن واضح) : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩٠

٥٧ ــ اليونينى (قطب الدين أبو الفتح) : ذيل مـرآة الزمان ، ج ١ ، طبعة حيدر أباد ، ١٩٥٤

ثانيا : المصادر غير العربية والمترجمة

٥٨ — Viajes de Benjamin de Tudela, traduccion espanola por Ignacio Gonzalez Llubera, Madrid, 1918

٥٩ — مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمه وعلق عليه الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨

ثالثا : المصادر العربية الحديثة والمترجمة

٦٠ — أبو عز الدين (الاستاذ حليم) : محافظة الشمال ، محاضرة من سلسلة محاضرات دار الندوة اللبنانية بعنوان « لبنان فى محافظاته » السنة ١٥ ، النشرة ١ ، ٢ — بيروت ١٩٦١

٦١ — البابا (الشيخ كامل) : من آثار التاريخ الطرابلسى ، حديث بمجلة الارشاد الاجتماعى ، طرابلس ، العدد ٢٧ نيسان ١٩٦٢

٦٢ — بدر (الدكتور مصطفى طه) : مغول ايران بين المسيحية والاسلام

٦٣ — الترك (الاستاذ غالب) : محافظة الجنوب ، من سلسلة محاضرات دار الندوة اللبنانية . دار الندوة ، بيروت ١٩٦١

٦٤ — توفيق (الدكتور عمر كمال) : مملكة بيت المقدس الصليبية ، الاسكندرية ١٩٥٨

٦٥ — حبشى (الدكتورحسن) : الحرب الصليبية الاولى ، الطبعة الاولى؛ القاهرة ١٩٤٧ ؛ والطبعة الثانية ١٩٥٨

٦٦ — . .. . : نورالدين والصليبيون ، القاهرة١٩٤٨

٦٧ — حتى (الدكتور فيليب) : لبنان فى التاريخ ؛ ترجمة الدكتور أنيس فريحة ، والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩

٦٨ — . . . . : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد ؛ جزآن . بيروت ١٩٥٨

٦٩ — حسن (الدكتور حسن ابراهيم) : انتشـار الاسـلام بين المغول والتتار ، القاهرة ١٩٣٣

٧٠ — خورى (الاستاذ ميخائيل نجم) : سـيرة الملك السلطان الظاهر بيبرس . رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بيروت الاميريكية ١٩٦١ (بالآلة الكاتبة)

٧١ — الدبس (يوسف) تاريخ سورية . الجزء الخامس . بيروت١٩٠٠

٧٢ — دراج (دكتور أحمد السيد) : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ؛ مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٩

٧٣ — .... المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ؛ القاهرة ، ١٩٦٠

٧٤ — دروزة (الاستاذ محمد عزة) : العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجرى ، ٣ أجزاء ، دمشق ١٩٥٩

٧٥ — الدويهى (أسطفان) : تاريخ الطائفة المارونية ؛ بيروت ١٨٩٠

٧٦ — رستم (الدكتور اسد) : الروم والعرب ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٦

٧٧ — الزاوى (الاستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، القاهرة ١٩٦٣

٧٨ — زكى (دكتور عبد الرحمن) : العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٧ سنة ١٩٥٨

٧٩ — سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : بيوت الله مساجد ومعاهد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٩

٨٠ — .... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦١

٨١ — .... : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها فى العصر الاسلامى ، مجلة كلية الآداب ، عدد ١٦ ، السنة ٦٢ ، ١٩٦٣

٨٢ — . ... الصلات التاريخية بين الشام ومصر فى العصر الاسلامى ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، مايو ١٩٦٤

٨٣ — .... : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٨٤ — ... . : الآثار الاسلامية فى دير سانت كاترين بطورسينا ، مجلة العلوم ، العدد الاول للسنة العاشرة ، يناير ١٩٦٥

٨٥ ــ سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى ، بيروت ١٩٦٥

٨٦ ــ .... : طرابلس الشام تاريخها وآثارها الاسلامية ، من محاضرات الموسم الثقافى لجمعية مكارم الاخلاق الاسلامية ، طرابلس ١٩٦٤

٨٧ ــ .... : المغرب الكبير ، الجزء الثانى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦

٨٨ ــ سركيس (الأستاذ يعقوب) : مقال عن البصرة ، مجلة سومر ، ج ١ مجلد ٢ ، بغداد ١٩٤٨

٨٩ ــ سرور (دكتور محمد جمال الدين) : دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧

٩٠ ــ .... : النفوذ الفاطمى على بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٩

٩١ ــ .... : دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠

٩٢ ــ .... : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠

٩٣ ــ شيخو (الأب لويس) : بيروت ، تاريخها وآثارها ، بيروت ١٩٢٧

٩٤ ــ الشيال (دكتور جمال الدين) : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى

والمملوكى . بمجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ، ١٩٤٩

٩٥ ـ الشيال (دكتور جمال الدين) : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها . المجلة التاريخية المصرية ؛ اكتوبر ١٩٤٩

٩٦ ـ ... . : أعلام الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٥ .

٩٧ ـ الشدياق (الشيخ طنوس بن يوسف) : أخبار الأعيان فى جبل لبنان . بيروت ١٩٥٤

٩٨ ـ الصياد (الدكتور فؤاد عبد المعطى) : المغول فى التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠

٩٩ ـ طلس (الأستاذ محمد أسعد) : تاريخ الامة العربية ، عصر الانحدار، بيروت ، ١٩٦٣

١٠٠ ـ عاشور (دكتور سعيد عبدالفتاح) : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧

١٠١ ـ .... : أوربا فى العصور الوسطى ، ج ٢ ؛ النظم والحضارة ، القاهرة ١٩٥٩

١٠٢ ـ .... : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٠٣ ـ .... : الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ١٩٦٣

١٠٤ ـ عاشور (دكتور سعيد عبدالفتاح) : العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة ، ١٩٦٥

١٠٥ ـ .... : الناصر صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٥

١٠٦ ـ عبد الكريم (الدكتور أحمد عزت) : التقسيم الادارى لسورية فى العهد العثمانى ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، مجلد ١ ، مايو ١٩٥١

١٠٧ ـ العدوى (دكتور ابراهيم احمد) : الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣

١٠٨ ـ .... : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨

١٠٩ ـ .... : العرب والتتار ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٣

١١٠ ـ العرينى (دكتور السيد الباز) : مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠

١١١ ـ عنان (الاستاذ محمد عبدالله) : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١

١١٢ ـ .... : تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ١٩٤٧

١١٣ ـ غرايبة (دكتور عبد الكريم) : العرب والأتراك ، دمشق ١٩٦١

١١٤ ــ فريحة (الدكتور أنيس) : أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها ، منشورات الجامعة الامريكية فى بيروت ، بيروت ١٩٥٦

١١٥ ــ كرد على (الاستاذ محمد) : خطط الشام ، ج٣،ج٦، دمشق ١٩٢٦

١١٦ ــ لامس (الأب هنرى) : تسريح الأبصار فيما يحتويه لبنان من الآثار ، بيروت ، جزآن ١٩١٤

١١٧ ــ لامونت (چون) : الحروب الصليبية والجهاد ، مقال فى «دراسات اسلامية» ترجمة الاستاذ أنيس فريحة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠

١١٨ ــ لباد (الأستاذ ميشيل) : الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصياف ، بيروت ١٩٥٢

١١٩ ــ لورته (لويس) : مشاهدات فى لبنان ، من كتاب سورية اليوم ، الاستاذ كرم البستانى ، بيروت ١٩٥١

١٢٠ ــ لويس (برنارد) : العرب فى التاريخ ، تعريب الدكتور نبيه أمين فارس والدكتور يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤

١٢١ ــ ماجد (دكتور عبد المنعم) : الناصر صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٥٨

١٢٢ ــ .... : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩

١٢٣ ــ .... : الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١.

١٢٤ ـ ماجد (دكتور عبد المنعم) : تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣

١٢٥ ـ .... : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٦٤

١٢٦ ـ مزهر (دكتور يوسف) : تاريخ لبنان العام ، ج ١ بيروت

١٢٧ ـ مؤنس (دكتور حسين) : نور الدين محمود ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٢٨ ـ ميخائيل (دكتور نجيب) : مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ سورية ، القاهرة ١٩٥٩

١٢٩ ـ نسيم يوسف (دكتور جوزيف) : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية الآداب عدد ٢٦ ، سنة ٦٢ ، ١٩٦٣

١٣٠ ـ . . . . : لويس التاسع فى الشرق الاوسط القاهرة ١٩٥٩

١٣١ ـ . ... : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٣

١٣٢ ـ نقاش (دكتور زكى) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ، بيروت ، ١٩٥٨

١٣٣ ـ نويهض (الاستاذ عجاج) : أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، بيروت ١٩٦٢

١٣٤ ـ ينى (جورجى) : تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١

رابعا : المراجع الأوربية الحديثة

١٣٥ ــ عطية (الدكتور عزيز ســوريال) : الحركة الصليبيــة فى العصر الوسيط المتأخر ، ليدن ، ١٩٣٨ (باللغة الانجليزية)

Atiya(Aziz Surial) : The Crusade in the later Middle age, London, 1938

١٣٦ ــ بولانجير (روبير) : لبنان (مجموعة الدليل الازرق) ، باريس ١٩٥٥ (باللغة الفرنسية)

Boulanger (Robert) : Liban, (Les Guides Bleus), Paris, 1955

١٣٧ ــ بهل (ف) : طرابلس ، مقال بدائرة المعارف الاسلامية

Buhl (Fr.) Tarabulus, Encyclopédie de l'islam

١٣٨ ــ كاهن (كلود) : سورية الشماليــة فى عصر الصليبيين ، باريس ١٩٤٠ (بالفرنسية)

Cahen (Claude) : La Syrie du Nord à l'époque des Croisades , Paris, 1940

١٣٩ ــ كومب (اتيين) : نص النويرى عن واقعة القبارصة بالاسكندرية مجلة جامعة الاسكندرية كلية الآداب ، مجلد ٣ ، ١٩٤٦ (بالفرنسية)

Combe (Et.) : Le texte du Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre de Lusignan, Alexandria University, Bulletin of the Faculty of Arts, vol. III, 1946

١٤٠ ــ كوندى (بروس) : طرابلس لبنان ، بيروت ١٩٦١ (باللغةالانجليزية)

Condé (Bruce) : Tripoli of Lebanon, Berouth, 1961

١٤١ ــ دى لاڤيل لى رولكس : فرسان الاسبتارية فى الارض المقدسة وقبرص ، باريس ١٩٠٤ (بالفرنسية)

Delaville le Roulx : Les Hospitaliers en Terre Sainte, et à Chipre (1100 - 1310). Paris, 1904

١٤٢ ــ ديمومبين (جودفرى) : الشام فى عصر المماليك . باريس ١٩٢٣ (بالفرنسية)

Demombynes (Gaudefroy) : La Syrie à l'époque des Mamelouks. Paris 1923

١٤٣ ــ ديب (بيير) : الكنيسة المارونية ، مجلد ١ ، باريس ١٩٣٠ (بالفرنسية)

Dib (Pierre) : L'église Maronite, vol. I, Paris, 1930

١٤٤ ــ ديل (شارل) : تاريخ الدولة البيزنطية ، باريس ، ١٩٢٤ (بالفرنسية)

Diehl (Charles) : Histoire de l'Empire Byzantin. Paris 1924

١٤٥ ــ ديسو (رينيه) : الطبوغرافية التاريخية للشام فى العصور القديمة وفى العصور الوسطى ، مطبوعات الادارة العليا للجمهورية الفرنسية فى سورية ولبنان ، المكتبة الأثرية والتاريخية ، مجلد ٤ ، باريس ١٩٢٧ (بالفرنسية)

Dussaud (René) : Topographie historique de la Syrie antique

et médiévale, Pub. du Haut Commissariat de la Rép. française en Syrie et au Liban, Bibliothèque archéologique et historique, t. IV, Paris, 1927.

١٤٦ — ديسو (رينيه) ، ديشام ، سيريج : سوريا القديمة وفي العصور الوسطى ، باريس ١٩٣١ (بالفرنسية)

Dussaud (R.), Deschamps (P.), Seyrig (H.) : La Syrie antique et médiévale, Paris 1931.

١٤٧ — فورد (ادورد) : الامبراطورية البيزنطية ، لندن ١٩١٩ (بالانجليزية)

Foord (Edward) : The byzantine empire, London 1919.

١٤٨ — جيبون (ادورد) : تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية ، مجلد ٤ ، لندن ١٩١٣ (باللغة الانجليزية)

Gibbon (Edward) : The history of the decline and fall of the Roman Empire, vol. VI, London 1913.

١٤٩ — هاردن (دونالد) : الفينيقيون ، لندن ١٩٦٣ (بالانجليزية)

Harden (Donald) : The Phoenicians, London 1963.

١٥٠ — هايد : تاريخ التجارة في الشرق ، مجلدان ، ليبزج ١٨٨٥ (بالفرنسية)

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, 2 vols, Leipzig, 1883.

١٥١ — كنج (ا. ج) : فرسان الاسبتارية في الاراضي المقدسة ، لندن ١٩٣١ (بالانجليزية)

King (E. J.) : The Knights, Hospitallers in the Holy Land, London 1931

١٥٢ ـ لامنس (هنرى) : سـورية ، مختصر تاريخى ، بيروت ١٩٢١ (بالفرنسية)

Lammens (H.) : La Syrie, précis historique, Beyrouth 1921

١٥٣ ـ لابير (بوفييه) ، جوتيه ، چوچيـه : مصر ، ، مختصر تاريخ مصر ، مجلد ١ ، القاهرة ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Lapierre (Bovier) & Gauthier & Jouget : L'Egypte, dans Précis de l'histoire d'Egypte, t. I, Le Caire 1932

١٥٤ ـ لبنان فى مواجهة تقدمه (مطبوعات معهد التخطيط لمواجهة النمو) بيروت ١٩٦٣ (بالفرنسية)

Le Liban face à son développement, Pub. de l'Institut de formation en vue du développement, Beyrouth, 1963

١٥٥ ـ ميشو ، تاريخ الحركة الصليبية ، مجلد٤ ، باريس١٨٢٢(بالفرنسية)

Michaud, Histoire des Croisades. vol. 4, Paris 1822

١٥٦ ـ ناتيه (جاك) : تاريخ لبنان ، باريس ١٩٦٣ (بالفرنسية)

Nantet (Jacques) : Histoire du Liban, Paris 1963

١٥٧ ـ أومان : الامبراطورية البيزنطية ، لندن ١٩١٤ (بالانجليزية)

Oman, The byzantine empire, London 1914

١٥٨ ـ تقرير بعثة اليونسكو الى لبنـان : عضوية الاساتذة بول كويار

والأمير موريس شهـاب وأرماندو ديلون ، اليونسكو ، باريس ١٩٥٤ (بالفرنسية)

Rapport de la mission envoyée par l'Unesco en 1953 au Liban : membres Mrs : Paul Collart, Emir Maurice Chehab et Armando Delon, publié sous le titre : Liban, aménagement de la ville de Tripoli et du site de Baalbek, Paris 1954

١٥٩ ــ جامع مؤرخي الحركة الصليبية ، مجلد ٣ ، ٤ (بالفرنسية)

Recueil des Historiens des Croisades, vols III, IV.

١٦٠ ــ ري : المستعمرات الصليبيـة في الشـام في القرنين ١٢ ، ١٣ ، باريس ١٨٨٣ (بالفرنسية)

Rey (E.) : Colonies franques en Syrie aux XII et XIII e Siècles, Paris, 1883

١٦١ ــ ريشارد (چان) : كونتية طرابلس في ظل الأسرة الطولوشيـة ، باريس ١٩٤٥ (بالفرنسية)

Richard (J.) : Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine, Paris, 1945

١٦٢ ــ روسيه : تاريخ الحركة الصليبية ، باريس ١٩٥٧ (بالفرنسية)

Rousset (P.) : Histoire des Croisades, Paris 1957

١٦٣ ــ رنسمان (ستيفان) : تاريخ الصليبيين ، مجلد ٢ ، كامبردج ١٩٥٢ (بالانجليزية)

Runciman (Steven) : A history of the Crusades, vol. II, Cambridge 1952

١٦٤ ــ سوفاجيه : ملاحظات عن الدفاع البحرى بطرابلس ، مجلة متحف بيروت ، باريس ١٩٣٩ (بالفرنسية)

Sauvaget (J.) : Notes sur les defenses de la Marine de Tripoli dans B. de la musée de Beyrouth, Paris 1938

١٦٥ ــ شلومبرجر (جوستاف) ، السكة فى الشرق اللاتينى ، باريس ١٨٧٨ (بالفرنسية)

Schlumberger (Gustave) : Numismatique de l'Orient Latin, Paris, 1878

١٦٦ ــ سوبرنهايم (موريتز) : مجموعة النقوش العربية ، جزء ٢٥ ، ١٩٠٩ (بالفرنسية)

Sobernheim (Mortiz) : Corpus Inscriptionum Arabicarum, t. XXV, 1909

١٦٧ ــ ستفنسن : الصليبيون فى الشرق ، كامبردج ، ١٩٠٧ (بالانجليزية)

Stevenson (W. B.) : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907

١٦٨ ــ ڤان برشام (ماكس) ، فاتيو (ادموند) : رحلة فى سورية ، القاهرة ١٩١٤ (بالفرنسية)

Van Berchem & Fatio (E.) : Voyage en Syrie, dans Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. 37, le Caire 1914

١٦٩ ـ ڤازيلييف : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ترجمه من الروسيـة برودان ، باريس ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Vasiliev, Histoire de l'Empire byzantin, trad. du Russe par Brodin, Paris 1932

١٧٠ ـ ڤييت (جاستون) : بنو عمـار ، مقال بدائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة (بالفرنسية)

Wiet (Gaston) : **Banu Ammar, Ency. de l'Islam**

١٧١ ـ ... ... نقش لأحد أمراء طرابلس من أسرة بنى عمار باريس ١٩٢٨ (بالفرنسية)

Wiet (Gaston) : Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu Ammar, dans Memorial Henri Basset, Pub. par l'Institut de H. E. M. t. XVIII, Paris 1928

١٧٢ ـ ڤييت ، كومب ، سوڤاچية : مجموعة النقوش العربيـة ، القاهرة ١٩٣١ ـ ١٩٤٤

Wiet & Combe & Sauvaget : Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe, le Caire, 1931 — 1944

١٧٣ ـ وودهاوس : المنظمات الحربية الدينية فى العصـور الوسطى ، لندن ، ١٨٧٩ (بالانجليزية)

Woodhouse (F. C.) : The military religious orders of the middle ages, London, 1879

١٧٤ — ينى (اميل) : بيروت ، فى محافظات لبنان ، ١٩٦١ (بالفرنسية)

Yanni : (Emile) : Beyrouth, dans Physionomies du Liban, Beyrouth, 1961

١٧٥ — زيادة (دكتور نقولا) : الحيـــاة العمرانيـــة فى الشام فى عصر المماليك البحرية ، بيروت ، ١٩٥٣ (بالانجليزية)

Ziadeh (Nicola) : Urban life in Syria under the early Mamluks, Beirut, 1953

فهرس موضوعات الكتاب

فهرس

صفحة

صفحة

الفصل الثانى

طرابلس امارة عربية مستقلة فى ظل بنى عمار

صفحة

الفصل الثالث

سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين

الفصل الرابع

طرابلس كونتية صليبية

الفصل الخامس

استرداد المسلمين لطرابلس

الفصل السادس

طرابلس فى ظل المماليك

صفحة

الباب الثانى

الحضـــارة

الفصل السابع

بعض مظاهر الحضارة فى طرابلس فى العصر الاسلامى

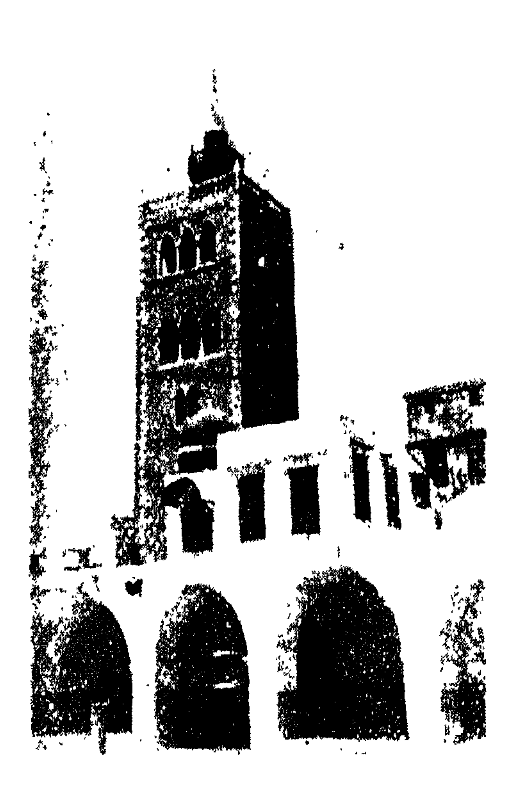
الفصل الثامن

الآثار الباقيـة

الملاحق

لوحات الكتاب

« لوحـة ١ »



الجامع المنصوري الكبير : المجنبة الشمالية والمئذنة

« لوحـــــه ٢ »



الجامع المنصــورى : عقــد المدخل

« لوحـــــه ٣ »



الجامع المنصوري الكبير : قبة الوضوء وواجهة بيت الصلاة

« لوحة ٤ »



مسجد عبد الواحد المكناسي : بيت الصلاة

« لوحـــة ٥ »



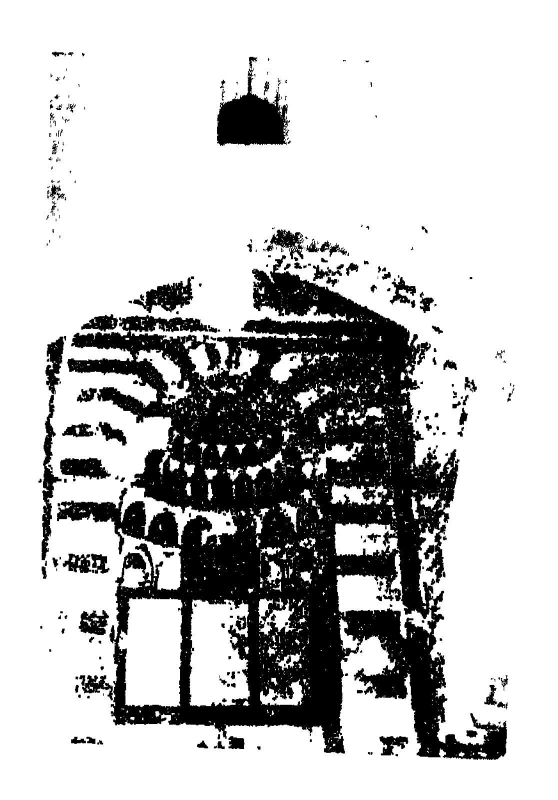
جامع عبـد الواحد المكناسى : قبة الضريح

« لوحـــه ٦ »



جامع ومدرسة طينال : المئذنة والقباب من الخارج

« لوحـــه ٧ »



بــوابه ضريح طينـــال

« لوحـــه ٨ »



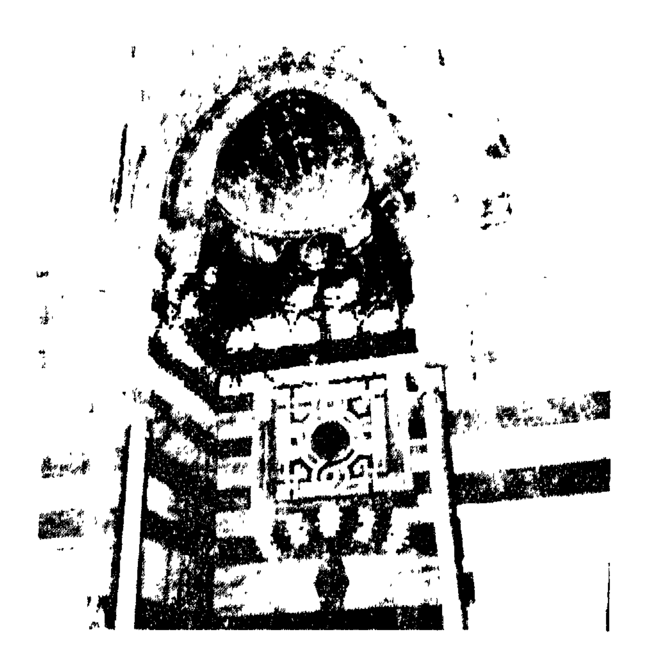
جامع ومدرسة طينال قمة المحراب والمنبر

« لوحـــة ٩ »



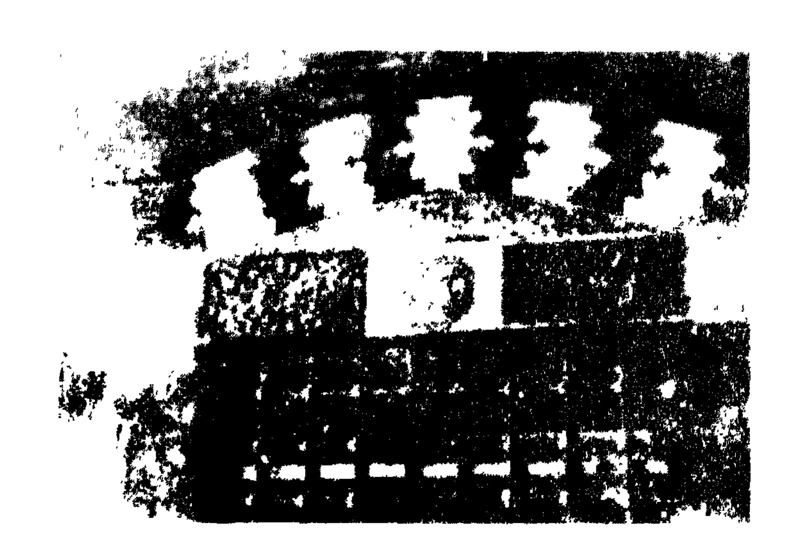
مقرنصات بمدخـل جامع العطـار

« لوحـة ١٠ »



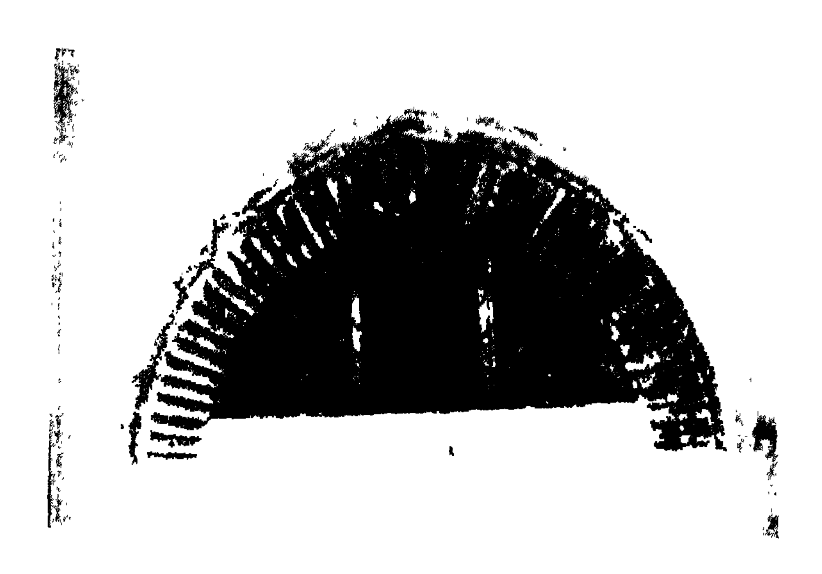
المدرسه القرطائيه : واجهة المدخل

« لوحـة ١١ »



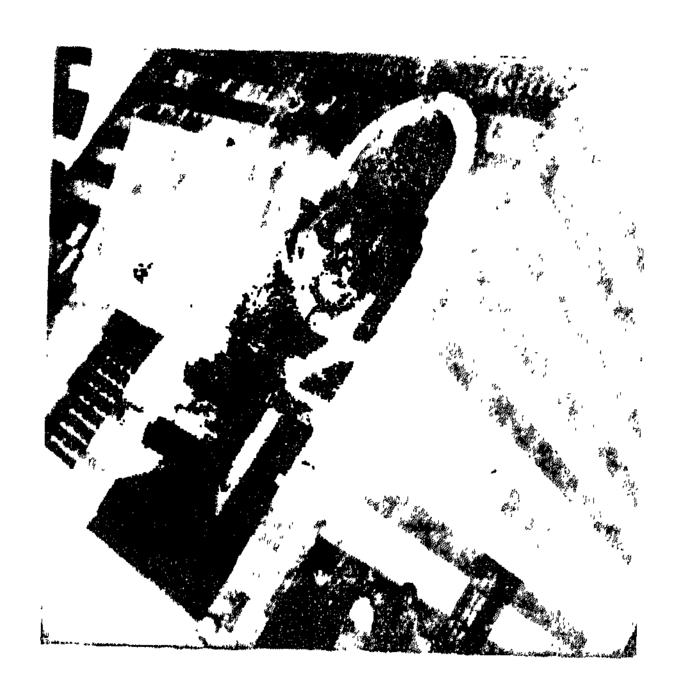
المدرسة القرطائية : احـدى النوافذ القبلية

« لوحـــة ١٢ »



نافذة بالمدرســة الشــبـة

« لوحـة ١٣ »



واجهة المدرسة المجاورة للجامع الكبير

« لوحـة ١٤ »



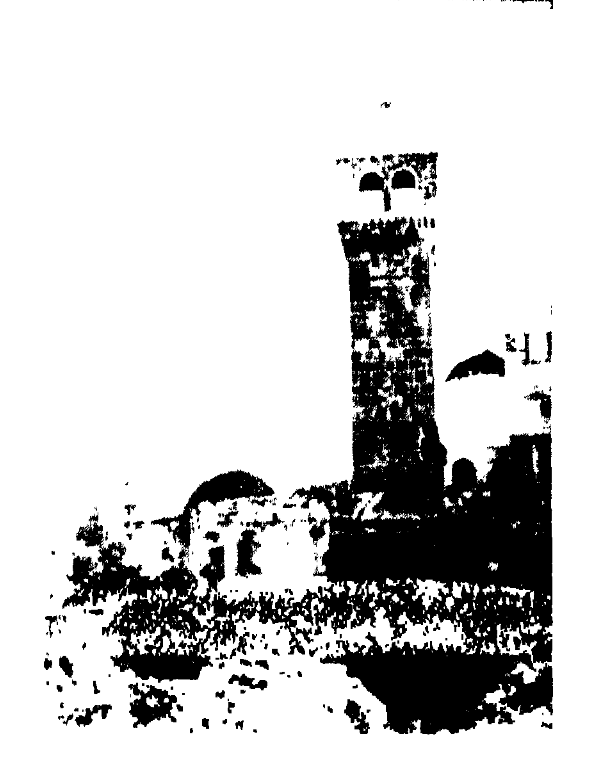
واجهـة مدرسـة الخيرية حسن

« لوحة ١٥ »



واجهة المدرسة الناصرية أمام الجامع الكبير

« لوحـة ١٦ »

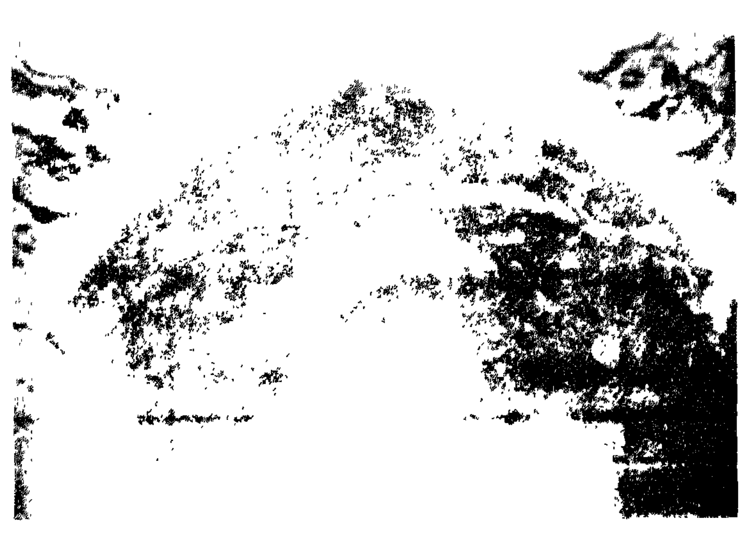


مدرسة البرطاس : المئـذنة

« لوحـــة ١٧ »



مدرسة البرطاس من جهـــة نهر أبي علي



مدرسة الر[illegible] : مقرنصات [illegible]

« لوحـــه ١٩ »



مئذنة المدرسة الحجاجية

« لوحـة ٣٠ »



قلعة صنجيل : المدخل

لوحــة « ٢١ »



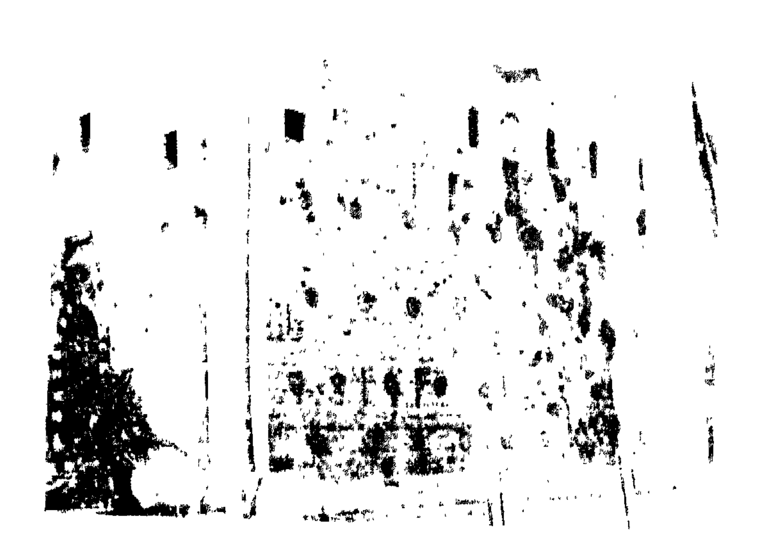
بوابة برج السـاع

« لوحة ٢٢ »



برج السباع : واجهة المدخل

« لوحة ٢٣ »



الباب القبلي من برج السباع

« لوحة ٢٤ »



برج الساع الواجهة الشرقية

« اللوحة ٢٥ »



برج السباع : دعمة مركزية بالداخل



منافذ الهواء بداخل برج السباع

« لوحة ٢٧ »



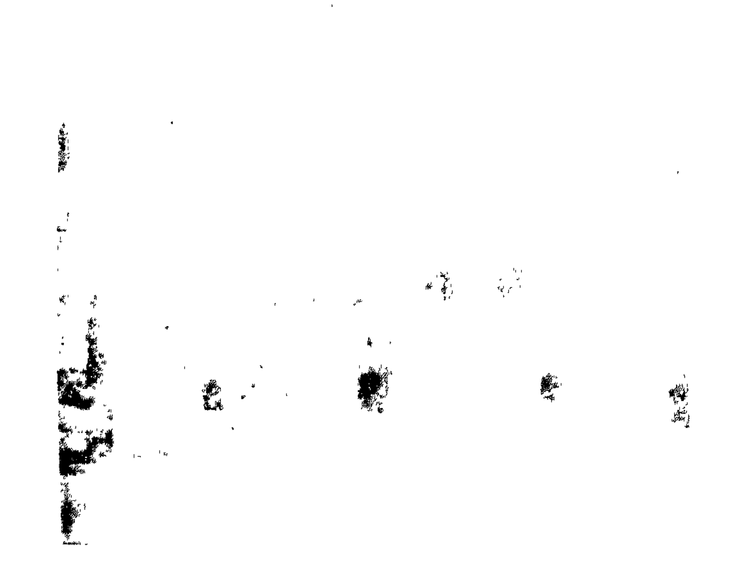
برج السباع : منافذ السهام بالطابق العلوى

« لوحة ٣٨ »



منظر عام لبرج رأس النهر بميناء طرابلس

« لوحــة ٢٩ »



برج قايتباى بالاسكندرية وترى الأبراج الأسطوانية الركنية

« لوحة ٣٠ »



جانب من برج رأس النهر

« لوحة ٣١ »



« [illegible] ركيزة أسطوانية الشكل بأحد الأديرة »

« لوحة ٣٢ »



برج السباع : قبوة متعارضة بالداخل

« لوحـة ٣٣ »



برج قايتباى بالاسكندرية :

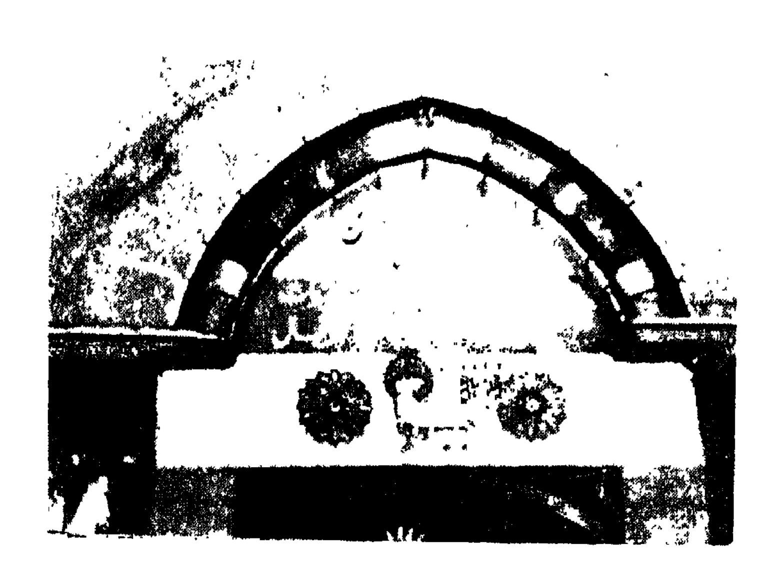
قبوات متعارضة بداخل السـور الخارجى البحرى

« لوحـــة ٣٤ »



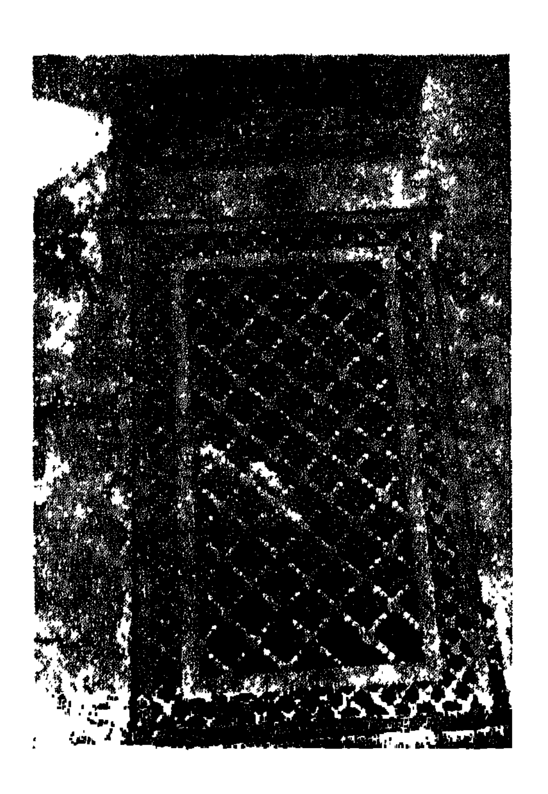
برج رأس النهـــر من الداخل

« لوحــة ٣٥ »



حساه عز الدين · عقد المدخل والعتب

« لوحــة ٣٦ »



اللوحة الانشائية لتربة عز الدين أيبك الموصلى بأعلى النافذة

« لوحة ٣٦٧ »



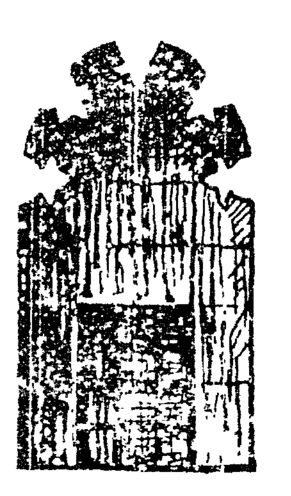
خان الخياطين

« لوحة ٣٨ »

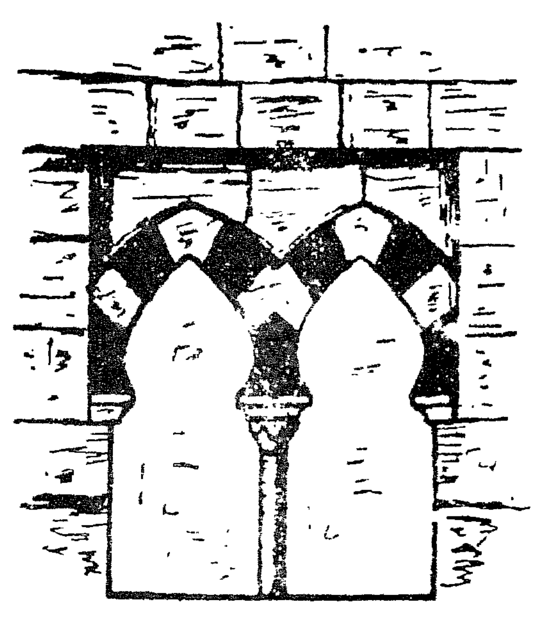


خان العسكر الصحن والمدخل

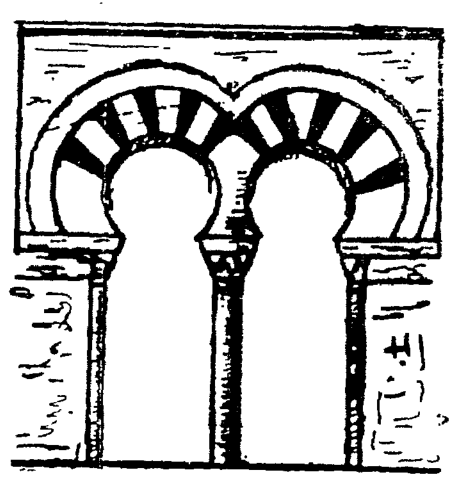
« لوحة ٣٩ »



نافذة بأحد المنازل
بطرابلس

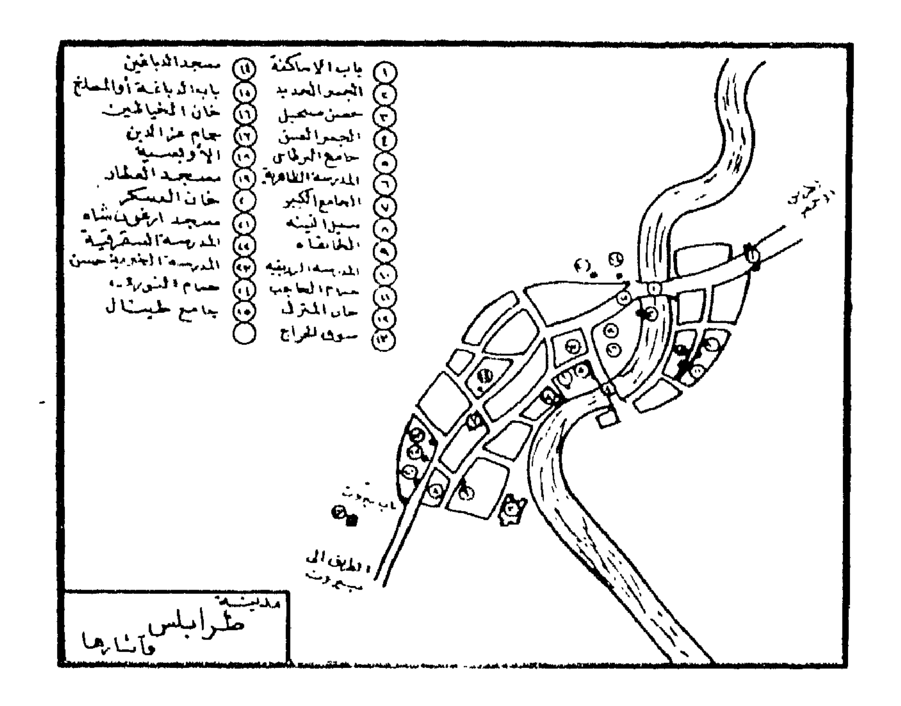


نافذة مزدوجة العقد
بالمدرسة البرطاسية بطرابلس



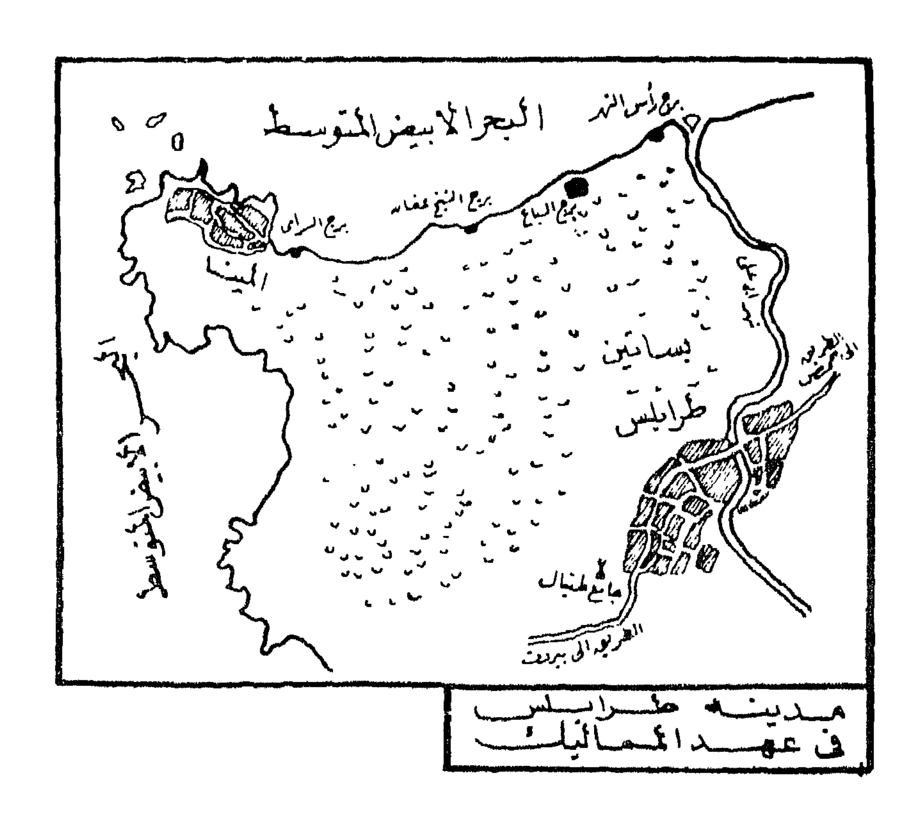
نافذة مزدوجة العقد بإحدى
بوابات المسجد الجامع بقرطبة

خريطة رقم « ١ »

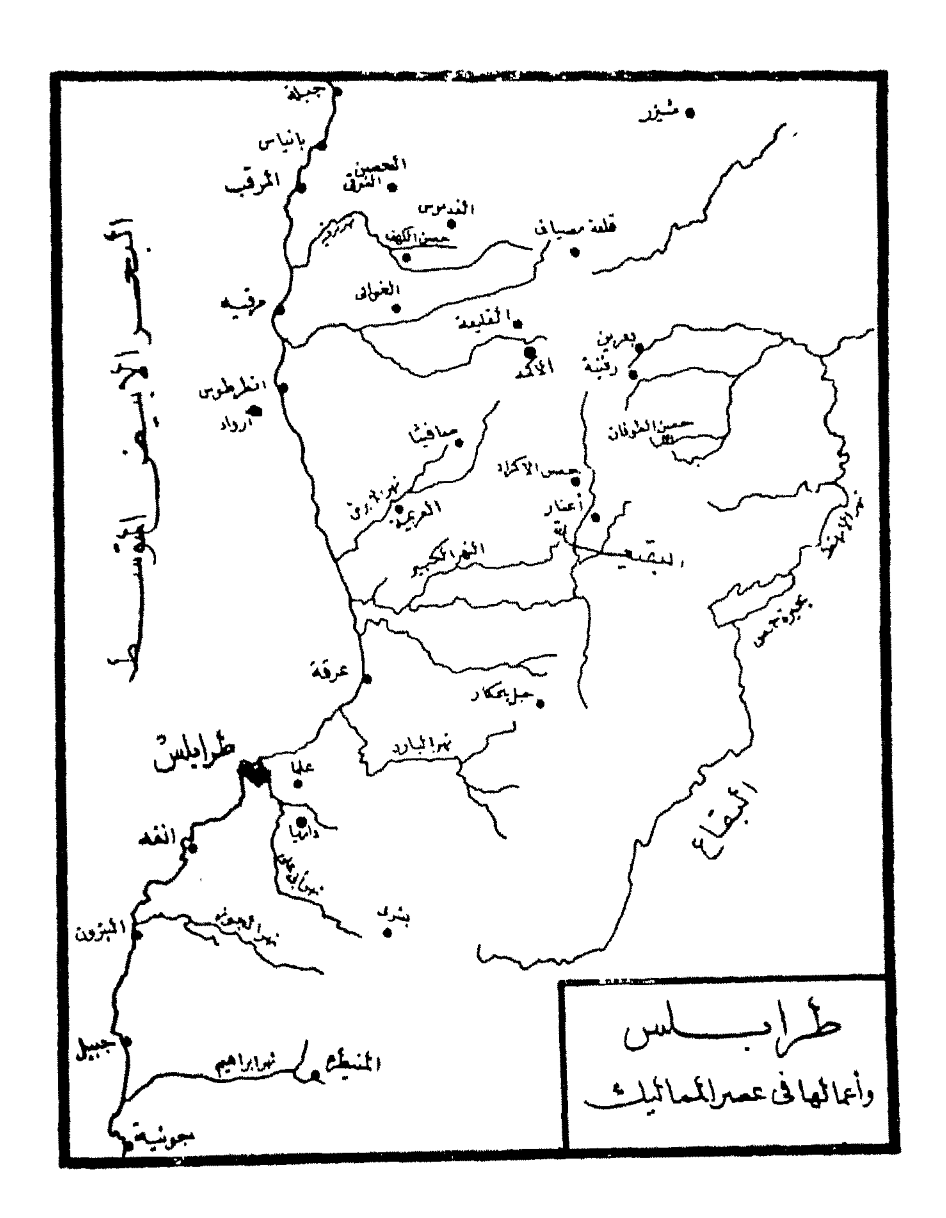


مدينة طرابلس وآثارها المملوكية

« خريطة رقم ٢ »


البحر الابيض المتوسط
برج رأس النهر
برج السباع
برج الرأس
الميناء
بساتين طرابلس
جامع طينال
الطريق الى بيروت
البحر الابيض المتوسط
مدينة طرابلس
في عهد المماليك

« خريطة رقم ٣ »



جبلة
بانياس
المرقب
شيزر
القدموس
قلعة مصياف
حصن الكهف
الخوابي
مرقية
العليقة
انطرطوس
ارواد
بعرين
رفنية
حصن الطوفان
صافيثا
حصن الأكراد
النهر الكبير
البقيعة
بحيرة حمص
عرقة
جبل عكار
نهر البارد
طرابلس
البقاع
أنفه
البترون
بشري
جبيل
المنيطرة
نهر ابراهيم
جونية
البحر الأبيض المتوسط
طرابلس
وأعمالها في عصر المماليك

